أخي العزيز

مراسلات حسين وجلال أمين

الجزء الأول ١٩٥٠–١٩٦٠

جمعها وحررها: كمال صلاح أمين

أخي العزيز

مراسلات حسين وجلال أمين

الجزء الأول (١٩٥٠-١٩٦٠)

جمعها وحرَّرها: كمال صلاح أمين

facebook.com/alkarmabooks twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks الطبعة الأولى ٢٠٢١

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢١

© كمال صلاح أمين ٢٠٢١

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.

نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من

الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

أمين، كمال صلاح

أخي العزيز: مراسلات حسين وجلال أمين في الخمسينيات / جمعها وحرَّرها كمال صلاح أمين - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢١.

٣٤٤ ص؛ ٢٣ سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٧٤٣٥٦٤

١- الرسائل العربية - مصر

٢- المثقفون المصريون

أ- كمال صلاح أمين (محرر) ب- العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٩٥٤ / ٢٠٢١

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: مريم صلاح

النهايات

وقفت أمام سرير حسين في العناية المركزة، لا حول لي ولا قدرة على إيقاف الزمن أو إعادته إلى الوراء. جاء أخوه لزيارته والجميع يعلم أن أي لقاء قد يكون الأخير. لم يكن يبدو على حسين التأثر أو حتى سماع ما يقوله له من حوله، وبدا وجهه مختلفًا عما قبل، بعدما أصابه ما أصابه من نحافة ومرض. وقف جلال عند نهاية السرير يحاول بدء حديث مع أخيه فلا يستجيب سوى بكلمات قليلة وإشارات ضعيفة. ثم قال له مازحًا إنه في هيئته المريضة تلك يشبه كاتبًا ما كما وصفه أديب ما في كتاب ما له. لم أتذكر أو لم أكن أعرف تلك الأسماء أو الكتب حينها، وعلى الرغم من أني كنت أعلم بالعلاقة الوطيدة بينهما وثقافتهما الواسعة، فإنني لم أتأكد من قرب وصدق علاقتهما الذهنية إلا عندما رأيت حسين يفتح عينيه إثر سماع تلك الجملة وينظر إلى أخيه مهديًا إياه ابتسامة صغيرة نادرة تخفي الكثير من المعاني وراءها، والتي لم أتبينها حينها. وعلى الرغم من علمي بأن ذلك اللقاء كان الأخير بينهما، فإنني لم أكن أُقدر له الأهمية الكبيرة التي يستحقها. ولم يتغير ذلك إلا عندما وجدت في ثنايا مكتبتيهما بعد عدة سنوات من وفاتهما، تلك الخطابات التي تبادلاها على مر السنين، وبدأت بقراءتها وحفظها وتحريرها، فظهر لي فجأة مغزى ذلك اللقاء الأخير، وعلمت أنني رأيت في تلك اللحظة نهاية رحلة ثقافية وعقلية فريدة من نوعها بدأت حلقاتها قبل عشرات السنين، وصرت أبحث في تلك الخطابات عما قد يشرح لي ما فاتني من حلقات، وأرتب الأحداث والشخصيات والمواقف لعلي أصل إلى معرفة كيف وصل بي وبهما الزمن إلى نقطة النهاية تلك.

* * *

كنت قد قرأت عددًا من كتبهما، وكنت أتابع بعض ما ينشره جلال في جريدة هنا أو هناك، إلا إني لم أكن واعيًا وعيًا كاملًا لأهمية هذه الأعمال وموقعها من تكويني الشخصي. والحق أني لا أتذكر من نصائحهما لي إلا نصيحة أو اثنتين عابرتين. فنفسي لم تكن منشغلة بتساؤلات عميقة، وعقلي لم يكن يُنقب عن إجابات محددة بعد. وإن قرأت أعمالهما فباعتبارها واجبًا عائليًّا لكوني أحد أحفاد حسين أمين. فطالما سمعت في جلسات العائلة عن ثقافته وعظمته وأنه ابن المؤرخ أحمد أمين وشقيق المفكر جلال أمين. فتناولت بعضًا من كتبهما محاولًا قراءتها كالطالب الذي فُرضت عليه كتب التاريخ المدرسية.

في يوم ما ذهبت لزيارة جلال أستعير كتابًا، فدار بيننا حديث، أذكر منه نصيحة أستاذه له في مدرسة لندن للاقتصاد عن كيفية تدريب العين على القراءة السريعة. وجهدت حتى أتذكر تلك النصيحة واسم الأستاذ وما قاله تحديدًا، حتى أحاول الاستفادة بها لاحقًا. وشعرت بعدها بالغضب لأنه كان بمقدوري استخراج نصائح أخرى أكثر أهمية، أعلم يقينًا أنه كان بإمكاني الحصول عليها.

وبعد مرور السنوات، ومفارقتهما الحياة، وجدت نفسي يومًا وقد ملأتها التساؤلات، ولم أجد من الإجابات ما يشفي غليلها أو من يهديني إليها سبيلًا. فندمت لبقائي طوال هذه السنين صامتًا، لم أختَر السؤال الصحيح ولم أبحث عن إجابته.

ولم أرتَح إلا عند قراءتي لكتاب جلال بعد مرور عدة سنوات، فوجدت النصيحة نفسها بكل تفاصيلها مدونة في أحد فصوله، وعلمت أن باستطاعتي العثور على ما كنت أبحث عنه، وأن الزمن وإن سلبني القدرة على محادثتهما مباشرة بما اختلجت به نفسي طوال هذه السنين، فإنه أبقى لي على صفحات حياتهما بتفاصيلها، ما عليَّ سوى أن أقلب هذه الصفحات جاهدًا في البحث عن الإجابات.

ولما عثرت على الخطابات وأعدت قراءة كتبهما شعرت كما شعر جلال عند قراءته كتب والده بعد وفاته، فقال في أحد خطاباته: «والواقع أني أتعرف على والدي لأول مرة، وأتمنى لو كنت أكبر سنًّا قبل وفاته إذ إن نظرتي إليه أثناء حياته كان يشوبها الكثير من الحماقة». والحق أني ارتحت قليلًا عند قراءتي لتلك الجملة. وشعرت بأني لم أكن وحيدًا في هذا الندم، وأن الحياة تدور بنا والتاريخ يعيد نفسه. وتأكدت أن إعادة النظر في الماضي قد تُخفف في كثير من الأحيان من المعاناة والشعور بالفقدان والضياع.

حسين وجلال أمين في رأس سدر عام ١٩٩٧

كنت أنظر إلى مكتبة جدي حسين أحمد أمين، بعد أعوام من وفاته، فأتناول بعض الكتب، محاولًا ألَّا أستنشق الغبار الذي بات يعلو أغلبها، فقلَّما لمسها أحد بعد وفاته. قررت أن أنفض الغبار عنها، وأعيد الاهتمام بها، وأرتبها، وبعد محاولات مضنية لإحصاء الكتب العربية والأجنبية، أحصيت نحو عشرة آلاف كتاب. تذكرت عندما سألته منذ سنوات:

ـ هل قرأت كل هذه الكتب؟

فرد بابتسامة ثقة:

ـ وبعضها أكثر من مرَّة.

لم أكن لأتخيل أن أعثر في هذه المكتبة على شيء آخر سوى الكتب، ولكني عثرت على أرشيف حياة، وكأن حسين كان يرغب في تأريخ حياته للزمن. عثرت أول الأمر على كراسات صغيرة يدوِّن فيها الأحداث اليومية، ثم يعطي

هذا اليوم درجة من أصل عشر درجات تعادل سعادته باليوم. ثم أجندة يدوِّن فيها سنويًّا أبرز الأحداث الشخصية والسياسية للسنة، ويلصق صورة شخصية له عن كل عام. ثم عثرت على بطاقات صغيرة يدوِّن فيها بيانات تفصيلية عن كل كتاب في مكتبته، مثل: سنة طباعته، واسم الناشر، وعدد صفحات الكتاب، وتاريخ ميلاد ووفاة كاتبه، إلخ. وفي بطاقات أخرى مشابهة يدوِّن المسرحيات التي شاهدها، بالمكان والتاريخ، وعدد مرات مشاهدته لكل مسرحية.

ثم عثرت في خزانة أخرى منزوية على كل الخطابات التي تلقاها على مدار حياته من المعارف والأصدقاء. ووجدت أنه خَصَّ خطابات شقيقه جلال بعناية فاقت عنايته ببقية الخطابات، فرتبها زمنيًّا وأعطاها أرقامًا مسلسلة. شرعت في قراءة الخطابات وحفظها إلكترونيًّا ثم تدوينها، وفي أثناء ذلك استعلمت من أبناء جلال أمين عمَّا إذا كان والدهم قد احتفظ هو أيضًا بخطابات حسين لديه. وكم كانت فرحتي كبيرة عندما أعلنوا عن عثورهم على خطابات حسين في مكتبة أخيه. فبدأت مرة أخرى في القراءة والحفظ والتدوين، حتى ظهرت في النهاية صورة متكاملة عن حياتهما وعلاقتهما الذهنية والشخصية بعضهما ببعض.

وعلى الرغم من أن كتاباتهما، وخاصة كتب سِيرهما الذاتية، سبق أن ألقت الضوء على مختلف مراحل حياتهما منذ الطفولة وحتى الشيخوخة، فإني وجدت أن مضمون خطاباتهما يُلقي ضوءًا على حياتهما، وعلى مراحل تطورهما الفكري والثقافي من زوايا مختلفة. كما وجدت أن موضوعاتها الثقافية والفلسفية والدينية لا تجعلها مفيدة للقارئ العام فحسب، بل إنها إن وُضعت بجانب كتاباتهما الأخرى ـ سواء الاقتصادية أو الإسلامية أو السِّير الذاتية ـ تجعل الأخيرة أكثر وضوحًا، فتضيء بُعدًا جديدًا لشخصيتيهما، وتوضِّح تأثير شخصية كلٍّ منهما على كتاباته اللاحقة.

* * *

تبدأ مراسلات حسين أمين وجلال أمين عام ١٩٥٠، وتمتد حتى عام ١٩٨٧، أي منذ كان عمراهما ثمانية عشر وخمسة عشر عامًا على التوالي، إلى أن بلغا الخامسة والخمسين والثانية والخمسين من العمر. أقاما خلال تلك السنوات في لندن وكامبردج وموسكو وكندا ونيجيريا والكويت وألمانيا والبرازيل ولوس أنجلوس والقاهرة، وزارا عددًا من الدول الأخرى، واطَّلعا على ثقافات وحضارات مختلفة، وبدآ في نشر العديد من كتاباتهما وإنتاجهما الثقافي.

سبق أن نشر جلال أمين عددًا قليلًا من تلك الخطابات أو مقتطفات منها في كُتب سِيرته الذاتية، كخطاباتهما المتبادلة عن الموسيقى، أو رأيهما في المؤلف المسرحي «يونسكو»، أو خطاب حسين عن وفاة والدته، إلخ، وقال إن خطاباتهما تكفي لملء مجلدات كاملة. ووجدت أن هذا التعبير ليس بعيدًا عن الحقيقة وإن كان الكثير من الخطابات فُقد بطريقة أو بأخرى، إلا أن ما تبقى منها يستحق أن يكون كتابًا مستقلًّا.

شجعني على ذلك أن وجدت خطابًا كتبه حسين إلى جلال في ٣٠ مارس عام ١٩٥٩ يذكر فيه، بعد مناقشة فلسفية بينهما دامت عدة خطابات، أن عليهما العودة لكتابة «خطابات كتلك التي يكتبها سائر الخلق، فإنه ليخيل إليَّ أننا نكتب رسائلنا وأعيننا على مؤرخي سِيَرنا، وكأنما نحاول حاليًّا تخفيف العبء عمن سيحرر فيما بعد «رسائل حسين أمين (أو جلال أمين) إلى إخوته وأصدقائه»!».

* * *

اعتمدت في تحرير الكتاب بشكل أساسي على كُتب سِيرهما الذاتية، ولا سيما كتب: «ماذا علمتني الحياة؟»، و«رحيق العمر»، و«مكتوب على الجبين» لجلال أمين؛ وكتب: «كيمياء السعادة»، و«في بيت أحمد أمين»، و«أبو شاكوش»، و«شخصيات عرفتها» لحسين أحمد أمين. وإن صادفت حدثًا لا ذكر له في هذه الكتب، وجدت بين أفراد العائلة العديد من المصادر التي عاينت تلك الوقائع بشكل شخصي وما زالت تتذكر الأحداث وتذكرها بابتسامة وسرور.

راعيت في تحرير الكتاب أن أضيف فقرات قصيرة في بداية الفصل أو منتصفه ـ حسب الحاجة ـ لإعطاء نبذة عن موضوع الفصل ومحتوى الخطابات؛ توضيحًا للسياق وتسهيلًا لمتابعته. كما اقتديت بأسلوب جلال أمين عند نشره لبعض الخطابات المتبادلة، كإضافة حاشية إما لشرح جزء من الخطاب أو حدث ورد فيه أو اسم قد يكون مجهولًا للقارئ. وحاولت أن أُبقي هذه المداخلات كافة عند حدها الأدنى إبقاءً للضوء على الخطابات ذاتها.

ورأيت ألا أحذف من هذا الكتاب الخطابات التي سبق لجلال أمين نشرها في كتبه السابقة، إذ شعرت أن الخطابات التي تسبقها أو تليها إنما تُضفي عليها بُعدًا جديدًا وتُظهر سياقًا كان خافيًا على قارئ تلك الكتب. كما راعيت أن أُبقي على أسلوب كتابتهما للخطابات، وكذا أغلب الأخطاء الإملائية كما هي. كما أبقيت على الاختلافات الإملائية بينهما في بعض الكلمات المعرَّبة، وهو ما قد

يلاحظه القارئ في اختلاف طريقة كتابتهما لكلمات مثل: «تيليفزيون»، أو الشهر «يولية»، أو اسم الكاتب المسرحي «يوجين يونسكو».

كما وجدت أن طريقة تدوينهما لاسم المدينة والتاريخ أعلى الخطاب مختلفة؛ فبينما يكتبه حسين باللغة العربية قبل التاريخ ويكتب الشهر بالحروف، يدوِّن جلال عنوانه كاملًا باللغة الإنجليزية أعلى يسار الخطاب، ويضيف التاريخ بالأرقام العربية. وآثرت عند تحرير خطابات جلال ترجمة اسم المدينة المكتوب باللغة الإنجليزية إلى العربية ووضعه بين قوسين معقوفين، وأبقيت مع ذلك على طريقة تدوينه للتاريخ بالأرقام.

كما آثرت أن أستبعد بعض الخطابات كلية أو بعض الفقرات التي رأيت أنها لا تشكِّل أهمية عند القارئ العام، كتلك المتعلقة بمتابعة الحسابات المالية لهما أو ترتيباتهما اللوجستية للسفر. فضلًا عن ذلك فإن الطابع الشخصي للخطابات أدى في بعض الأحيان إلى ورود عدة أسماء في أوصاف ربما يكون من غير الملائم نشرها، فحذفتها بما لا يؤثر على إيصال فكرة الخطاب العامة، وشجعني على هذا أن رأيت جلال أمين اعتمد هذا المنحى في نشر بعض الخطابات المتبادلة في كتبه السابقة أو في كتابته عن بعض أصدقائه ومعارفه السابقين.

أما في أغلب الحالات فقد آثرت ـ قدر استطاعتي ـ أن تُنشر الخطابات بما فيها من طابع شخصي وصراحة كبيرة بعدما رأيت كليهما ينتهج المبدأ نفسه في كتاباته. فيذكر حسين في كتابه «شخصيات عرفتها» بيتًا للشاعر الإنجليزي «تشوسر» الوارد في «حكايات كانتربري»: «ما كل الأواني في قصر الأمير مصنوع من الذهب أو الفضة». ويستشهد جلال في مقدمة كتابه «ماذا علمتني الحياة؟» بالكاتب الإنجليزي «جورج أورويل» عندما قال صراحة: «إن كتابًا في السيرة الذاتية لا يمكن أن يصبح محلًّا للثقة إلا إذا كشف بعض الأشياء التي تشين صاحبها». كما قدَّم جلال في مقدمة الجزء الثاني من سيرته الذاتية «رحيق العمر» دفاعًا كبيرًا عن صراحته البالغة في كتاب سيرته الأول «ماذا علمتني الحياة؟».

* * *

أعتقد أن هذا الكتاب يجمع بين عدد من السمات التي تجعله كتابًا نادرًا واستثنائيًّا، بل أكثر شحذًا وإثارةً للفكر مقارنة بكتب المراسلات الأخرى. فهذه الخطابات تمتد من عقدهما الثاني حتى عقدهما السادس من العمر، وتسجِّل ما شهدته كل تلك الفترة من تغيرات في شخصيتيهما وتطور أفكارهما وحتى

في لغتهما المستخدمة. إضافة إلى ذلك فكونهما شقيقين متقاربين في العمر يميز خطاباتهما بقدر كبير من الصراحة والمصداقية. كما أنهما باعتبارهما من كبار المفكرين والمثقفين المصريين فإن خطاباتهما ـ وإن سبق معظمها إنتاجهما الثقافي ـ لا تخلو من عمق وفكر وأدب، وتسلِّط الضوء على رحلتهما الثقافية الطويلة وكيفية وصولهما إلى تلك المكانة الأدبية، وخاصة مع استمرار مراسلاتهما حتى السنوات الأولى لبدء شهرتهما في الميدان الثقافي. إضافة لذلك، فعلى الرغم من تشابه سنواتهما الأولى في مرحلة التكوين الثقافي من سفر إلى لندن ثم إقامة فيها، فإن عقليتيهما ومجريي تفكيرهما افترقا، فسلك كل منهما طريقًا فكريًّا مختلفًا عن الآخر، وهو ما أدى في كثير من الأحيان إلى خلافات فلسفية ومناقشات أدبية أثْرَت محتوى الخطابات. كل تلك العوامل أدت في رأيي إلى أن يخرج هذا الكتاب بهذه الصورة، ليجمع بين مميزات كتب الرسائل والسيرة الذاتية، والمذكرات، والتاريخ، والأدب، والسفر.

كمال صلاح أمين

تعريف بأفراد عائلة أحمد أمين

المذكورين في المراسلات

تزوج أحمد أمين من زينب فهمي، وأنجبا على الترتيب: ١. محمد (حمادة): تزوج ثريا، وأنجبا نهال ونيفين، ثم انفصلا، وتزوج منى، وأنجبا نيللي وشهيرة.

٢. فاطمة: تزوجت الدكتور عبد العزيز عتيق، وأنجبا زينب (نوسة)، ومنى.

٣. نعيمة: تزوجت حسين فراج، وأنجبا نادية ورجاء وأحمد وشادية.

٤. عبد الحميد (أمين): تزوج جريتا، وأنجبا علي وطارق.

٥. حافظ: تزوج ميمي ثم انفصلا، وتزوج مها، وأنجبا محمود وحسين وزينب.

٦. أحمد: تزوج بريجيتا، وأنجبا ياسمين.

٧. حسين: تزوج فيفي، وأنجبا هبة ورانية ونسرين.

٨. جلال: تزوج جان وأنجبا دانية وتامر وأحمد.

حسين وجلال أمين أوائل الخمسينيات

حسين وجلال أمين عام ١٩٤٠

حسين أمين ووالدته زينب فهمي أوائل الخمسينيات

البدايات

تبدأ الخطابات المتبادلة بين حسين وجلال أمين بخطابين غير مؤرخين كتبهما حسين عام ١٩٥٠ أثناء تواجده في لندن في رحلة صيفية استمرت ثلاثة أشهر، وكان عمره آنذاك ثمانية عشر عامًا. وكان والدهما أحمد أمين صاحب فكرة إرسالهما لقضاء العطلة الصيفية في لندن، لاعتقاده بأهمية تعلم لغة أجنبية في سن مبكرة نظرًا للصعوبات التي لاقاها في تعلم اللغة الإنجليزية في سن متقدمة، فأرسل حسين عام ١٩٥٠ إلى لندن ثم أرسل جلال في رحلة مماثلة عام (1)١٩٥١.

* * *

[لندن، ١٩٥٠]

عزيزي جلال

أكتب إليك هذا بعد أن تناولت الإفطار وقبل بدء يوم جديد. وقد حملت إليَّ مسز تايلور خطابك هذا الصباح في غرفتي فسرني أن أسمع منك. أما عن التحاقك بشعبة آداب فقد لاقى الاستحسان من فاطمة ومسز تايلور.. ورأي أمين هو أن تتبع ميلك ورأي عبد العزيز(2) أن تدخل الطب لأسباب مادية.. أما أنا فقد بدأت أرى رأيا مخالفا.

ولن أذكر لك الأسباب التي تدعوني الآن لأن أعضد دخولك الطب ولكني أنصحك جديا بأن تحول أوراقك من شعبة الآداب إلى شعبة العلوم.

لا تظن أن هناك أي اتصال بين القانون والأدب.. والقانون هراء ولا تتصور كم أندم الآن وأنا في انجلترا أني لم ألتحق بالطب.

سآتي معك إلى انجلترا في الصيف المقبل وسأدخر حين عودتي إلى مصر تكاليف الرحلة حتى لا أكلف والدي شيئا وأرجو منك أن تفعل هذا أيضا.

وسأسر لك شيئا هاما وهو أنه إذا كانت انجلترا كلها أعطتني متعة بألف جنيه فإن مسز تايلور بمفردها أعطتني متعة بمليون جنيه. فإنجلترا من غير مسز تايلور تفقد معظم معناها وأهميتها.

ولم نعد ـ مسز تايلور وأنا ـ نفترق إطلاقا إلا إذا ذهبت هي إلى عملها أو أذهب أنا مع الفتاة السويدية لرحلة بالدراجات. وقد علمتني مسز تايلور الرقص ونحن نرقص الآن كل يوم حتى الواحدة بعد منتصف الليل إما في المنزل أو في أحد النوادي ونعود سيرا على الأقدام إلى المنزل.

والتيليفزيون إحدى المتع هنا وقد عرضوا فيه في الأسبوعين الماضيين رواية لموم ورواية لثاكري والباقي استعراضات وسيرك ورقص على الثلج.

الأسطوانة هنا أرخص من علبة السجائر وسأشتري الكثير عند عودتي فأرسلوا إليَّ من حين لآخر بأسماء الأسطوانات التي اشتريتموها.

أهداني فيولنج كتبا كثيرة جدا وسيعطيني Liste بالكتب التي يجب أن أقرأها وإني أنصحك يا جلال جديا أن تكف عن قراءة طه حسين وتوفيق الحكيم وتبدأ في قراءة موم.. اشتري فورا Of human bondage ولا تنتظر حتى أحضره معي وابدأ في قراءته حالا فلن تجد في الدنيا كتابا مثله.. وحتى لو مكثت في قراءته شهرا فليس في هذا تضييع للوقت. إنني أقرؤه الآن للمرة الرابعة وكل مرة أشعر فيها أن نفسي تزداد امتلاء..

الجو هنا ما يزال جميلا ولكن المطر فظيع وقد اشتريت لنفسي معطفا.

إنني أتكلم الإنجليزية بطلاقة وأصبحت أفهم كل كلمة، وأحيانا يمر أسبوع دون أن أنطق كلمة بالعربية حتى مع عبد الحميد.. حتى العبارات التي أفكر بها أصبحت بالإنجليزية.. وأستطيع أن أزعم أني الآن أكتب بالإنجليزي خير من العربي.

بدأت أتخذ عادات الإنجليز في المحادثة والمعيشة وفي الصباح تراني أقول دائما: Lovely day, isn’t it? وأشرب ثمانية فناجين من الشاي كل يوم. الأكل عند مسز تايلور ليس فخما جدا ولكن لقمة مع مسز تايلور خير من دجاجة مع غيرها.

ستجدون المشروعات التي أنوي إدخالها على معيشتنا العائلية شاقة وكثيرة في بادئ الأمر، ولكن ليس عندك فكرة كم ستسعدنا هذه المشروعات وسأقضي على كل معارضة تقوم في وجه ما أنتوي إدخاله من الإصلاحات لأن حياتنا بالطريقة السابقة عبث.

سأشتري لكم هدايا بما يتبقى معي من نقود.. إنني أصرف كثيرا ولكني أستنزف المتع.

سنقضي جميعا العيد في Islamic Culture مع مسز تايلور.

إنني أعيش هنا كالإمبراطور.. ومسز تايلور التي تفيض طبيعتها دائما بالرغبة في إسعاد من حولها دون قصد إلى الإسعاد هي التي تمكنني من هذه المعيشة. هذه هي أحوالي.. سعادة في سعادة، ومتعة في متعة في متعة. ولكم أخشى أن أدفع ثمن هذه المتعة فيما بعد.

حسين

* * *

[لندن، ١٩٥٠]

عزيزي جلال

وصلني خطابك الآن وقد شعرت بضرورة الرد عليه. ولو كنت نصحتك بدخول الطب بناء على فكرة واهية لما فكرت في الإلحاح بعد أن كتبت إليَّ ردك على رأيي ولكني ما زلت متمسكا.

من قال إن الطب سترغمك على الغرق ومن قال إن ذلك طبيعة بحرها؟ إن بحرها كأي بحر.. لا يتوقف عليه غرق السابح بقدر ما يتوقف على مهارة السابح في السباحة.. وأنت تقول إنك تريد أن تحيا وأنا أؤكد لك ـ مؤيدا كلامي بمعرفتك بي ـ أني إذ أنصحك بالطب لا أريد لك إلا أن تحيا.

لا يشق عليك أن تغير رأيك فهذه هي اللحظة الحاسمة في حياتك.. وتأكد أنك ستكون أسعد حالا في الطب(3).

أما عن قولك بأن الدفعة الأولى نحو فهم الأدب الغربي صعبة عليك فلا أستطيع أن أقبلها من شخص مثلك.. فهل ما دام الشيء صعبا لا تقبل عليه؟ وماذا أعددت لهذه الصعوبة التي لن تزول بمضي المدة؟ إنك لن تجد الكتب الإنجليزية سهلة إلا إذا فعلت ما فعلت أنا عندما كنت في سنك فتكشف في القواميس وتحفظ الكلمات باستمرار وبدون انقطاع..

أريد أن أسمع منك في خطابك الآتي أنك قطعت شوطا كبيرا في Of human bondage.

المراكب مزدحمة جدا ولكن كوك يحاول أن يجد لي مكانا في خلال شهر أكتوبر.

أرسلَتْ نوسة إلى her boy-friend خطابا تقول له فيه: I don't love you anymore because you love Margaret more than me. Zaynab، وقد أملتها فاطمة هذا الخطاب.

ذهبت مع فاطمة إلى غابة Epping وقضينا هناك يوما سعيدا. ذهبنا جميعا اليوم (العيد) إلى الـIslamic Culture وتغدينا هناك مع حافظ وهبة وقد أظهرت بعض السيدات هنا كثيرا من الدلع إلى درجة تثير الضحك والاحتقار معا، فهذه تتكلم كلمة عربي وخمسة فرنساوي وهذه لا تأكل لأن ليس هناك شوكة وهذه تقول إن الأتومبيل خسران فمقدرتش آجي بيه واضطريت آخد تاكسي..

وقد شاهدت بنت الشيخ [...] هناك.

جمعت من الإنجليز هنا أكبر معلومات ممكنة عن حياة سمرست موم وقد قرأت له حتى الآن ١٦ كتابا وأنتوي أن أكتب عنه سلسلة من المقالات.

أنتوي عندما أرجع إلى مصر أن أؤجر ثلاثة فدادين من أرض والدي بسعر الفدان ٣٠ جنيه في السنة وأزرعها بواسطة يوسف عتيق في الثمانية أشهر الأولى محصولا كبيرا كالقطن وسينتج الفدان ثمانية قناطير بسعر القنطار ٢٠٠ ريال أي أربعين جنيه فيكون ثمن منتجات الثلاثة فدادين ٨×٤٠×٣=٩٦٠ جنيها اخصم منها مائة جنيه ثمن الإيجار وثلثمائة جنيه مصاريف على الأرض فيتبقى لي ٥٦٠ جنيها أسافر بها إلى السويد.

كسبت في سباق الكلاب يوم الخميس الماضي ٢٤ شلن وسأذهب إليه ثانية مع فاطمة في الأسبوع المقبل.

بدأت الآن أعد بحثا عن جي دي موباسان وأسلوبه في القصة القصيرة واختلافها عن قصص معاصريه ثم تأثير جوستاف فلوبير فيه والفرق بينه وبين أنطوان تشيكوف.

وقد خطرت لي فكرة قصة طويلة وسأبدأ في تنقيحها وكتابتها وأنا في الباخرة مبحرا إلى مصر.

ستجدني عند رجوعي متغيرا عقليا وروحيا كل التغير حتى إنك لن تتعرف عليَّ ولن تجد فيَّ أثرا من الماضي.

سأقضي الصيف المقبل في بلدة قريبة من ستوكهولم بالسويد وسأجد لي في مصر أعمالا حتى أوفر مصاريف الرحلة.

سألت عن سمرست موم في ماي فير فأخبروني أنه يقضي الصيف في الريفييرا الفرنسية.. وقد أسفت جدا أني لم أقابله.

برنارد شو في المستشفى والآلاف من أكاليل الأزهار تصله كل يوم وفي الراديو يذيعون مسرحياته متمنين قبلها الشفاء له وفي السينما يعرضون صورته ويقولون إن أصحاب الدار يتمنون لشو شفاءً سريعًا.

أذاعوا جان دارك بالأمس في الراديو.

سلامي إلى الجميع

حسين

احتفظ بخطاب مسز تايلور عندك.

(1) جلال أمين، ماذا علمتني الحياة؟، ص١٤١، حسين أمين، أبو شاكوش، ص٥٢. (المحرر).

(2) كان أخوهما أمين (واسمه الحقيقي عبد الحميد) يحضر رسالة الدكتوراه في الهندسة الكهربائية من جامعة لندن. أما أختهما فاطمة فكانت تعيش في لندن برفقة زوجها الدكتور عبد العزيز عتيق، حيث كان يعمل في مكتب البعثات هناك، ولهما بنتان هما زينب (نوسة) ومنى. (المحرر).

(3) تخرج جلال في شعبة الآداب عام ١٩٥١ بمجموع ٨٣.٥٪، وكان ترتيبه الأول على المملكة، والتحق بعدها بكلية الحقوق. (المحرر).

مصري في الغربة

عمل حسين بعد تخرجه في كلية الحقوق عام ١٩٥٣ مذيعًا في الإذاعة المصرية. وعلى الرغم من أنه لم يبقَ في عمله هذا سوى أقل من عام، فإنه وجد نفسه أكثر من مرة في موقف العداء المتبادل مع رئيسه في الإذاعة، حتى نقله الأخير من قسم المذيعين إلى قسم التسجيلات، فتقدم في يوليو عام ١٩٥٤ لاختبارات هيئة الإذاعة البريطانية الـ«بي بي سي»، للالتحاق بها كمذيع في القسم العربي. ولما نجح ولم يتبقَّ سوى الحصول على موافقة الإذاعة المصرية، رفض وزير الإرشاد إعطاءها إياه. فما كان منه إلا أن سافر بدون إخطار الإذاعة بذلك، وهو يشعر عند إقلاع الطائرة «كشعور أفراد عائلة «فون تراب» في فيلم «صوت الموسيقى» حين فروا من النمسا النازية ووجدوا أنفسهم عند الجانب السويسري من الجبل»(4).

تبدأ خطابات هذه المرحلة من ديسمبر عام ١٩٥٤، حين تولى حسين مهامه كمذيع في القسم العربي من هيئة الإذاعة البريطانية، فيكتب لوالدته وإخوته عن أخباره وحياته في لندن وما يحدث في كواليس الإذاعة، وعن الفرق بين العمل في الإذاعتين المصرية والبريطانية، وسياسات الـ«بي بي سي» غير المعلنة. وفي القاهرة تجتمع العائلة لسماع صوته في الراديو ويكتبون له آراءهم في أدائه ولغته. ومع التغيرات الشخصية التي كان حسين يمر بها في تلك الفترة كانت بريطانيا تمر بفترة تحول سياسي كبيرة فيما يتعلق بوضعيتها الدولية وخاصة بعد العدوان الثلاثي على مصر، أثرت بالتالي على علاقة الإذاعة البريطانية بأعضاء القسم العربي، فاضطربت أحوال الإذاعة ونشبت الخلافات وتمرد بعض المذيعين، ووجد حسين نفسه مضطرًّا للاختيار بين وطنه وتطلعاته الأدبية من جانب وعمله لصالح إذاعة العدو من جانب آخر.

* * *

الأربعاء ٨ ديسمبر ١٩٥٤

عزيزي حسين

تحياتي إليك وأرجو أن تكون سعيدا في حياتك الجديدة.

سمعنا صوتك كثيرا جدا ولا شك أنك هايل جدا في إلقائك، أحسن من بعض المذيعين القدامى ولا يستطيع أحد أن يقول إن هذا المذيع جديد أو بيتمرن. ولاحظنا أنك تقلد مذيعي لندن في بعض الأشياء: في مطِّ الكلمات وتعطيش الجيم..

قُبلت استقالتك أمس وهذا شيء عظيم، ولكن المدير رفض أن يعطيك ماهية إلا عن الأيام التي اشتغلتها فقط (لآخر يوم حضرت فيه) وأظن أن حافظ سيقبض النقود اليوم.

أحوالنا على ما يرام. وسمعناك أمس تقرأ نشرة الأخبار بحماس. وأحمد التحق بكلية التجارة (!) ولا ندري ما هو السبب، على العموم في اليوم التالي كلمته بنت في التليفون تطلب كشكولها!

ماما صحتها جيدة وثريا كانت عندنا أمس، وعلي وجريتا وأمين كلهم بخير. ونعيمة مرضت أخيرا مرضها المعتاد وهي تعالج نفسها الآن.

لماذا تأخرت فاطمة في الرد؟ لقد حجز لها حافظ وتستطيع فاطمة أن تستلم التذاكر من كوك لندن.

أما مذاكرتي فعلى ما يرام وأرجو أن أحصل على جيد جدا. وأخيرا سلامي إلى الجميع وأرجو أن يصلنا قريبا خطاب من فاطمة تخبرنا بأنها حاضرة قريبا.

جلال

ابني العزيز وبنتي العزيزة

سلامي إليكم ان شالله تكونوا جميعًا بخير وهناء.

أخبرتني اليوم الدكتورة سميرة أن الدكتور عبد العزيز أرسل لها خطاب يقول إن فاطمة لا تحضر إلى مصر إلا في أوائل الصيف وأنا أعطيت حافظ ١٠٠ جنيه لكي يقطع لها التذاكر فنرجو من الدكتور أن يسمح لها بالسفر لأن عندكم برد جدًّا ولأجل نشوفها بعد الغياب دا كله والدنيا ما تستاهلش. أرجوك يا أستاذ حسين ومنتظرة الرد منك ومن الدكتور. بالحق أخبرك أو أبشرك أن حافظ خطب عروسة جميلة جدًّا وعمرها ١٧ سنة، وهي أخت صلاح المغربي ولما تيجي فاطمة راح تعجبها خالص وعقبالك وتكون أحسن. خلي بالك من نفسك ومن البرد(5) وأنا بدعي ليل ونهار لك وينجحك يا حسين لأنك راجل عظيم. أحوالنا بخير ولا ينقصنا إلا وجودك معنا لا تخف على أوضتك ولا شمعدانك لما

ترجع بالسلامة. وسلامي إلى الدكتور وفاطمة ونوسة هانم ومنى هانم والسلام،

والدتك زينب.

* * *

يذكر جلال في كتابه «مكتوب على الجبين» أنه عند سفر العائلة إلى الإسكندرية في الصيف كان دائمًا ما يكتب خطابات مطولة إلى أصدقائه. فلما أعاد قراءتها شعر بكم الفراغ الذي كانوا يتمتعون به في ذلك الوقت، فموضوعات الخطابات عادة ما تدور حول ما فعلوه أو قرأوه أو شاهدوه من أفلام، أو محاولة تعريف معنى السعادة والشقاء ومسبباتهما، أو «عن تحليل شخصية هذا الصديق أو ذاك، أو عن الشعور بالغضب من أحد الأصدقاء لأنه لم يفعل ما كان من الواجب أن يفعله إذا كان صديقًا حقًّا»(6).

يكاد هذا ينطبق أيضًا على خطابات حسين وجلال في فترة إقامة كل منهما في لندن. فلم يكن حسين ينتظر أن «تقع أحداث خطيرة» حتى يكتب خطابًا. فلا تمر عدة أيام حتى يجلس ليكتب لوالدته وإخوته خطابًا طويلًا يسرد فيه ما حدث له في الأيام السابقة من أحداث بسيطة ووقائع هامشية، أو يأخذ مشهدًا عابرًا فيصوره في مشهد أدبي عميق. وما إن ينتهي من الخطاب حتى يضعه في صندوق البريد خارج مسكنه وينتظر ردًّا بفارغ الصبر فيشعر بالحزن والغضب إذا تأخر.

وهو يصف لهم اختلاف حياته في إنجلترا عنها في مصر، فيرسم لهم صورة لأجواء لندن وبرودتها أو ما يفتقده من طعام والدته أو ما يجده من صعوبات الحياة وحيدًا في لندن. أما الغربة فلم يكن يهون من وحشتها غير وجود أخته فاطمة وزوجها عبد العزيز معه في لندن، فيمر عليهما أحيانًا ويتحدث معهما ولا يفوته أن يصف حياتهما وشخصيتيهما في خطاباته وصفًا أدبيًّا ممتعًا.

* * *

لندن في ١٧/١٢/٥٤

عزيزي جلال

شكرا لخطابك وشكرا لوالدتي على خطابها. ثم تهاني لحافظ بخطوبته والواقع أنه لا أحد يحتاج للزواج الآن قدر احتياجي أنا إليه، بعد انتقالي من منزل فاطمة

إلى مسكن أعيش فيه كالراهب لا أرى أحدا ولا يراني أحد حتى ولا صاحبة المنزل. وأنا أعد إفطاري وأحيانا عشائي بنفسي وأستغرق فيهما وفي غسيل الأطباق والشرابات وتسوية السرير كل وقت الفراغ. وأقول في بعض الأحيان في نفسي يا سلام لو كان هناك شخص يحضر لي الفطار بينما أنا أكون قد حلقت ذقني ولبست. هه. القصد.

سأقوم ابتداء من يوم السبت ١٨ ديسمبر بإجازة الكريسماس وهي ستة أيام فآخذ السبت ١٨ والأحد ١٩ والاثنين ٢٠ والثلاثاء ٢١، الأربعاء ٢٢، الخميس ٢٣ أجازة وكذلك الجمعة صباحا. ولا أدري أين أقضي هذه الأيام الستة. في فرنسا؟ أم في اسكتلندا أم في لندن وأستجم؟ في الغالب سأسافر إلى اسكتلندا. هذا وجدولي للأسبوعين القادمين هو كما يلي: بعد أيام الإجازة هذه أعود إلى العمل يوم الجمعة مساء.

الجمعة ٢٤ ديسمبر: نشرة الأخبار فأقرأ الموجز الساعة ٥ ثم أقرأ النشرة الساعة ٦ ثم الموجز الساعة ٦:٥٥ ثم النشرة الساعة ٨:١٥

السبت ٢٥ ديسمبر: فترة الفجر من ٤ إلا ربع إلى ٤:١٥ ثم من ٥ إلا ربع إلى ٥:١٥ صباحا (بتوقيت جرينتش طبعا)

الأحد ٢٦ أجازة الاثنين ٢٧: أقرأ رسائل إلى العالم العربي الساعة ٥:٠٥ مساء

الثلاثاء ٢٨ ديسمبر: إذاعة البرنامج بأكمله ما عدا الأخبار من الساعة ٥ إلى ٨:٣٠ وأقرأ الهامش.

الأربعاء: إذاعة الفجر الخميس ٣٠ ديسمبر: منوعات الجمعة ٣١ ديسمبر أقرأ الهامش.

السبت ١ يناير أجازة.

هذا والجميل فعلًا أن الإذاعة تعطي لكل مذيع بها راديو مجانا في بيته وقد أعطوني اليوم راديو جميل جدا وركبوه في حجرتي وركبوا الايريال على حسابهم. بينما كنت فعلا على وشك شراء راديو.

أما عن فاطمة فقد أخبرتنا شركة كوك أن السفر بالطائرة سيكلف فاطمة والأولاد رجوعا وذهابا ٣٠٠ جنيها فقررت فاطمة أن تعود نهائيا إلى مصر مع عبد العزيز والأولاد في أواخر مايو وانفاق هذا المبلغ على تأثيث بيتهم.

أشعر أحيانا بوحشة ووحدة كبيرة وخصوصا بعد انتقالي إلى مسكني المستقل. وعندما أرى أنك لكي توقد المدفئة يجب أن تضع شلن في العداد ولكي تستحم يجب أن تضع شلن في العداد ولكي تستعمل التيليفون يجب أن تضع ٣ بنسات في العداد وهكذا، تشعر بكم هو جميل أن تعيش بين عائلة.

كيف حال نعيمة؟ لقد أقلقتني رسالتك التي أخبرتني فيها أن المرض قد عاودها. أرجو أن تبعث إليَّ بأخبارها.

أما عن تقليدي لمذيعين لندن فليس هذا تقليدا. إنها أوامر. فالجيم يجب أن تعطش لأنهم مصممون على أن مصر وحدها هي التي تستعمل الجيم دون تعطيش. والكلمات يجب أن تمط حتى يفهمها مستمعو الموجة القصيرة. وهم هنا يدققون جدا على اللغة العربية. أما عن الفرق بين الإذاعة هنا والإذاعة في مصر فهو:

١. أن المذيع هنا لا يدير الأسطوانات بنفسه بل يديرها له مهندس.

٢. المذيع هنا يترجم النشرة ويقرؤها ويترجم الهامش ويقرؤه بينما في مصر شخص يترجم وآخر يقرأ

٣. مقدم البرامج غير المذيع قارئ النشرة

٤. المذيع هنا يعمل يوما في الأحاديث ويوما في المنوعات ويوما يقدم البرامج ويوما يقرأ النشرة...إلخ

أما عن الروايات فإن أحسن المسرحيات التي شاهدتها هنا هي Hedda Gabler لإبسن وأحسن الأفلام فيلم سويدي عجيب نال جائزة المهرجان الدولي عام ١٩٥٤. هذا الفيلم كتبه وأخرجه وصوره شخص واحد (سويدي) والممثلون فيه هم الثعالب والفئران والكلاب وحيوان الرنة والطيور وطفلان. والموسيقى التصويرية هي حفيف الورق وخرير الماء وأصوات الحيوانات. ويقول الرجل في أول الفيلم إن الغرض منه هو أن نشعر بجمال كل قطرة من الماء وكل ورقة في زهرة وكل كائن حي. ولا موضوع للفيلم غير هذا. اسم الفيلم The great adventures. ثم رأيت في الأسبوع الماضي فيلم إيطالي أعتقد أنه سيأتي إن لم يكن أتى فعلا في سينما أوديون في مصر. واسمه بالإنجليزية Bread, Love & dreams لجينا للوبريجيدا وهو فيلم رائع للغاية. ثم فيلم آخر لفرناندل اسمه The sheep has five legs عن أب له خمسة أولاد الأول بحار والثاني قسيس والثالث مساح نوافذ والرابع صحفي والخامس صاحب شركة.

وفرناندل في هذا الفيلم يمثل الأب والخمسة أولاد. أي أنه يقوم بكل الأدوار في الفيلم. وتمثيل فرناندل ممتاز غير أن الفيلم متوسط.

كتب إليَّ حمادة يقول إن إلقائي في الإذاعة غير طبيعي. فهل هذا صحيح؟ اكتب إليَّ بالتفصيل عن مذاكرتك، نعيمة، البيت، علي، عروسة حافظ، جريتا وأمين، أحمد في كلية التجارة...إلخ واكتب على الظرف كلمة Private.... البلاد هايصة بالكريسماس وقد اشتريت لمنى وزينب هدية كبيرة سأعطيها لهما يومها. سأكتب لحمادة الآن على الإسكندرية ثم أحضر لنفسي العشاء (يا ساتر!) ثم أنام..

تحياتي وأشواقي لوالدتي ولحافظ وأحمد وأمين.. وأطيب تمنياتي بالشفاء العاجل لنعيمة. وسأكتب لها قريبا. لا تتأخروا في الرد...

حسين

ملحوظة: هل أعجبتك القراءة بحماس؟

* * *

بعد أن كان حسين يمضي معظم وقته في القاهرة في حجرة مكتبته، «يفني عمره في القراءة» على حد تعبير جلال في أحد خطاباته، فإذا به يتجه إلى لندن ليضيف أبعادًا ثقافية جديدة لم تكن نامية عنده، فيتردد على المسرح مرة كل يومين لمشاهدة أجدد الأعمال الفنية، ويدور على «الألبرت هول» و«الفيستيفال هول» لسماع الموسيقى الكلاسيكية ويشترك في نوادي السينما ويتابع أعمال المخرجين العظام، ويزور مختلف المتاحف والمعارض في لندن(7). لم يقصد عرضًا فنيًّا إلا وكتب خطابًا لوالدته وإخوته عنه، مشيرًا إلى مدى إعجابه به أو نقمه عليه، ممتدحًا الممثل، أو المؤلف، أو ساخطًا عليه. وكان في ظل كل تلك التجارب الثقافية العديدة مدركًا لأثرها على تثقيفه وتنمية شخصيته، فيذكر أن التجارب التي يمر بها لازمة «لتكوين من يريد أن يكون كاتبًا» أو أن الحياة في ظل التجارب والظروف الجديدة لا تؤدي إلى تغيير شخصيته فحسب، بل إلى تغيير شكله أيضًا.

* * *

لندن في ٨ يناير ١٩٥٥

أكتب إليكم الآن بالتفصيل بعد خطابي القصير الذي أرسلته لكم أول أمس. والواقع أنني كنت متعبا بعض الشيء بعد المحاضرات التي حضرناها في الأسبوع الماضي والتي انتهت يوم الخميس. ورغم التعب الشديد الذي شعرت به أثناءها (كنت أنام وأنا واقف في الأندرجراوند أثناء العودة) إلا أني استفدت منها كثيرا واستطعت أن أحيا بجو الدراسة في إنجلترا وجو الطلبة الإنكليز. كنا نحو ٢٤، سبعة عشر إنجليزيا وسبعة من زملائي الأجانب وهم/ مصريان، هندي، ياباني، إندونيسي، سيامي، وأسباني.

أما موضوعات المحاضرات فهي:

١- الإذاعة كوسيلة للاتصال بالجمهور

٢- الحالة الدستورية للـB.B.C.

٣- التنظيم الداخلي في الـB.B.C.

٤- المشاكل التي نقابلها أثناء ترجمة الأخبار

٥- التمثيلية الإذاعية

٦- الحديث الإذاعي

٧- كيفية قراءة نشرة الأخبار

٨- من الميكروفون إلى أذن المستمع.

٩- الميكروفونات المستعملة بالاستوديوهات

١٠- الصفات الواجب توافرها في المخرج الإذاعي

ومن الطريف أنه أثناء مناقشة المشاكل التي تقابلنا أثناء ترجمة الأخبار أخبرنا زميلنا من سيام(8) أنه أثناء ترجمته إحدى النشرات وجد خبرا يقول إن ملك سيام اعتكف في قصره لألم أصابه في رجله فلم يستطع ترجمة هذا الخبر لأن أهالي سيام ممنوعون من ذكر أي عضو من أعضاء جسم الملك لأن المفروض أن ليس له جسم كسائر الأهالي.

هذا وسيلقي الممثل بيتر أوستينوف (الذي مثل دور نيرون في رواية كوفاديس) سيلقي محاضرة في الـB.B.C. يوم الثلاثاء المقبل عن الفرق بين

الممثل في الإذاعة والممثل في السينما والمسرح. غير أني لن أتمكن من حضورها لقراءتي نشرة الأخبار في ذلك اليوم.

على العموم فقد انتهت هذه الفترة من المحاضرات؛ فترة متعبة ومفيدة في نفس الوقت. وقد عدت إلى العمل الأصلي اليوم بعد غيبة أسبوع عن الميكروفون.

أشعر بتغير كبير قد طرأ عليَّ سواء في الشخصية أم حتى في الشكل. والغريب حقا هو كيف أن الشخص يتغير هنا في ظرف شهرين بمقدار ما يتغيره في مصر في عام. إنها بالطبع التجربة والحياة في ظروف جديدة واكتشاف أشياء جديدة كل يوم ثم أن اليوم لا يضيع بهذه السهولة التي يضيع بها في مصر.

شاهدت حتى الآن تمثيليات لا حصر لها في لندن. والواقع أن زملائي هنا يعجبون كيف أجد الوقت لمشاهدة كل هذا. شاهدت مسرحيتين لشكسبير Macbeth وThe taming of the Shrew وهما من تمثيل آن تود ومسرحية لأجاتا كريستي تمثيل مرجريت لوكوود وذهبت مرتين للـFestival Hall...إلخ إلخ. هذا وسأذهب غدا إلى الـAlbert Hall لأول مرة هذا العام.

غير أن حياتي هنا بالطبع ليست كلها فسحة ومسرح فهناك أيضا ما أتحمله بصعوبة. غير أن هذا هو ما كنت أبغيه وهذا هو ما سيجعلني في النهاية رجلًا. وقد كتب لي حمادة خطابا غاية في اللطف يخبرني فيه أن حياة الكفاح هذه فيها فائدة لا تقدر وأنها دون أن تشعر تربي في أنفسنا فضائل نشعر بها عند رجوعنا. وأضاف «إني مستقر في مصر والحياة سهلة نوعا ما ولكني أفضل مائة مرة حياة التعب في إنجلترا على حياة الخمول التي أحياها».

وهذا أيضا هو ما أشعر به.

والواقع أن من حسن حظي وجود فاطمة وعبد العزيز هنا. خصوصا عبد العزيز؟ فهو لي كأب وأخ وصديق في نفس الوقت ومن الصعب أن أشرح كم أنا مدين له.

أما عن ليلة رأس السنة فقد قضيتها مع صديقي الإنجليزي فذهبنا أولا إلى مسرح Old Vic لمشاهدة Macbeth ثم مشينا حتى ميدان الطرف الأغر. وهناك شاهدنا منظرا عجيبا. عشرات الألوف من الناس، زحام لا وصف له، مجتمعون حول التمثال في وسط الميدان يرقصون ويغنون أناشيد عيد الميلاد. وفي تمام

الثانية عشرة أطلقوا في الجو بالونات ملونة وطيورا بيضاء وقد دهنت الحكومة التمثال بطلاء زاهٍ لم يجف حتى لا يصعد الناس إليه.

شرعت بالأمس في كتابة قصة قصيرة (انجليزية مصرية) وسأحاول أن أبين فيها قدر المستطاع الفرق بين الفتاة الإنجليزية والفتاة المصرية. كلاهما أسوء من الأخرى ولكن بشكل مختلف تماما. الثانية في حالة كبت حقير والأولى تستطيع شراءها بتذكرة مسرح. إذ قدم صديق الإنجليزية لها كوبا من عصير البرتقال كان أول خاطر لها أنها وفرت الثلاثة بنسات ثمن العصير وأنها تستطيع عندما تعود إلى أمها أن تقول إنها شربت وتعشت مجانا ثم تتلقى بعض النصائح من أمها عن كيف سيكون تصرفها في المرة القادمة. وقد حدثنا زميلنا منير شما عن صديقته الانجليزية فقال إنه إذا أخذها إلى مقهى وسألها عما تريد أن تشرب طلبت أغلى كوكتيل ممكن طلبه فيضطر إلى سؤالها Would you like Whisky or Gin? حتى يحدد المشروب. فإذا عزمها على سينما اختارت لا أحسن الأفلام بل أغلى السينمات. هل تصدقون ذلك؟ هذا هو ما أخبرنا به.

فأية لذة من الممكن أن يشعر بها شخص راق إزاء ذلك؟

على العموم فحتى لو وجدت الفتاة الصالحة فلا أعتقد أني سأتزوج في يوم ما. أولًا لأن مستقبلي قد أصبح غير مضمون البتة بعد انتهاء مدة عملي بالإذاعة البريطانية وثانيا لأني شديد التعلق بعائلتي الأصلية وأعتقد أن كل شخص منا سيتزوج سنفتقده.

سرَّنا جدا أن صحة نعيمة قد تحسنت وأنها شفيت من مرضها فقد قلقتُ وقلقتْ فاطمة وعبد العزيز عليها. ويا حبذا لو ذهبت إلى الإسكندرية لقضاء بضعة أيام مع حمادة.

أواصل كتابة الخطاب من لندن.

كنت قد كتبت إليكم عن تساقط الثلج في لندن في الأسبوع الماضي وقد فرحت جدا بسقوطه خاصة وأن منظر المدينة بعده كان رائعا. غير أنه عند ذوبانه بعث ببرودة فظيعة في الجو أرتعش لمجرد تذكرها. لكن الجو قد بدأ الآن في الاعتدال ولم يجئ ضباب منذ أكثر من شهر.

هل صحيح أن غرفتي أهملت بعد سفري؟ إن هذا يحزنني حقا. ومجرد ذكر أن المكتب ليس عليه سوى فرشة شعر وبريانتين وأن السرير دائما مشعث يبعث فيَّ الانقباض.

غرفتي هنا بالطبع ليست جميلة كتلك التي في مصر غير أني أحاول أن أصنع منها شيئا. فاشتريت صورا وزهورا. وهي من الاتساع بحيث أني عندما أوقد المدفأة فإن ثلثها فقط يدفأ والباقي يستمر في برودته. وإني أقرأ الآن بنهم كبير وأصبحت أفضل القراءة على الخروج مع الفتيات التي أصبحت أكرههن. وقراءتي دائما في التاريخ والسياسة ثم المسرحيات.

التحقتْ بالإذاعة البريطانية مؤخرا فتاة عراقية في منتهى الجمال تعمل كتايبيست Typist في القسم العربي. وأنا وزملائي نعجب كيف أخذوها في الإذاعة فهي لا تجيد الكتابة على الآلة الكاتبة إطلاقا. «اغتيال» تكتبها «اختياب» و«محاولة» تكتبها «ملاوحة» حتى إنك تضطر إلى إعادة كتابة النشرة أو الهامش كله تقريبا من جديد. ومع ذلك فإن جمالها يجعلنا نغفر لها أخطائها. وقد أدركتْ سلطانها على أعضاء القسم العربي فلم تعد تهتم بأخطائها كما كانت من قبل. وفي الساعة الثالثة (موعد تملية النشرة أو الهامش) تجد الزملاء يتأنقون قبل صعودهم إلى غرفة الآلة الكاتبة فإذا وجدوا شخصا آخر هناك أملوا النشرة في اشمئناط. أما إذا وجدوها هي فالوجوه تبتسم والتملية تبطئ والنشرة يتخللها دعوات للعشاء.

لماذا لا يكتب لي أمين؟ إنه الوحيد الذي لم أتلق منه خطابات حتى الآن هو ونعيمة.

هل سيأتي عبد الفتاح إلى لندن بالطائرة؟ إذا كان سيحضر أرجو إرسال دجاجة لي معه. وسأكون شاكرا للغاية. اكتبوا إليَّ كثيرا وطويلا أخباركم وأفكاركم فإذا كان جلال أو حافظ يكتب مقالة أو قصة فابعثوا بها إليَّ بسرعة وإذا أردتم كتبا أو ملابس من هنا فاكتبوا. الجميع هنا يبعثون إليكم بتحياتهم وتمنياتهم ويرجون لجلال التفوق في الامتحان وللجميع الصحة والسعادة.

حسين

* * *

١٤/١/١٩٥٥

عزيزي حسين

شكرا لك على خطابك، ومثل هذه الخطابات هي التي تعطينا فكرة عن حياتك فأرجو الإكثار منها طالما عندك وقت فاضي، كما نرجو أن ترسل لنا قصتك التي تكتبها أول ما تنتهي منها. أما أنا فطبعا لا أكتب شيئا الآن. كنت أقصد من

كلامي على حجرتك مجرد المزاح كل ما هنالك أنه لم تعد فيها كتب كثيرة كما كانت فلا تتصور أنها تغيرت مطلقا. وعلى العموم ما يهم هو أن صحة ماما ونعيمة عظيمة وأننا كلنا مبسوطين بزواج حافظ وأن تكون أنت مبسوط أيضا.

ألغيت رحلة العراق التي أخبرتك عنها. ولهذا أنوي الذهاب إلى أسوان في الأجازة، وربما ذهبت ماما معي. سرني كثيرا أنك تذهب كثيرا إلى المسرح وأنك تقرأ كثيرا في السياسة والاقتصاد وأتلهف على الوقت الذي سيتاح لي فيه أن أمتع نفسي فيه وأقرأ كثيرا وأتفرغ لأشياء أخرى كثيرة غير المذاكرة. سمعنا من يومين بعواصف وسيول هبت على لندن نرجو أن تكون بعيدة عنك وعن فاطمة. ماما بجانبي الآن وتقول انها نسيت أن تخبرك بأنها سترسل الفرخة مع أول واحد يذهب إلى لندن وأنك غالي بينما الطلب رخيص.. وفي انتظار خطاباتك نرجو لك أسعد الأوقات.

جلال

حاشية: سيصلك قريبًا كتاب الشرق والغرب الذي ظهر بالأمس وسنكتب لك في خطابنا المقبل عن النقد الذي يظهر عليه في الجرائد

* * *

لم يكن أي من حسين أو جلال في لندن إلا وكان دائم السؤال عن والدته وصحتها، فيرفض جلال استخدام كلمة «على ما يرام» في وصف صحتها ويصر على معرفة أخبارها بالتفصيل، ويلح حسين أن تكتب له خطابًا بنفسها، وإن أرسلت له خطابًا يشتم منه حالة الحزن، يذكرها بأنه دائمًا ما يحاول تصورها في صورة متفائلة وشجاعة حتى يتشجع هو الآخر. وكانت خطابات والدتهما على الرغم من ندرتها، عميقة الاختلاف في لغتها ومحتواها، تطغى عليها روح الأمومة الخالصة، فاهتمامها بأوضاعهما ينحصر في الاطمئنان على أحوالهما الصحية وخوفها مما قد يصيبهما من برد أو مرض ولهفتها الدائمة لعودتهما ودعواتها لهما بالنجاح والتفوق والزواج، ومن ناحيتها تطمئنهما على أحوالها وصحتها بدون الخوض في تفاصيل.

* * *

[القاهرة، ١٤ يناير١٩٥٥]

ابني العزيز حسين بك

سلامي إليك وأشواقي ازيك وحشتنا خالص خالص. خلي بالك من صحتك الغالية يا أستاذ حسين. وصل خطابك الكبير وبرضه أرسل لنا مثله كثير احنا دلوقتي بنحضر للدبلة والشبكة بتاعت حافظ والعروسة بنت حلال خالص وجميلة جدا ودا المهم مبروكة عليه. ثم أخبرك أن أوضتك لا تخاف عليها أبدا وجلال بيضحك عليك، الورد كما هو، والشمعدان كما هو، فلا تخاف عليها، وإذا كنت ترغب أن أكتب لك البيت كله ماعنديش مانع يا سيد حسين ثم أعرفك أن المستقبل عند ربنا فلا تحمل هم أبدا وانت رايح تطلع أول واحد. وأنا قلبي راضي عليك واشكر الدكتور عبد العزيز بك بما عمله معك من معروف وربنا يبارك لنا في عمره وسلامي إليه وإلى فاطمة ونوسة ومنى وخليها ترسل لنا خطابات كثير، وأخيرا كلنا بخير وعقبالك زي حافظ.

والسلام

والدتك

زينب فهمي

* * *

لندن في ١٨ يناير ١٩٥٥

عزيزي جلال

شكرا لخطابك وتهانئي لك مرة أخرى بعيد ميلادك العشرين. ولكن.. لماذا تكتب خطابا قصيرا هكذا؟ خطابا يُقرأ في ثلاث دقائق؟ اكتب بالتفصيل.. عن كل شيء.. حتى عن الأشياء العادية.. عن العائلة.. عن أفكارك.. عن موضوعات الروايات التي أعجبتك.. وليس من اللازم أن تقع أحداث خطيرة حتى تكتب الخطاب.

غير أن هناك جملة في خطابك جعلتني أقف عندها نحو عشر دقائق، وهي أن نعيمة قدمت لحمادة وحافظ في الغداء سبعة عشر صنفا. ثم جعلتك قسوتك تعدد لي هذه الأصناف فذكرت الجمبري والبط والفطير باللحم والأرز والقلقاس والكنافة بالقشطة والكريمة.. آخ.. هذه أشياء لا تظهر هنا إلا في الأحلام وأحلام اليقظة. أما الحقيقة الواقعة، الحقيقة المرة فهي البطاطس اللانهائية والكرنب المسلوق. فإذا كان هناك عيد أو احتفال ظهرت قطعة من اللحم، صغيرة حتى تكاد تختفي بين كومة البطاطس والكرنب، شفافة حتى تكاد ترى الطبق تحتها.. وقد نزلت يوما إلى المطعم فرأيت اسم «فراخ» في

القائمة فصدرت مني صرخة فرح وهرعت أطلبها.. وانتظرت.. وانتظرت.. لا بأس.. وأخيرا جاء الطبق. فوجدته عبارة عن كرنب وبطاطس وشيء قد يكون أي شيء ما عدا الفراخ.. واكفهر وجهي.. وسألت الجارسونة: هل هذا فراخ؟ هزت كتفها الأيمن ثم كتفها الأيسر وقالت: حسنا إنه لحم مضاف إليه رائحة الفراخ (كما تضيف رائحة التفاح إلى المربى وتسميها مربى التفاح) فشكرتها بابتسامة مغتصبة وبدأت آكل ما أمامي.

ولقد أخبرت زملائي هنا أنني أرسلت في طلب دجاجة حقيقية من مصر.. وهم الآن يحاولون توطيد الصداقة معي في انتظار تشريف صاحبة الجلالة «الدجاجة» إلى مطار لندن.

حدث هنا حادث غريب للغاية. ففي يوم الأحد الماضي الساعة الواحدة ظهرا أظلمت الدنيا هنا فجأة (في ظرف ثلاث دقائق) حتى غدا الظلام كظلام منتصف الليل. وأنيرت المصابيح في الشوارع والسيارات وأصبحنا وكأننا في الليل فعلا. وهذا يقودني إلى ذكر حقيقة هامة. لقد كنا نضحك من الإنجليز لأنهم يتحدثون دائما عن الجو ويبدأون به مخاطبتهم للآخرين ولكنهم في الواقع معذورون. فالجو هنا (يخزق العين) كما يقول توفيق الحكيم ويجعلك تشعر به دائما. العواصف التي تحملك معها مئات الأمتار في دقيقة، الضباب الذي يجعلك تقطع مسافة عشرة ياردات في نصف ساعة.

الثلج والحلة البيضاء التي يكسو بها المنازل والطرقات، وأخيرا الشمس التي إن ظهرت (إن ظهرت) وأكرر مرة ثالثة: إن ظهرت، فإنما تظهر كئيبة هزيلة حمراء لا نفع فيها. ومع ذلك فالإنجليز يستقبلونها بابتسامات عريضة وقد ظهرت منذ ثلاثة أيام في الساعة الثانية وخمسة وعشرين دقيقة لمدة سبع دقائق فإذا بالمكاتب هنا قد تحركت من أماكنها كل يريد أن يستمتع أكثر ما يمكن بالحادث السعيد ويتدفأ كالقطة. ومرت السبع دقائق وتراجعت الشمس وكأنها ظهرت خطأ ورجعت المكاتب إلى أماكنها في حسرة.

الساعة الآن الحادية عشرة مساء. وأنا أكتب لك هذا الخطاب من غرفتي في Finchley Road.. من الحمَّام يأتي صوت Miss Luna التي تسكن في الغرفة المقابلة تغني مقطوعة من أوبرا Figaro وهي تستحم في البانيو.. صوتها قبيح للغاية.. لقد أخبرونا في الـB.B.C. لماذا يحب الشخص أن يغني في الحمام حتى مع قبح صوته. إنها جدران الحمام الرخامية التي تعكس الصوت فتجعله ضخما كأصوات المغنيين في الأوبرا. آه! لقد كفت Miss Luna الآن عن الغناء. لا بد أنها تنشف الآن جسمها.. شكرا لله.

أوصف لي خطيبة حافظ إن كنت قد رأيتها؟ هل هي مثقفة؟ هل تعرف تشيكوف؟ إن عبد العزيز لا يعرفه. يقول تشايكوفسكي.

نعم.. إن شيرلي هي ابنة ميس سميث التي يعرفها أمين. وقد سرني أن أمين قد مدح فيها فهي فتاة طيبة جدا من عائلة طيبة وأبوها شاعر قتل في العلمين أثناء الحرب العالمية الثانية وخلف وراءه مكتبة ضخمة كتلك التي خلفها والدي. وأنا أستعير منها الكتب من حين لآخر. غير أن شعورا غريبا يخامرني وأنا أقرأ كتابا كُتب على الصفحة الثانية منه بخط اليد اسم صاحب الكتاب الذي قتل في الحرب. لقد جمعني منذ أسبوع مجلس يضم صديقتي وأخاها مايكل ووالدتها. فقالت والدتها: «ها أنت ومايكل أصدقاء، ومع ذلك فقد تجدا أنفسكما في حرب كل ضد الآخر وقد يقتل أحدكما الآخر بينما لو تقابلتما في جلسة عائلية لأصبحتما صديقين!!»

والآن أختتم خطابي مكررا رجائي أن تكتب بالتفصيل اكتب عن كل شيء. إن صديقتي هنا ـ رغم أني أقابلها ثلاثة مرات كل أسبوع تكتب لي يوميا. كلما استيقظت من نومي أجد خطابا من ستة صفحات. عن ماذا؟ عن كيف قضت اليوم، عن ماذا فعلت قطتها الصغيرة، ماذا لبست، ماذا صنعت في كليتها..إلخ.. اكتب لي هكذا.. ستة صفحات أو سبعة. وسأكون شاكرا.

أشعر أنني كتبت لكم خطابات أكثر مما ينبغي. لدرجة أنك عندما كتبت لي في خطابك «وصلني خطابك كما وصلنا الخطابان السابقان» لم أدر أي خطاب تعني وأي خطابين سابقين.. إن أمامي خمسين ورقة بوستة من فئة التسعة بنسات وكلما وجدت وقتا أمسكت بالقلم وكتبت إليكم ثم أضع الخطاب في صندوق البريد خارج مسكني.

أطيب التحية إليك وإلى والدتي والإخوة وتمنياتي لكم بالسعادة.

حسين

ملحوظة: ١- لماذا لم تكتب كلمة Private على ظرف الخطاب. إن كل خطاب دون هذه الكلمة يفتح في الـB.B.C.

٢- تهانئي لحافظ بالدرجة التي جاءت (في وقتها) وسأنتظره هو وعروسته وماما وأنت وأحمد وأمين وجريتا في الأجازة.

٣- أدعو الآن الله أن يهدي أحمد حتى يكتب لي خطابا آخر.

٤- كيف حال غرفتي؟ هل الصور معلقة؟ هل السرير مرتب؟ والكراسي؟ والكتب؟ اكتبوا إليَّ بالتفصيل... سريعا.

* * *

القاهرة في ٣٠ يناير ١٩٥٥

عزيزي حسين

تحياتي وأشواقنا جميعا إليك. وصلنا خطابك اليوم الذي تصف لنا فيه حياة فاطمة. كما وصلني يوم عيد ميلادي خطابك والكارت معا فشكرا كثيرا عليهما. الساعة الآن الخامسة وأنا أستريح حتى الخامسة والنصف لأبدأ المذاكرة. وأنت تعرف أن امتحاني يوم السبت القادم (أي بعد يوم تقريبا من وصول هذا الخطاب إليك) وقد ظهر أن هذا النظام يؤدي إلى ضعف تعب النظام العادي، إذ التعب في الحقيقة ليس من كثرة العلوم (وإن كانت العلوم كثيرة أيضا) ولكن في الرعب الذي يحيط بالامتحان. وفي الحقيقة لا أعرف سببا لهذا الخوف الشديد الذي يسيطر على الطلبة المصريين من الامتحان ويجعلهم يضيعون من حياتهم ثلاثة أشهر (ستة أشهر في النظام الجديد) أشبه بالغيبوبة والانقطاع عن العالم كلية.

على العموم فإن حالتي على ما يرام وأنا لا أذاكر إلا من أجل جيد جدا. فلو كنت أريد جيد لما ذاكرت، وجيد بالنسبة لي الآن كمقبول في العام الماضي.

سمعناك أمس مصادفة تقرأ نشرة الأخبار وقد لاحظنا كلنا أنك لم تعد تخاف الميكروفون وأصبحت حرا إلى درجة كبيرة.

أشرب الشاي أثناء كتابتي ـ وماما كذلك على خلاف عادتها ـ لأنها لم تنم اليوم بعد الغذاء. (وأريد أن أهمس في أذنك بشيء: إن العيش البلدي بدأ يظهر على الغذاء من يوم لآخر بعد سفرك. وإن كنا لا زلنا نتمتع بأكل عظيم للغاية كلما طبَّ علينا حمادة) ـ أرجو ألا يجرِّي ذلك ريقك ـ وفي يوم عيد ميلادي سألت ماما عن الهدية التي ستحضرها لي فقالت: ديك رومي. وفعلا دخل الثلاجة ديك رومي.

على أن الأمر تكشف بعد ذلك ـ في منتصف عيد ميلادي ـ عن إن حمادة سيأتي في المساء. واتضح الأمر أكثر ـ بحيث لم يعد يخفى لا على اللبيب ولا غير اللبيب ـ حينما تأخر حمادة إلى اليوم التالي فانتظر الديك بالتالي يوما آخر.

على العموم لا يخفى ما في ذلك من بعض التغيير في حياتنا إذ تجعلنا ننتظر مجيء حمادة بسرور ولهفة..

لا أدري هل وصف لك حافظ عروسه أو لا؟ على العموم إن حافظ مغرم بها جدا، بحيث كل مرة يذهب إلى هناك يأتي ليمدح فيها أكثر من كل مرة سابقة: وهي بيضاء الوجه حتى ليحمر وجهها بشدة إذا خجلت، وشكلها تركي. وجسمها ممتلئ وتقارب حافظ في الطول. وأحسن ما تتميز به عائلتها: الصراحة وعدم الملاوعة أو التكلف والحب الذي يبادلونه بعضهم بعضا أقصد: أمها وإخوتها.

وهي في التوجيهية هذا العام وعمرها ١٧ سنة، ولا أظن أنها كثيرة الإطلاع على أنها كما يقول حافظ وديعة ومطيعة وتتلهف على معرفة ميول حافظ وآرائه حتى تجاريه فيها ـ حافظ يقول أنها هي وأختها وأمها ـ كلهم يحسون بأنهم ستات بحيث لا يستطيعون التصرف دون توجيه من رجالهم. ويقول إن أمهم ـ على الرغم من سنها ـ لا تستطيع مع ذلك أن تقرر شيئا دون استشارة ابنها ـ مهما كان الأمر تافها ـ وهذا طبعا يشيع الراحة في نفس الرجل.

أخيرا أتمنى لك أسعد الأوقات وفي انتظار سماعك يوم الثلاثاء (بعد غد)

جلال

* * *

لندن في ٣ فبراير ١٩٥٥

والدتي وإخوتي الأعزاء

أطيب التحية لكم وشكرا للخطاب الذي أرسلته والدتي والذي كتبت فيه أنها سترسل إليَّ الديك الذي في قلبه فرخة التي في قلبها حمامة التي في قلبها عصفورة. والواقع أن العصفورة وحدها كافية لإحداث ضجة هنا ولإسالة اللعاب. فما بالك بالحمامة وبالفرخة وبالديك.

إنني سعيد ـ سعيد إلى درجة مش معقولة كما يقول حافظ. واليوم لا أدعه يمر إلا بعد أن أستفيد منه ألف تجربة جديدة. وإليكم الإحصاءات التي أجريتها لشهر يناير. ١- ذهبت في هذا الشهر إلى أربعة عشرة مسرحا وثلاثة أفلام. ٢- زرت تسعة متاحف ومعارض. ٣- تعرفت بخمسة فتيات جدد وتشاجرت مع أربعة. ٤- ثم انضممت إلى City literary Institute لدراسة الأدب الإنجليزي وأحضر فيه محاضرة واحدة كل أسبوع في المساء. ٥- انضممت إلى نادي الـB.B.C.

هل سمعتم الحلقة الثانية من برنامج Announcer’s Choice «اخترت لكم» الذي قدمته يوم الثلاثاء الماضي؟ أرجو أن تكونوا قد سمعتوه لأنه كان جميلا فيما أعتقد وقد قدمت فيه أغنية من أمريكا ومن انجلترا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا وروسيا ومصر والهند. وفي اليوم التالي وصلني الخطاب التالي: «من رئيس القسم العربي إلى مستر أمين: يرى رئيس القسم العربي أن برنامجكم الذي قدمتموه بتاريخ كذا في الساعة كذا كان ممتازا. والإذاعة البريطانية إذ تشكركم ترجو لكم تقدما مطردا» مثل هذه الأشياء لا يمكن أن تحدث في الإذاعة المصرية.. وفي نفس اليوم وصلني من إذاعة الشرق الأدنى خطابا تقول فيه إنها وافقت على تمثيلية المربية وسترسل إلى حافظ الخمسة جنيهات أجر التمثيلية.... هذا وقد كتبت للإذاعة هنا برنامجا عن الحركة النسائية في انجلترا من أجل الحقوق الانتخابية وسأشترك في إخراجه ثم أرسل لكم عن موعد إذاعته. أرجو أيضا أن تستمعوا إلى الحلقة الأخيرة من «اخترت لكم» يوم الثلاثاء القادم الساعة الخامسة وخمسة وعشرون دقيقة.

أما جدولي للأسبوعين القادمين فهو كالآتي: الأحد ٦ فبراير أجازة

الاثنين ٧ أقرأ الشئون العربية في الصحف البريطانية، الثلاثاء ٨ «اخترت لكم»، الأربعاء ٩ إخراج تمثيلية «ثورة النساء»، الخميس ١٠ إذاعة الفجر، الجمعة ١١ أجازة، السبت ١٢ أقرأ نشرات الأخبار (وسأقرأ اسمي قبلها كما أخبرتكم)، الأحد ١٣ أجازة، الاثنين ١٤ أجازة، الثلاثاء ١٥ أقدم البرامج، الأربعاء ١٦ الأحاديث، الخميس ١٧ إذاعة الفجر، الجمعة ١٨ منوعات، السبت ١٩ أجازة.

حضرت في الألبرت هول يوم الأحد الماضي أغان ورقصات قوقازية (دون موسيقى) كتلك الأسطوانة التي أعارها لنا صديق أمين. وقد بدأت في السابعة والنصف وحاولتْ أن تنتهي في العاشرة، ولكن الجمهور بلغ به الطرب فلم يدع المغنين والراقصين ينصرفوا واستمر يدق الأرض برجليه حتى عادوا للغناء. واستمروا حتى الحادية عشرة والنصف.

هذا وسيقدم مغني الأوبرا الإيطالي المعروف «بنيامينو جيلي Gigli» حفلة يوم ٢٥ فبراير في الألبرت هول وقد حجزت تذكرة من الآن.

أذهب الآن من حين لآخر في الصباح المبكر حاملا سلة من السلك وأطوف على المحلات لشراء البيض والزبد والجبن والفواكه والمربى والخبز إلخ. وأقف في طابور طويل معظمه من السيدات كل يحمل سلة في يد ونقوده في اليد الأخرى. وستأتي صديقة لي هنا في الـB.B.C لتعلمني طهي بعض

الأصناف وهي تحضر معي أيضا المحاضرات الأسبوعية في الـCity literary Institute.

وهذا المعهد من أكبر معاهد إنجلترا وقد نصحتني الـB.B.C. نفسها أن أنضم إليه. وفيه تدرس جميع فروع العلوم والآداب. وله مكتبة ضخمة ونادي ومطعم. على الباب الخارجي للمعهد لوحة مكتوب عليها «وفر مجهودك واستعمل المصعد». أما المصعد نفسه فعليه لوحة أخرى مكتوب عليها «المصعد معطَّل».

٤ فبراير: بين الفقرة السابقة وبين ما أكتبه الآن مر يوم كامل وصلني أثناءه خطابكم (ماما وحافظ وجلال) فشكرا جزيلا له. وشكرا لجلال لإطالة الخطاب رغم انشغاله بالامتحانات. أرجو له فيها ما أنا واثق منه. وشكرا لوالدتي التي بدأت أيضا تكتب خطابات مطولة. والواقع أن فاطمة وأنا لسنا في حاجة إطلاقا إلى أشياء من مصر سوى هذا الديك الذي سترسلونه مع صديق أحمد. وبهذه المناسبة أين أحمد؟ لقد بدأ يهيأ لي أنه قد انفصل تماما عن العائلة.

يوم ٢٥ فبراير سيكون يوم شبكة حافظ؟ أنا أيضا سأحتفل بهذا اليوم في حفلة بنيامينو جيلي وأفكر في حافظ باعثا له من لندن تمنياتي بكل السعادة التي يستحقها. أرجو أن يرسل لي حافظ (إن وافق) بعنوان خطيبته حتى أبعث لها بالتهنئة في ذلك اليوم.

أحب أن أشير إلى الفيلم الإيطالي الهائل Umberto D. إخراج فيتوريو دوسيكا الذي مثل في رواية حب وخبز وفانتازيا. هذا الفيلم اعتبره النقاد جميعا هنا خير فيلم ظهر في الأعوام الأخيرة. وهو عن رجل عجوز على المعاش لا يملك سوى كلبه والمعاش الضئيل الذي لا يكفي لسد أجرة حجرته. ويقوم مع زملائه العجزة بإضراب فيفرقه البوليس وتطرده ربة البيت لعدم سداده الأجرة فيدعي المرض ليمكث في المستشفى مجانا بضعة أيام ويطرد من المستشفى عند تبين كذبه.. إلى آخر الفيلم الذي لا يمثل فيه سوى الرجل وكلبه وخادمة صاحبة البيت وهي حامل من عسكري فر منها عندما علم بنبأ حملها. الفيلم من أروع الأفلام التي شاهدتها إطلاقا. Umberto D.

مع هذا الفيلم أيضا كان هناك فيلم آخر أسباني اسمه «مرحبا بالمستر مارشال» وهو يسخر سخرية لاذعة من الأمريكيين ومشروع مارشال لإنعاش أوروبا. وموضوعه كالآتي (أرجو ألا تكونوا قد بدأتم تملون)، موضوعه كالآتي:

بلدة فقيرة جدا في أسبانيا. تجيء العمدة فيها إشارة من الحكومة الأسبانية تأمره بتزيين البلدة والاستعداد لاستقبال الأمريكيين الذين سيزورونها في

القريب لمنحها مساعدة مشروع مارشال. ويستغرق الأهالي شهرين كاملين في تزيين القرية بأقواس النصر والأنوار الملونة ويعدون الخطب ويختار كل فصل تلميذا نجيبا لإلقاء خطاب أمام المندوب الأمريكي. وفي المدرسة يلقي المدرس دروسا عن مساحة أمريكا وأهم مدنها حتى لا يبدو التلاميذ جهلة إذا سألهم المندوب. ثم تُجرى بروفة لاستقبال الأمريكيين ويشعر الجميع بالسرور. وفي اليوم المحدد يقف الجميع منتظرين في حماس رافعين الأعلام الأمريكية إلى جانب الأسبانية وفي أيديهم نصوص الخطب. ويسمع صوت سيارات. إنها السيارات الأمريكية... ولكنها لا تقف بالقرية بل تستمر في رحلتها. لقد رأى المندوب الأمريكي ألا داعي للوقوف عند هذه القرية.

جريدة التايمس هنا هي خير الجرائد على الإطلاق وأعتقد أنها خير الجرائد العالمية. غير أن ارتفاع ثمنها لا يجعلها أوسع الجرائد الإنجليزية انتشارا. ثمنها ٤ بنسات أي ما يعادل ١٦ مليما وهي مكونة من ١٤ صفحة ومنظمة بالترتيب التالي. الصفحة الأولى للإعلانات وكذلك الثانية، الثالثة لأخبار الرياضة. الرابعة للأخبار المحلية. الخامسة والسادسة والسابعة للأخبار العالمية. الثامنة للشرق الأوسط. التاسعة والعاشرة لنقد الأفلام والمسارح والموسيقى والصور. الحادية عشر لعرض الكتب الحديثة والباقي صور وأسعار البورصات.

وهي لا توالي حزبا على الإطلاق فأخبارها صحيحة دائما ومنها تستطيع أن تعلم أي المسرحيات يجب مشاهدتها وأي الكتب تستطيع قرائتها. غير أن بها عيبا وهو أن هذا التنظيم الذي ذكرته للصفحات لا تخرج عنه إطلاقا مهما حدث. فلو أن العالم تهدم ولو أن الدنيا تشقلبت لنشر الخبر في الصفحة الثامنة أي بعد الإعلانات وأخبار الرياضة والأخبار المحلية. وفي هذا ما يجعل المرء يشك في أهمية الخبر حين يجده في الصفحة الثامنة. فالشخص مثلا إذا وجد عنوان «فرنسا توافق على اتفاقيات باريس» في الصفحة الأولى بخط بارز شعر بأهمية الخبر. أما إذا وجده ولو بنفس الصيغة في مكان غير ملحوظ بالداخل، ظن أنه خبر عادي. وهذا هو عيب التايمس.

هل علمتم بهذه الإحصاءات التي أذيعت هنا في إنجلترا؟ ها هي ذي: من بين عدد سكان انجلترا بأجمعها البالغ عددهم ٥٣ مليون هناك خمسة وثلاثين شخصا فقط يزيد دخله الشهري عن خمسمائة جنيه. مع العلم بأنه لكي يكون دخل الشخص صافيا خمسمائة جنيه يجب أن يكون دخله قبل الضريبة ألف جنيه شهريا وتذهب الخمسمائة جنيه الأخرى ضريبة دخل...

لم أكتب لحمادة من مدة. ولكني في الواقع غير قادر على كتابة مثل هذه الخطابات الطويلة مرتين أسبوعيا. وعلى العموم فإني آمل أن يكون بيزوركم

كثيرا. تحياتي وتحيات فاطمة وعبد العزيز إليكم جميعا.

وفي انتظار الديك،

حسين

* * *

لندن في ١٠/٢/٥٥

عزيزي أمين، والدتي العزيزة، إخوتي الأعزاء:

ألف شكر على خطاباتكم الرقيقة. وشكري لأمين على خطابه الأول لي. وأرجو ألا يكون لديه مانع في أن أكتب له على شارع موصيري بدلا من كتابة خطابين قصيرين مشتتين. ولا تتصوروا مقدار فرحي أن أعجبكم برنامجي «اخترت لكم». فإني وأنا أقدمه كنت أحس بأني أخاطبكم أنتم فقط وأني كتبته لكم. كانت الحلقة الثالثة مجرد دردشة. هل سمعتوه؟ لقد كان مستواها أقل من الحلقة الثانية في نظري غير أن مخرج البرنامج «نعيم البصري»، قال إنها أحسن الحلقات الثلاث وطلب مني أن أعد أربع حلقات أخرى من الدردشة لإذاعتها في الشهر القادم. على العموم فإن مركزي قد توطد هنا تماما. وكل قسم يكتب مذكرة إلى المدير يطلبني فيه للعمل بالقسم. وهذا أمر طيب.

أخرجنا بالأمس التمثيلية التي كتبتها عن كفاح النساء الإنجليزيات من أجل حق الانتخاب. وأخذت فيها الدور الرئيسي وستذاع يوم الأحد المقبل ١٣/٢ في حوالي السادسة والثلث (لست متأكدا من الساعة تمامًا) فأرجو أن يصل خطابي قبل هذا الموعد حتى تتمكنوا من سماعها. والواقع أني بذلت في كتابتها مجهودا كبيرا حتى تكون جيدة... ولكن المشكلة هي الممثلون. ليس هنا بالطبع ممثلون محترفون للقسم العربي فنضطر إلى الاستعانة بزوجات أعضاء البعثات والموظفين المصريين والعرب وكلهم مثل فاطمة مثلا لا يعرفون الفاعل من المفعول ولا دراية لهم سابقة بالتمثيل وبعض السيدات يتظاهرن بأنهن فقدن اللغة العربية في إنجلترا فتتكلمن بلكنة انجليزية. وواحدة منهن هي بنت المسرحي المصري المعروف عزيز عيد وهي تتحدث هكذا: «look يا حبيبي شوف الـconceit بتاع الـengineer».

لا أدري كيف يزداد وزني هنا في انجلترا بهذه السرعة.. لقد كدت أقارب أمين في السمنة. هل هي البطاطس المسلوقة؟ إنني الآن أوسع ملابسي قطعة بعد أخرى وسأضطر في النهاية إلى شراء ملابس جديدة. ياقات القمصان التي

أحضرتها من مصر لم تعد تنقفل حول رقبتي. والجاكتة أتركها دون تزرير.. هذا وقد بدأت أغسل القمصان بنفسي أيضا بدلا من إرسالها إلى الـLaundry. إذ أنه كلما أرسلت قميصا إلى الـLaundry يعود إليَّ ناقصا زرارين. والأزرار الباقية قد دخلت في قماش القميص نفسه من أثر المكوى فلا تخرج. وقد اشتريت بكرة وإبرة وأجلس في المساء من يوم لآخر كالفتاة العاقلة أركب الزراير وأرفي الجوارب قبل ذهابي إلى النوم.

تشاجرت مع شيرلي إلى غير رجعة. ولست آسفا على ذلك وهذا هو السبب.....

فتاة أخرى أيرلندية في الثامنة عشرة. نشأت بيني وبينها علاقة كنت أحلم بمثلها منذ عهد بعيد. وديعة وديعة حتى أنني أشعر بعد كل مرة أقابلها فيها أنني أنقى روحا. وقد بتنا نذهب إلى الألبرت هول باستمرار كل يوم أحد ثم نسير بعدها مدة ساعة وقد أمسك كلانا بكف الآخر كالأطفال ثم أوصلها إلى منزلها فأقبلها على خدها ثم ننصرف.. يا إلهي! إنني كالطفل. وأحس أنني سأظل دائما مثل حافظ، a dreamer نعتقد في الناس ما ليس فيهم حقيقة لمجرد أن نشبع مثلنا العليا الطاهرة.

أما قصتي التي أخبرتكم عنها في خطاب سابق فقد توقفت في منتصفها بعد معرفتي لهذه الفتاة. إن المرارة والتهكم التي تحتاج إليها روح القصة قد فارقاني وسأكملها عندما أتشاجر معها. لم أعد أقرأ. لم أعد أكتب. ولكني أعيش كما لم أعش في وقت ما.

هل تعرفون ماذا رأيت هذا الأسبوع؟ فيلم روسي مقتبس عن قصة لتشيكوف The Anna Cross ومعه في نفس الوقت فيلم فرنسي عبارة عن ثلاث قصص لموباسان... ثم رأيت في المسرح رواية جان دارك لبرنارد شو. هذا وكان المفروض أن يغني بنيامينو جيلي إلى جانب الألبرت هول في مسرح آخر حجز له يوم أحد. والمسارح هنا كما تعلمون (ما عدا القاعات الموسيقية) تقفل يوم الأحد فأرادوا أن يعملوا استثناء لبنيامينو جيلي. ولكن الحكومة لم توافق. وبذا فلن يغني جيلي سوى حفلة واحدة في الألبرت هول يوم ٢٥ فبراير وهي الحفلة التي حجزت تذكرة بها.

تحسن الجو هنا كثيرًا حتى أصبح كالربيع. ولكنه بالطبع لا يستطاع الاعتماد عليه فقد يصلكم خطابي هذا وقد انقلب فجأة كما تحسن. على العموم فهو في اللحظة الحالية جميل.

لم تصلني بعد نسخة «الشرق والغرب». وإني مترقب وصولها نظرا لأني سأقدم قراءة منها في الـB.B.C فور وصولها في برنامج «ظهر حديثا». كما

أرجو لو كان من المستطاع إرسال نسخة من كتاب «حياتي».

في المنزل الذي أعيش فيه لا يوجد انجليزي واحد. جميع الساكنين (ويبلغون نحو عشرين شخصا يشغلون عشرين حجرة) من جنسيات مختلفة لا يعرف أحدنا الآخر. وإنه لمنظر مضحك عندما يدق التيليفون ويطلب المتحدث شخصا من الساكنين ذوي الأسماء الغريبة (وكلنا ذوو أسماء غريبة بالنسبة لآخرين) ويظل الذي يرد على التيليفون يقول «مين؟ مين؟ مين؟ مين؟» حتى يضج المتحدث ويتهجى الاسم A.M.I.N. أنيم؟ إميل؟ أمين؟ أمين.. نعم لحظة واحدة.. ثم يدق جرسا معلقا إلى جانب التيليفون حتى يسمع جميع السكان «مستر أميم! تيليفون لك».

ماذا فعل جلال في الامتحان؟ وكيف سيقضي إجازة نصف السنة؟ لقد كتب إليَّ أمين يقول إنه متردد بين شراء سيارة والمجيء إلى انجلترا مع جريتا في الصيف. أعتقد أن فكرة انجلترا أحسن بالنسبة لهم ولي. إنني أعبد هذه البلاد ولا أدري كيف كرهها حافظ. حتى إذا لم نذكر الجو الفني الذي يستطيع الشخص أن يعيش فيه (المسارح، قاعات الموسيقى، المتاحف، المعارض المستمرة، النوادي) فإن الشعب نفسه من الطيبة والرقي إلى درجة لا أعتقد أن شعبا آخر قد وصل إليها.

التحقت بشعبتين من شُعَب نادي الـB.B.C. وهما Rambling أي المشي لمسافات طويلة (كيف حال رجل رجاء ونادية بعد المشوار الذي مشيناه قبل سفري؟) ثم شعبة الرقص وفيها يعطون دروسا للمبتدئين. وأنا المبتدئ الوحيد في الشعبة الذي يزيد سنه على الثامنة.

أكتب إليكم هذا الخطاب في الـBush House حيث أذيع إذاعة الفجر الملعونة، إنني محتاج إلى نوم طويل.. أربعة عشرة ساعة متواصلة مع قربة من الماء الساخنة تحت مجموعة من الألحفة والبطاطين.

ثم لا أخبار بعد ذلك سوى أني سعيد وأنكم قد وحشتموني إلى درجة مخيفة. سلامي إلى نعيمة وأرجو أن تصلني رسالة منكم في القريب العاجل.

حسين

* * *

لندن في ٢٥ مارس ١٩٥٥

والدتي وإخوتي الأعزاء

لقد تراكمت الأشياء التي كنت أريد أن أخبركم بها في خطاباتي لو أنكم واظبتم على الكتابة. والآن أرى من المستحيل أن أكتبها كلها وأكتفي بما أتذكره منها.

فاطمة وعبد العزيز ومنى ينضمون إليَّ في تهنئة جلال بتفوقه وتهنئة حافظ بخطوبته (إلا إذا كانت قد تأجلت مرة أخرى) أما أنا فقد تشاجرت مع فتاتي الأيرلندية التي حدثتكم عنها شجارا نهائيا.

قبل أن أنسى أحب أن أذكركم أنه في يوم الأربعاء القادم ٣٠ مارس في الساعة السابعة والنصف مساء (بتوقيت لندن) سيذيعون برنامجا صغيرا عني بمناسبة انضمامي للإذاعة. أرجو إن وصلكم خطابي قبل هذا الموعد أن تستمعوا إليه.

لقد أصبحت مشهورا لدى المستمعين شهرة لم أكن أحلم بها والخطابات تنهال عليَّ من لبنان وسوريا والعراق واليمن والبحرين..إلخ وكتب أحدهم أنه سمى ابنه المولود باسمي وطلب الآخرون صورتي فأرسلت الإذاعة مصورها ليلتقط لي صورة وأنا جالس إلى الميكروفون لإرسالها إلى حضرات المعجبين في جميع أنحاء العالم العربي.

في الإذاعة هنا تعمل امرأة لبنانية في حوالي الخمسين ككاتبة على الآلة الكاتبة ولها ابنة هويت التمثيل وانضمت إلى فرقة صغيرة بإحدى المسارح وأمها فخورة بها إلى حد مزعج. وهي تأتي كل يوم إلى غرفتنا بالإذاعة لتأخذ واحدا منا كي يذهب معها ليتفرج على ابنتها وهي تمثل. وكان دوري في الأسبوع الماضي فسلمت أمري لله وذهبت معها. وكانت هذه هي المرة الثانية عشرة التي تذهب فيها الأم لمشاهدة التمثيلية. قالت لي قبل أن ندخل: «إنني مكسوفة. لقد بدءوا يلاحظون مجيئي المتكرر. في المرة السابقة نظرت إليَّ عاملة المقاعد وأعطتني برنامجا دون أن تأخذ ثمنه قائلة إنني أصبحت واحدة من الفرقة». ثم أنزلت المرأة (واسمها مسز روك) قبعتها لتخفي جزءا من وجهها كما يفعل اللصوص عند دخولهم بنكا لسرقته.

وحدث ما توقعت. أن دور ابنتها كان من الصغر بحيث لم يلاحظها أحد. كان دورها خادمة تفتح الباب لساعي البريد ويتبادلان نكتتين باردتين تأخذ بعدها الخطابات وتقفل الباب وهذا كل شيء. ولكن عند مسز روك؟ كانت تضحك على كل نكتة ضحكا مقهقها وكأنها تسمعها للمرة الأولى وتضربني بكوعها في جِنبي حتى أضحك أنا الآخر. وعندما فتحت ابنتها الباب لساعي البريد لاحظت

أن حركات مسز روك قد سكنت ولم تعد تضربني بكوعها فالتفت إليها فإذا بالدموع تطفر من عينيها.

وبعد انتهاء التمثيلية ذهبنا إلى المسرح الخلفي لمقابلة ابنة مسز روك. فلما رأت أمها صاحت بها في غضب:

Oh Mummy! You ought to be ashamed of yourself! This is the twentieth .time you have been here(9)

فضحكت الأم وقبلتها وسألتها عما إذا كانت ستعود معها إلى المنزل فأجابتها بالنفي وأخبرتها أنها ستتأخر.

أقامت لنا إحدى الموظفات هنا حفلة صغيرة في غرفتها حضرتها أنا ومنير شما وصديقته الأمريكية وثلاث فتيات عراقيات. وقد التقطنا صورا سأرسل لكم قريبا واحدة. وفي ختام الحفلة أخذت موعدا مع إحدى الفتيات العراقيات وتدعى Julie وقابلتها في اليوم التالي ثم بعد ذلك باستمرار متناسين الخلافات بين حكومتينا.

جاءت إلى لندن أمينة السعيد في طريقها إلى أمريكا في جولة حول العالم على حساب أمريكا. وقد أوفدتني الـBBC لمقابلتها وتسجيل حديث معها فلما بدأت بالسؤال عن حركة إضراب النساء عن الطعام التي نظمتها درية شفيق أجابت أمينة السعيد: «ماتجيبليش سيرة الست دهيه». فلما أبديت دهشتي بدأت تكيل لها السباب والشتائم وقالت في النهاية: إنني لا أريد أن نبدو متفرقين أمام المستمع العربي. وفي اليوم التالي ذهبت أمينة السعيد لتناول الشاي مع فاطمة وعبد العزيز ثم سافرت إلى أمريكا.

ملحوظة: وصلني الآن خطاب حافظ وأحمد فشكرا جزيلا عليه وشكرا لأحمد أنه عاود الكتابة والسبب في تأخري في الكتابة هو أنني لم أردكم أن تعتقدوا أن باستطاعتكم أن تتغيبوا شهرا ونصف عن الكتابة ثم تتوقعون مني أن أرد فورا حالما تستأنفون إرسال الخطابات. على العموم، أرجو ألا يتكرر هذا التأخر المرعب. والعذر الذي أبداه أحمد للتقصير هو التقصير نفسه وهو عذر غير مقنع.

أما عن أني لا أكتب في روزاليوسف فالواقع أنني لا أجد وقت فراغ إطلاقا ليس فقط للكتابة بل أيضا للتفكير (إذاعة، مسارح، نادي الإذاعة، تعلم الرقص، محاضرات في المعهد، خروج مع الصديقات...إلخ) ولكني على العموم أجمع موادا للكتابة قد أستخدمها في المستقبل عند رجوعي إلى مصر.. يا إلهي!

عندما أفكر في التجارب التي مرت بي منذ التحاقي بالإذاعة المصرية حتى اليوم يخيل إليَّ أن لديَّ ما يكفي لملء مجلدين ضخمين. إن حياتي ستكون حياة مغامر في الآفاق لا حياة موظف حكومة وأعتقد أن هذا لازم لتكوين من يريد أن يكون كاتبا.

اليوم سأذهب في الرابعة والنصف بعد الظهر مندوبا عن الـB.B.C. لحضور معرض جاذبية سري في النادي المصري وتسجيل حديث معها. وقد أعطوني الآن تذكرة مرور صحفي تمكني من حضور الاحتفالات والمعارض وجلسات البرلمان.

أكرر الآن تهنئتي لحافظ بعد وصول خطابه وتأكدي من أن الخطبة قد تمت فعلا، فالجميع يمدحون في خطيبته وهي تبدو جميلة في الصورة التي بعثها حافظ إليَّ. ولكني أرجو أن يكتب أحدكم تحليلا مفصلا عنها.

في دبلن بأيرلندا عرضت في مسرح هناك تمثيلية للكاتب الأيرلندي Sean O’Casey وفي الليلة الأولى حضر الكاتب التمثيل. وورد في التمثيلية هجوم على رجال الدين فإذا بالجمهور يصيح ساخطا ويرمي المؤلف بالطماطم (الله وحده يعلم من أين أحضروا الطماطم) وأنزل الستار قبل انتهاء المسرحية. وظهرت التايمس في اليوم التالي حاملة حملة شعواء على الشعب الأيرلندي ذي العقلية المتحجرة. وبما أن ظهور المقال صادف اليوم الذي تشاجرت فيه مع صديقتي الأيرلندية فقد وجدت في قراءته متعة كبيرة. وبدأت أقرأ تمثيليات هذا الكاتب.

أرجو أن يكون أحمد قد أرسل ورقة استفتاء الإذاعة البريطانية إذ أن هذه الأشياء هامة جدا من حيث تأثيرها على الرؤساء. فهم يطبعون كل خطاب مدح أو ذم ويرسلونه إلى الإدارة. والإذاعة هنا تدلل المستمعين تدليلا مذهلا والسبب في ذلك مفهوم ألا وهو استمالة المستمع إلى السياسة البريطانية. إذا طلب المستمع صور المذيعين أرسلوها إليه وإن أرسل يسأل سؤالا سخيفا تافها أجابوا له عنه في خطاب خاص شاكرين له اهتمامه بإذاعتهم. وكل طلب أو نصيحة يتقدم بها مستمع يعمل بها على الفور، لذلك فإنه عندما أرسل عشرات المستمعين يطلبون أن أستمر في تقديم برنامج اخترت لكم وكتب أحدهم: «إن السيد أمين يجمع بين الفكاهة والصراحة والحكمة» طلبوا مني أن أسجل لهم أربع برامج أخرى.

لعلكم قد علمتم أن البرنامج الثالث Third Programme في الـB.B.C. قد أذاع هذا الأسبوع مرتين تمثيلية توفيق الحكيم «شهرزاد». ومدحت التمثيلية جريدة

التايمس (ملحوظة: آسف أنني أكثر من ذكر جريدة التايمس ولكني في الواقع مجنون بها ولم أعد أستطيع أن أقرأ جريدة غيرها. إن الجرائد الأخرى تبدو بجانبها كالبعكوكة). ولكن المؤسف أن الجريدة أضافت في حديثها عن توفيق الحكيم أنه تلقى تعليمه في فرنسا وأن ثقافته أجنبية بحتة وكأنه من المحال أن يتفوق أديب مصري دون أن يكون ذا ثقافة أجنبية بحتة وأن يكون قد تعلم في الخارج. على العموم فقد شعرت بالغيرة عندما سمعت التمثيلية وخاصة إذ مثلها كبار الممثلين الإنجليز وصممت على أن أكتب شيئا مماثلا يذاع في البرنامج الثالث.

حدث منذ أسبوعين أن انتحرت صديقة أحد زملائنا المصريين في الإذاعة البريطانية (هو جمال الكيناني) واستدعاه البوليس للتحقيق معه ونشرت الصحف صورته. وقد طلب الكيناني إجازة طويلة.

ما زلت أذهب إلى المسرح بكثرة مذهلة. وقد شاهدت حتى الآن منذ مجيئي ٤٢ مسرحية. أما عن السينما فقد رأيت في الأسبوع الماضي رواية إيطالية هي خير رواية شاهدتها على الإطلاق وتدعى المعطف The Overcoat وهي مبنية على قصة جوجول. كما ذهبت لسماع بنيامينو جيلي في الألبرت هول وهذه هي آخر حفلات جيلي في انجلترا وسيعتزل الغناء نهائيا في يونيو القادم.

أرجو أن يخبرني حافظ هل الكتاب عن الذرة الذي يشترك فيه مع أمين مؤلف أم مترجم. إذ أنه لو كان مؤلفا فإني أرغب بشدة في أن أكتب فصلا فيه عن الاستخدامات السلمية الممكنة للطاقة الذرية. هل هذا ممكن؟

الجو هنا قد تحسن كثيرا وأصبح يقرب من جو الربيع ولو أن الشمس مصممة على عدم الظهور.

أما عن إجازتي السنوية التي ستبدأ من يوم ٢٢ مايو إلى ١٩ يونيو (عيد ميلادي) فإني في حيرة شديدة: هل أقضيها في مصر رغم بهاظة التكاليف، أم أنتهز فرصة وجودي بالقرب من القارة الأوروبية فأزور فرنسا وإيطاليا وخاصة أن لدي تذكرة طائرة مجانا إلى باريس؟ ما رأيكم؟ ميزة الرحلة إلى مصر هو أني أولا أريد رؤيتكم وثانيا أني محتاج إلى رحلة بحرية. وميزة الرحلة لفرنسا قلة التكاليف ورؤية بلد جديدة واستفادة في اللغة بالإضافة إلى أنني لو سافرت إلى فرنسا فمن الممكن أن يأتي بعضكم إلى لندن بعد ذلك للمكوث معي أو أن أقابلكم في باريس.

إنني أستفيد من إقامتي هنا استفادة لا حصر لها. تجارب تجارب تجارب باستمرار. صحيح أن قراءاتي قد قلت لدرجة مخجلة ولكن لا بأس فإني لم آت

إلى انجلترا لأقرأ.

تحياتي إلى جريتا التي لم ترد على كارت التهنئة بعيد ميلادها وإلى أمين الذي لم يعد يكتب إليَّ ونعيمة التي لم تكتب سطرا واحدا منذ أن حضرت إلى هنا. وصلني من نادية ورجاء خطاب هذا الأسبوع وسأرد عليه غدا.

لماذا لا تكتب إليَّ والدتي؟

تحياتي إليكم جميعا ورجائي ألا تتأخروا ثانية كما تأخرتم في الشهر الماضي في كتابة الخطاب حتى تتاح لي فرصة الكتابة إليكم دائما بجميع ما يحدث لي هنا.

مع أخلص التحية

حسين

ملحوظة: إن أردتم صورة لي اكتبوا للإذاعة (باسم مستعار طبعا وعنوان آخر وليكن عنوان نعيمة) مبدين إعجابكم بصوتي وطالبين صورة لي وأنا جالس إلى الميكروفون.

* * *

لندن في ٥ أبريل ١٩٥٥

عزيزي حافظ،

شكرا على خطابك وأرجو أن تداوموا على الكتابة إليَّ باستمرار، مرتين أسبوعيا على الأقل حتى أوافيكم أنا أيضا بأخباري أولا بأول إذ أن كل يوم هنا يحدث لي فيه ما يكفي لملء ست صفحات من هذا الحجم. وشكرا لأمينة على الكلمة الرقيقة التي أرفقتها بخطابك وسأكتب لها فور انتهائي من هذا الخطاب. والآن.. الأخبار.

نبدأ بحفلة جاذبية سري يوم السبت من الأسبوع الماضي. ذهبت كما أخبرتكم مندوبا عن الـB.B.C لأعمل interview مع جاذبية. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أراها فيها. طولها متر وتلبس بنطلونا أسود طوله ٤٠ سم. وكان هناك السفير الروسي في لندن جيكوب ماليك وزوجته السمينة والسفير المصري. وكان ماليك هو السفير الوحيد الذي قبل دعوة جاذبية لحضور المعرض. وقد

ظل يتحدث طوال الوقت مع عبد العزيز فكنت أنظر إلى عبد العزيز عبر المائدة كي يعرفني به فكان يشيح بوجهه إلى الجهة الأخرى وأذهب إلى الجهة الأخرى لأنظر إليه فينظر إلى الجهة الأخرى. وعندما انصرف ماليك جاء إليَّ عبد العزيز صائحا: «إنت فين يا راجل وأنا بادور عليك من الصبح علشان أقدمك له». فابتسمت له شاكرا وأنا أمنع نفسي من الفتك به.

بعد تناول الطعام (وهو ما جاء من أجله معظم المصريين) بدأ المعرض. وأخذت أنا الميكروفون وانتحيت بجاذبية جانبا. وهنا فوجئت بحقيقة مرة. عندما كنت أعمل حديثا مع أمينة السعيد وسألتها عن درية شفيق ردت باللعن والسب في درية شفيق. وعندما سألت جاذبية سري عن إنجي أفلاطون ردت بالهجوم والطعن. قلت في نفسي: سبحان الله! ألا يمكن أن يوجد زعيمان لحركة أو فن دون أن يحمل كلاهما الحقد للآخر؟

ومع ذلك فجاذبية لطيفة، بسيطة وطبيعية. قالت لي: إنت يمكن تاخد عني فكرة إني خواجاية إكمني لابسة بنطلون. إنما أنا فلاحة بنت فلاح. ثم غنت لنا «طلعت شمس الشموسة ياللا نحلب لبن الجاموسة» أو شيء من هذا القبيل.

وقابلتها بعد ذلك في حفلة أقامها النادي العراقي ورقصت معها ثم اتفقنا على أن نذهب يوم السبت المقبل إلى Arts Theatre وستأتي يوم الجمعة إلى الـB.B.C لزيارتنا وقد اختتم العراقيون حفلتهم الراقصة بعراك دامٍ بينهم بسبب فتاة انجليزية كانت معهم وخلعوا الجاكتات ليتمكنوا من الضرب أسهل وجاء البوليس وحمل بعضهم معه.

تبدأ من يوم الاثنين المقبل إجازتي لعيد الفصح وهي لخمسة أيام وسأذهب إلى بلدة «توركي» على البحر لقضاء الأيام الخمسة هناك وقد حجزت فعلا في القطار وفي إحدى اللوكندات هناك.

لماذا لا تكتب إليَّ والدتي؟ إنه الآن شهرين منذ أن تلقيت منها كلمة.

كنت الآن في مسرح Palace للتفرج على موريس شيفالييه. إنه رائع. غير أنه قد تقدم كثيرا في السن وثقلت حركاته. ولكنه مع ذلك ظل وحده على المسرح مدة ساعتين دون أن يفقد سيطرته على الجمهور.

البلاد الآن في حالة من الاضطراب الشديد لا أعتقد أنه مر على إنجلترا من قبل. أولا: استقالة تشرشل. لقد ودعه الناس وكأنهم يودعون إلها سيصعد ثانية إلى السماء. والوفود ما زالت حتى الآن تذهب إلى مسكنه تصيح: نريد ويني (تدليع وينستون) ويغنون: «For he is a jolly good fellow». إن إيدن لن يملأ

الفراغ الذي سيتركه تشرشل قط ولكن الاعتقاد السائد هو أنه سيكسب الانتخابات التي ينتظر إجراؤها في يولية.

أما حزب العمال فَقَدْ فَقَدَ حظوته لدى الشعب بسبب حكاية بيفان(10). ورغم أن الحزب تدارك الأمر ولم يفصل بيفان من الحزب نفسه إلا أن الصدع لم يلتئم. وقد سمعتم بالطبع بإضراب الجرائد الذي يدخل غدا يومه الرابع عشر. لقد شعرنا في اليومين الأولين للإضراب بارتياح وسرور إذ نستريح من قراءة الأخبار السياسية لسبب لا تقصير لنا فيه. ولكن المسألة طولت وبتنا الآن منقطعين عن العالم (اللهم إلا بطريق الراديو). وتنظر الآن إلى الانجليز في الأندرجراوند وهم عائدين إلى منازلهم في المساء فتجدهم حيارى لا يدرون ماذا يصنعون وهم معتادون على قطع المسافة في قراءة صحف المساء. وتجدهم الآن ينظرون حولهم وإلى أطراف أصابعهم كمدمن المخدرات الذي لم يتناول مخدرا منذ أيام.

البرنامج الذي أخبرتكم عنه (الذي أعدته الـB.B.C عني) أذيع في نفس اليوم الذي أخبرتكم عنه ولكن في الإذاعة المسائية الأولى في الساعة الخامسة وخمسة وعشرين دقيقة، وقد أخطأت في ذكر الموعد لكم. لا بأس. هل أرسلتم في طلب الصورة؟ لقد كتب أحد المستمعين إليَّ يدعوني لقضاء الإجازة ضيفا لديه في الحجاز فأرسلت إليه اعتذاري وشكري. وكتب آخر يقول إنه عندما يستمع إلى صوتي وهو يأكل يقفز فرحا ويتوقف عن المضغ. فشكرته أيضا.

عاد أحد الإنجليز الذين يشتغلون في الإذاعة إلى لندن بعد رحلة إلى الشرق الأوسط. وعندنا كلما قام شخص برحلة هامة نظموا يوما كي يلقي علينا محاضرة عن رحلته. وقد قال في حديثه عن اليمن إنه رأى جنديا يمنيا حاملا خنجر فسأله ماذا يجديه الخنجر لو حلقت طائرة العدو في الجو. أجاب الجندي: أقرأ عليها الفاتحة فتخر على الأرض. وقال عن الحجاز إن الإذاعة هناك لا تذيع سوى الأخبار والقرآن الكريم والمارشات العسكرية فإذا ضبط حجازي وهو يسمع الغناء (وهو حرام) من محطة القاهرة أو لندن قبض عليه واستولوا على جهاز الراديو. ومع ذلك فإن الإذاعة الحجازية نفسها تذيع موسيقى كمولد النور أو بنت البلد ولكن بشرط، وهو أن يصفها المذيع ويقدمها على أنها مارش عسكري.

الجو هنا قد أصبح يشبه الشتاء في مصر. وقد خرجت اليوم لأول مرة منذ مجيئي إلى لندن دون بالطو، ولكني لن أفعلها مرة ثانية فقد اشتد البرد بعد خروجي مباشرة وبدأت أعطس.

الزملاء هنا أقوياء في اللغة العربية جدا. وأعتقد أن لغتي العربية قد تحسنت كثيرا منذ مجيئي إلى لندن. وهم يهتمون برفع الفاعل ونصب المفعول أكثر من اهتمامهم بالصوت أو القراءة. وهنا شخص يدعى حسن الكرمي وظيفته الوحيدة هي مراقبة لغتنا العربية. ويقدم لنا بعد كل نشرة أخبار نقرؤها قائمة (في طول هذه الصفحة) كتب فيها أربعين خطأ نحويا ارتكبناها في النشرة. ومع ذلك فاللهجة المصرية ألطف بكثير. وقد وضعوا لنا قانونا للعبارات: كلمة «نشرة الأنباء» ليست صحيحة لأن «النبأ» هو الخبر العظيم المذهل كقيام الساعة أو حدوث زلزال. كلمة «حادث هام» ليست صحيحة لأن الهام هو ما يجلب الهم أما الصحيح فهو الحادث «المهم». وهكذا.

وقد أراد حسن الكرمي هذا أن يجعلنا نقول «القنبلة النووية» بدلا من القنبلة الذرية ولكننا بالطبع أصررنا على استعمال «الذرية»، فخضع آخر الأمر وهو مشمئز متحسرا على ضياع اللغة العربية.

وعلى ذكر القنبلة النووية سأبدأ غدا في كتابة الفصل الذي وعدت به عن الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية. وسأرسل لكم الصفحات التي أنتهي منها أولا بأول.

فاطمة وعبد العزيز والأولاد بخير. وقد تزحلقت نوسة منذ يومين على الثلج فجرح ساقها غير أنها عادت يوم أمس إلى المدرسة.

لقد أصبحتُ الآن حقا وصدقا ست بيت ممتازة. صحيح أن أحدا غيري لن يقبل أن يذوق الطعام الذي أطبخه ولكن تصوروا الفرحة التي أشعر بها وأنا أحاول طبخ الأرز عندما أجد بعد عشر دقائق من المحاولة أن الشبه بعيد نوعا ما ولكنه أرز يؤكل. العيب الوحيد الذي أقابله عندما أطبخ بنفسي هو غسيل الحلل والأطباق بعد الأكل. إنني أجد نفسي بعد غسلها قد هضمت الأكل كله وجعت من جديد. ولكني مع ذلك لن أتزوج. لقد أخبرني زميل لنا هنا عندما اشتكيت له من أن أزرار قمصاني قد تقطعت ولا أجد الوقت لتركيبها قال: «نعم، ولكنك إذا تزوجت لن يصبح عندك قميص على الإطلاق».

أختم الآن خطابي بسرعة رغم أني لم أكمله فورائي دستة من الخطابات يجب كتابتها وسأبدأ الآن خطابا لأمينة المغربي.

أطيب تحياتي لكم

حسين

* * *

لندن في ١٤ مايو ١٩٥٥

عزيزي جلال

خطابك السابق كان أجمل خطاب وصلني حتى الآن. قرأته في متعة كما أقرأ قصة وسرني أنك كنت البادئ في نقل أخباركم إليَّ في صراحة. ولكن ماذا تعني أن عائشة تزوجت من رجل متزوج؟ هل تعني أنه سيطلق زوجته الأولى أم أنه سيتخذها زوجة ثانية؟

حسنا يا سيد جلال. سأعفيك من كتابة الخطابات حتى تنتهي من الامتحانات على أن تعدني بأن ترسل إليَّ بعد الانتهاء منها خطابات مثل خطابك السابق. وإليك الآن أخباري بالتفصيل من لندن.

سأخبرك أولا بأهم شيء طرأ عليَّ منذ مجيئي إلى إنجلترا مما أعطى لحياتي صبغة جديدة: تعلق جنوني بدراسة السياسة والشئون الدولية ليس فقط لا اقرأ إلا فيها بل ربما أيضا لا أفكر إلا فيها. وقد اشتركت الآن في ثلاث مجلات أسبوعية وشهرية هي خير المجلات السياسية في إنجلترا: Spectator وStatesman & Nation وEncounter علاوة على قراءة التايمس اليومية والفضل في إعطائي هذه الوجهة يرجع ١٠٠٪ إلى عملي في الـB.B.C. فنحن ليس فقط نترجم ونقرأ الأخبار بل نشترك أحيانا في إعداد التعليق على الأخبار وإعداد برنامج الشئون العربية في الصحف البريطانية. لقد أصبح باستطاعتي الآن مثلا أن أتحدث عن مشاكل الهند الصينية أو فيتنام كما لو كنت رئيسا للوزارة فيها. وقد جلست بالأمس في غرفتي وفردت على المائدة خريطة كبيرة للعالم وقلت لنفسي: لنفرض أنه عهد إليك أن تصنع مشاريع لتخفيف حدة التوتر العالمي في جميع أنحاء العالم فماذا تقترح؟.. وكانت النتيجة لا أني وصلت إلى مقترحات بل شعرت بحاجتي إلى دراسة أوسع.

إن بريطانيا تملك خير صحافة في العالم وصحف مثل التايمس أو المانشستر جارديان لا يمكن أن تجد ما يقاربها في الوقار والتعقل. ولكن الشعب الإنجليزي للأسف لا تهمه الأخبار السياسية إطلاقا لذلك فرغم أن جريدة التايمس أزادت من عدد صفحاتها إلى ٢٤ صفحة دون زيادة سعرها فإنها ما زالت أقل الجرائد الإنجليزية انتشارا والسبب: أنها لا تنشر عواميد كاملة للجرائم ولا تهتم إذا قصت الأميرة مارجريت شعرها.

-

أوفدتني الـB.B.C في الأسبوعين الماضيين في مهمتين شيقتين: الأولى: إلى مدينة برمينجهام شمال لندن لوصف حفل افتتاح معرض الصناعات الثقيلة هناك. وبالطبع كان سفري وإقامتي وأكلي هناك على حساب الـB.B.C... الثانية: وأرى من الأفضل التحدث عنها تفصيلا نظرا لأنها تركت أثرا عميقا في نفسي لأنها التجربة الأولى من نوعها بالنسبة لي:

ذلك أن هيئة الأمم المتحدة أقامت في أفخم قاعة في لندن (Guildhall) احتفالا بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيسها (تأسيس الهيئة لا القاعة) وقبل الاحتفال بيومين أخبروني هنا في الـB.B.C أنني سأذهب مندوبا عنها في الحفلة وأنها ستكون حفلة عشاء ضخمة والملابس: ملابس السهرة.

وهرعت إلى عبد العزيز فلم أجد لديه بدلة سهرة غير أنه أخبرني أن هناك محلات تؤجر البدلة في اليوم مدة أربعة وعشرين ساعة لمثل هذه الأغراض.

ولبست البدلة في اليوم المحدد وذهبت.. يا الله! يا الله! لم أر في حياتي مثل ما شاهدت بتلك الليلة. كان من الواجب أن أبدأ من البداية ولكني لا أستطيع إلا أن أقفز إلى ذكر الطعام الذي تناولته هناك:

١- أورديفر وشربة مع النبيذ

٢- فطائر الـMushroom والبصل المشوي مع الويسكي

٣- فراخ محمرة وبطاطس وبسلة مع شمبانيا

٤- مايونيز وبسكويت مملح مع كونياك

٥- فراولة بالكريمة مع أيس كريم وقهوة مع شيري ثم يطاف عليك بقطع من الجاتوه إذا لم تكن قد شبعت بعد.

كل هذا والفرقة الموسيقية تعزف في الشرفة العليا مقطوعات لشوبان. والجارسونات البالغو الأناقة (إذا قابلت أحدهم لا تعرف ما إذا كان جارسونا أم السفير الأمريكي في لندن) يلبسون الجوانتيات البيضاء ويأتون من شمالك دائما ليغرفوا لك بمعالق فضية من أواني مذهبة. والورود على المائدة. ثم تطوف بك سيدة في ملابس السهرة تقدم لك علبة من السيجارز Cigars الفائحة الرائحة. كل هذا في جو من الفخفخة التي لا حد لها.. الجميع بأوسمتهم على صدورهم ما عداي والصحفيين. السيدات لا يخلعن الجوانتيات من أيديهم أثناء الأكل بل لأصابع الجوانتيات أزرار يمكن رفع الأصابع دون خلع الجوانتي

كما تقشر الموزة. الجميع يتكلمون من أطراف أنوفهم ولا يكادون يمدون أيديهم إلى الأكل. رجال الصحافة والإذاعة هم وحدهم الطبيعيون: جلسنا على مائدة في الطرف كل إلى جواره نوتة يلخص فيها الحفل.

وبعد الأكل وقف اللورد مايور Lord Mayor فاقترح الشرب نخب الملكة وصحنا جميعا وراءه: الملكة! وشربنا الكأس.. واقترح الشرب نخب العائلة المالكة فملأ الجارسونات الكئوس وصحنا جميعا وراءه: العائلة المالكة! وشربنا الكأس. واقترح الشرب نخب الأمم المتحدة فملأ الجارسونات الكئوس ولكني أحسست أنني لو شربت أكثر من هذا لساءت العقبى فتظاهرت هذه المرة بالشرب بعد أن صحنا: الأمم المتحدة!

ووقف اللورد مايور بعد ذلك فألقى خطابا يستعرض فيه أعمال هيئة الأمم المتحدة. بالطبع لم يكن هناك واحدا من الخمسمائة شخص الحاضرين مستعدا للتفكير في الأمم المتحدة بعد مثل هذا العشاء. ورغم أن العشاء أقيم خصيصا من أجل الخطب التي ستليه إلا أن الشعور السائد هو أن الخطب عن الأمم المتحدة لم تكن مناسبة لكي تلقى بعد العشاء والشمبانيا. ولكننا استمعنا في أدب وفتحت أنا النوتة ألخص الخطبة. ثم وقفت مدام بانديت شقيقة نهرو فألقت خطابا ممتعا ساعدنا على الهضم. وبعد خطب أخرى تثائب الجميع خلالها ونظروا إلى ساعاتهم انتهى الحفل ورجعنا إلى بيوتنا وقد زاد إيماننا بجلالة أعمال الأمم المتحدة وضرورة بقائها.

وبالطبع عندما قصدت كانتين الـB.B.C. في اليوم التالي لأتناول الغداء كانت أول كلمة قلتها عندما قدم إليَّ الطبق: ما هذا؟ قلتها باشمئزاز واستغراب وكأني كنت أتوقع أن أتناول من الآن فصاعد أكل الأمم المتحدة. هذا هو العيب الأكبر في الموضوع كله.

جلال.. على فكرة.. سأبدأ من يوم الثلاثاء ٢٤ مايو في تقديم ثلاث حلقات أخرى من برنامج اخترت لكم نظرا للنجاح الذي لاقته حلقاته السابقة وقد سجلت اليوم الحلقة التي ستذاع يوم الثلاثاء ٢٤.. جلال.. ضروري ضروري تسمعها.. هذه الحلقة بالذات.. أؤكد لك أنك ستفخر بي عند سماعها فهي الـmasterpiece بتاعتي. وهي باللغة العامية.

لا أعرف بالضبط الساعة التي ستذاع فيها نظرا لأن البرامج ستتغير بعد شهر رمضان. ولكنها ستكون في الغالب في الساعة السابعة والثلث (بتوقيت القاهرة). على العموم ابقوا الراديو مفتوحا باستمرار طوال تلك الأمسية لأن البرنامج هام للغاية.

في الانتخابات الجارية الآن سيفوز المحافظون حتما ليس فقط مجرد فوز بل بأغلبية ساحقة. إن حزب العمال قد ضعف إلى درجة مذهلة بسبب الانشقاق الذي وقع مؤخرا. ورغم أن آتلي أعلن صلحه مع بيفان إلا أن الجميع يعلمون أنه مجرد صلح في الظاهر لمواجهة الانتخابات.

عندنا في الإذاعة كبير المذيعين يدعى موسى سعودي وهو حاصل على الجنسية البريطانية وله حق الانتخاب. هو عمالي وزوجته الإنجليزية محافظة. قال لها: بما أن صوتك أنت سيبطل مفعول صوتي أنا فلا داعي لأن نتعب أنفسنا ونذهب لإعطاء أصواتنا. فوافقت الزوجة غير أنه مصمم أن يذهب من ورائها لإعطاء صوته للعمال.

أرجو ألا تكونوا قد غضبتم من أني سأقضي إجازتي في فرنسا وإيطاليا وستعلمون السبب الحقيقي في أني لم آت إلى مصر في الإجازة، يوم أول يوليو من عندكم أنتم (أي من مصر).. على العموم فإني واثق من أني سأستفيد تماما من رحلتي هذه.

خطرت في ذهني يا بلبل فكرة قصة novel جبارة ولكن الوقت هو المشكلة. لا وقت عندي إطلاقا لكتابتها. لذلك فإن كل ما أصنعه هو استعراضها في ذهني فصلا فصلا. إنني حتما سأكون في المستقبل أديبا.

شكرا لحافظ على الصور (أم أنك أنت الذي أرسلتها؟) لقد حاولت مرارا أن أكتب لأمينة خطابا ففشلت. كيف يستطيع الشخص أن يكتب خطابا غير متكلف لشخص لم يتعرف به؟ لذلك فقد اكتفيت ببطاقة رسمية أرسلتها إليها من توركي. لماذا لا تكتب إليَّ والدتي؟ هل تعلم أنها لم ترسل إليَّ منذ شهر يناير سوى بخطاب واحد؟ خطاب واحد؟ خطاب واحد في خمسة أشهر! على العموم فهذا خير من خطاب واحد في ستة أشهر (أمين) ولا خطاب على الإطلاق في ستة أشهر (نعيمة).

من الأشياء الأخرى التي استفدتها من عملي هنا في الإذاعة إطلاعي على الفروق بين اللهجات العربية المختلفة في العالم العربي. الفرق بين اللهجة المصرية والشامية والعراقية والليبية..إلخ. اللهجة المختلفة تماما هي العراقية لدرجة أن العراقيين هنا لا يفهمونني ولا أفهمهم إذا تحادثنا باللغة العربية (أقصد العامية) لذلك فنحن نتحادث بالانجليزية. البطيخ عندنا يسمونه عندهم «الشمام». أما الشمام فله كلمة أخرى لا أذكرها. إذا سألك عراقي: إيش لونك؟ (أي «إزيك») وأجبته «مبسوط» صاح بك مدهوشا: إزاي؟! مين بسطك؟ مبسوط عندهم معناها مضروب وبسط الشخص يبسطه أي يضربه.

هل وجدت الوقت لقراءة كل هذا الخطاب؟ إنني أتخيلك الآن بالفانيلا وبنطلون البيجاما وقد طالت ذقنك، جالسا في الشرفة الخلفية بغرفتك وقد مددت رجليك على السور فيتفتت طلاء السور من تحت قدميك. بينما عصير الليمون ينتظرك في الجزء الأعلى من الفريجيدير وربما أيضا خشاف الخوخ إذا كان حمادة عندكم.

الآن أختم الخطاب متمنيا لك التوفيق في الامتحانات ولوالدتي والجميع كل سعادة وصحة. سأجلس الآن لأتقوى في الفرنسية ساعة أو ساعة ونصف ثم أنام. إنني لا أستطيع حتى هذه الساعة أن أطرد من ذهني ذكرى عشاء الأمم المتحدة.

حسين

* * *

هنا لندن

في ٢٠/٥/٥٥

مجرد كلمة صغيرة قبل أن أذهب إلى الـB.B.C لأرفق مع الخطاب صورة لي ولأذكركم بموعد برنامج اخترت لكم الذي أرجو ألا يفوتكم: الثلاثاء ٢٤ مايو الساعة العاشرة إلا الثلث بتوقيت القاهرة.

على العموم لا تندهشوا إذا فتحتم الراديو فلم تجدوني فيه. فقد أثار البعض هنا ضجة عندما سمعوا هذه الحلقة بعد تسجيلها. وربما أذيعت بعد حذف قطع منها.

سأغادر إلى باريس يوم ٢ يونيو ثم إلى نيس في جنوب فرنسا ثم روما، البندقية، لوسرن بسويسرا ثم لندن مرة أخرى.

أرجو أن يصلني خطاب منكم قبل آخر هذا الشهر.

حسين

* * *

[القاهرة، ٢٦ مايو ١٩٥٥]

ابني العزيز حسين أمين

سلامي وأشواقي إليك وكل عام وأنت وفاطمة والدكتور عبد العزيز ونوسة ومنى بخير إن شاء الله تكون صحتك كويسة. سمعنا صوتك في الراديو امبارح قبل وصول خطابك وصورتك ولكن صورتك باين عليها الضعف يا سي حسين أرجوك أن تتفسح كتير ولا تتعب نفسك أبدًا لأن مافيش أحسن من الصحة. قد عيدنا العيد وهو أسخم عيد في حياتي وهو انت مش ويانا وموت والدك كان عيد يعلم به ربنا(11) وكلمتنا فاطمة في التليفون من غير علم الدكتور عبد العزيز انها ستحضر إلى مصر لتعيد معنا ولكن عقلها رجع تاني وعدلت ولكن هل صحيح رايح تحضر في يوليه أو كلام كذب على العموم على كيفها احنا اشتقنالك خالص لأنك راجل صحيح فرحنا جد لما سمعنا صوتك وكنت بتتكلم أحسن من كل مرة تقدمت جدًا جدًا في الكلام فنهنيك يا سيد حسين والسلام..

والدتك

عزيزي حسين

أكتب إليك كلمة سريعة لتصلك قبل سفرك.

أولًا أهنيك بالرحلة التي ستقوم بها ولا شك أنها ستكون ممتعة.

لم أسمع برنامجك الأخير إذ وصل خطابك في اليوم التالي، وسمعت يوم الثلاثاء البرنامج الذي يقولونه في السابعة فلم يذكروك فخرجت ورحت سينما. ولكن أحمد سمعه وقد أعجبه ولكنه لا يوافقك على رأيك. وقد جعلته يذكره لي بالتفصيل وأعجبني أيضا ولكني استغربت أن يسمحوا بقول مثل ذلك في إذاعة لندن. لاحظنا كلنا في صورتك أنك كمن زدت سنا وبدأت التجارب يظهر أثرها على وجهك (وعلى فكرة التصوير وحش).

لا تقف كثيرا مع كلمة ماما «أسخم عيد» وخلافه.. فهي مجرد حالة عابرة مما تعرفه أنت(12).

أرجو أن تكتب لنا باستمرار من البلاد التي تمر بها.

جلال

أرجو عندما تصف هذه البلاد ألا تقول «جميلة جدا جدا..» فهذا لا يؤثر في النفس وإنما اكتب ما هو من قبيل «شعوري كشعور الرجل الثري الذي يمضي

حياته بلا عمل..» وحبذا لو تكلمت أيضا عن طباع الإيطاليين والفرنسيين والسويسريين.

* * *

لندن في ٢٨ مايو ١٩٥٥

عزيزي أمين، عزيزي حافظ، والدتي وإخوتي الأعزاء:

شكرا لكم على التهنئة بالعيد الذي ذكرتني خطاباتكم به. بالطبع لم أشعر به إطلاقا فلا الراديو يذيع صلاة العيد ولا أخذنا إجازة يومها.. نأخذ إجازة في عيد القديس جورج ولا نأخذها في عيد الفطر..

بقيت أربعة أيام أسافر بعدها في رحلتي للقارة.. لن أذهب إلى سويسرا بل سأكتفي بفرنسا وإيطاليا وسيكون خط سيري كالتالي: أغادر لندن إلى باريس يوم ٢ يونيو فأمكث فيها حتى ١١ يونيو، أسافر بعدها إلى نيس على الساحل الجنوبي لفرنسا فأمكث فيها من ١١ إلى ١٥ يونيو، من نيس أستقل القطار إلى البندقية في إيطاليا لأقضي أربعة أيام أسافر بعدها إلى فلورنسا حيث أمكث حتى يوم ٢٤ ثم أسافر إلى روما لتقضية بقية الإجازة وأغادرها يوم ٣ يوليو عائدا إلى لندن عن طريق نيس-باريس-لندن (بالقطار).

أهم سبب دفعني إلى تأجيل الرحلة من ١٩ مايو إلى ٢ يونيو هو أني أردت أن أحضر الانتخابات العامة في بريطانيا التي علمتم بلا شك بنتيجتها.. كانت انتخابات هادئة باردة كالشعب الإنجليزي نفسه، برودا أثار الشعب الإنجليزي نفسه.. عندما يريد إيدن أن يعبر عن ثقته البالغة في النصر يقول: «أظن أننا سنكسب». وعندما يريد آتلي أن يشتم المحافظين بقسوة يقول: «أعتقد أن أصدقاءنا المحافظين مخطئون في رأيهم». وتحضر الاجتماعات الانتخابية التي يخطب فيها المرشحون تجد على وجوه أصدقائه تعبير الاشمئزاز. والصوت الذي تسمعه وتظنه همهمة استياء، يتضح لك فيما بعد أنه تعبير عن التأييد.

النتيجة كانت متوقعة مائة في المائة. كانت مسألة بيفان ضربة قاصمة لحزب العمال جاءت في وقت كان ينبغي أن يستفيد فيه العمال من خروج تشرشل. وعندما وقف بيفان بعد الانتخابات يخطب في دائرته ليعلل انخفاض عدد الأصوات التي أعطت له هذه المرة عن المرة السابقة، يعلله بسوء حالة الجو يوم الانتخابات مما منع الناخبين من الخروج من منازلهم، صاحت به جماعة في وقت واحد: «أنت أسوء من الجو». إن الشخص الذي يوصف بأنه أسوء من الجو في بريطانيا لا بد أنه شخص سيئ للغاية.

المطر يسقط باستمرار والسماء كئيبة مظلمة نحتاج معها إلى إضاءة النور في المكتب حتى منتصف النهار. صحيح أن الجو لم يعد باردا كما كان وأن الشخص يستطيع الآن الدخول إلى الفراش في المساء دفعة واحدة لا سنتيمترا فسنتيمترا كما ندخل البحر في الإسكندرية وكما كنت أفعل في الشتاء. ولكن الجو كئيب للغاية.

يوم الانتخابات نفسه كان يوما عجبا. الإذاعة والتيليفزيون مستمران حتى الرابعة صباحا تذيع باستمرار نتيجة الدوائر واحدة بعد الأخرى ذاكرة كل ربع ساعة ما بلغه حتى تلك اللحظة مجموع المقاعد التي حصل عليها كل من المحافظين والعمال وفي العاشرة ليلا ذهبتُ إلى Piccadilly Circus حيث وقفت الآلاف تنظر إلى لوحة كبيرة من النور علقتها جريدة الديلي تلجراف لتقدم عليها نتيجة الانتخابات أولا بأولا. فإذا ما أعلنت اللوحة فوز المحافظين بمقعد صاح المتفرجون المحافظون «هيه» وصاح العمال «هوو». وإذا فاز العمال بمقعد صاح المحافظون «هوو» وصاح العمال «هيه». ثم يطلق أنصار الحزب الفائز بالونات حمراء أو زرقاء ترتفع في الفضاء.

ثم سقط المطر.. شأنه دائما في المناسبات التي لا يريده أحد أن يسقط فيها؛ في الكريسماس، في عيد الفصح، في مباريات كرة القدم، وفي الانتخابات. ولكن أحدا لم يتحرك. وارتفعت الشماسي أمامي فلم أعد أرى اللوحة المضاءة. وحاول المحافظون والعمال إطارة البالونات ولكن المطر أنزلها ثانية.

وفاز المحافظون.. وشكر كل من آتلي وإيدن رجال إدارة الانتخابات على حسن إدارتهم لها. فتذكرت الانتخابات التي كان يجريها الوفديون والسعديون في مصر، الحزب المنهزم يتهم المنتصر بالتزوير بل حتى ولو فاز المرشح الوفدي بعشرين ألف صوت وخصمه بمائة صوت كان الوفد يقول إن المائة صوت الأخيرة مزورة.

هناك ظاهرة سأكتب عنها بالتفصيل فيما بعد.. عن مركز الشيوعيين في انجلترا.. لقد خسر جميع المرشحين الشيوعيين في الانتخابات. ومن بين السبعة عشرة مرشحا شيوعيا، فقد خمسة عشر مرشحا شيوعيا التأمين الذي دفعوه لعدم حصولهم على النسبة المطلوبة. وعندما كان المذيع يذيع نتيجة الانتخابات في الـHome service كان صوته يضحك وهو يعلن فقدان المرشحين الشيوعيين للتأمين الذين دفعوه. الجميع هنا يضحكون من الشيوعيين. قد ينظر الأمريكيون إلى الشيوعيين في كراهية وخوف أما الإنجليز فيضحكون منهم في سخرية واشمئزاز.

كنت قد أخبرتكم منذ أشهر أن الـB.B.C أعطتني راديو مجانا، واليوم أرسلوا لنا خطابا يقولون فيه إن لديهم ٢٥٠ جهاز تيليفزيون سيعطونه لموظفي الـB.B.C بعشرة جنيهات للجهاز!!!! (السعر الأصلي ستون جنيها). وسيجرون قرعة يوم ١٥ يونيو بين مقدمي الطلبات. وقد أسرعت بالطبع بتقديم الطلب.

هل تعلمون أن أورسون ويلز قد استقر نهائيا في لندن! وسيقدم في منتصف الشهر القادم رواية من تأليفه وتمثيله وإخراجه على المسرح وسأحاول أن أحجز لها قبل سفري إلى فرنسا حتى لا تتكرر حكاية داني كاي الذي حُجزت جميع تذاكر حفلاته قبل بدئها بخمسة أشهر. الصحف هنا لا تأخذ أورسون ويلز جديا وتنظر إليه تماما كما ننظر نحن في مصر إلى يوسف وهبي؛ لا نذكره إلا بابتسامة.

سأكتب إليكم فور وصولي إلى باريس. وقد أرسلت إلى إحدى اللوكندات هناك لأحجز غرفة ولكن لم يصلني ردهم بعد. وسأحاول أن أنقل لكم وصفا مفصلا لرحلتي.

أطيب تحياتي لكم وأطيب تمنياتي لكم بالسعادة

حسين

* * *

لندن في ٣١ مايو ١٩٥٥

والدتي العزيزة، عزيزي جلال

شكرا لكما على خطابكما وإن كنت سأحاول أن أتناسى خطاب والدتي، إذ لا أحب أن أمحو من ذاكرتي الصورة المتفائلة المرحة التي أحملها لها، وأن أتصورها دائما شجاعة حتى أتشجع أنا الآخر. أتحسبون أني لا أقابل أنا أيضا أوقاتا مضنية وأني لا أشعر بالحنين إلى الوجود بينكم؟ ولكني أقول في نفسي في تلك الأوقات إن الوقت قد حان لكي أواجه الحياة كما هي وأن أكون رجلا، ولو مكثت في مصر لما كنت سأحصل قط على فكرة حقيقية.... هذه الأفكار تأتيني بالذات وأنا راقد في عنبر النوم في الإذاعة في الأيام التي تكون ورائي فيها إذاعة الفجر وحولي عشرات السراير ينام عليها المذيع الأسباني والروسي والهنغاري والألماني..إلخ. مجرد مشردين أرادتنا الحياة أن نعرفها كما هي.

كان بإمكاني أن أعود إلى مصر في الإجازة السنوية وكنت سأسر أكثر لو أني فعلت. ولكني أعلم أن هذه السنوات الثلاث التي مُنحتها لأقضيها في أوربا هي فرصتي الوحيدة لتكوين نفسي التكوين الحقيقي الذي أريده لها حتى أكون في المستقبل شيئا يذكر. وأنا واثق أن والدتي ستفخر بي حينذاك كما أريد أنا أن أستمر في الفخر بها.

هل صحيح لم تعجبكم الصورة؟ لقد ظننتها من أحسن صوري. على العموم فإني لست متعبا كما ترون أني أبدو فيها. لقد سمنت وزاد وزني وخاصة بعد عشاء الأمم المتحدة.. فاطمة أيضا قد كادت تصبح في حجم نعيمة.. لا أدري كيف! هل للبطاطس المسلوقة كل هذا المفعول؟ لقد بدأت أعتقد ذلك وخاصة أن عبد العزيز (وهو لا يحب البطاطس) قد ضعف كثيرا.

لا تعرف يا جلال كم أسفت أنك لم تسمع البرنامج. لذلك فإني أرفق مع الخطاب نسخة منه حتى تخبرني فيه رأيك. أرجو أن يكتب لي أحمد لماذا لم يعجبه البرنامج وذلك بعد عودتي من إيطاليا. وقد سرني أن والدتي كتبت لي مدحا فيه.

سجَّل الدكتور عبد العزيز لنا في الإذاعة ندوة مع مدير المركز الإسلامي في لندن وشخص آخر كانت ممتعة وصرح فيها عبد العزيز بآراء أثارت ضجة كبيرة لدى المستمعين إذ قال إن الصلاة والصوم ليسا مهمين وإن المهم أن يكون الشخص حسن الأخلاق. وقد بدت آراؤه أكثر جرأة لأنها جاءت مع آراء مدير المركز الإسلامي أكثر العقليات غباء وإظلاما. قال ضمن ما قاله «إن غناء المرأة حرام إلا إذا كانت بمفردها لا يسمعها أحد أو كان غناؤها لزوجها أو لأحد إخوتها أو لعمتها أو لخالتها». ورد على سؤال لأحد المستمعين (الأكثر غباء) يسأل عما إذا كان الناس في الجنة ينامون. أجاب مدير المركز الإسلامي: «الناس في الجنة لا ينامون لأن النوم يأتي بعد العناء والتعب، والجهد والنصب. ومعاذ الله أن يكون في الجنة تعب، أو أن يكون فيها نصب».

أمامي الآن مجلة الإذاعة العربية السعودية واسمها «هنا مكة المكرمة». ليس فيها صور بالطبع وتبدأ (عدا باسم الله الرحمن الرحيم) بأطوال الموجات. وهذه هي برامج يوم فيها: الإذاعة الصباحية: السلام الوطني ـ تلاوة من القرآن الكريم ـ حديث التلاوة للشيخ عبد الحكيم الدهروطي ـ نشرة الأخبار ـ قراءة برنامج اليوم ـ حديث ديني للأستاذ محمد أبو شهبة ـ مارش عسكري بنت البلد للأستاذ محمد عبد الوهاب ـ السلام الوطني ـ ختام.

إذاعة الظهر: السلام الوطني ـ روائع الشعر يقدمه الشيخ عبد الغفار فدنا ـ القرآن الكريم ـ ركن الصحة يقدمه الشيخ عبد الله القحطاني ـ السلام الوطني.

الإذاعة المسائية الأولى: السلام الوطني ـ إعادة خطبة الجمعة التي أذيعت يوم الجمعة ـ حديث هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ نشرة الأخبار ـ السلام الوطني.

الإذاعة المسائية الثانية: السلام الوطني ـ تلاوة نصف ساعة من القرآن الكريم ـ تمثيلية الأسبوع بعنوان «موقعة بدر» ـ مارش عسكري بعنوان كوكتيل للأستاذ محمد عبد الوهاب ـ قراءة برامج الغد ١٥ صفر ١٣٧٤هـ ـ السلام الوطني.

وعلى ظهر الغلاف «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين». لا تعليق.

خطابي القادم سيكون من باريس (إن شاء الله). وسأحاول يا سيد جلال أن أصف لك رحلتي بالطريقة التي تحبها.

أطيب تمنياتي لكم مع أخلص الود.

حسين

جلال! أوعى تنسى برنامج اخترت لكم يوم الثلاثاء القادم.. الساعة عشرة إلا ثلث بتوقيت القاهرة وتسعة إلا ثلث بتوقيت بريطانيا الصيفي وثمانية إلا ثلث بتوقيت جرينيتش (علشان مايكونش عندك حجة بعد كده).

لماذا لا تكتبون أن خطاباتي جميلة؟

ملحوظة: لي رجاء من والدتي أعتقد أنها الوحيدة التي أستطيع أن أعتمد عليها في تحقيقه. أن تحفظي لي خطاباتي حتى أعود لأني أعتقد أنني ربما أستفيد من بعض الفقرات فيها فيما بعد. ولكن أرجو ألا يجعلك هذا الطلب تقفلين على الخطاب قبل أن يتمكن الجميع من قراءته.

ملحق

منذ حوالي أسبوعين كنت أقدم البرامج وكان من بينها حديث لطه حسين. وقبل الحديث قلت: «والآن نأتي لأهم جزء من برامج السهرة». ولم آخذ بالي (أو أخذت بالي ولكني لم أهتم) أنه كان من بين برامج السهرة تلاوة من آي الذكر الحكيم.

بعد أربعة أيام كانت عشرات الرسائل تصل من مكة المكرمة واليمن وحضرموت تصرخ كيف يجرؤ الزنديق الذي يحل دمه حسين أمين أن يقول عن حديث طه حسين أهم جزء في السهرة مع وجود تلاوة من القرآن الكريم(13).

واضطرت الإذاعة إلى إرسال خطابات الاعتذار قائلة إن حضرة المذيع يضع القرآن في مرتبة يعاذ بالله أن تقارن بشيء. وهو (أي حضرة المذيع) عندما يقول عن حديث طه حسين أهم جزء في السهرة يقصد أهم الأجزاء الأخرى عدا القرآن.

واطمأن المستمعون.

* * *

نيس في ٩/٦/١٩٥٥

والدتي وإخوتي الأعزاء:

يرجع الفضل في أني أخيرا تمكنت من الجلوس للكتابة بالتفصيل إلى أن قدماي لا تستطيعان السير أكثر من ذلك. لم يمش أحد مثلما مشيت أنا في الأيام السابقة: كل يوم من التاسعة صباحا حتى منتصف الليل حاملا معي خريطة لباريس ونيس وكتيبا عن معالمهما. ثم أعود في المساء فإما أن أضع قدميَّ في إناء من الماء الساخن حتى ينظفا أو أرش عليهما ماء باردا كما ترش الماء على كاوتش السيارة بعد رحلة طويلة.

غادرت باريس يوم الثلاثاء. كان كل يوم يمر عليَّ فيها يزيدني اعتقادا بتأثر حافظ الكبير بالحياة هناك.. ليس فقط بسبب الجاكتة البني التي اشتراها من

هناك ولكن في تصرفاته وحركاته. الفرق بين لندن وباريس فرق شاسع وأنا شخصيا أفضل باريس.. في باريس كل شيء له طعم وحتى المكان القذر أو الشخص القذر لا يصفه الفرنسيون بالقذارة كما يفعل الإنجليز بل يقولون عنه: إن له جوا معينا أو طابعا خاصا.

الفرنسيون مغرومون بالتعبير عن عواطفهم كالمصريين وبعكس الإنجليز. إذا سرهم شيء ضحكوا وإذا أغضبهم شيء ثاروا وشتموا. أما الإنجليز فإنهم إذا سرهم شيء سكتوا وإذا أغضبهم شيء ازدادوا سكوتا. عسكري البوليس في انجلترا إذا سألته عن شارع أو مكان أشار إليه وانصرف. أما عسكري البوليس في فرنسا فيضرب لك سلاما عندما يراك تقترب ويسألك لماذا تريد أن تذهب إلى هذا المكان بالذات وينصحك بعدم الذهاب إليه والذهاب إلى مكان آخر. ثم يضرب لك السلام عندما تنصرف.

السينما هنا لا تبدأ في موعدها، المسارح لا تبدأ في موعدها، القطارات لا تقوم في موعدها، الإفطار في اللوكندات لا يقدم لك في الموعد الذي حددته. ومع هذا فإن هذه الأشياء بالذات هي التي تعطي باريس الأفضلية على لندن.
نراقب أسماء الأفلام في باريس.. الأفلام الأمريكية إما أن تكون «ممر الرعب» أو «طريق الأهوال» أو «دماء على الجليد» إلخ. الأفلام المصرية «لك يوم يا ظالم»، «قسمة ونصيب»، «مكتوب على الجبين» إلخ. أما الأفلام الفرنسية فـ«صحراء الشهوة»، «شيطان الجسد»، «معجزة الحب»..

كنت قد أخبرتكم بالشيء الوحيد الذي يعكر الحياة في باريس ألا وهو الغلاء. وأضيف هنا أن شيئا واحدا فقط في باريس رخيص كالتراب.. النبيذ.. زجاجة النبيذ (من أفخر صنف) بنفس سعر الكوكاكولا أي ٨ صاغ مع العلم بأنك يجب أن ترد زجاجة الكوكاكولا بينما إذا رددت زجاجة النبيذ الفارغة ردوا إليك ٣ صاغ. الناس يشربون النبيذ هنا كالماء؛ زجاجة على الغداء وزجاجة على العشاء، حتى الأولاد والأطفال.. الأطفال هنا يرضعون نبيذا. والطفل الذي تتطلب صحته الضعيفة أن يرضع من لبن أمه تسمى رضاعته ترضيع اصطناعي.

في نيس انتابني حنين مخيف إليكم. لا أدري هل هي رؤية البحر الأبيض المتوسط وعلمي أنكم على الشاطئ المقابل أم جو نيس الذي يشبه جو الإسكندرية؟ لماذا لا يحضر أحدكم في الإجازة الصيفية إلى لندن؟ إني أريد بشدة أن أرى ولو واحدا منكم فحسب. لماذا لا يمضي أحمد إجازته السنوية هنا في أوروبا.

عندما رأيت نيس شعرت بفخر كبير بالإسكندرية. ليس هناك ما يقارن بالإسكندرية قط. ما ينقصنا هو الدعاية الكافية لها في الخارج حتى نستفيد من السياح.

سأقضي هنا ثلاثة أو أربعة أيام أخرى وأنتوي أن أقوم غدا بأكبر مشوار مشي عملته في حياتي فأمشي من مدينة نيس إلى مدينة كان. وسأشتري اليوم صندلا للاستعداد للرحلة. أما إذا تعبت في منتصف الطريق فسأوقف سيارة بهذه الطريقة

لأكمل الرحلة.

سأكتب لكم من البندقية حيث أقضي عيد ميلادي الثالث والعشرين.

حسين

* * *

في لندن مرة أخرى ١٧ يوليو ١٩٥٥

والدتي العزيزة، عزيزي جلال.

نعود إلى الخطابات الطويلة ورجائي الأخير ألا تتأخروا في الكتابة. أحيانا ألعنكم غاضبا (في سري) عندما أتوجه إلى الـB.B.C كل يوم فلا أجد خطابا منكم ثم أقول في نفسي ربما يكون قد حدث شيء ولا يريدون أن يخبروني به فيزول غضبي ويحل محله القلق.

تهانئي القلبية لحافظ وعروسه. لم تعرف فاطمة بعد إذ سافرت في الأسبوع الماضي هي وزينب ومنى إلى Lake District لقضاء شهرين ونصف هناك وسيلحق بهما عبد العزيز بعد أسبوعين بعد أن يكون قد توصل إلى العثور على بيت بدل البيت الذي تركوه. وقد حزنت زينب كثيرا لترك المنزل القديم فصديقها جون يسكن عند الناصية. أما مُنى فمسرورة للغاية.

أما بالنسبة لأخباري فهي كثيرة كثيرة:

هل تذكرون أنه منذ حوالي ثماني أو سبع سنوات كانت السينمات تعرض بدل جريدة مصر الناطقة، جريدة ناطقة باللغة العربية تُعد في لندن ويعلق عليها فلسطيني؟ هل تذكرونها؟ حسنا. عندما عدت من رحلتي وجدت خطابا من

الشركة التي تعد هذه الجرائد تقول لي فيه إنه بما أن كبير المذيعين في القسم العربي (وهو الذي كان يعلق على الجريدة) سيسافر في إجازته السنوية مدة شهر أغسطس فقد طلبوا منه أن يرشح لهم شخصا يقوم بالعمل مدة غيابه. فرشحني أنا. وسيعطوني على كل جريدة (وهي أسبوعية) ثماني جنيهات أي أن المبلغ كله سيصل إلى ٣٢ جنيها. وسأذكر اسمي قبل قراءتها، غير أني لا أعتقد أنها ستوزع الآن في مصر..

ربما رآها حافظ في لبنان.....

وأخيرا تمكنت من رؤية داني كاي على المسرح.. بعد وقوف ساعتين ونصف في طابور يخترق ثلاثة شوارع استطعت أن أحصل على مكان للوقوف داخل المسرح. كان الاستعراض من جزئين: الأول ساعة ونصف لم يظهر فيه داني كاي. والثاني ساعة ونصف لداني كاي وحده. أي رجل! وأي شخص! كان منير شما (زميلنا في الإذاعة وقد ذهب معي) لا يريد في بادئ الأمر أن يراه، قائلا إنه يهودي واليهود أخرجوا العرب من فلسطين. فلما أقنعته في آخر الأمر أنه لا علاقة بين الاستعراض وفلسطين وذهبنا كان يضحك طول الوقت حتى قفزت الدموع إلى عينيه. ثم عاد فتذكر أن اليهود طردوا العرب من فلسطين فكشر من وجهه وتمتم ونحن خارجين: يهودي بن كلب.

ورأيت أورسون ويلز. رواية مسرحية عن صيد الحيتان في البحر! وفي ختام الرواية يبتلع الحوت أورسون ويلز. قالت المانشستر جارديان: «إن هذا الساحر (أورسون ويلز) لم يعد أمامه الآن إلا أن يحاول المستحيل، فليس ما هو دون المستحيل بقادر على استهوائه. إن الشخص لا يستطيع أن يحب أورسون ويلز ولكنه لا يملك إلا أن يسحر».

لم تخبرني يا جلال بموعد قدوم أمين يسري ونبيل العربي إلى لندن، أرجو أن تخبرهما أن يتصلا بي عند وصولهما فورا وهاك نمرة تيليفوني في الـB.B.C وفي البيت:

الـB.B.C: Euston 3400، البيت: Maida Vale: 3717. وسأحملهما وهما عائدين إلى مصر بالهدايا لكم.

أجلس أحيانا وأتذكركم في ذهني واحدا واحدا. حافظ مستعدا للتحمس ضد أي شيء بنفس الدرجة سواء ضد الحضارة الغربية أو تفصيل عاشور للبدل. جلال لا يلقي بتحية الصباح إلا بعد أن يتف ما في فمه. أحمد يستيقظ من نوم الظهر عابس الوجه غير مستعد للتحدث مع أحد إلا بعد أن يشرب زجاجة السباتس.

أمين يجلس على الكنبة في استرخاء كالسلطان واضعا يده اليسرى على ركبة جريتا واليد اليمنى تطفئ سيجارة وهو ينظر إلى الطقطوقة باندهاش.

ثم أتخيل نفسي في غرفتي وأشعر بالحنين الشديد إلى البيت والعائلة. هذا وحده هو ما ينقصني هنا في انجلترا. العائلة. وهذا ما يجعلني أخاف أن أندفع لهذا السبب فأتزوج لمجرد الوجود في جو عائلي. هناك بالطبع فاطمة وعبد العزيز ولكن فاطمة تنام قبل غروب الشمس وعبد العزيز إما أن يتكلم هو أو ينام.

أصبح لي الآن أربعة عشرة صديقة انجليزية أقابل كلا منهم مرة كل أربعة عشرة يوما. ومع ذلك فلم أشعر بالتعلق بأي منهم. لا أدري كيف أصبحت النساء في أوربا جميعهن على نمط واحد: غامضات السن والخبرة والخلق. نرى المرأة الأوروبية في الطريق مع رجل فلا ندري هل هي زوجته أم عشيقته أم مجرد صديقة. تصرفاتها معه لا تعطينا فكرة بالمرة ترشدنا إلى الواقع. اختفى المثل الأعلى القديم للعذارى وأصبحت الفتاة تنظر إلى الخبرة كأهم ما يمكن أن تحصل عليه وتقول في نفسها: إن الرجال لم يعودوا الآن يتزوجون فلماذا أفرض على نفسي حياة العانس لمجرد التقاليد.

منذ أن عدت من أوروبا وأنا أشعر بتعب شديد من الناس جميعا. ربما لأني سُرقت كثيرا في فرنسا وإيطاليا... أصل إلى محطة باريس وفي نفسي أجمل المعاني الشعرية التي تخطر للشخص عند وصوله إلى بلد أجنبية فأتشاجر في النصف ساعة الأولى مع ثلاثة أشخاص على الأقل: الشيال وسائق التاكسي وخادم اللوكاندة، كل يريد أن ينهب من هذا السائح قدر المستطاع. وبدلا من أن أهتف في شاعرية: Voila Paris! أو Ecco Roma! ألعن أبو سائق التاكسي وأهدده بأن أشتكيه للبوليس.

لا أدري كيف خطرت لعلي محمود طه فكرة قصيدة وهو راكب الجندول. الفكرة الوحيدة التي مرت بذهني وأنا راكب الجندول من المحطة إلى اللوكندة هو كم سيطلب مني صاحب الجندول عند وصولي وفي كم سيستغفلني. وتحققت مخاوفي عند وصولي: جنيه ونصف. فإذا حاولت أن أبدي دهشتي بالإنجليزية بدأ هو في الشتيمة بالإيطالية مستخدما حركات كحركات النساء ذوي الملاءات اللف في مصر.

تركب التاكسي في الصباح فيضيفون ريالا على ما سجله العداد واصفين إياه بتعريفة الصباح المبكر (كانت الساعة الحادية عشرة) وتركب التاكسي في المساء فيضيفون ريالا على ما سجله العداد قائلين إنه تعريفة الليل المتأخر.

الجميع ينظرون إلى السائح نظرة الافتراس ويسوءهم أن يمر بهم في الطريق دون أن يستغفلوه بشكل أو آخر ولو في مبلغ ضئيل حتى يرضوا ضمائرهم.

لا بد أن هناك شيء غير جميل في مجرد أن يكون الشخص سائحا. هل هو كونه ينفق نقودا والناس تعمل أم غباؤه حيال البلد التي يزورها. في إيطاليا عندما وصلنا إلى حدودها قادمين من فرنسا كنا وكأننا نتوقع أن تستقبلنا في الجمرك جينا للوبريجيدا أو سيلفانا مانجانو. وفي فرنسا أثناء ركوبنا السيارة من المطار إلى باريس كنا كلما رأينا شابا فرنسيا يسير مع فتاة فرنسية يتحادثان في أدب اندهشنا أنهما ليسا متعانقين. ولم ندرك إلا بعد مدة إلى أي حد ساهمت السينما والصحافة في إفساد عقولنا.

عبد العزيز في صحة طيبة يعمل خمسة عشرة (ساعة) في اليوم ثم ينام عند رجوعه البيت فورا حتى أيام الأحد يقضيها في العمل ولو لم يكن هناك أحد من الموظفين.

رسبت زينب في الامتحان بينما نجحت منى بتفوق. ولعل هذا هو السبب الذي أنساها أن ترد على تهنئة جلال لها بعيد ميلادها. إنها في عز سن المراهقة؛ ظلت يومين بعد مقابلتها للشاب الهندي ترفض أكل اللحم وتنظر إلى اللحم في أطباقنا باشمئزاز مشعرة إيانا بأننا وحوش آدميون. وتحدث عبد العزيز عن مضار عدم أكل اللحم مدة ساعتين ولكن زينب لم تقتنع. والتجأت فاطمة في اليوم التالي إلى فكرة عملية فاشترت من Bentalls ديكا روميا محمرا عندما رأته زينب غيرت رأيها في الشاب الهندي ووجدت أن الحجج التي أبداها عبد العزيز في اليوم السابق «مش بطالة أبدا».

لماذا لا تمر ثريا وحمادة بإنجلترا أثناء رحلتهما في أوروبا ولو لمدة قصيرة؟ في فرساي حضرت معرضا لمختلف أنواع الأثاث من عهد لويس الثالث عشر حتى ماري أنتوانيت ولويس السابع عشر. وحاولت أن أجد صالونا يشبه طقم صالون ثريا ولكن دون جدوى. وجدت كل شيء، حتى الطقم في صالتنا نحن بالدقي، وطقم نعيمة في شبرا، أما طقم ثريا فلا.

ذهبت إلى أوروبا وعدت وما زالت الخطابات تصل إلى الـB.B.C من اليمن والحجاز والكويت تنعتني بالكافر بسبب الأمر الذي أخبرتكم به في خطاب سابق.. ثم يضيفون في آخر الخطابات أسئلة للرد عليها في برنامج لكل سؤال جواب: «هل استعمال التيليفون حرام أم حلال؟ شكسبير، هل سيدخل النار أم الجنة؟ ما هي وسائل النقل في الجنة؟ هل سيكون فيها سيارات؟» وترسل

الإذاعة هذه الأسئلة إلى المركز الإسلامي للرد عليها: التيليفون حلال إذا استعمل في الأمور التي أحلها الله.. شكسبير، حسنا، إن المركز الإسلامي من الذكاء بحيث يدرك أنه لا يستطيع إدخال شاعر انجلترا الأكبر النار وإذاعة ذلك من الإذاعة البريطانية، فيدخله الجنة في لباقة. أما وسائل النقل في الجنة فلم يتسع لها الوقت المخصص للبرنامج.

عند عودتي وجدت خطابا من شيرلي تعتذر فيه عن الشجار الذي حدث بيننا منذ أشهر ومعه تهنئة بعيد ميلادي. وقابلتها فوجدتها قد غيرت سياستها تماما فبدأت تدللني وتتملقني وتكرر دائما أنها عندما تجلس لتتحدث معي تشعر بعقدة نقص شديدة وعادت من جديد إلى التلميح بالزواج فإذا قبلتها قالت إنها تشعر بتأنيب الضمير ولكن «كم يكون هذا جميلا لو كنا متزوجين» وإذا جاءت غرفتي وصفت لي أكلة جميلة قالت في دلال «ألا ترى أنه سعيد من سيتزوجني؟» وبالأمس ألقت آخر كارت لها فقالت: «لقد طلب Tommy (صديقها) أن يتزوجني فهل أقبله؟» ونصحتها أن تقبله.

إنني مشمئز من نفسي.. أصبحت شديد المرارة والشك.. نحو كل شيء. وكان أملي هو أن أسافر كثيرا وأشاهد أوربا، فلما سافرت وشاهدت لم أعد أدري ماذا أنتظر. حتى خطابات الإعجاب التي تصلني من المستمعين لم تعد تزهيني كما كانت تفعل في بادئ الأمر وأصبحت أقول في نفسي: إنهم هم أنفسهم الذين يسألون هل شيكسبير سيدخل الجنة أم النار فأي فخر لي أن يمدحوني؟ كل أملي الآن هو أن تكون هذه الحالة النفسية مجرد حالة نفسية ستمر ثم أعود مرة أخرى كما كنت.

حسين

* * *

لندن في ٣٠ يوليو ١٩٥٥

أخي جلال

وصلني أمس كتاب أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه وانتهيت اليوم من قراءته ما عدا مقالة فريد أبو حديد التي تركتها عن عمد. خير المقالات جميعا ـ لدهشتي الشديدة ـ مقال الدكتور زكي، جاء مخلصا حزينا صادقا لا تكلف ولا كذب. ثم مقال محمود تيمور الذي كنت قد قرأته من قبل في كتاب له. ثم مقالك أنت.

نقد مفصل لمقالك: وهو الذي بدأت بقراءته من الكتاب واثقا من أنك ستعبر عما أشعر به أنا أيضا وأنك ستكون أصدق الجميع. ورغم أني أصبت إلى حد ما بشيء من خيبة الأمل إلا أن هناك فقرات رائعة في المقال لم يكن ليكتبها أحد غيرك: حب والدي للبحر وترديده: الله.. الله.. الله.. تأثره بالحوادث السياسية المؤلمة، استيقاظه عدة مرات بالليل وبقاؤه في الظلام، ثم نهاية المقال. ويا حبذا لو كان المقال قد أتى كله على هذا الشكل بدلا من الصفحتين الأولتين.

لم تعجبني بالمرة مقال طه حسين ولا عبد الوهاب عزام (التي تحدث فيها عن نفسه أكثر من حديثه عن والدي) ولا مقالة خلاف (ولكني لم أكن أتوقع من خلاف خيرا من ذلك) ولا القصيدة (التي لم أفهمها). ولكن مقالة الدكتور زكي تركت في نفسي أعمق الأثر ولا أظنني مغاليا إذا قلت إنها خير ما كتبه أحمد زكي على الإطلاق.

أخبرتكم في خطابي السابق أن فاطمة قد سافرت إلى منطقة البحيرات شمالي انجلترا (وتقع بعيدة عن لندن بنحو ١٢ ساعة بالقطار) وذكرت أيضا أنها ستمكث هناك شهرين ونصف أو ثلاثة. وهذا هو ما كنت أعتقده وما ودعناها على أساسه؛ ودعناها وداعا تتناسب حرارته مع الشهرين ونصف. تصوروا دهشتنا وغضبنا عندما نجدها تعود إلى لندن بعد أسبوع مع العلم بأنها ظلت تحضر لهذا السفر ستة أسابيع وأخذت معها من العفش والحقائب ما جعلنا نشك في أنها ستذهب إلى أستراليا مدة خمسة أعوام.

إن قلب فاطمة كقلب والدتي وقلوبنا جميعا: طيب ساذج. إن لعائلتنا قلبا جديرا بأن يوضع في متحف للعلوم الطبيعية. أحيانا تنتابني من الثورة على سذاجتي ما يجعلني أريد أن أكون شريرا عن عمد، عن فلسفة، لمجرد الشر. أليست هذه السذاجة هي التي منعت والدي من أن يكوِّن له اسما في السياسة؟ أو حتى الإسم اللائق به في الأدب؟ وهذا بالضبط هو ما سيحدث لحافظ ولجلال ولي. وخاصة لجلال. السياسة لا صبر لها مع أناس كوالدي يقولون إن الحزب الفلاني مصيب في الناحية الفلانية ومخطئ في الناحية الفلانية، وهذا البحث عن الحق هو الذي جعلهم يقولون عن والدي في ميدان السياسة إنه ساذج لا يعتمد عليه، ويقولون عنه في ميدان الأدب إنه متعقل لا يثير حماسا.

هل ما زال حافظ مهتما بالسياسة والأدب؟

فكرت اليوم في صبر في الشخص الذي بعث يسأل عن شكسبير هل سيدخل الجنة أو النار. فوجدت أني مخطئ في السخرية به. الواقع أن هذا الشخص

أرقى بكثير من غيره الذين يرون أنه من المسلم به أن شكسبير سيدخل النار باعتباره غير مسلم. فهذا الشخص يبدو من سؤاله أنه بدأ يشك. وقال في نفسه هل من المعقول أن عظماء كغاندي أو شكسبير أو برنارد شو سيدخلون النار لمجرد أنهم غير مسلمين؟ والشك (كما يقول ديكارت على ما أعتقد) أول خطوة في سبيل الوصول إلى الحقيقة. على أن هذا بالطبع لا يمنع من أن هناك الكثيرين الذين يهمهم أن يدخل شكسبير النار حتى يعزوا أنفسهم على حياتهم التافهة بأنهم سيدخلون الجنة لأنهم مسلمون، بينما سيكون شكسبير في النار.

اليوم العيد. فكل سنة ونحن جميعا طيبون. لا خروف، لا تهاني، لا بهجة في الجو ثم فوق كل هذا لا إجازة. لقد أسندوا إليَّ برنامجا جديدا اسمه «أهلا وسهلا» ثلث ساعة كل أسبوع. آخذ معي الميكروفون إلى النادي المصري أو المركز الإسلامي أو نادي الضباط الأردني أو النادي العراقي فأسجل أحاديث مع القادمين الجدد إلى لندن أسألهم عن المهمة التي أتوا من أجلها وفكرتهم التي أخذوها عن الحياة في بريطانيا وماذا ينوون عمله عند رجوعهم إلى بلادهم ثم يرسلون تحيتهم إلى أهاليهم ومعها أسطوانة. وتبعث الـB.B.C برسائل إلى الأهل في البلاد العربية تذكر موعد إذاعة البرنامج.

وذهبت اليوم إلى المركز الإسلامي لأسجل أول حلقة لي. وما إن دخلت وشرحت لبعض الواقفين مهمتي حتى التف الجميع حولي في شبه مظاهرة يصيحون كالأطفال «أنا والنبي» والحلقة لا تتسع إلا لثلاثة فقط. فلما اخترت ثلاثة منهم صاح الباقون في استخفاف: «وإيه يعني؟ هوه حدِّ بيسمع الـB.B.C تعال ياخيِّ بلا كلام فاضي».

سأسجل حلقة مع نبيل العربي وأمين يسري عند قدومهم إلى لندن وكذلك مع ثريا وحمادة. سمعت من عبد العزيز أن حمادة سيأتي مدة يومين إلى لندن في حوالي منتصف هذا الشهر ثم يعود ليلحق بجماعة الرحلة في باريس. وقد سرني هذا جدا وإن كانت مدة اليومين قصيرة للغاية.

أكتب لكم هذا بعد قراءتي للنشرة الأخيرة جالسا في مكتبي في الطابق الأعلى حيث يخيم سكون مخيف. لا أحد هنا. أثناء الإذاعة المسائية الأولى كنت أترجم النشرة واضعا السماعة على أذني أستمع إلى أغنية «هل هلال العيد» لفريد الأطرش ومحررو الأخبار رائحون غادون يستلقطون الأخبار عن وقوع اضطرابات في مراكش بمناسبة العيد. وفجأة شعرت بخوف لا سبب له. كخوف الطفل عندما تتركه أمه في غرفة مظلمة وتخرج. ليست هذه أول مرة يحدث لي فيها ذلك. حدث لي ذلك في باريس ثم في فلورنسا وفي لندن في

فبراير عندما كنت مريضا وكانت صاحبة البيت تدخل لتطلب مني أجرة البيت وأنا في الفراش ثم تسألني وهي خارجة كيف أنا من قبيل الأدب.

الجو ممتاز. الشمس تسطع ١٣ ساعة يوميا ونسمات الليل كما في الإسكندرية وبما أن الصحافة مصممة على وصف كل شهر من العام بأنه أجمل شهر منذ ٢٥ سنة أو أبرد شهر منذ ٣٦ سنة أو أحر شهر منذ ١٣ سنة فقد وصفت هذا الشهر بأنه أحر شهر منذ ٨ سنوات.

يوسف وهبي في لندن. جاء مع أمينة رزق وكمال بركات يمثل للـB.B.C أربع روايات بمائتي جنيه. وحضرت إخراج روايتين من الأربعة. واتضح لي الفرق بين تمثيل المحترفين وتمثيل ممثلينا هنا في الـB.B.C الذين هم في الأصل طلبة أو موظفين. ليس عندنا ممثلون؛ عندنا شخص لا يمثل جيدا وشخص يحاول أن يمثل ولا يمثل جيدا. ولأن عزيزة عيد (إحدى ممثلاتنا) صادف أنها بنت فاطمة رشدي، نستعين بها في كل رواية مانحين لها الدور الأساسي فيها وهي لا يمكنها أن تنطق كلمتين دون ثلاث غلطات على الأقل. ولأنها ابنة فاطمة رشدي فهي تنظر إلى المخرج باحتقار إذا قال لها إن ضحكها يشبه العويل وقد طلبناها بالطبع لتشترك في التمثيل مع يوسف وهبي شاعرين بالفخر أن لدينا بنت فاطمة رشدي. فسلم عليها يوسف بك في احترام. فلما بدأت تمثل وجدنا عَينيْ يوسف بك تجحظ رويدا رويدا ثم التفت إلى المخرج في سذاجة قائلا بصوت مرتفع: إيه ده؟

هل سمعتوني أقرأ نشرة الأخبار يوم العيد؟ لقد قلت في بدايتها إنني أوجه التهنئة بالعيد إلى المستمعين وإلى عائلتي في مصر.. هل سمعتوها؟

حسين

* * *

لندن في ٢٩ أغسطس ١٩٥٥

والدتي العزيزة، عزيزتي نعيمة، عزيزي حافظ، عزيزي جلال

يبدو أن هذا الأسبوع أسبوع أخبار سعيدة: نجاح جلال بتفوق؛ فوز أمين وحافظ بالجائزة لكتابهما، وخبر آخر ثالث، هذه المرة من عندي في لندن، وهو استقالة عبد العزيز من المكتب وعودته إلى مصر في أكتوبر.

سيعود في ١٥ أكتوبر فيبحث عن شقة ويرتب لدخول أولاده في المدرسة الإنجليزية بمصر الجديدة ثم يرسل إلى فاطمة والأولاد بالحضور. وهو يقسم أنهم لو أعطوه مائة جنيه عن كل يوم يقضيه في لندن لما قبل المكوث بها أكثر من هذا؛ لمصلحته هو ولمصلحة فاطمة والأولاد، والواقع أنه لا يمكنكم أن تتصوروا الفائدة التي ستعود عليهم جميعا عند عودتهم إلى مصر: عبد العزيز يبدو عشرين سنة أكبر من سنه، ساهِم باستمرار، كثير النسيان والشرود، وفاطمة لا أصدقاء لها، منعزلة، أعصابها كما كانت وهي طالبة في حلوان. تتوقعون أن تجدوها مختلفة عند عودتها؟ حسنا. ستجدونها بالضبط كما كانت في أي وقت من الأوقات. تغمرك بسيل لا ينقطع من الكرم ثم تطردك من المنزل.. عندما أزورها تصيح مهللة «هالو يا حسين» وتقوم لتحضر العشاء.

وتزغطني كالكتكوت «كل التفاحة دي، كل الموزة دي، كل التورتة دي» فآكل حتى أمتلئ وأتمدد على الكرسي أمام المدفأة كالسلطان لأهضم ما أكلت.. وفجأة...... ودون سابق إنذار، أسمع صوتا يصرخ بي: «حضرتك قاعد قدام الدفاية وأنا عمالة أغسل الأطباق؟ أنا خدامة عندك أطبخ لك وأغسل لك الأطباق بعد ما تاكل؟» وأقوم من الكرسي مذعورا إلى المطبخ والأكل الذي أكلته يمغص في معدتي. سبحان الله وكأنها تتعمد بالفعل أن تفسد باستمرار كل جميل تسديه للشخص.. في أيام الأحد يمكث عبد العزيز في الفراش متعبا من أثر المجهود الذي يبذله أيام الأسبوع. فتحمل إليه فاطمة الإفطار في السرير Thank you, Fatma وتبتسم فاطمة كالملائكة: «إِه! وهوَّه احنا عندنا كام عبد العزيز؟» وتحمل إليه الغداء في السرير Thank you Fatma. «إِه وهوَّه احنا عندنا أغلى من عبد العزيز؟» ويبتسم عبد العزيز في نشوة ويتقلب على جنبه الآخر ليغفو غفوة لذيذة.. وفجأة...... ودون سابق إنذار، يسمع صوت فاطمة تصيح صارخة في الأولاد في الدور الأسفل «الحمل كله عليَّ وأبوكم نايم لي في السرير طول النهار. دي عيشة إيه دي!» ويهب عبد العزيز المسكين من سريره مذعورا. ويلبس الشبشب في عجل لينزل لمساعدتها في المطبخ.

وفي يوم الأحد التالي تأتيه فاطمة بالإفطار في السرير: «إِه! وهوَّه احنا عندنا كام عبد العزيز؟» ويرتجف كام عبد العزيز وهو يسمع هذه الجملة، ويتناول الملعقة ويده ترتعش......

حسين

* * *

[القاهرة، ١٩٥٥]

ابني العزيز الأستاذ حسين بك أمين

سلامي وأشواقي إليك فرحت خالص خالص بحضور الدكتور عبد العزيز وفاطمة إلى مصر وعقبالك انت يا سيد حسين الدور عليك وخلي بالك من نفسك لغاية ما ترجع بالسلامة ونشوفك سالم إن شاء الله. رجعنا من الاسكندرية وحمادة وثريا رجعم من اوربا وحافظ وعروسته رجعو من الشام ومرات خالك حافظ رجعت من الحجاز ونعيمة وحسين رجعو من الأسكندرية وكلنا بخير ولا ينقصنا إلا أنت. وحمادة اتنقل إلى مصر واحنا فرحانين جدا بس إذا كان أحمد مايسفرشي راخر لأني مفياش حيل يسافر حد أرجوك تعتني بنفسك خالص لأنك غريب اتفسح وابسط نفسك ولا تحمل هم واحنا بخير ما دام انت بخير والسلام

والدتك

زينب

عزيزي حسين

تحياتي إليك. يسرني أن أخبرك بتعييني مندوبا في مجلس الدولة، هذا، وقد طلبتني النيابة من قبل ولكني فضَّلت مجلس الدولة. ولا زلت أسعى لتعييني معيدا بإحدى الجامعات. وسأحلف اليمين وأستلم العمل خلال الأسبوع القادم وقد انتهيت من الكشف الطبي ونجحت فيه.

نحن في انتظار الغد لنسمع البرنامجين بتوعك. وللأسف لم نسمع برنامج «أهلا وسهلا» قبل ذلك.

فرحنا جدا ـ ولعلك لاحظت ذلك من خطاب ماما ـ بخبر نقل عبد العزيز، وكنا منذ عدة أيام نتخيل اجتماعنا جميعا ونقول حبذا لو جاء حسين أيضا في أجازة.

أرسل إليك قصة لأديب ناشئ بارع اسمه مصطفى محمود، ومعها أيضا رد له على مقالة لمحمود أمين العالم وقد دخل الإثنان منذ مدة في مناقشة لذيذة: العالم يرى أن الأدب يجب أن يتضمن أملا في المستقبل الباسم، ولا يسمح مثلا بتصوير إنسان ضائع أو عائلة بائسة ما لم تكن النهاية تبعث الأمل في مستقبلهم. أما رأي مصطفى محمود فتراه في هذه المقالة. وأنا أؤيد مصطفى محمود تماما. والمهم أن العالم قد وجد له عملا في روز اليوسف كما ترى وبدأ يكتب بعض الأبواب الهامة، ولكن رأيي أنه أعمق من أن يكتسب محبة القراء، فبمقارنته بأحمد بهاء الدين مثلا ترى أن العالم ـ بعكس بهاء ـ يهدم ببعض

عباراته الحماس الذي تشيعه العبارات السابقة، فهو يصلح لكتابة أبحاث علمية لا مقالات في الصحف، والذي لاحظته فيه أيضا أنه أطيب من اللازم، بينما الكتابة تستلزم شيئا من القسوة والحدة.

أظنك اشتقت لقراءة أي شيء باللغة العربية، لهذا أرسلت إليك هذه القصة، وهي في رأيي عظيمة.

من خطابك لرجاء عرفت أنك تريد معرفة شيء عن حياة حافظ الجديدة: إني أقول لك عن ثقة: إن ميمي فتاة ممتازة وكما أنها فازت بحافظ فإنه فاز أيضا بزواجه منها، فهي فضلا عن طيبتها إلى حد يقارب السذاجة، وذوقها الجميل، وتواضعها، فإن أفكارها متحررة جدا.. كانت تكلمنى أول أمس عن الجمود والركود و«التقفيل» في الفتاة المصرية، وعن بعض آراء لها في تنظيم البيت، وعن رغبتها في عمل جدول تنظم به حياتها في «الشتاء» المقبل (يظهر أن التعبير بالفصول داء في الزوجين) وأنها ستتعلم الرسم لأنها تجيده، ولن تتعلم البيانو مثلا لأنها لا ترى داعيا في أن تبذل مجهودا في شيء لا يمكن أن تبدع فيه...

وبيتهم جميل وإن كان لا زالت تنقصه بعض أشياء صغيرة كالصور والتماثيل، أما أمين فإن بيته تماما كما رأيته أنت آخر مرة، لم يزد فيه إلا الفريجيدير. ولعلك سمعت من قبل أنه اشترى سيارة أحمد، ولهذا تجد أحمد كمن فقد شخصا عزيزا لديه.

أسفنا لأن حمادة لم يذهب إلى إنجلترا، مع أن أهم ميزة كانت لسفره هي أن يراك أنت وفاطمة.

هل شاهدت السينراما؟ لقد شاهدها حمادة في باريس وقال إنها رائعة..

سأكتب إليك بعد أن أسمع برنامجيك غدا، وفي انتظار خطابك أرجوك.

أسعد الأوقات

جلال

* * *

لندن في ٧ سبتمبر ١٩٥٥

والدتي العزيزة، عزيزي حافظ، عزيزي جلال.

تحياتي إليكم جميعا وتهانئي القلبية لجلال ولأمين وحافظ. لقد أحدثت فيَّ هذه الأخبار شعورا غريبا.. شعرت بفخر مخيف بعائلتنا وبأرستوقراطية في معاملتي للآخرين بعد سماعي لها.. في اليوم التالي كنت مع فتاة عراقية تافهة في إحدى السينمات. جلسنا في السينما وأحطت كتفها بذراعي. وفجأة... قفز إلى ذهني تفوق جلال وفوز أمين وحافظ بالجائزة. وطغت عليَّ موجة من الاشمئزاز أن أكون مع مثل هذه الفتاة بينما إخوتي بهذا الشكل. انتابني اشمئزاز من نفسي لا منها، ورفعت ذراعي عنها بسرعة مما دهشت هي له وأشعرها بالإهانة. وهمستُ في أذنها بسرعة أني أشعر بمرض مفاجئ وأني سأضطر إلى تركها. وتركت مقعدي قبل أن تتمكن هي من الرد. ورأيتها من طرف عيني تشير إليَّ تستوقفني ولكني تجاهلتها....

أي نوع من الفتيات نتعرف به نحن الأجانب هنا في إنجلترا؟ إما فتاة من الصعاليك نقابلها في مرقص قذر، أو فتاة جائعة مستعدة للخروج مع أي شخص يستطيع أن يعشيها. وتحس وأنت تقبل فتاة من هذا النوع أنها تعطيك من القبلات بقدر الشلنات التي دفعتها من جيبك لعشائها، ثلاثة بنسات للقبلة الواحدة. ثم تتوقف عندما تتناسب قيمة القبلات مع الشلنات. اللهم إلا إذا ابتعت لها أيس كريم بعد العشاء فهي تعطيك حينئذ قبلة إضافية.

في الأسبوع الماضي تعرفت بفتاة جائعة من ألمانيا.. لا تسألها عما إذا كانت لها رغبة في الأكل إلا وقالت في لهفة: نعم. سواء أكان هذا الشيء أيس كريم أو بسكويتا أو مجرد خبز وتتأملها وهي تلتهم ما أمامها ثم تنظر إليك في امتنان تشعر معه أنه لو كان لها ذيل لهزته لك كالكلبة الشاكرة.. أي سرور أشعر به إذن عندما أقبلها وأنا أعلم أنها ستعطي قبلة أطول لأي شخص يعشيها عشاء أفخم؟

حتى لو كانت غير جائعة تماما وسألتها عما إذا كانت ترغب في تناول شيء تجيبك دائما بالإيجاب ما دام هذا سيؤخر شعورها بالجوع.

فاطمة في صحة جيدة وكذلك الأولاد. وهم يشاركونني وعبد العزيز في توجيه التهنئة إلى جلال وإلى أمين وحافظ.

لا أخبار عندي سوى أني حزين لقرب رحيل عبد العزيز وفاطمة. على الأقل كنت أدخل النادي المصري في عنطزة دون شرح مهمتي للبواب علما بأن مدير المكتب زوج أختي. أما الآن (حتى قبل أن يسافر عبد العزيز) فإن

شعوري وأنا داخل المكتب كشعوري عندما كنت أدخل لجنة التأليف بعد وفاة والدي(14).

أرجو من جلال أن يرسل إليَّ بسرعة أسماء ١٥ سيمفونية على الأقل لأرسلها له مع عبد العزيز.

تبينت في الأسبوع الماضي من مثل فردي بسيط نوع نظرة الشعوب العربية الأخرى لنا نحن المصريين ونوع نظرتنا لهم. هم ينظرون إلينا في احترام وإجلال بينما نأخذ نحن المصريون هذا الاحترام والإجلال منهم كأمر مسلم به. منذ شهرين خطب شاب فلسطيني يعمل معنا في الإذاعة فتاة مصرية تدعى هدى. وصلت هي من مصر في الأسبوع الماضي وجاءت تزورنا في الإذاعة. ومع أن الشاب في الواقع في منتهى الكمال والرقي، إلا أنها عندما عرفها بي وتعرفت إني مصري بدت خجلة أمامي أنا المصري أنها ستتزوج من فلسطيني وكأني سأحتقرها. وحاولتْ أن تؤكد لي أن الخطبة غير رسمية وأنها ما زالت مترددة. وفي جلساتنا جميعا معا يحاول خطيبها (وهو مغرم بها إلى حد الهوس) أن تكون لهجة الحديث مصرية. فإذا فلتت منه كلمة شامية نظرت هي إليَّ من طرف عينيها وقد احمر وجهها وكأنه تفوه بكلمة بذيئة.

لا أخبار سوى أنه انضم إلينا في الإذاعة شاب سوداني ثرثار للغاية. لدرجة أنني اضطررت مرة إلى أن أقطع كلامه بقولي: Stop it, old boy له طريقة في الفشر غير طريقة حكمت بنت خالة ماما. عندما تفشر حكمت تقول إنها اشترت بالأمس سيارة كاديلاك وضاعت منها وهي عائدة في الطريق.. أو أن ضيفا زارها اليوم فجأة وقت الغداء وخجلت منه إذ لم تكن مستعدة وكانت «مِألْفَطَاها يوميها» وطابخة ثلاثة ديوك رومي فقط. أما فشر صاحبنا السوداني فهكذا: يقول: «بالأمس مكثت في المتحف أتأمل صورة سمرست موم أربع ساعات أحاول أن أكتشف من ملامحه سر عبقريته. وفجأة.. وأنا مستغرق في أفكاري جاءت من خلفي فتاة جميلة كالملائكة قطعت عليَّ تفكيري بأن طلبت مني أن أشرح لها الصورة. وبعد أن شرحتها لها ذهبنا إلى الـFestival Hall لنحضر Concert لبيتهوفن. أثناء الكونسرت وجدنا أيدينا فجأة، ودون أن نشعر، تتلاقى. ونظرت إليها فوجدت الدموع تنهار من عينيها وشعرنا بروحينا تخترق سقف الـFestival Hall وتحلق في اللانهائية مدة خمسة وأربعين دقيقة.. وما نشعر عندما عادت أرواحنا إلى القاعة إلا والموسيقيون والجمهور قد انصرفوا وأننا وحدنا في القاعة منذ ربع ساعة...»

ويكف عن الحديث. وينظر إلينا ليرى تأثير القصة من وجوهنا.. فنهز جميعا رؤوسنا في حماس مؤَمِّنين مصدقين.

في برنامج اخترت لكم سجلت ثلاث حلقات ستذاع ابتداء من يوم الثلاثاء القادم على ثلاث أسابيع في الساعة العاشرة إلا الثلث بتوقيت القاهرة واحدة من هذه الحلقات كتبتها عن كيف تطورت موسيقى عبد الوهاب من موال «في البحر لم فتكم» حتى «أنا والعذاب وهواك» مستخدمًا ١٧ أسطوانة وشارحا متى بدأ تأثره بالموسيقى الغربية وعودته من حين لآخر إلى الطابع الشرقي.

منذ مجيئي إلى إنجلترا حتى اليوم أحاول عبثا أن أتخلص من شعور كان يلازمني في مصر.. كلما أذهب إلى رواية وأقرأ كتابا أجد نفسي لا شعوريا أقول في بعض المواقف: هذا المنظر كان سيعجب جلال إذا رآه. أو هذه الفقرة كانت ستعجب جلال لو قرأها، أو هذه الحادثة كان جلال يستطيع أن يكتب منها قصة. وعندما أتنبه لنفسي أشعر بوحدة شديدة.. عام كامل مَر دون أن أجد هنا شخصا يشاركني ميولي وأفكاري أو على الأقل أستطيع أن أحدثه عنها فيفهمني حتى ولو لم يكن يشاركني فيها.

من المناظر المضحكة منظري أنا وعبد العزيز نتحادث. أنا أحسده أنه متزوج وله عائلة تنتظره في المساء، وهو يحسدني أنني غير متزوج وليست لي عائلة تنتظرني في المساء. أنا أحاول أن أشرح له الشعور الكئيب بأن أحدا لا ينتظر عودتي ولا أحد ينظر من النافذة (كما تفعل زينب ومنى) لدى سماعه أي صوت آملا أن يكون القادم أنا. وهو يجيبني: إنك على الأقل تستطيع أن تذهب ليلة إلى المسرح، ليلة تتمشى في الشوارع إذا شعرت برغبة في ذلك، أو أن تقرأ كتابا في هدوء دون أن تعمل حساب أحد. ما أسميه أنا بمرح الأولاد ولعبهم يسميه هو دوشة الأولاد وضجيجهم. وتذكرني كل محادثة من هذا النوع بمواضيع الإنشاء التي كانوا يعطونها لنا في الابتدائي عن محاورة بين فأرة البيت وفأرة الصحراء أو مناظرة بين الملاح والفلاح. الفارق الوحيد أننا كنا نجعل فأرة البيت فخورة بالبيت وفأرة الصحراء فخورة بالصحراء، أما في حالتي أنا وعبد العزيز فكل من الفأرتين تحسد الأخرى على حالها. ونخرج من المحاورة متنهدين ويقول كل منا في سره القولة الخالدة: «مفيش حد في الدنيا دي مستريح».

حسين

* * *

لندن في ٢٠ أكتوبر ١٩٥٥

عزيزي جلال

في الأسبوع الماضي قررت أن أترك غرفتي وأنتقل إلى غرفة أفخم نظرا لزيادة مرتبي. وأخبرتني سيدة هنا أنها سمعت عن غرفة خالية في مكان ما، واتصلت هي بصاحبة البيت تدبر موعدا ثم أخبرتني به.. وذهبت.. وأرتني صاحبة البيت الغرفة فوجدتها مناسبة، فلما طلبت جواز سفري لتقييد اسمي في دفترها ووجدتْ أني أحمل جوازا مصريا قالت في برود «آسفة، لا أستطيع» Sorry, I can't، ولم أسألها لماذا، وإنما أخذت الباسبور في برود أكبر ووضعته في جيبي وانصرفت.

وعندما أخبرت الرئيس الإنجليزي للقسم في مرارة بما حدث، صاح في حماس «لا يمكن أن تكون إنجليزية، لا بد أن بها دما ألمانيا أو شيئا من هذا! الإنجليزيات لا يتصرفن على هذا النحو».

وفي المساء كنت أقدِّم حديثا في الإذاعة عن اختفاء التفرقة العنصرية في بريطانيا.. أيمكن حقا أن تكون قد اختفت في الفترة ما بين الصباح والمساء؟

وتذكرت حادثا وقع لي أول مجيئي إلى إنجلترا.. كنت عائدا مع فاطمة وعبد العزيز من السينما في Kingston حاملين حاجيات العشاء. كنا في حالة مرح شديد، ربما من أثر الفيلم. وفجأة شعرت بيد غليظة تمسك بذراعي. فلما استدرت وجدت بائعة سمينة طويلة مع عربة كمثرى قد تركت صديقتها والعربة لتلحق بي. وسألتني في تعالٍ: «من أي بلد أنت؟» وأجبتها بحسن نية وأنا أبتسم: «مصر» فتركت ذراعي وتوجهت تهمس شيئا في أذن صاحبتها ثم انفجرتا بالضحك.. ولحقت أنا بعبد العزيز الذي قال لي بشدة «لماذا رددت عليها؟» كان من الواجب أن تقول لها It is none of your business ثم تابعنا بقية الطريق صامتين.

«اختفاء التفرقة العنصرية في بريطانيا».. حقا؟ أين؟ أين وأنا لا أركب الأوتوبيس أو الأندرجراوند مع صديقة انجليزية إلا ونظر إليها الراكبون في احتقار من أعلى إلى أسفل، وكأنهم يقولون لها: «آه! إذن فأنت من هذا النوع الذي يمشي مع الملونين!» فتضطر المسكينة إلى أن ترد نظراتهم في تحدٍّ. وأجدني أحيانا أفضل في نفسي النظام الأمريكي بتخصيص عربة للسود وعربة للبيض.

ثم أي سرور أو فخر يمكن أن يشعر به الشبان المصريون عندما يجدون ـ وهذه حقيقة ـ أن الفتيات الإنجليزيات يملن إلى اللون الأسمر والعيون السوداء والشعر الأكرد؟ إنهم يعاملننا طبق هذا الميل كما يعاملن الدببة

الصغيرة والقرود اللطيفة في حدائق الحيوان.. قالت لي صديقتي مرة تعلل هذا الميل: «حتى أثناء طفولتي كنت مغرمة بجمع دُمى ذات وجوه سوداء!».

وتجلس في الأندرجراوند في مقابلة سيدة إنجليزية عجوز فتبتسم لك دون مناسبة في عطف وإشفاق: «Poor thing! And he is so handsome! It’s not really his fault that he is coloured?» وانتابتني مرة نوبة سارترية، فأخرجت لساني لامرأة عجوز ابتسمت لي «مجرد طرفة...».

حسين

* * *

لندن في ١٦ نوفمبر ١٩٥٥

والدتي العزيزة، عزيزي جلال

الساعة الآن الثامنة مساء وأنوي أن أظل أكتب هذا الخطاب حتى منتصف الليل.. إني آسف أني لم أبعث إليكم بخطابات طويلة منذ مدة.. ليس عن تقصير أو انشغال، وإنما هو انقطاع الوحي. كان بإمكاني أن أرسل خطابات قصيرة أسلم فيها على أفراد العائلة فردا فردا مع السؤال عن صحتهم فردا فردا، ولكني أشعر أنني بخطاباتي الطويلة السابقة قد قطعت على نفسي خط الرجعة.

أخباري: أهم أخباري هو التقرير السنوي الذي كُتب عني وقُرِأ عليَّ بمناسبة مرور عام واحد على التحاقي بالـB.B.C... ناداني المدير العام وقرأ عليَّ النقط التالية:

١- مذيع ممتاز، له صوت جيد، وقد نمَّى أسلوبا خاصا به في العمل الإذاعي.

٢- مترجِم جيد، وإن كان يميل إلى استعمال اللهجة المصرية حين يتطلب الحديث اللغة العربية الكلاسيكية.

٣- لا يمكن الاعتماد عليه، ينقصه الشعور بالمسئولية.

٤- يتخذ موقفا شخصيا للغاية تجاه عمله.. كل شيء يراه من زاويته الخاصة.

ثم تجيء في آخر التقرير الجملة الرنانة:

٥- يمكنه إذا تخلص من العيوب السابقة أن يكون أكفأ أعضاء القسم طرا ومن أكفأ المخرجين في القسم.

ثم سألني عما إذا كنت ما أزال أجد متاعب في حياتي في لندن وعما إذا كنت مستريحا في مسكني. وختم الجلسة بأن عبَّر عن أمله في أن يرد تقرير السنة القادمة خاليا من نقطتين أو ثلاثة من النقط السالفة.

أرجو أن تكون قد وصلتكم البطاقة التي أرسلتها من توركي.. ذهبت إليها في الأسبوع الماضي للاستجمام ومكثت نحو خمسة أيام مع عائلة انجليزية.. خمسة أيام دون أن أنطق فيها أكثر من جملتين أو ثلاثة يوميا.. «Thank you» عندما تحضر لي السيدة الإفطار، «Tea, please» في صالات الشاي، و«It is me» عندما أعود في المساء وتصيح السيدة من غرفتها «من هناك؟»

ورغم رداءة الجو وخلو البلدة من الزائرين والسياح إلا أنني استرحت جيدا وأكلت كثيرا عن عمد. في الفطار كانت تقدم لنا إلى جانب الشاي بيضا وبيكون وسمك مشوي ومربى وزبدة ولبن وكورنفليكس، ثم طبقا من الفاكهة لزوجها، لم يسألني قط أن آخذ لنفسي منه. في الغداء فراخ أو لحم مع بسلة وبطاطس وبودنج وفي العشاء ساندوتشات.. في مساء اليوم الثاني شعرت بشيء من الوحدة فخرجت إلى حجرة الجلوس وجلست أتحدث مع ربة البيت وزوجها.. أخبرني أنه كان في مصر أثناء الحرب وقال إنه يعتقد أنه ما يزال يتذكر الكلمات العربية وأنها فرصة بديعة أني جئت حتى يتمرن معي.. وبدأ ينطق بكلمات لم أستطع أن أميِّز منها واحدة. ولكني تظاهرت بالفهم وهززت رأسي في إعجاب بينما ظلت الزوجة تحملق في زوجها طوال الوقت في احترام شديد. وفي الصباح التالي قدم لي طبق الفاكهة وأصر على أن آخذ منه شيئا.

يقول جلال في خطابه إن والدتي ما زالت تعتقد أنني أخطأت بمجيئي إلى انجلترا. هذا قطعا غير صحيح. أنا أعلم أن خطاباتي الأخيرة هي التي جعلتها تعتقد ذلك ولكن مَن منا لا تمر به أحيانا أينما كان لحظات حالكة..؟ كان بإمكاني أن أغفل باستمرار الأخبار السيئة ذاكرا الأخبار السعيدة فحسب ولكني أولا مصمم على أن أكتب إليكم بكل شيء وثانيا ليس هناك من أتحدث إليه هنا بمتاعبي إطلاقا اللهم إلا من سيفرح أنني ألاقي متاعب مثله، والشخص يريد أحيانا أن يرى البعض يقلق من أجله وليس هناك سواكم من يستطيع أن يقلق من أجلي.

غير أني سعيد الآن للغاية.. والفتاة التي أحبها تحبني هي الأخرى.. أصبحنا دائما معا لا نكاد نفترق حتى أصبح موظفو الـB.B.C. لا يرونا في النادي إلا وابتسموا وتغامزوا.. «آه!» هكذا يقولون «هناك زواج في الجو»...

ومع سعادتي هذه (سواء في عملي أو في حياتي في انجلترا) فإني لا أنوي أن أمكث أكثر من العامين المتبقيين. إذ أني مصمم على اتخاذ الكتابة مهنة جدية والكتابة هنا محالة.. لا وحي إطلاقا.. لا شيء هنا يوحي بشيء.. كل شيء من النظام والترتيب ما يجعل الأديب يكاد يبكي يأسا.. وقد مر عليَّ عام الآن لم أر في الشارع أثناءه ولا خناقة واحدة يسيل لها لعاب القصص... في القطار في إيطاليا جلست في مقابلتي سيدة إيطالية عجوز فقيرة وابنتها الصغيرة وقد فرشا أمامهما جرنالا قديما جعلا يأكلان منه جبنا وسردينا وخبزا.. بعد الأكل مسحت السيدة أصابعها في الصحيفة، أخذت جرعة من النبيذ من زجاجة كبيرة، مسحت فمها بكم ردائها ثم تكرعتْ وبصقت من النافذة... أصابني وأنا أراقبها تصنع كل هذا انتعاش وسرور لا يمكن وصفهما: هذه الأشياء لا يمكن أن تحدث في انجلترا. في القطار في انجلترا يجلس المسافرون يدخنون البيبة يقرأون الجرائد فإذا ما أردت التحدث إليهم وسألتهم سؤالا لفتح الحديث التفتوا إليك في هدوء متمتمين: «I beg your pardon?»

١٧ نوفمبر ١٩٥٥:

سافر عبد العزيز.. ودعناه اليوم في ووترلو وداعا مؤثرا حقا وودَّع هو لندن مقسما على ألا يطأ أرضها ما دام حيا. ستلحق به فاطمة كما تعلمون يوم ١٧ ديسمبر وقد حاولتْ من وراءه أن تغير التذكرة إلى يوم أبكر من هذا التاريخ. لقد أصبح العمل من وراء الآخرين مرضا فيها حتى ولو لم يستدع الأمر ذلك إطلاقا. حتى لو أرسل عبد العزيز في طلب كتاب أو أفة موز شعرت فاطمة على الفور برغبة في أن تطلب من البائع من ورائه ألا يرسل الكتاب أو أفة الموز.

هناك اعتراف أريد أن أسرده لكم.. لقد تلخبطت ماليتي إلى درجة سيئة.. فقد اشتريت بدلتين أول هذا الشهر لم يدعا من الماهية إلا قدرا بسيطا اضطررت معه إلى استدانة عشرين جنيها من كبير المذيعين. ولكني واثق أن الأمور ستعود إلى مجراها الطبيعي أول الشهر وسأرسل الأسطوانات والهدايا مع يوسف الحطاب الذي جاء في زيارة لانجلترا في الأسبوع الماضي وسيعود إلى مصر في أواخر ديسمبر.. شيء واحد فقط لن أستطيع قطعا أن أرسله وهو البالطوهين اللذين طلبتهما نعيمة لها ولشادية.

استقال موسى السعودي كبير المذيعين من العمل وسيغادر آخر يناير إلى هولندا للعمل في الإذاعة هناك. تشاجر مع الرؤساء هنا إذ لم يرسلوه في إحدى الجولات التي يرسلون فيها رؤساء الأقسام إلى أفريقيا أو الشرق الأوسط بينما أرسلوا من هم أقل درجة منه. وكتب إليهم خطابا شديد اللهجة يهددهم فيه بالاستقالة إن هم لم يرسلوه في إحدى تلك الجولات فأجابوه أن طبيعة عمله تستدعي بقاءه المستمر في لندن. فقدم استقالته على الفور.

ليست الحقيقة أن طبيعة عمله تستدعي بقاءه المستمر في لندن.. الحقيقة هي أن الرؤساء الانجليز هنا يقسمون الموظفين الأجانب عندهم إلى قسمين لا ثالث لهما: إما موظف يستطاع الاعتماد عليه لخدمة مصالحهم، أو موظف لا يستطاع الاعتماد عليه والغرض الظاهري من الجولات التي ينظمونها في شمال أفريقيا والشرق الأوسط هو إعداد برامج عنها. أما الغرض الحقيقي فهو كتابة تقارير سرية لوزارة الخارجية عن الحالة السياسية هناك. وهم يعتمدون في ذلك دائما على الفلسطينيين (وجميعهم هنا متجنس بالجنسية البريطانية) إذ يدرك الفلسطينيون جيدا أن مصيرهم التشرد لو غضبت عليهم الحكومة هنا.

يعمل هنا فلسطيني عجوز يدعى حسن الكرمي (مراقب اللغة الذي حدثتكم عنه) ذهب مؤخرا في جولة بأواسط أفريقيا مدة شهرين جعلنا نأمل طوالهما أن يأكله الماو ماو هناك.. عاد سالما اللهم من روماتيزم في ساقه اليسرى.. هذا الشخص يصعد كل صباح خميس إلى رئيس القسم متوكئا على عصاه هازا رأسه يمينا ويسارا حسرة على نفسه. وينقل إلى الرئيس فضائح القسم: «جمال الكيناني سبَّ نوري السعيد صباح يوم الاثنين واستنكر حلف بغداد... حسين أمين رُؤي يتناول طعام الغداء في نادي الإذاعة مع فتاة انجليزية واستغرق في غدائه عشر دقائق أكثر من اللازم.. عبد الرحيم الرفاعي ما زال يستعمل عبارة «خبر هام» بينما كررت له ألف مرة أن «الهام» هو ما يجلب الهم، أما المهم فهو ذو الأهمية.. منير شما يفكر في إجراء عملية إجهاض لصديقته...» ثم يخرج من حجرة رئيس القسم باسم الوجه متوكئا على عصاه.. ويربت وهو خارج على خد سكرتيرة الرئيس في حنان أبوي.

١٨ نوفمبر:

أعلم قطعا أنني سأفتقد عبد العزيز فرغم أنني في المدة الأخيرة لم أكن أراه إلا نادرا إلا أن مجرد علمي أنه موجود في لندن وأن باستطاعتي الالتجاء إليه في أي وقت كان يخفف عني.. منذ أن حضرت إلى انجلترا وأنا أشعر كالطفل الذي تركه أبوه في مكان غويط في البحر، فيجد أنه إما أن يعوم أو يغوص في

الماء. أحيانا عندما تتجمع في المطبخ كومة من الأطباق والكاسورنات القذرة أتركها يائسا في الحوض وأذهب إلى عملي آملا أملا خفيا أن أعود فأجدها ـ بطريقة ما ـ قد غُسلت، كما عاد الأقزام السبعة في يوم ما فوجدوا Snow White قد رتبت لهم البيت وأعود فأجدها تماما كما تركتها.. فلا Snow White تأتي، ولا الماو ماو يأكلون مراقب اللغة.

من الشيق أن نقارن بين إذاعات ما وراء البحار في الإذاعة البريطانية وتلك في إذاعة هولندا التي سيلتحق بها موسى السعودي. الأولى سياسية محضة كإذاعة موسكو؛ الأحاديث فيها عن رُقي نواحي الحياة في بريطانيا ونشرات الأخبار رغم عدم تحيزها الظاهر تُكتب من وجهة النظر البريطانية. مثلا إذا توفِّي أيزنهاور لا يوضع التأكيد على وفاته بقدر ما يوضع على تعزية الملكة إليزابيث ورئيس الوزارة. وإذا زار الملك حسين سوريا مثلا لا يغفلون أن الطائرة التي سافر فيها بريطانية الصنع... في الإذاعة الهولندية لا سياسة بالمرة.. برامجها جميعا تجارية: أحاديثها عن منتجات الألبان الهولندية وتمثيلياتها تنتهي دائما بدعوة إلى شراء الجبن الهولندي كالإعلانات القصصية للكوكاكولا في السينما، فيتضح لبطل التمثيلية مثلا بعد شجار تراجيدي مع زوجته لم يفلح الأصدقاء في تصفيته، أن سبب الشجار في الواقع أنه كان ثائر الأعصاب بسبب ارتباك في الهضم أصابه بسبب تغييره نوع الجبن الهولندي الذي كان يستعمله في الإفطار إلى نوع آخر غير هولندي.. ويستيقظ البطل في صباح اليوم التالي فيفطر بجبن هولندي فيعتدل لها هضمه وتهدأ أعصابه ويتصالح مع زوجته فيفرح الأصدقاء..

سأكتب لكم مرة أخرى بعد أيام.. وأرجو أن تصلني خطابات من الجميع.. مع أطيب تحياتي وتمنياتي.

حسين

* * *

لندن في ٩/١٢/١٩٥٥

عزيزي جلال

يشاء الله إلا أن أترافع في أول قضية لي، هنا في انجلترا!! هل تصدق؟ بعد غيبة دامت أكثر من عامين عن القانون وكتب القانون، وصلتني على حين بغتة في الأسبوع الماضي رسالة من مكتب محامين انجليز تقول إنهم في حاجة إلى محام مصري للتعاون معهم في قضية أملاك في مصر توفي عنها صاحبها

ويطلب المدعي حق إدارتها من انجلترا. وألحق المكتب الرسالة بأوراق القضية وأعطوني مهلة ١٤ يوم لدراستها...

وفغرت فمي من الذهول بعد قراءة الفقرة الأولى.. لم أكن قط أتصور أنني نسيت ما درسته إلى هذا الحد وأنه لم يعد في ذهني شيء مما قتلته بحثا من كتب القانون.. ولكني في حاجة ماسة إلى النقود فصممت على أن آخذ القضية على أي حال حتى ولو ألفت قانونا من عندي.

إنني في حاجة إلى مساعدتك يا جلال.. سأكتب إليك بتفاصيل القضية عندما أتم قراءتها لتخبرني برأي القانون فيها أولا بأول. وسأرسل إليك تلغرافا لترد عليَّ تلغرافيا إن فاجأوني بأمر عاجل لا أعرفه ولك نصف الأتعاب.

رجائي أن ترسل إليَّ يا جلال حالا حالا فور استلامك هذه الرسالة نسختي من مجموعة القانون المدني والقانون الدولي الخاص (أليست هذه القضية من اختصاص القانون الدولي الخاص؟) وأي كتب أخرى تجد أنها تتعلق بالقضية وأن تُعلِّم لي على الفصول التي قد أستفيد منها.

أرسلها بالطائرة يا جلال حتى تصلني قبل يوم ٢٠ ديسمبر وسأكون شاكرا لك أبلغ الشكر.. وترقب مني قريبا تفاصيل القضية ثم سأكتب لك عما دار في المحكمة..

حسين

ملحوظة: لا أدري ما إذا كانوا سيلبسونني الشعر المستعار أم لا. إن ألبسوني إياه، سأرسل لكم صورة لي فيه.

* * *

خطاب طويل آخر يتضمن ـ إلى جانب أشياء أخرى ـ رأيي في الزواج من الأجنبيات وشرحا للسبب الذي يدفع المصريين إلى اتخاذ مثل هذه الخطوة...

لندن ١٩/١٢/٥٥

عزيزي جلال:

شكرا لخطابك الطويل وأجزل الشكر لك ولأحمد على إرسال الكتب التي وصلتني بأسرع مما كنت أنتظر.

وتهانئي لكم جميعا بالكريسماس.

أكتب إليك هذا الخطاب على إثر اتخاذي قرار هام، اتخذته بعد حيرة طويلة وتفكير طويل مخلص: ألا وهو ألّا أتزوج من صديقتي الانجليزية الحالية ولا من أي صديقة أجنبية مستقبلا. وقد اضطررت إلى الإسراع في البت في الأمر بسبب كثرة الإشاعات في المكتب هنا حول قرب زواجي بها بل وتصميم البعض على الاعتقاد بأننا تزوجنا بالفعل سرا.

لكي أتوصل إلى قرار في الأمر لم ألجأ إلى نصيحة المتزوجين فعلا من أجنبيات (إذ من يستطيع أن يتوقع أن يعترفوا له بفشلهم؟) ولا في الواقع إلى نصيحة أحد. بل حاولت أن أكتشف بنفسي السبب الذي يدفع بعضنا إلى اتخاذ هذه الخطوة.

لماذا (هكذا بدأت) نرفض نحن المصريون من أصحاب المؤهلات رفضا باتا الزواج من «تايبيست» مصرية أو سكرتيرة أو فتاة من هذه الطبقة بينما لا نتزوج عند مجيئنا إلى أوروبا إلا من هذه الطبقة أو أقل..

السبب ليس فقط أن هذه الطبقة هي وحدها التي نستطيع أن نخرج نحن الأجانب مع فتيات منها بل أيضا أن الحدود بينها وبين الطبقات الأخرى في انجلترا من التعقيد والغموض بحيث لا يمكن لأجنبي أن يدركها. أي فتاة انجليزية لم تتلق تعليما جامعيا (أو حتى تعليما ثانويا) تستطيع أن تتحدث بطلاقة عن شكسبير وبايرون وكيتس أو حتى عن براونينج وتينيسون اللذين قد لا يكون صاحبنا المصري قد سمع عنهما. صحيح أن هذا هو أدب بلادهم ولكنه على الأقل أدب عالمي بينما أدبنا ليس كذلك. صحيح أنهن قد لا يعرفن جوته أو تشيكوف ولكن كم من فتياتنا المصريات يعرفنهما؟ باستطاعة أي فتاة انجليزية أن تتحدث في تمثيليات برنارد شو (شاهدَتْها على شاشة التيليفزيون وهي تتناول العشاء) أو في صور رفائيل وليوناردو دافينشي ومجموعة لم نسمع عنها من الرسامين (تفرجت عليها أثناء رحلة مدرسية للـNational Gallery) أو في موسيقى Sibelius ورمسكي كورساكوف (أخذها صاحبها للاستماع إليها في الألبرت هول ذات مساء)، وسيبدو أكثرنا نحن المصريين ثقافة جاهلا إلى جانبها حتى ولو كانت معه دكتوراه في الهندسة أو في الطب.. اقرأ خطابا لفتاة انجليزية من هذه الطبقة التي أتحدث عنها (وسأرسل لكم عينة منها إذا أحببتم) أؤكد لكم أنه لا أنا ولا والدي ولا أحد منكم يستطيع أن يكتب خطابا يجاريه في الأسلوب أو في خفة الروح والثقة... حضارة القرون التي تختفي وراء مثل هذه الأشياء البسيطة، والحياة في جو صاخب بالآثار

الفنية، تجعل الأصم يسمع رغما عنه بـSibelius وليوناردو وبرنارد شو، وتجعلنا نحن الشرقيين لا نلاحظ فروقا واضحة بين الطبقات.

أية فتاة انجليزية لم تر على شاشة التيليفزيون في بيتها وهي في الثامنة أو التاسعة من عمرها عرضا لتاريخ تطور الباليه ودرسا في خطواته، أي فتاة انجليزية لم تحفظ في مدرستها مناظر كاملة من شكسبير عن ظهر قلب؟ وأي فتاة انجليزية لم تذهب كرها أو طوعا للتفرج على صور الـNational Gallery في رحلة مدرسية كما تزور تلاميذ مدارسنا حديقة الحيوان أو القناطر؟

كل هذا جميل ويقال في صف الإنجليز ولكنه يميل دائما إلى خداعنا نحن الشرقيين فيجعلنا نأخذ مجرد المعرفة المدرسية على أنها ثقافة.

أمر آخر يساعد على تعميتنا عن فروق الطبقات.. اللغة.. في مصر باستطاعتنا من كلمة واحدة تخرج سهوا عن شخص أن نرده إلى طبقة معينة. ولكن من منا مهما بلغت انجليزيته من الجودة يستطيع أن يميز بين الطبقات حسب اللغة؟ بالعكس، اللغة الانجليزية باستمرار نقطة في صف الفتاة الانجليزية مما يعطي بعض الحقيقة إلى النكتة المصرية عن العمدة المصري الذي زار انجلترا وعاد مشدوها إذ وجد أنه «حتى الشحاتين هناك يتكلمون بالإنجليزي».

نقطة أخرى.. بالنسبة للمصري في انجلترا تستطيع الفتاة الانجليزية أن تجعل من نفسها indispensable (لا يمكن الاستغناء عنها).. متى اضطررت أنا في أي وقت من الأوقات في مصر إلى الجلوس لتركيب الزراير في قمصاني وبدلي أو إلى ترقيع الجوارب؟ بل متى شعرت بأن قميصي محتاج إلى زرار أو جوربي إلى ترقيع؟ كان الغسيل ينزل من السطح فتركب والدتي الزراير وترفي الجوارب قبل تسليم حاجياتنا إلينا فكأنه لا زرار انسلت ولا جورب انقطع. هنا في انجلترا كنت في الأشهر الأولى أترك البدلة أسابيع لا ألبسها لمجرد أن زرارا فيها انقطع وأفضل شراء جورب جديد على ترقيع الجورب القديم أو حتى غسله. أي اعتراف بالجميل إذن بل وأي حب لا أشعر به نحو فتاتي الانجليزية إذا جاءت يوما لغسل الجوارب وتركيب الزراير!

ثم الوحدة.. أنا شخصيا لم أكوِّن حتى الآن صديقا لي هنا من بين زملائنا العرب في الإذاعة وأشعر أنه لولا صديقاتي الانجليزيات لأصبحت الحياة لا تحتمل.. في مصر لو أخبرتني فتاة أنه إما أن أتزوجها أو ستضطر إلى الامتناع عن الخروج معي أستطيع أن أخبرها أن تذهب إلى الشيطان، عالما أن والدتي على الأقل تنتظرني في البيت. في انجلترا إذا أخبرتني صديقتي الانجليزية أنها

لن تستطيع أن تقابلني في مساء ما لسبب طارئ أعود بقلب ثقيل وكأن الشيطان نفسه ينتظرني في البيت.. إنني مثلا في إجازة ثلاثة أيام من العمل.. أؤكد لكم أنه من المحتمل جدا لو أن فتاتي الانجليزية أخبرتني أنه إما أن أتزوجها أو لن تقابلني مدة هذه الأيام الثلاثة لوعدتها بالزواج خوفا من قضاء هذه المدة وحدي.

نأتي الآن لسبب أساسي.. إلى الحيرة التي انتابت حافظ وانتابتني وتنتاب جميع الشبان المصريين غير المتزوجين الذين يحضرون إلى انجلترا.. ماذا بعد رجوعي إلى مصر؟ هنا في انجلترا يستطيع الشخص أن يكون له عشيقتان على الأقل وأكثر من نصف دستة من الصديقات... يستطيع أن يكوِّن له حريما دون أن يضطر إلى الزواج ودون أن يشعر بالحاجة إليه.. فماذا بعد رجوعنا إلى مصر؟ في مصر لكي نذهب مع فتاة إلى السينما نرسم المشاريع ونضع الخطط ونفكر ونتآمر.. حتى إذا ما نجحت المشاريع وأفلحت الخطط وأثمر التفكير ونُفذت المؤامرة أخبرتك الفتاة في السينما أنها لن تخرج معك مرة أخرى إلا إذا خطبتها.. سيدتي الفاضلة ليس فقط أنا غير مستعد للزواج منك كي أتمكن من الذهاب إلى السينما معك بل لست مستعدا على الإطلاق لتضييع وقتي في التآمر والتفكير ورسم الخطط. فماذا إذن؟.. طريق واحد.. الزواج من فتاة لا يمكن معرفتها جيدا أو لا زواج..

ولكن.........

كل هذا كلام طيب في صف الانجليزية التي لا أحمل لها إلا كل احترام وتقدير... ولكن في الأمر شيئًا أعمق من ذلك.

في الأسبوع الماضي دعاني الزميل معاوية الدرهلي وزوجته المصرية إلى تناول العشاء عندهم. وأثناء الحديث نطقت هدى (وهذا اسمها) بجملة كان لها أثر غريب في نفسي.. قالت: «الموسيقى دي عاملة زيِّ موسيقة حسب الله».. لا يمكن إدراك مدى الانتعاش الذي شعرت به عندما سمعت بعد غربة سنة، كلمة «موسيقة حسب الله». وقد تستسخفوني إن أخبرتكم أن عزمي على عدم الزواج من صديقتي الانجليزية قد تأكد بعد سماعي هذه الجملة. هذه نسمة من مصر. نسمة لا يمكن أن تأتي من صديقتي الانجليزية ولو مكَثَتْ عشرين عاما في مصر وأدركت أن هناك ما هو أهم من معرفة Sibelius وبراونينج: البيئة المشتركة، الاشتراك الذي يجعل العلاقة بين المصري والمصرية ليس مبنيا على رابطة الزواج فحسب بل على أجيال من التقاليد والبيئة.

أنا لا أتحدث هنا عن اختلاف اللغة رغم أنها في حد ذاتها أمر هام. على الأقل لن أضطر إذا تزوجت من انجليزية وحضرت بها إلى مصر إلى الحديث بالانجليزية حتى تتثاءب والدتي أو إلى الحديث بالعربية حتى تتثاءب زوجتي. ولكني أعني الـbackground بأسره.

هناك أناقة في الزواج من الأجنبية.. ولكنها تجعلني أقارن بين الزواج من الأجنبية والزواج من المصرية على أن الأول كحفلة أنيقة رسمية في إحدى السفارات تبذل أثناءها مجهودا ذهنيا حتى لا يخرج سلوكك عن اللائق بينما الثاني كتمددك على كنبة في بيتك لابسا بيجامتك تمص عودا من القصب...

ومع ذلك.. ومع هذا التحمس الحالي ضد الزواج من الأجنبيات فأنا نفسي لست واثقا من أني لن أضطر إليه اضطرارا في يوم من الأيام إما لحجة من الحجج السابقة أو لمجرد الشعور بالوحدة. ولكني سأظل أكافح، وهذا ما حضرت إلى انجلترا لتعلمه: الكفاح، وسأظل وقت التردد أتذكر مثلا لبنانيا أخبرتني به سيدة مصرية: «حصوة بلدنا ولا قمحة غريبة».

حسين

شكرا لجلال على عرضه أن أكتب مقدمة عن والدي لكتاب «فيض الخاطر». سأبدأ في كتابتها من الغد وسأحاول أن أجعلها طويلة كما طلب.

* * *

لندن في كريسماس عام ١٩٥٥

والدتي العزيزة، إخوتي الأعزاء:

لم يجعلوني ألبس (للأسف الشديد) الشعر المستعار، الذي كنت أنوي أن آخذ لنفسي فيه صورة أهدي نسخة منها لصديقتي وأعلق نسخة مكبرة في غرفتي. ولا كانت مرافعتي (إن كان ما قمت به يستحق هذا الاسم) بالمرافعة التي صورها لي خيالي تحت تأثير مناظر المحاكم التي نراها في السينما.

مكثت في اليوم السابق للجلسة في فراشي أفكر طويلا وأعيد قراءة المذكرة التي تستدعيني إلى حضور الجلسة. وتصورت في ذهني قاعة المحكمة غاصة بالمتفرجين ومصوري الصحف وفي ركن منها قفص المتهم (رغم علمي تماما أن القضية مدنية خاصة بقطعة أرض وليس في الأمر متهم). ثم ينادي الحاجب اسمي بلكنة أجنبية: هوسين أمين فتلتوي أعناق الحاضرين ومصوري الصحف

ليشاهدوني أدخل القاعة وينظر إليَّ القاضي من فوق منظاريه أثناء اقترابي من المنصة. ثم أحلف على الإنجيل أني سأقول الحق، كل الحق ولا شيء غير الحق، وأصلح بأصابعي من ياقة الروب، وأعدل على رأسي الشعر المستعار، ثم أبدأ المرافعة بعد تنحنح خافت.

وتصورت الحاضرين يهزون رؤوسهم أثناء مرافعتي معجبين، وخصومي في القضية يهرشون رؤوسهم في عصبية غاضبين، والقاضي يمسح منظاره بمنديله وهو يبتسم لمكري وخبثي في الدفاع. ويحاول محامي خصومي أن يعترض ويقاطع فيأمره القاضي في حدة بالجلوس والصمت وأنتهي من المرافعة فأجلس وأنا أمسح عرقي بمنديلي (رغم شدة البرد) ويعتكف القضاة مدة في غرفة المداولة ثم يعودون وينطق كبيرهم بالحكم (كما يمكنكم أن تتوقعوا) في صالحي.

ثم يلتقط لي في الختام مصورو الصحف صورة وأنا نازل على السلالم الخارجية للمحكمة، أتحدث في عدم اهتمام إلى جماعة من المحامين ورجال المحكمة.

وهبط عليَّ النوم بعد التقاط الصورة. واستيقظت في صباح اليوم التالي فلبست بدلتي السوداء ومسحت حذائي وسرحت شعري غير آسف أنه سيتنعكش تحت تأثير الشعر المستعار ثم قصدت المحكمة حاملا حقيبتي السوداء.

ولم أجد هناك بالطبع شيئا مما صورته لنفسي.. حتى القاضي لم يكن لابسا منظارا. لا قفص اتهام، لا مصوري صحف، لا التواء في أعناق الحاضرين بل لا حاضرين على الإطلاق وعندما سألت أين أجد الشعر المستعار ابتسم المحامي وغمز لصديقه بكوعه.

كانت قاعة صغيرة، أو قُل غرفة كبيرة لا تكبر عن غرفتي في مصر. في أولها منصة عليها طقطوقة سجائر وفي آخرها بضعة مقاعد خشبية. وعندما دخل القاضي وجدته لفزعي الشديد يلبس الملابس العادية: لا روب، لا شعر مستعار ودون منظار.. وبدلا من أن يستهلني بتلك العبارة الرهيبة: هل تقسم أن تقول الحق، كل الحق ولا شيء غير الحق، حياني تحية الصباح Good morning وسألني عن رأيي في الجو.

وأخبرته في يأس عن رأيي في الجو. ثم جلست بعد أن ألقيت نظرة أخيرة في القاعة باحثا عن مصور صحيفة على الأقل.

ودخل المحامون الآخرون القاعة وأحضر الحاجب إنجيلا فأشار إليَّ القاضي أن أقترب من المنصة. وسألني عن نص المادة في القانون المصري المتعلقة بالقضية الحالية فأخرجت المجموعة من محفظتي السوداء وترجمت المادة له. سألني عما إذا كنت مستعدا للقسم على الإنجيل أن هذا هو حكم القانون المصري فأومأت بالإيجاب وأقسمت على الإنجيل أن هذا هو حكم القانون المصري. فشكرني وودعني قائلا goodbye وأبدى ملحوظة أخرى عن الجو!!

ونزلت السلالم الخارجية للمحكمة وحدي حاملا محفظتي السوداء. فلا القاضي اعتكف للمداولة ولا قاطعني محامي الخصوم بل ولا نُطِق بالحكم في الجلسة.

ووصلني في اليوم التالي صك بخمسة وعشرين جنيه خصم منها سبعة جنيهات ضريبة الدخل....

حسين

لندن ٥ ديسمبر عام ١٩٥٥

والدتي العزيزة، إخوتي الأعزاء:

لم يعجبني أبداً (للأسف الشديد) الشعر المستعار، الذي كنت أنوي أن آخذ لنفسي فيه صورة أرسل نسخة منها لصديقتي وأعلق نسخة مكبرة في غرفتي. ولا كانت مرافعتي (إن كان ما قمت به يستحق هذا الاسم) بالمرافعة التي صورها لي خيالي تحت تأثير مناظر المحاكم التي نراها في السينما.

ظللت في اليوم السابق للجلسة في فراشي أتكلم طويلاً وأعيد قراءة المذكرة التي سأقدمها إلى حضور الجلسة. وتصورت في ذهني قاعة المحكمة غاصة بالمتفرجين ومصوري الصحف وفي ركنها منها قفص المتهم (رغم علمي تماماً أن القضية مدنية خاصة بقطعة أرض وليس في الأمر متهم). ثم ينادي الحاجب اسمي بلكنة أجنبية: حسين أمين فتلتوي أعناق الحاضرين ومصوري الصحف ليشاهدوني أدخل القاعة وينظر إليّ القاضي من فوق منظارته أثناء اقترابي من المنصة. ثم أحلف على الإنجيل أن سأقول الحق، كل الحق ولا شيء غير الحق، وأصلح بأصابعي من ياقة الروب، وأعدل من وضع الشعر المستعار، ثم أبدأ المرافعة بعد تنحنح خافت.

وتصورت الحاضرين يهزون رؤوسهم أثناء مرافعتي معجبين، وخصومي في القضية يهزون رؤوسهم في عصبية غاضبين، والقاضي يمسح نظارته بمنديله وهو يبتسم ويكاد يجهش في الدمع. ويحاول محامي خصومي أن يعترض ويقاطعني فيأمره القاضي في حدة بالجلوس والصمت وأنتهي من المرافعة فأجلس وأنا أمسح عرقي بمنديلي (رغم شدة البرد) وينصرف القضاة إلى غرفة المداولة ثم يعودون وينطق كبيرهم بالحكم (كما يمكنكم أن تتوقعوا) في صالحي.

ثم يلتقط لي في الختام مصورو الصحف صورة وأنا نازل على السلالم الخارجية للمحكمة، أتحدث في عدم اهتمام إلى جماعة من المحامين ورجال المحكمة.

وهبط عليّ النوم بعد التقاط الصورة. واستيقظت في صبح اليوم التالي فلبست بدلتي السوداء ومسحت حذائي ومشطت شعري غير آسف أنه سينكمش تحت تأثير الشعر المستعار ثم قصدت المحكمة حاملاً حقيبتي السوداء.

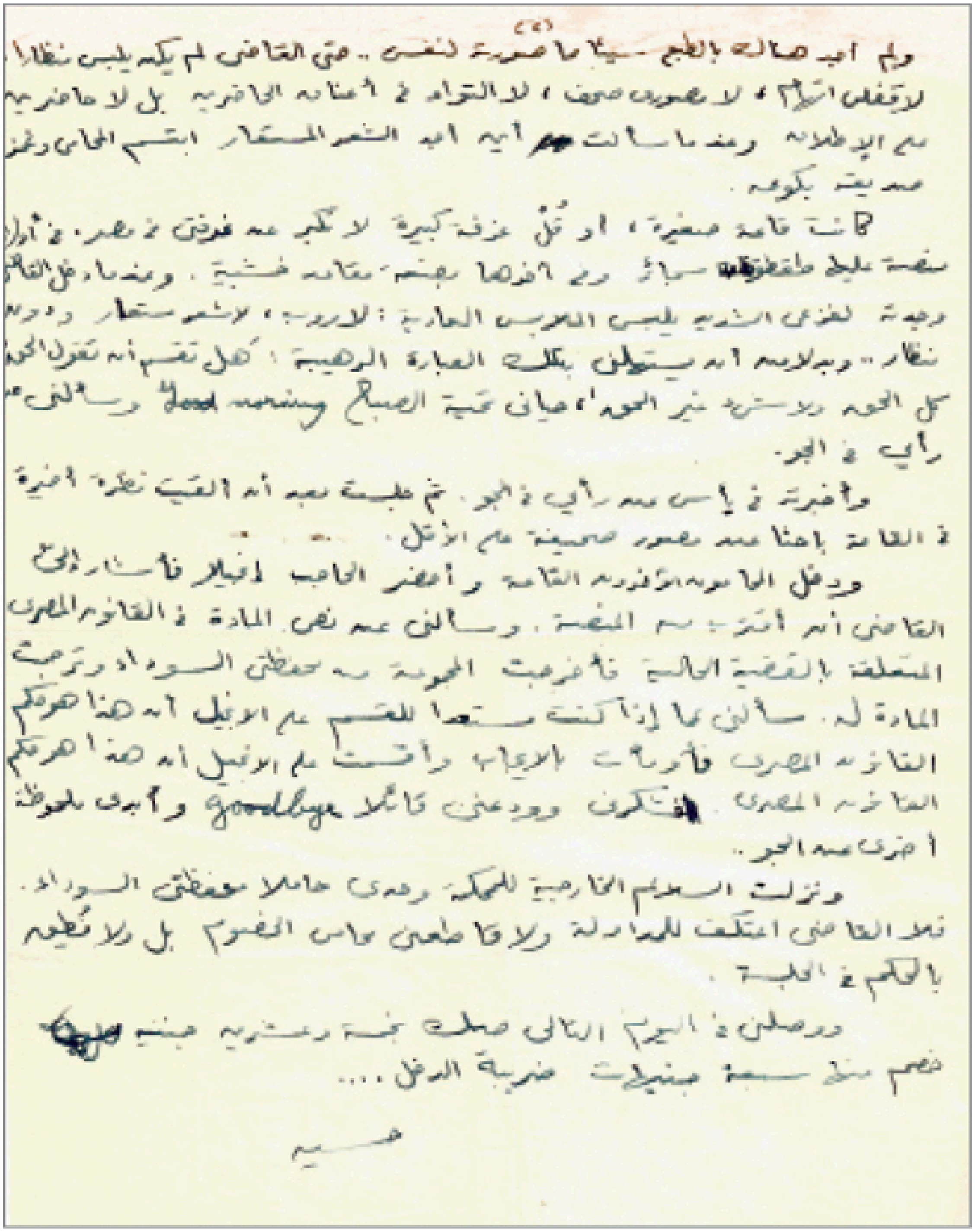

(٢)

ولم أجد صالة بالطبع - سيما ما صورته لنفسي .. حتى القاضي لم يكن يلبس نظارة ، لا قفطان أسود ، لا بصورة صوف ، لا التوائد في أعناق الحاضرين بل لا حاضرين على الإطلاق وعندما سألت … أين أجد الشعر المستعار ابتسم المحامي وغمز من بيته بكوعه.

كانت قاعة صغيرة ، أو قل غرفة كبيرة لا تكبر عن غرفتي في مصر ، في آخرها منصة عليها طاولة … وراء أخرها بيضم مقاعد خشبية . وعندما دخل القاضي وجدته لفزعي الشديد يلبس الملابس العادية ؛ لا روب ، لا شعر مستعار ولا حتى نظارة .. وبلا … أنه سيتطلع بتلك العبارة الرهيبة : "هل تقسم أنه تقول الحق كل الحق ولا شيء غير الحق" حياني تحية الصباح وسمعته Good وسألني عن رأيي في الجو.

وأخبرته في يأس عن رأيي في الجو. ثم جلست بعد أن ألقيت نظرة أخيرة في القاعة باحثا عن مصور صحيفة على الأقل.

ودخل المحامي الأفوكاتو القاعة وأحضر الحاجب الإنجيل فأشار إليَّ القاضي أن أتقدم من المنصة . وسألني عن نص المادة في القانون المصري المتعلقة بالقضية الحالية فأخرجت المجموعة من حقيبتي السوداء وترجمت المادة له . سألني عما إذا كنت مستعدا للقسم على الإنجيل أن هذا هو حكم القانون المصري فأومأت بالإيجاب وأقسمت على الإنجيل أن هذا هو حكم القانون المصري . فشكرني وودعني قائلا goodbye وأبدى ملاحظة أخرى عن الجو.

ونزلت السلالم الخارجية للمحكمة وحدي حاملا حقيبتي السوداء. لم يكن القاضي اعتكف للمداولة ولا قاطعني محامي الخصوم بل ولا نطقه بالحكم في الجلسة .

ووصلني في اليوم التالي صك بخمسة وعشرين جنيها خصم منها ستة جنيهات ضريبة الدخل ....

حسين

خطاب حسين أمين، كريسماس عام ١٩٥٥

* * *

لندن في ٢٧ فبراير ١٩٥٦

والدتي العزيزة، إخوتي الأعزاء

أتمنى لو أن واحدًا منكم جاء ليراني الآن وأنا أكتب إليكم هذه السطور وليرى الحالة التي توجد بها غرفتي ومطبخي بعد موجة الـ... (لو قلت البرد لما عبرت عن ١٪ مما أقصده.. ومع ذلك) بعد موجة البرد التي جمدت الدم في عروقنا هذا الشهر وخلفت إنجلترا دولة نخرج فيها إلى الشارع لنملأ الآنية من الطلمبات التي ركبتها الحكومة في الطرقات إذا أردنا شربة ماء أو حلاقة ذقن أو غسيل أسنان.

لنبدأ أولا بالمطبخ... إلى اليمين.. لم يكتف الماء بأن يتجمد فيكف عن النزول بل تجمد إلى درجة انفجرت معها المواسير وتساقطت قطعا إلى الأرض.. أما الحوض تحتها فممتلئ إلى حافته بثلج كان في الأصل ماءا قذرا.. على الرف زجاجات من اللبن المتجمد إلى جانبها إبريق للشاي كنت قد تركت غطاءه مبللا فالتصق الغطاء بالإبريق عندما تجمد البلل وحاولت فصلهما فانكسر الاثنان. إلى اليسار طشت صغير كنت قد تركت فيه جوربا وبعض الماء فتجمد الماء وداخله الجورب. حاولت أولا أن استخرجه بواسطة تكسير الثلج من حوله بشاكوش. فلما وجدت أن هذا خطر على الجورب الذي كاد أن يتمزق كما تتمزق الورقة أخذت لوح الثلج بأكمله وفي داخله الجورب وعرضته لنار المدفأة واضعا طشتا تحته على الأرض حتى يسقط فيه الثلج المذاب.

في الدولاب الصغير في المطبخ مواد كانت في الماضي مأكولات. قطعة من الزبد لو رميت بها شخصا الآن لأحدثت له عاهة مستديمة.. وبيض تكسره أمام الموقد فلا ينزل منه شيء ثم زجاجة من عصير البرتقال تجمدت في اليوم الأول وانفجرت في الثاني.

كما ذكرت في البدء ركبت الحكومة طلمبات في الشوارع ومنها نحصل على الماء.. في الصباح نلبس سريعا ونخرج لنقف جميعا في طابور طويل خلف الطلمبة كل يحمل آنية من الفخار ينتظر دوره. تماما كالفلاحين في مصر مع اختلاف واحد هو أنه ربما لا يقف الفلاحون في مصر في طابور. ونعود بسرعة لنسخن بعض الماء لحلاقة الذقن ونحتفظ ببعضه الآخر داخل بطانية حتى لا يجمد لاستعماله للشرب... في الشوارع لا تمر خمس دقائق إلا ونرفع يدنا إلى أنوفنا وآذاننا لنتأكد من أنها ما زالت هناك. باعة الصحف الواقفون عند النواصي يتنططون في أماكنهم حتى يستمر الدم في عروقهم في الجريان والجميع يتمتمون لأنفسهم بصوت مرتفع: بس بأه يا رب، بس بأه..

لا أحد يستحم أو على الأقل لم أستحم أنا منذ أكثر من شهر.. ليس فقط لأني لا أكاد أتصور أني سأضطر إلى خلع ملابسي بل أيضا لأن آخر شخص استحم في شهر يناير ترك الماء في البانيو فتجمد ولم يمكن تفريغه. على العموم ليس هذا بالمهم إذ أنه ليس هناك عرق على الإطلاق.

وقعت بالأمس في يدي نسخة من القرآن فجلست أقرأ تهديد الله للكافرين بالنار.. قلت في نفسي: يا الله! أهذا تهديد؟ كم أحب أنا لو مكثت في هذه النار التي وعد بها الله عباده من الكافرين حتى تنتهي هذه الموجة من البرد! إن جهنم في رأيي الآن هي لو استمرت هذه الموجة.

أذكر أن جلال كان قد طلب مني في خطابه الأخير أن أحدثه عن المسرحيات التي أراها في لندن.. وأعتقد أن هذه هي الفرصة للحديث عنها نظرا إلى أننا الآن في الموسم المسرحي وفي موسم ليس بالموسم العادي. فلو نظرنا إلى قائمة الاثنين وخمسين مسرحا الموجودة في لندن لوجدنا من بينها ما يلي: نكراسوف لچان بول سارتر (في مسرح للشيوعيين في الـEast End)، مسرحية Misalliance لبرنارد شو، The wild duck لإبسن، The rivals لشيريدان، هملت، عطيل، هنري الخامس ويوليوس قيصر لشكسبير، Waltz of the Toreadors، لچان أنوي، Nina لأندريه روسان...إلخ.. أكبر ما أثار ضجة هنا من هذه المسرحيات نكراسوف لسارتر وعطيل.. وما زالت الضجة الدائرة حول عطيل قائمة حتى اليوم نظرا للخطوة الجريئة التي يتخذها مسرح Old Vic بإسناد دوري عطيل وياجو إلى ممثلين كبيرين يتبادلان الدورين في الليالي المتتابعة فيقوم مثلا ريتشارد بيرتون بدور عطيل وچون نيڤيل بدور ياجو يوم الاثنين ويقوم چون نيڤيل بدور عطيل وبيرتون بدور ياجو يوم الثلاثاء وهكذا.. بيد أن الصحف هاجمت هذا هجوما شديدا ووصفت الفرقة بالقسوة إذ تفترض في ممثلَيْن بها القدرة على تمثيل الرجل «الأسود في الداخل والرجل الأسود في الخارج» وفي ليالي متتابعة..

مسرحية نكراسوف أثارت ضجة لسبب واحد وهو التحول الظاهر في ميول سارتر. الرواية تهكم بارع على الصحافة الغربية ملخصها أن رئيس تحرير جريدة في فرنسا لم تعد لديه مادة جديدة لاستخدامها للتهجم على الاتحاد السوڤييتي وإشاعة الخوف من الخطر الذي يتهدد الغرب، فيهدد محرر الصفحة الخامسة من الجريدة (وهي الصفحة المخصصة لمهاجمة روسيا) يهدده بالطرد إذا لم يعثر على مادة جديدة شيقة ويوبخه على أنه أفسح مكانا في عدد سابق لصورة لطابور من النساء الروسيات أمام إحدى المخابز تبين فيها رئيس التحرير أن امرأتين في الطابور تبتسمان: «أتريد أن يرى الناس أن هناك في الاتحاد السوڤييتي أشخاصا يبتسمون؟» ويعود المحرر المسكين إلى

بيته بائسا.. وأخيرا يعرض عليه محتال شاب فكرة وهي أن يدعي (أي الشاب) أنه نكراسوف وزير الداخلية في الاتحاد السوڤييتي وأنه فر من روسيا لأنه آثر الحرية ثم يكتب مذكراته في الصفحة الخامسة.. ويرحب المحرر بالفكرة ويقدم النصاب إلى رئيس التحرير على أنه نكراسوف وزير داخلية روسيا.. ويرتفع على الفور توزيع الجريدة وتعلم الحكومة بالأمر فتضع ڤيللا وسيارة تحت تصرف نكراسوف ويدعونه باستمرار للحفلات الرسمية لإلقاء خطب عن الحياة في الاتحاد السوڤييتي الذي لم يره النصاب في حياته.

بالطبع رحب الشيوعيون هنا في إنجلترا بهذه المسرحية أكبر ترحيب وخصصت لها الصحيفة الشيوعية Daily Worker صفحة كاملة من صفحاتها الأربع قائلة إن المسرح الوحيد الذي قبلها هو مسرح للعمال وإن مسارح «الوست إند» رفضت تمثيلها لأن مديري هذه المسارح مصابون بالعمى في عينهم اليسرى.

بالطبع سرني للغاية الخبر الذي ذكرته لي والدتي عن عرض عثمان نويه بوظيفةٍ عليَّ. لا لشيء إلا لأن الخبر أشعرني بأنه لا ينبغي أن أشعر بالقلق بشأن مستقبلي عند عودتي لمصر. وإذ أني لا أنوي تجديد العقد مع الـB.B.C. الذي ينتهي في نوفمبر من العام المقبل فإني أرجو لو استفهم أمين لي من عثمان نويه عما إذا كان من الممكن أن آمل أن أجد الوظيفة عند عودتي.

كنت قد قرأت في الجرائد هنا أن الحكومة المصرية ستكوِّن وكالة للأنباء(15). وقد ساءلت نفسي على الفور عما إذا كان من الممكن أن يسعى حمادة أو أمين لي كي أكون أحد مراسليها. وحتى لو استدعى الأمر إلى تأدية امتحان لها فإني على استعداد لأن أحضر في الصيف (أو في أي وقت كان) لتأدية ذلك الامتحان.

سلامي لكم جميعا وأرجو أن يصلني قريبا خطابا منكم.

حسين

* * *

لندن في ١٣ مارس ١٩٥٦

والدتي العزيزة، عزيزي جلال،

أجزل الشكر لخطابكم الذي هدأ إلى درجة كبيرة من مخاوفي بشأن المستقبل؛ عثمان نويه؛ الإذاعة، محمود العالم... أخبار تطمئنني على أن ميادين كثيرة تنتظرني عند عودتي إلى مصر التي قد أعود إليها بأسرع مما كنتم تتوقعون ومما كنت أتوقع..

اليوم يوم عطلتي.. ورغم أن هناك جزءا من الشمس يسطع في الخارج إلا أني فضلت أن أجلس في غرفتي للكتابة إليكم.. خطابا طويلا كما عودتكم مني.. دخلت عليَّ ربة البيت منذ دقائق فلما رأتني جالسا أقرأ في غرفتي ظنت أن بعقلي لوثة أن أجلس في غرفتي بينما هناك جزء من الشمس ظاهر في السماء. «يا إلهي! ألا تشعر بالرغبة في رؤيتها تلك التي لم نلمح منها طرفا منذ ستة أشهر؟».. ولكني فضلت الكتابة..

سأكتب إليكم الآن عن السبب الذي يجعلني أعتقد أنني سأعود إلى مصر في الغالب بأسرع مما كنت أتوقع، ربما قبل نهاية هذا العام، والسبب الذي جعلني أغتبط أشد الاغتباط بنقل مدير الإذاعة وازدياد احتمال قبولي ثانية في الإذاعة المصرية.

السبب هو الحالة الآن في القسم العربي من الـB.B.C... لا أعتقد أن سياسة الرؤساء الإنجليز هنا كانت في وقت من الأوقات من التخبط الذي هي عليه الآن.. تخبط يعكس تخبط سياسة الحكومة البريطانية الخارجية. (ولا عجب فنحن نُعتبر تابعين لوزارة الخارجية).. الرؤساء لا يدرون أي سياسة يتبعون تجاه الشرق الأوسط. المفروض أن القصد من إذاعتنا العربية هو استمالة الشعوب العربية إلى القضية البريطانية (إن كانت هناك قضية بريطانية غير الاستعمار) ومع ذلك فالإذاعة الغربية هنا تهاجم المملكة العربية السعودية بسبب الخلاف حول واحة البريمي، وتهاجم مصر بسبب صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية وموقفها من ميثاق بغداد، وتهاجم سوريا بسبب الحلف الثلاثي مع مصر والمملكة السعودية، وها هي بدأت تهاجم الأردن بسبب طرد الجنرال جلاب... فلمن نذيع؟ اللبنانيون لا يستمعون إلى محطة لندن، والعراقيون كما اتضح لي لدهشتي الشديدة بعد مقابلاتي مع الطلبة العراقيين هنا، يلعنون حلف بغداد، وليست هناك رابطة ما تربط بين شمال أفريقيا وبريطانيا.

الرؤساء الإنجليز يكادون أن يشدوا شعر رؤوسهم... فزمام الأمر لم يخرج من يدهم فيما يخص الشرق الأوسط فحسب بل أيضا فيما يخص موظفي القسم العربي الذين يتقاضون المهايا من الحكومة البريطانية.. منير شما يغير في حديث التعليق على هامش الأخبار عندما يجد عبارة قد تجرح الأردن، ويُصِر

على تلقيب الثوار في شمال أفريقيا بـ«الثوار» مع أنهم أمرونا أن نسميهم «الخارجين على القانون».. عبد الرحيم الرفاعي يرفض قراءة أي حديث يكتب ضد صفقة الأسلحة المصرية التشيكوسلوفاكية، والجميع يقرءون الأحاديث والتعليقات بفتور يقتل روح الأحاديث ويتوقفون عمدا عند مواضع ليست هي نهاية الجمل حتى لا يفهمها المستمع ويروح معناها.

كاد منير شما للمرة المائة أن يطرد هذا الأسبوع من الإذاعة، إذ جاءه نبأ في النشرة يقول إن «الخارجين على القانون في الجزائر ذبحوا أطفالا وشيوخا من الفرنسيين». فقرأه منير كالتالي: «وزعمت السلطات الفرنسية أن الثوار الوطنيين في الجزائر قتلوا عددا من الفرنسيين».. وتلقت الإذاعة البريطانية في اليوم التالي احتجاجا من الحكومة الفرنسية، وتلقى منير شما في اليوم الذي تلاه إنذارا من الإذاعة البريطانية.

ومع ذلك الشعور السائد بيننا نحن الموظفين العرب في الإذاعة البريطانية هو شعور من الوجوم والكآبة أكثر منه من التحدي والعصيان.. إذاعة صوت العرب المصرية تنعت المذيعين العرب هنا بالخونة وتطلب منهم العودة إلى بلادهم. والأحاديث والبرامج هنا لا تنقطع عن أن تكون هجوما على بلد كل واحد منا وضد سياسات جميعنا يدعو لها أن تنجح حتى العراقيين بيننا. ولم يعد أحد منا ينظر إلى وجه الآخر دون أن يشعر بالخجل..

الفلسطينيون هم أكثر العرب هنا وجوما.. وخاصة منير شما الذي يكره بريطانيا كراهيته للشيطان رغم حمله الجنسية البريطانية، ويعتبر جمال عبد الناصر، صلاح الدين عصرنا الحديث. ولكنه مع ذلك حاقد مر على البلاد العربية إذ رفضت مصر والعراق والأردن وسوريا منحه جنسيتها عندما التجأ إليها الواحدة تلو الأخرى فلم يجد مناصا من قبول الجنسية البريطانية حتى ينتمي إلى مكان ما.. أحيانا أشعر أنه يكرهني أني مصري وأني أستطيع أن أعود في أي وقت أشاء إلى العالم العربي وأعمل هناك.. وإنني لواثق أن تحديه للإذاعة البريطانية لأنبل ألف ألف مرة من تحدينا لها. نحن المصريون هنا كالفتيان المدللين الذين يعلمون أنهم إن طردوا من عملهم فإن أوطانهم تنتظرهم أما منير فهذا هو العمل الوحيد الذي يمكنه أن يعمل فيه.

هذه الحالة ليست قائمة في القسم العربي وحده. في القسم اليوناني طلبت الحكومة اليونانية من أعضائه الاستقالة والعودة إلى اليونان واعدة إياهم بمنحهم وظائف مماثلة عند عودتهم فاستقال بالفعل ثلاثة عقب نفي رئيس الأساقفة مكاريوس، وأخبرني موظف بالقسم أن الآخرين أصبحوا أكثر جرأة

في رفض قراءة الأحاديث التي يعتبرونها تهجما على اليونان أو قبرص. وقد طرد واحد منهم منذ يومين لتحويره في نشرة الأخبار.

أما السياسة التي يعاملنا بها الرؤساء الإنجليز فهي الأخرى تعكس السياسة التي تعامل بها الحكومة البريطانية دول الشرق الأوسط. أحيانا الاستمالة ومراعاة الشعور (فيعطون الأحاديث المهاجمة لسوريا، للمصريين؛ والمهاجمة لمصر، للسوريين؛ لقرائتها) وأحيانا القسوة والنهر (كطردهم أردنيا دون مبرر بعد طرد الأردن للچنرال جلاب). والذين تطبق إزاءهم هذه السياسة بالأخص هم المصريون الذين لا يضع الإنجليز فيهم ذرة من الثقة.

لا أدري ولكني أشعر بالفرح والغبطة أني مصري أكثر مما شعرت في أي وقت في الماضي. مصر الآن تُنْشر أخبارها وكأنها دولة كبرى والجميع يعمل حسابها. ولا أملك إلا أن أتذكر كيف كنا نخجل أن نذكر أننا مصريون عام ١٩٥٠ أيام كان فاروق في دوڤيل وكيف أن الإنجليز الآن ينظرون إلى كل مصري هنا وكأنه جمال عبد الناصر نفسه.

سأقوم هذا الصيف برحلة لا يمكنكم أن تخمنوها. وإذ سأكون في حاجة إلى خمسين جنيها كي أدفع نفقاتها فقد اتفقت مع زميلي عبد الرحيم الرفاعي أن يدفع لي ١٥ جنيه أول شهر أبريل و١٥ جنيه أول شهر مايو وعشرين جنيها أول شهر يونيو على أن يتقاضاها والده في مصر من حسابي في البنك.. رجائي الحار يا جلال أن تتصل بالسيد علي جمعة الرفاعي (٧ شارع عباده بن الصامت ـ أرض السادات ـ فم الخليج القاهرة تيليفون ٣٢٣٨٧) وتخبره عن هذا الاتفاق وتسلم له من حسابي أول كل شهور أبريل ومايو ويونيو ١٥، ١٥، ٢٠ جنيها على التوالي. وسيكتب هو لعبد الرحيم بعد اتصالك به.. وسأكون شاكرا للغاية.

أما عن قراءاتي فلا أقرأ إلا في السياسة التي أصبحت عندي داء.. ورغم كل هذه الاضطرابات في الإذاعة البريطانية إلا أني سأظل مدينا لها أنها أتاحت لي التفرج على مطبخ السياسة البريطانية.. لقد أصبحتُ أحلم في نومي بميثاق بغداد والچنرال جلاب، وأستيقظ من نومي مفزوعا عندما أحلم بأن دولة عربية أخرى انضمت إلى ميثاق بغداد. وحتى في جلساتي الغرامية مع صديقتي الانجليزية يكون معظم حديثي عن النتائج المحتملة لنفي رئيس الأساقفة مكاريوس من قبرص.

سأكتب غدا للمدير الجديد للإذاعة وياحبذا لو أخبره حمادة أنني على أتم استعداد أن أعطي الإذاعة البريطانية فورا notice بالاستقالة وأعود إلى مصر بعد ستة أشهر من إعطائي الـnotice.

على فكرة: ستنتقل مكاتب القسم العربي ابتداء من يوم ٣ إبريل إلى مبنى آخر غير 200, Oxford Street.. سننتقل إلى Bush House (ربما يعرفه أمين) قرب جسر ووترلو وهو مبنى ضخم في حجم المجمع والطعام في كانتينه أفضل بكثير.. لذلك أرجو أن ترسلوا خطاباتكم المقبلة على عنواني في البيت حتى نستقر في المبنى الجديد وأضمن وصول الخطابات إليَّ.. عنواني في البيت

27, Broadhurst Gardens,

Finchley Road, London, N.W. 6

England

تمنياتي لحمادة بالسعادة في حياته المستقبلة، ولأحمد، وتحياتي للجميع.. صديقتي الانجليزية تلح عليَّ أن نتزوج، ولكني مُصِر على عدم الزواج من أجنبية.. أرجوكم أن تكتبوا إليَّ لتشجعوني على موقفي لأني أحيانا أشعر بشيء من الضعف. تحياتي لكم.

حسين

* * *

لندن في ١٤ مايو ١٩٥٦

والدتي العزيزة، عزيزي حافظ، عزيزي جلال، إخوتي الأعزاء،

حتى في هذه المرة ـ يا سيد جلال ـ لا يقع على عاتقي اللوم. فلا السفر إلى الخارج ولا الزواج (أوه!!) ولا المرض، ما يجعلني أتأخر عن الكتابة إليكم. ولكنه سبب أنا واثق من أن السياسة والمكر جعلاكما تغفلان ذكره لي رغم علمكم به، حتى لا يبدو وكأنكم اعتذرتم أكثر مما ينبغي عن تأخركم أنتم في الكتابة.

إنكم لا تدركون مدى الأثر السيئ الذي يتركه تأخركم في الكتابة عندي «غدا سيصلني منهم خطاب فليس من الممكن أن يكونوا شريرين إلى هذه الدرجة؟». ولا أتلقى شيئا في الصباح. وأشك أولا في السيدة الإسرائيلية التي تسكن في الطابق الأعلى: «لا بد أنها شاهدت أن الطابع من مصر»، ثم في كفاءة ساعي البريد، ثم فيكم، ثم في الدنيا بأسرها، فأنتم لي تعنون الدنيا

بأسرها؛ ثم أبدأ في التفكير في انقباض في المستقبل مغفلا إياكم من الحساب.

وهذا هو السبب في أني قد صممت على عدم الكتابة إليكم إطلاقا حتى لا أعود ثانية إلى الانتظار ـ فعدم الانتظار على الأقل أهون من انتظار الخطاب وعدم تلقيه.

أما عن الهدية (رغم أنه كان من الذوق ألا أذكر ذلك) فقد وصلتني لخيبة أملي الشديد بعد أن فسدت محتوياتها. لا أدري هل السبب هو تأخر وصولها أم تأخر تسليم الإذاعة لي إياها... على العموم ألف شكر وسيأتي الوقت عن قريب الذي نجتمع فيه وأملأ معدتي دجاجا تطهيه والدتي لي.

حسنا. كيف أبدأ من حيث تركت؟ هذه هي المشكلة: تركتكم في الخطاب الأخير وأنا غير متزوج. وما زلت ـ ولله الحمد ـ حتى كتابة هذه السطور ـ غير متزوج. وبأعجوبة أيضا! فما أسماه حافظ في خطابه الأخير «بالكلبشة» لا يمكن أن يتجنب الوقوع فيه سوى بطل. وهذا هو ـ دون غرور ـ ما تمكنت من تجنبه..... حتى الآن!

تقول لي صديقتي وهي تضحك: «إن هذه السنة هي سنة كبيسة Leap year ويحق للفتاة أن تتقدم في السنة الكبيسة لطلب يد الرجل». فأجيبها ضاحكا: «حقا؟» ثم أحول الموضوع. ودعتني لأقضي عطلة عيد الفصح مع والديها في كِنْت فلما اعتذرتُ في اليوم السابق للعيد آخذا بنصيحة حافظ ـ رغم أنها لم تكن قد وصلتني بعد ـ بكت.. وأيقظوني في صباح اليوم التالي لأرد على مكالمة تيليفونية.. كانت أمها: لماذا لم تحضر يا هوسين؟ لقد أصبنا جميعا بخيبة أمل.. نحن في انتظارك.. حالا.. لا لا.. لن أسمع.. حالا.. القطار من رصيف رقم ٢.. احضر ومعك قصتك القصيرة.. متشوقين لسماعها.. باي باي..

وألقي السماعة في غضب.. اللعنة! ماذا يعني حافظ بحق الشيطان بقوله ـ حذار من الكلبشة؟ ماذا كان يمكنني أن أصنع أكثر من ذلك؟ أحلق ذقني وأنا أريد أن أجرحها عمدا انتقاما من أني قبلت.. غير أن فكرة أني سأقرأ قصتي القصيرة التي كتبتها بالانجليزية منذ أسبوع تستهويني ولا أجد الذهاب بغيضا جدا..

بيد أن الآلهة تهرع لعوني. تماما كما كانت آلهة أوليمبوس تهرع لمعونة هيكتور أو أخيل ولكن لمسألة أكثر دقة.. فقد تعد لي والدتها شايا ضخما، وقد يهنئني والدها على حسن ذوقي في اختيار رباط الرقبة؛ ولكن أحدا ليس بإمكانه الاستمرار في التظاهر أمسية كاملة.. أتدرون كيف أسرعت آلهة أوليمبوس

لمعونتي؟ جعلتهم يتثاءبون أثناء قراءتي للقصة! حتى الفتاة نفسها: My wife to be لم تستطع مغالبة التثاؤب ففتحت فمها نصف فتحة ثم أغلقته بعنف فأحدث ارتطام أسنانها صوتا. ونظرتْ إليها والدتها مؤنبة ثم تثاءبت هي الأخرى.. ولم يفلح أفخم الكعك والسندوتشات بعد ذلك في إزالة غضبي وتركوني مع والدها نصف ساعة وحدنا وأنا واثق أنهم يستمعون من وراء الباب، ولكني لم «أفعل»..

أرجو ألا تكونوا قد نسيتم أن تعطوا والد صديقي الخمسة عشر جنيها.. سأقوم برحلتي يوم ٢٣ يونيو، بعد عيد ميلادي (فرجائي أن تصل كروت المعايدة يوم ١٩) وسأقضي الأسابيع الثلاثة في أسبانيا فأزور: مدريد، توليدو، قرطبة، إشبيلية، غرناطة، جزيرة مايوركا، برشلونة، ثم أعود عن طريق باريس..

إني أكتب الخطاب الطويل في العادة على يومين. وإذ أن والدتي طلبت إرسال الخطاب بسرعة فسأقتصر على هذا القدر على أن أعود لكتابة أخباري (الأخرى) بالتفصيل.. مرة أخرى شكرا على الهدية ولا تدعوني أشك مرة أخرى في السيدة الإسرائيلية في الطابق الأعلى.

حسين

١) أرجو من جلال أن يأخذ من طارق عنوانه على البيت أو العمل لأكتب إليه.

٢) عنواني مرة أخرى:

27, Broadhurst Gardens,

Finchley Road, London, N.W. 6

England

* * *

لندن في ٢٠ مايو ١٩٥٦

عزيزي جلال (دردشة مسرحية)

هناك مسرحيات وأفلام أشاهدها هنا في لندن لك أكثر مما أشاهدها لنفسي ومن بينها رواية «رومانوف وچولييت» التي شاهدتها يوم أمس وهي من تأليف وتمثيل صديقك بيتر أوستينوف.

وسأقص الآن موضوعها عليك:

حوادثها تقع في دولة خيالية بأوروبا. صغيرة جدا «حتى ليكاد المرء يسمع طباعي الخرائط يتمتمون بكلمة «اللعنة!» وهم يطبعون موقعها على الخريطة!».. حكمها الإنجليز فترة من الوقت بحجة أن الشعب غير مستعد بعد لأن يحكم نفسه بنفسه ثم وقعت تحت حكم الفرنسيين بحجة أن الإنجليز ليس لهم الحق في حكمها... ثم استقلت في عهد «تيودور اللئيم» الذي تزوج من ابنة ملك أسبانيا الذي ساعده في طرد الفرنسيين من البلاد.

ليس للدولة جيش ولا بوليس سوى جنديين، بنادقهما فارغة، يقضيان الليل في الحراسة في الميدان العام يلعبان «السيجة» وهما بالنهار بائعان يتجولان.. رئيس الجمهورية (بيتر أوستينوڤ) رجل في الأربعين، مهزول الثياب، يحمل محفظة سوداء، يقضي ساعات طويلة من الليل في الدردشة في الميدان مع الجنديين ويطوف بالنهار على السفارات الأجنبية.

إلى الجانب الأيمن من الميدان، السفارة الأمريكية، يسكنها السفير الأمريكي وزوجته وابنتهما چولييت وهي مخطوبة لشاب أمريكي من رجال الأعمال. وإلى الجانب الأيسر السفارة الروسية، يسكنها السفير وزوجته السمينة وابنهما رومانوف وهو مخطوب لقائدة إحدى البوارج السوڤييتية.

ويقع رومانوف في حب چولييت وهي في حبه ولا يسبب هذا الحب السرور لأحد؛ فالسفير الأمريكي يخشى أن تُقَدَّم ابنته إلى لجنة التحقيقات في الكونجرس بتهمة محاولة قلب نظام الحكم بالقوة، بينما يتهم السفير الروسي ابنه بالانحراف ويشرح له أن حبه لا يتفق مع المبادئ الماركسية.

الوحيد الذي يسعده الموقف هو رئيس الجمهورية الذي نراه في الفصل الثاني يقوم بزيارة السفارتين الأمريكية والروسية بناء على دعوة السفيرين ويحاول السفير الأمريكي أن يقنعه بفائدة الانضمام إلى حلف الأطلنطي بينما يحاول السفير الروسي أن يقنعه بالانضمام إلى المعسكر الشرقي، ويعده الأمريكي إن انضم أن يمد خطوطًا حديدية في البلاد بينما يعده الروسي بعشر طائرات من طراز Mig.

ويؤجل رئيس الجمهورية الموضوع على أن يستأنفوه في المساء أثناء الاحتفال بعيد تحرير تيودور اللئيم للبلاد وزواجه من الأميرة الأسبانية.

ونرى في الفصل الثالث رومانوف وچولييت وقد أدخلهما رئيس الجمهورية بمساعدة جندييه داخل تمثاليْ تيودور والأميرة ويعقد القسيس قرانهما بينما

يعتقد السفيران وزوجاتهما أنه عقد قران رمزي. حتى إذا ما اكتشفو الأمر ثاروا وهاجوا وهددوا رئيس الجمهورية بمحو دولته من الخريطة. ثم تكون الأمهات أول من يهدأ ويهنئ العروسين وتبدي زوجة السفير الأمريكي إعجابها بقبعة زوجة السفير الروسي فترد الزوجة الروسية المجاملة وتقنعان زوجيهما بأن يباركا الزواج.

ثم يتقدم بيتر أوستينوڤ ليخاطب المتفرجين فيدعوهم إلى زيارة دولته ويخبرهم بإجراءات السفر: النفقات: بسيطة جدًّا.. الرحلة: سهلة للغاية، يستطيع الجميع أن يقوموا بها وهم في فراشهم عند انتهاء النهار عندما يسأمون التفكير في الاتحاد السوڤييتي والولايات المتحدة..

من الروايات الجيدة الأخرى التي شاهدتها هذا الاسبوع مسرحية «موت إبليس» Death of Satan لكاتب إنجليزي ناشئ شاهدتها على مسرح مخصص لروايات الكتاب الإنجليز الناشئين.

في المنظر الأول نرى إبليس في الجحيم (الذي صُوِّر على هيئة أحد النوادي الكئيبة الهادئة في لندن) مع برنارد شو وأوسكار وايلد ولورد بايرون ودون چوان. وتخطر في بال إبليس فكرة إرسال دون چوان مرة أخرى إلى إشبيلية بأسبانيا في الوقت الحاضر ليدون ملاحظاته عن الناس في الأزمة الحديثة. فيهبط دون چوان في إحدى اللوكندات يقيم بها رجل أعمال أمريكي وزوجته وقصصي إنجليزي وزوجته.. ويسأل دون چوان الفتاة في مكتب الاستعلامات باللوكاندة عن سبب التحاقها بالعمل. أجابت: «في بادئ الأمر التحقت به لكي أتمكن من شراء فريجيدير وغسالة بالكهرباء..إلخ. فلما وفرت كمية من النقود واشتريت هذه الأشياء أصبح لدي فراغ كبير وشعرت بالملل فالتحقت بالعمل مرة أخرى». «هل لديك أولاد؟» يسألها دون چوان... «لا فأنا أعمل طوال الليل كما ترى بينما يعمل زوجي طوال النهار».

وتدعوه المرأة الأمريكية إلى غرفتها.. وبينما هما في السرير يدخل زوجها رجل الأعمال ويراهما فيعتذر أنه لم يدر أن امرأته ليست بمفردها ويخبر زوجته أن توصد الباب في المستقبل عندما يكون معها أحد. كل هذا بينما يكون دون چوان قد استل سيفه متوقعا أن يدعوه الزوج إلى مبارزة.. ولكن الزوج لا يدعوه للمبارزة بل يقدم له كأسا من الجين والبرتقال.

وينام دون چوان أيضًا مع المرأة الإنجليزية المتزوجة التي تخبره أنها لا تحبه ولكنه يستهويها جسديا.. ويأتي زوجها الإنجليزي فينصحها بوضع شال على كتفيها حتى لا تأخذ بردا. ويشعر دون چوان بأنه في الواقع لا يعدو أن يكون an

old fashioned, clumsy lover إذا قيس بمقاييس العصر الحديث ويعود إلى جهنم ساخطا فيخبر إبليس أن الجحيم فقدت مغزاها إذ لم يعد لدى إنسان العصر الحديث إحساس بالخطيئة، وأصبح يرتكب ما يحلو له معللا إياه بتعليلات سيكولوجية حتى يبين لنفسه أنه لا إرادة له في الأمر. وإذ أن الجحيم هو تذكر المرء لخطاياه وتندمه على ارتكابها فلن يكون هناك بالنسبة لإنسان العصر الحديث جحيم.

أرجو أن تتمكنوا يوم الخميس ٣١ مايو الساعة ٥.٠٥ بتوقيت جرينيتش أي السابعة وخمس دقائق بتوقيت القاهرة من الاستماع إلى تمثيلية النساء العالمات لموليير التي اقتبستها للإذاعة وأخرجتها ومثلت فيها دور البطولة. سأقوم بدور الزوج الضعيف الشخصية الذي يحب أن يظهر من وراء ظهر زوجته بمظهر الآمر الناهي حتى إذا ما حضرت خاف وسكت.. ستلاحظون أن صوتي متغير قليلا في الرواية ولكني غيرته عمدا وستتمكنون من التعرف عليه.

أرجو ألا يفوتكم سماعها وإخباري برأيكم فيها.

حسين

* * *

لندن في ٢٥ مايو ١٩٥٦

عزيزيَّ حافظ وجلال

شكرا على خطابيكما وأرجو أن تقبلا مني عليهما ردا موحدا أعدكما بأن يكون طويلا كخطابين. وشكرا لجلال على اهتمامه بالقصة القصيرة التي كتبتها مؤخرا وسأحاول أن أرسلها إليه قريبا على دفعات.

بعد سنة واحدة من الإقامة في بلد أوروبي كلندن أو باريس، يجد الأديب المصري الناشئ نفسه يواجه مشكلة لا أكون مبالغا إن قلت أنه سيرى حلها يمس ما هو معروف في المسيحية بالخلاص أو نجاة الروح. والمحزن في الأمر أن هذا الحل تكرر مجيئه حتى الآن في غير جانب النجاة.

هذه المشكلة تتصل بالسؤال الذي لا يسأله الأديب نفسه صراحة غير أنه يختفي وراء كل فكرته عن فنه:

لمن أكتب؟

إذ أنها ليست حقيقة أن الأديب يكتب لنفسه؛ مهما ادعى ذلك. هناك دائما قارئ يتخيله في ذهنه ويكتب له. وهو في الأحوال العادية القارئ من نفس بلد الأديب، ومن نفس طبقته، ومن نفس ظروفه الثقافية.

وهو ما يحدث في بلد ارتفع فيه مستوى ثقافة الشعب. وعدم حدوثه في غيره يصبح إغراء للأديب غير المخلص ومصيبة للأديب المخلص.

وسؤال الأديب المصري في الخارج لنفسه: لمن سيكتب، بما يتضمنه من معنى لشكه في أنه سيكتب لبلده، يأتي من غرقه في بحر من الثقافة العالمية ثم إطلاعه بالأخص على النقد الأدبي ويتأمل الأديب المصري سيف النقد في الدول الأجنبية ثم يسأل نفسه في ذهول:

ـ هل أنا أكتب القصة أو الرواية وأنا مستعد لأن يقرأها جراهام جرين وسارتر أم أكتبها للقارئ المصري؟

ثم يتجه ذهنه على الفور (كما هي الحالة مع كل أديب مصري ناشئ متجه إلى الثقافة الغربية) إلى حالة توفيق الحكيم.. هل كتب توفيق الحكيم مسرحية الأيدي الناعمة ليقرأها سارتر أم ليقرأها القارئ المصري؟ وهل كانت كتابته لها ستصبح مختلفة لو أنه أخذ بعين الاعتبار النقاد الفرنسيين؟

ويتدفق بعد ذلك سيل من الأسئلة. أدب عالمي أم أدب مصري؟ لماذا لا يوجد حتى الآن أدب مصري عالمي؟ كيف يمكنني أن أكتب أدبا عالميا وأنا أعلم أنه ليس هناك نقد في بلدي أحترمه وأحترم توجيهه لي أو هدمه إياي؟ كيف يمكنني أن أستمر في كتابة أدب عالمي وأنا أعلم أن ما هو دون الممتاز كاف للإرضاء بل وأحيانا هو الوحيد الذي يمكنه أن يرضي؟ هل سأستطيع دائما أن أقاوم الإغراء؛ إغراء كتابة ما هو دون الممتاز؟

ويجيب على هذه الأسئلة جميعها في النهاية بأنه إن صمم على كتابة أدب عالمي فعليه أن يستمر في الإقامة في الخارج أو يعود إلى بلاده ويسكن برجا عاجيا. وسيجد أنه في الحالتين (للغرابة الشديدة وبخلاف القاعدة التي ذكرتها حالا) أنه يكتب بالفعل لنفسه. وبذا تكون سخرية القدر أن الأديب المصري إن أراد أن يكتب أدبا عالميا، لن يكتب لا للعالم ولا لبلده، وإنما لنفسه هو.

والأمر الفريد الخاص بتوفيق الحكيم هو مروره بجميع هذه المراحل: في فرنسا كان هدفه كتابة أدب عالمي يقرؤه النقاد الفرنسيون فكتب أهل الكهف

(وبالفرنسية أيضا) وعاد إلى مصر يحاول الاستمرار فاضطر إلى العيش في برج عاجي وكتب شهرزاد. ثم لم يستطع مقاومة الإغراء فبدأ ينصب وكتب الأيدي الناعمة.

نشرت التايمس منذ أيام مقالا طريفا بعنوان Square meals on the stage عن «ما يأكله الممثلون حقيقة على المسرح أثناء التمثيل إن كانت المسرحية تتضمن أكلا وشربا». وبدأ المقال بسرد حادثة طريفة وقعت للممثلة الإنجليزية Dorothy Tutin أثناء تمثيلها في مسرحية I am a Camera كان دورها يقضي بأن تطهي لنفسها أمام الجمهور ثلاث بيضات وتأكلها بشهية.. وإذا بالبيضات الثلاث تكون فاسدة ولا يمكن للممثلة أن تهرع إلى وراء الكواليس لتطلب بيضا صابحا فتضطر إلى أكله (وبشهية!).. وتمرض بعد تلك الليلة لمدة أسبوع فتحل محلها ممثلة أخرى.

ثم يتعرض المقال لما يأكله الممثلون أثناء التمثيل: بدلا من الدجاج، قطعا من التفاح تكون قد قطعت قبل تقديمها مباشرة قبل أن يصبح لونها بنيا.... بدلا من اللحم: بلح مدقوق.. بدلا من الويسكي والبراندي: ماء أذيب فيه سكر محروق. بدلا من الشمبانيا: سيدر.. أما البيرة والشاي على المسرح فبيرة وشاي وإن كان الشاي يقدم باردا!

ثم تعلق التايمس على ذلك بقولها: وأي صدمة يلاقيها الممثل الذي «يعيش دوره» عندما يدخل فمه بدلا من اللحم المحمر بلح مدقوق! ثم يضطر بعد ذلك إلى إبداء إعجابه بالطهي!

وعلى ذكر المأكولات، وإذ أن حافظ كان من الكرم بحيث سألني عما أريده من مصر لإرساله مع صديقه، فسأطلب علبة أخرى من الحلويات الشامية. وهذا كل شيء اللهم إلا إذا كان هناك متسع لعلبتين من الفول المدمس. وسأكون شاكرا للغاية.

ولتسمحا لي الآن أن أذكر أسماء بعض الأفلام الممتازة التي شاهدتها هنا في انجلترا وأن أسألكما عما شاهدتماه منها في مصر:

١. Umberto D (إيطالي)

٢. The beach (تمثيل مارتين كارول، فرنسي إيطالي)

٣. The overcoat (إيطالي)

٤. Marcelino (أسباني)

٥. The road (إيطالي)

٦. Richard III (إنجليزي تمثيل لورنس أوليفييه)

٧. The rose tattoo (أمريكي-إيطالي تمثيل أنَّا مانياني)

٨. The spivs (إيطالي)

٩. Race for life (فرنسي)

١٠. Otello (روسي)

هل أعجبكما لورنس أوليڤييه في ريتشارد الثالث؟ ستلاحظان أني تأثرت به في تمثيلي في «النساء العالمات».. وقد تغيَّر موعد إذاعتها الذي أخبرتكم به وسأكتب لكم بالموعد الجديد.

يظهر من خطاب جلال الأخير أنكم مللتم حديثي عن الفتاة الإنجليزية، أو على الأقل أنني أطلت في هذا الحديث أكثر مما ينبغي ولكنكم لا تعلمون السبب. وهو أني بكتاباتي إليكم على هذا النحو أريد أن أقطع على نفسي خط الرجعة، وحتى تصبح خطاباتي نفسها سببا من الأسباب التي تمنعني من الإقدام على الزواج. فامنحوني هذا المعروف بالسماح لي بالاستطراد بعض الأحيان في هذا الموضوع.

مشكلتي الآن هي: هل من واجبي أن أخبرها الآن أني لا أنوي الزواج منها حتى أتيح لها أن تبحث عن آخر بدلا من أن أخبرها عندما يحين موعد عودتي؟ وفي هذا ميزة وهي أني لن أشعر بتوبيخ الضمير في النهاية عندما أقول لها «باي باي» بعد أن جررتها ثلاث سنوات في شبه أمل. ولكني أشعر أن إخباري لها قطعا سيفسد صداقتنا حتى لو كانت مستعدة لأن تستمر هذه الصداقة ولو دون زواج. ثم كيف يمكنني بعد ذلك أن تكون لي صديقة هنا أثناء إقامتي بانجلترا إذا كنت سأخبر كل فتاة أعرفها أني لا أنوي الزواج منها؟ وقد انقطعت علاقتي بشيرلي منذ عام لنفس السبب.

هل تذكرون شيرلي؟ في الأسبوع الماضي كنت ذاهبا إلى المسرح في Sloane Square عندما سمعت صوتا يصيح بي: هالو حسين! والتفت فرأيتها.. بعد انقطاع دام سنة... وبعد التحية ولوم متكلف أن كلا منا لم يحاول الاتصال

بالآخر طول هذه المدة جلسنا للعشاء. وأخبرتني أثناءه أن والدتها تنوي الزواج من جديد (وكان زوجها قد قتل في العلمين أثناء الحرب) ولم أحاول عند الانصراف أن آخذ منها موعدا لمقابلتها مرة أخرى واكتفيت بالقول إن مقابلتنا صدفة was a lovely surprise.

أنا لا أريد أن أضيف لنفسي مشكلة أخرى، وخاصة ووالدتها تنوي الزواج من جديد.

أريد أن أشكر حمادة لسعيه لي لدى صلاح عامر وآمل أن تتم المسألة على خير. كما أرجو أن تكون نعيمة الآن في صحة تامة بعد مرضها الذي لم أعلم به إلا بعد زواله.

تحياتي إليكم وأرجو أن أسمع منكم قريبا.

حسين

* * *

لندن في ٥/٦/٥٦

عزيزي جلال

ما رأيك في هذا الورق الوردي!! شكرا لخطابك الطويل، وهو أطول خطاب وصلني من مصر حتى الآن. وسأتوقع منك خطابا مثله يصلني قبل سفري إلى أسبانيا يوم ٢٠ هذا الشهر.

أكتب إليك هذا الخطاب في انتظار إذاعة الفجر التي تبدأ في الخامسة إلا الربع. وأنا الآن وحدي في مبنى الإذاعة، مبنى كمبنى المجمع.. تصور وجودك في مبنى المجمع في الساعة الثانية بعد منتصف الليل! أنا خائف بالفعل! ولذا فسأحاول أن أجعل خطابي مرحا حتى أهدئ من خوفي، فإن تبينت رعشة مفاجئة في خطي فاعلم أني سمعت في تلك اللحظة خطوات تقترب أو صوت صرير باب يفتح ببطء!

تفرج علينا أثناء إذاعات الفجر: وجوهٌ يومئذ مستطيلة، عيون تحتها هالات سوداء، وعقول متعبة مخرفة، أنا أكتب قصصا وجمال الكيناني يكتب استقالته ثم ينقحها ثم يمزقها، ومنير شما يعلق لنا ورقة في الاستوديو يحذرنا فيها من عذاب الجحيم إن نحن أكلنا لحم الخنزير في كانتين الـB.B.C... ونقرأ

النشرات الإخبارية بعد التصبيح بالخير على المستمعين الذين يكونون في ذلك الوقت قد استيقظوا بعد نوم طويل ويتوقعون المثل من المذيع، نقرؤها عليهم ورؤوسنا تسقط ثقيلة إلى الأمام مرة وإلى الخلف أخرى، وعيوننا تقرأ «روسيا» بدل «سوريا» و«أذربيجان» بدل «أفغانستان»، وتضيف أصفارا خيالية فيقفز عدد القتلى في الجزائر من مائتين إلى ألفين، مسببين بذلك الفزع في قلوب المستمعين المتيقظين الذين يصدقون أرقاما ينطق بها مذيع لم ينم في ليلته لحظة ولم تعد أرقام القتلى في الجزائر تحمل له أي معنى.

ثم نعود بعد الانتهاء بالقطار، رحلة نصف ساعة، فنجلس قبالة عمالٍ في طريقهم إلى أعمالهم يأكلون إفطارهم من أكياس وضعوها على أرجلهم، ورجال يوصِّلون عشيقاتهم وقد انتفخت عيونهم من السهر والتعب، حتى إذا ما وصلت غرفتي، أنزع ملابسي بسرعة وكأنها تحترق وألقي بنفسي على السرير فأغيب في عالم آخر حتى الرابعة بعد الظهر..

قرأت منذ أسبوع في مجلة صباح الخير قصة «داوود» ليوسف إدريس، وشعرت بعد قراءتها بشيء من السرور بعد أن كانت ثقتي تنهار في واحد تلو الآخر من الذين كنت أؤمن بنبوغهم وأنا في مصر وقرأت لهم مؤخرا فلم أشعر إلا بالاشمئزاز والاحتقار. لن أذكر الآن أسماء ولكني الآن لم أعد أقرأ لهم إلا وساءلت نفسي: كيف كنت في وقت من الأوقات أكن لكتابات هؤلاء الإعجاب والاحترام! مقالات كخطب متزعمي الإضرابات في المدارس الثانوية وعقلية قد تجمدت على مبادئ معينة فأصبحت ترفض أن ترى كل ما ينقضها وتتهافت على كل ما يثبتها.. يوسف إدريس وحده من بين هذا الحشد الغريب الذين تنبح بهم الصحف والمجلات المصرية هذه الأيام، هو الذي ما زال يثبت قوته وصلابته.

هل تشتري مجلة الآداب؟ لنا زميل سوري هنا يدعى صباح محيي الدين يكتب فيها قصصا قصيرة على نحو يكاد يكون مستمرا.. حاول أن تقرأ له إن كنت تشتري المجلة واغفر له لهجته «الشامية» التي لا يغفرها المصريون. إنه شاب غريب للغاية يتكلم الانجليزية والفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية والتركية إلى جانب العربية بالطبع.. غادر سوريا وهو في الثانية والعشرين وقضى سبع سنوات في فرنسا يدرس الأدب الفرنسي في مستهل القرن العشرين ويعمل في نفس الوقت مترجما باليونسكو ليدفع نفقات دراسته.. وفي باريس تزوج فتاة فرنسية كانت تعطيه دروسا في اللغة الألمانية وحضر بها إلى انجلترا ليحضر الدكتوراه والتحق بالإذاعة ليسد نفقات الدراسة.. وهو ينوي بعد ذلك أن يشد رحاله إلى أمريكا ثم يعود إلى باريس ويتفرغ للكتابة.

كتاباته جيدة لكنها تظهر حقيقة أصبحت واضحة أيضًا من كتاباتي.. فقدان الصلة القريبة بالتطور المستمر للمجتمع الذي تركناه في بلادنا، وعدم قدرتنا على أن نصبح جزءا من المجتمع الجديد الذي أتينا إليه بحيث يصبح لنا الحق في الكتابة عنه.. النتيجة؟ إما كتابات عن مغامرات نسائية أو عن فقدان تلك الصلة بالذات بمجتمعنا القديم.

هل قرأت لإيفان بونين؟ الأديب الروسي الذي ترك روسيا بعد الثورة إلى باريس؟ إنه ما زال حيا ويعيش في باريس منذ حوالي أربعين عاما.. قرأت له منذ أشهر مجموعة من القصص «Dark avenues» فأصابني الرعب. هكذا سأكون أنا إن مكثت مدة أطول في انجلترا.. لقد نسي روسيا إطلاقا، نسي شوارعها، نسي معالمها، أهلها، طبيعة شعبها ومع ذلك لم يتمكن حتى الآن أن يكتب عن الفرنسيين.. النتيجة؟ قصة عن كيف تغذى في مطعم روسي في باريس واصطاد الجارسونة الروسية وأخذها معه إلى شقته..!

وما دمنا في معرض الحديث عن الروس فلأخبرك أني ذهبت يوم أمس إلى السيرك الروسي الذي يزور الآن لندن.. وهي أول مرة في حياتي أشاهد سيركا فجلست طول الوقت مشدوه الفم كالأطفال أشاهد الدببة تركب الموتوسيكل وتتزحلق على الباتيناج وتقف على رأسها. المهم حدث قبل السيرك أن عزفت الأوركسترا السلام الوطني البريطاني فوقف جميع المتفرجين.. فلما انتهى السلام عزفت الفرقة السلام الوطني السوفييتي فجلس بعض المتفرجين الإنجليز عمدا ووقفت إحدى السيدات فأجلسها زوجها قسرا، جاذبا إياها من ذراعها.

كان مظهرا بغيضا للغاية أفسد عليَّ الربع ساعة الأولى من العرض لشعوري بالحنق والغضب. وكان قد حدث نفس الأمر أثناء زيارة فرقة روسية أخرى للندن منذ بضعة أشهر.

ما علينا! كيف حالك أنت؟ وماما وحافظ وأمين وحمادة ونعيمة وأحمد؟ أخبر أحمد أن باستطاعته أن يريح ضميره بأن يكتب خطابا واحدا إليَّ.. وأنا واثق أن ضميره سيرتاح بعد ذلك! وأين والدتي؟ إنها لم تكتب إليَّ منذ مدة. أرجو أن يصلني منها خطاب قبل سفري تحدثني فيه عن ميمي وجريتا وصحة نعيمة..

أرسل لك مع هذا الخطاب نسخة من «الروتة» أي جدول أعمال المذيعين بالقسم العربي. وهو يتغير كل أسبوع وإنما أحببت أن أعطيك فكرة عنه.. وقد زاد عدد المصريين الآن في القسم ونسبتهم للأعضاء الآخرين فأصبحنا الآن ستة: أنا، كيناني، رفاعي، عشماوي، مرسي، استفانوس. كما سيحضر اثنان

آخران من مصر في أغسطس عندما تزداد عدد الساعات التي يذيعها القسم.. ستلاحظ بين الأسماء الأخرى: العربي (وهو من الجزائر)، محيي الدين (من سوريا)، صبحي وصالح (من السودان)، يعقوب (من العراق)، بيبي، شما، بيشوتي (من فلسطين)، هذا بخلاف الكرمي (فلسطين) ونعيم البصري (من العراق)..

الساعة الآن الثالثة.. وسأنزل الآن إلى الكانتين لآكل بيضة وبيكون (لحم خنزير) رغم تحذيرات شما ثم ألقي الخطاب وأبدأ في ترجمة النشرة.. تحياتي أبعثها إليكم وأنتم نيام. وأرجو أن تصلني منكم خطابات من الجميع.

حسين

صورة جماعية لأعضاء القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية عام ١٩٥٥، من كتاب:

Arab Voices: The BBC Arabic Service 1938-1988

الصف الخلفي: عبد الرحيم رفاعي، إبراهيم عثمان، حسين أمين، حسن عباس صبحي، إسماعيل العربي، صباح محيي الدين، موسى بيشوتي، إميل عبد النبي، جورج يعقوب، الطيب صالح

الصف الأمامي: داودي، موسى سعودي، مسز بصري، محمد بيبي، نعيم البصري، مسز دوروثي تانر، منير عبد النور، إبراهيم رزق

لندن في ٩ يونيو ١٩٥٦

عزيزي جلال

كنتُ قد ضمنت في خطاب سابق اسم رواية «الطريق» La Strada ضمن قائمة من الأفلام الجيدة التي عرضت هذا العام. ورغم أني لم أغير رأيي فيها إلا أني شعرت بالأسف الشديد عندما رأيت الفيلم أن أرى واقعية السينما الإيطالية تتجه هذه الوجهة الكئيبة.

من الخطأ الكبير أن نعتبر فيلم «الطريق» استمرارا للواقعية الجديدة التي طلعت علينا بها السينما الإيطالية بعد الحرب والتي بدأت بفيلم «بيزا»

لروسيليني. والفرق بين واقعية فيلَيني مخرج La Strada وواقعية فيتوريو دوسيكا مخرج «سارقو الدراجات» أو لاتوادا مخرج «The beach» كالفرق بين واقعية تشيكوف الصحية وواقعية سارتر المظلمة في ميدان الأدب.. أدب تشيكوف وأفلام دوسيكا ولاتوادا مهما كانت حزينة، فهي أدب وأفلام حياة.. هناك حالة، صحيح أنها مأساة إلا أنه من الممكن بإزالة بعض العوامل أن تتغير طبيعتها.. في حالة فيلّيني وسارتر الفنان يسره أن «يتمرغ» في ظلمته.. فيخرج العمل الأدبي أو الفيلم رغم جودته دليلا على مرض عقلية منتجه ولا يترك في نفس القارئ أو المتفرج سوى شعور بالكآبة والكراهية.

لهذا أؤمن بأنه كلما قويت مقاومة تيار السينما الإيطالية لهذه المحاولة لتحويله كلما كان ذلك في صالح السينما.. والمحزن في الأمر أن فيلّيني ليس بالمخرج الذي يمكن الاستهانة بإنتاجه. إنه لم يضع حجرا جديدا في بناء الواقعية الجديدة في السينما الإيطالية.. بالعكس لقد وجه لها ضربة قاسية قد تطيح بالبناء إن انطلت خدعته على السذج.

أعتقد أنك ستخالفني في هذا الرأي ولكني أسألك فقط أن تقارن شعورك بعد خروجك من فيلم سارقو الدراجات أو روما الساعة ١١ بشعورك بعد رؤية La Strada أو The spivs.

في لندن يدور الآن الاستعداد للاحتفال بمرور ستين عاما على بدء صناعة السينما، فتنشر الآن الكتب عن هذه الصناعة وتطور المدارس المتعددة، وأقامت جريدة الـObserver الأسبوعية معرضا في Trafalgar Square سمته Sixty years of Cinema (سأصفه لك في الأسبوع القادم) ويعرض الـNational film theatre على شهرين أهم الأفلام التي دفعت بالصناعة إلى الأمام منذ بدئها.. وأنا في وسط هذا وهذا غارق، اشتركت في National Film Theatre والـBritish Film Institute وابتعت أربعة كتب عن الإخراج السينمائي.. وأشعر الآن بحق أن نظرتي إلى الأفلام قد تغيرت.. لم أعد أنظر إلى الفيلم باعتبار جودته فحسب (كما كنت أفعل في مصر) بل أيضا من حيث مركزه وأثره في الصناعة: «هذا الفيلم أول فيلم يستعمل اللقطات القريبة على نطاق واسع» «فيلم تيريز راكان لمارسيل كارنيه كان بدء اتجاه متشائم انهزامي لهذا المخرج» «الفرق بين واقعية دوسيكا ولاتوادا في السينما الإيطالية»..إلخ.

وشجعني على هذه الدراسة زميل لي هنا في الإذاعة هو محمود مرسي حصل على شهادة في الإخراج من باريس في العام الماضي.. وهو يتحدث دائما عن أنه سيحدث ثورة في السينما المصرية عندما يعود إلى مصر. ويقوم الآن

بكتابة سيناريو لقصة يوسف إدريس عن عسكري البوليس الذي أمر بمصاحبة مجنونة من الريف إلى القاهرة لإيداعها في مستشفى المجاذيب.

أخبر حافظ أن إيماني يزداد بأنه لو كان قد قرأ من القصص والمسرحيات قدر ما قرأه في التاريخ والحضارة لبلغ حتما بالنسبة للمسرح المصري ما بلغه أنوي أو روسَّان في المسرح الفرنسي.. بل وفي التمثيل أيضا.. في الأسبوع الماضي شاهدت مسرحية لـ ت.س. إليوت «Family Reunion» كنت طوالها أتخيل حافظ في دور البطولة.. لا أدري لماذا، ربما لأن البطل كان يشبهه وكانت حركاته وطريقته كحركات حافظ... من يدري؟ ربما نجد أنفسنا أنا وحافظ في يوم من الأيام على خشبة المسرح المصري أو من كتابه ترى ماذا تقول ميمي في ذلك؟!

هل تعلم يا جلال أن أرملة تشيكوف ما زالت على قيد الحياة؟! منذ شهرين ذهبت فرقة انجليزية إلى روسيا لتمثيل هاملت هناك فكتب الناقد المسرحي لجريدة الأوبزيرفر يقول إنه انتفض مذهولا عندما دفعه الجالس إلى جواره بكوعه وأشار إلى سيدة عجوز في الصف الأول من القاعة قائلا: «أترى هذه السيدة؟ إنها أرملة أنطون تشيكوف!» ورغم أنه لا يوجد سبب إطلاقا يمنع من أن تكون ما زالت على قيد الحياة إلا أنني أنا أيضا انتفضت مذهولا عندما قرأت الخبر..

من الأخبار السيئة في لندن أن دار الأوبرا The Covent Garden Opera House المتخصصة في الأوبرا والباليه نشرت تقريرا يقول إن الدار تخسر سنويا مائة ألف جنيه وأنه حتى لو امتلأت جميع مقاعد الدار في جميع حفلات العام فإن الخسارة ستستمر نظرا لبهاظة التكاليف. وذكر التقرير أنه إذا أراد الإنجليز أن يكون لديهم باليه وأوبرا فإما أن تقدم الحكومة إعانة أكبر أو تزيد الدار من أسعار التذاكر زيادة كبيرة أو تغلق الدار أبوابها. وقال في الختام: إن الإدارة تحرص على أن تقدم الأوبرا والباليه على أرفع وجه ممكن وأنها تفضل أن تموت الأوبرا والباليه على أن تتضور جوعا وينخفض مستوى العرض.

شكرا لك على المجلات وسأكتب لك عن رأيي في «كتابات مصرية» التي لم أطلع على عدد منها حتى الآن. كنت قد أرسلت إلى صباح الخير قصة مترجمة عن تشيكوف بعنوان «من يوميات رجل سيئ الطبع» وذلك منذ أسبوعين فأرجو لو نشرت واطلعت عليها أن تخبرني..

هل قرأت قصة Death in Venice لتوماس مان؟ إنها موجودة عندك ضمن مجموعة «Best German short novels & stories».. كنت قد قرأتها في مصر

وأعجبت بها غير أني عندما قرأتها هنا مرة أخرى منذ مدة بسيطة وبعد أن زرت البندقية حيث تدور حوادث القصة وجدت نفسي أنظر إليها نظرة مخالفة تماما وأقرأها بعين أخرى جعلتني أحس بالفائدة الكبيرة التي كسبتها بحياتي مدة في أوروبا.. عندما قرأت فيها في مصر هذه الجملة مثلا «إن الدخول إلى البندقية بالقطار كالدخول إلى القصر من بابه الخلفي» شعرت أنها جملة ذكية وهذا كل شيء.. فلما قرأتها الآن وبعد أن كنت قد دخلت البندقية بالفعل بالقطار وجدتني أصيح «أوه! نعم بالضبط». وبدأت أتصور طوال القصة شوارع البندقية شارعا شارعا مما أزاد بالطبع من حياة شخصياتها وحوادثها..

ما رأيك في لغتي العربية؟ هل تشعر أنها قد تحسنت؟ أعتقد ذلك وذلك بفضل عملي مع الفلسطينيين وخاصة حسن الكرمي الذي يؤذي أذنه الخطأ النحوي وكأنه دبوس.. ليس فقط الخطأ النحوي بل أشياء مثل «هيئة الأمم المتحدة» بدلا من «منظمة الأمم المتحدة».. وهو ينادينا بعد قراءة كل نشرة ويقول لنا في توسل وألم حقيقيين: «يا سيد حسين، يا حسين ياخويا، ربنا يخليك، ربنا يطول عمرك، المنظمة اسمها بالانجليزي Organization، وOrganization جايَّه من organize، وorganize معناها ينظم.. ربنا يخليك، خليها منظمة عشان خطري، تكسب فيَّ ثواب...»!

نذيع الآن سلسلة برامج عن دول الشرق الأوسط مرة كل أسبوع وهي برامج مفيدة للغاية ويا حبذا لو تمكنت من الاستماع إليها.. إنها تذاع كل يوم سبت الساعة السادسة و٢٥ دقيقة بتوقيت جرينيتش (٨.٢٥ بتوقيت القاهرة) وكانت الحلقة الأولى يوم أمس عن الأردن. يوم السبت القادم ستكون عن سوريا ولبنان ثم العراق ثم مصر ثم إسرائيل.. وأنا أحتفظ لنفسي بنسخ مطبوعة منها أولا بأول فإن لم تتمكن من الاستماع إليها فاكتب إليَّ أرسلها لك.

وهذا يذكرني بأمر طريف أوضح لي طبيعة تضحية المرأة في سبيل رجلها.. كنت قد طلبت من صديقتي وهي سكرتيرة قسم التمثيليات والمنوعات أن تحتفظ لي بنسخ من هذه البرامج لأقرأها فوعدتني بأن تسلم لي نسخة من كل برنامج كل أسبوع بعد تسجيله. ثم اكتشفتُ أنها تحتفظ في مكتبها بالمجموعة الكاملة من الأصل الانجليزي للبرامج.. كان يمكنها بالطبع أن تعطيني إياها دفعة واحدة لأقرأها ثم أردها غير أنها فضلت أن تجعلني مربوطا بها خمسة أسابيع تسلمني نسخة نسخة.. وهو على ما أعتقد أسلوب المرأة في بذل المعروف للرجل.

سنذهب هذا الأسبوع لرؤية كلير بلوم في روميو وچولييت على المسرح. كنت قد شاهدتها على المسرح من قبل في دور صغير بمسرحية الملك لير ولم تثر

فيَّ الإعجاب الشديد الذي أثاره فيَّ دورها في «أضواء المسرح»... الأمر الذي أعجبني هو كيف أن الانجليز اضطروها إلى أن «تلزم مكانها» وألا تنتفخ بعد دورها في «أضواء المسرح» وكيف أنها ببساطة وتواضع عادت إلى الأدوار الصغيرة كتلميذة وممثلة ناشئة... عندما نأتي نحن المصريون إلى انجلترا نكون مبهورين إذ نرى بعض النجوم اللامعة التي عرفناها من السينما على خشبة المسرح.. ثم نتبين بعد أشهر قليلة أن لمعانها في السينما شيء وقيمتها الحقيقية في عالم التمثيل شيء آخر.. نجوم سينمائية ككلير بلوم ومرجريت لوكوود ليست لهما إلا قيمة ضئيلة في ميدان التمثيل هنا بينما عمالقة التمثيل في انجلترا أناس لم أسمع بهم إطلاقا في مصر لمجرد أنهم لا يشتركون في الأفلام. وانقلب الوضع، فبعد أن كان يسرني أن أرى نجوما سينمائية على خشبة المسرح بدأ يسرني أن أرى نجوم المسرح على الشاشة..

والآن يجب أن أختم.. فلو أني انتقلت إلى الصفحة السابعة لزاد وزن الخطاب عن المقنن وأرسلوه بالباخرة بدل الطائرة.. مع أني أشعر الآن شعور الشخص الذي يريد أن يثرثر مدة ساعات دون توقف.. لا بأس.. سأكمل في خطاب آخر.. وأختم هذا الخطاب بأن أشكرك على سرعتك في الرد وإطالتك لرسائلك.. وإلى خطاب آخر.

حسين

* * *

لندن في عيد ميلادي الثلاثاء ١٩ يونيو ١٩٥٦

عزيزي جلال

قرأت مرة عن نيتشه أنه ما كان يُكِنُّ الحبَّ والإعجابَ لفيلسوف أو موسيقي أو كاتب ويتأثر به إلا وانقلب عليه فيما بعد وهاجمه مهاجمة مُرة غير عادلة وكأنه ينتقم منه أنه تأثر به في وقت من الأوقات.

وأعتقد أنها نفس الحالة معي إلى حد كبير. فما أذكر الآن واحدا من الأدباء الذين كنت مجنونا بهم منذ أعوام لا أكرهه بل وأحقد عليه الآن. والمؤسف في الأمر أنهم ليسوا سيئين إلى هذا الحد والغلطة غلطتي أني قدرتهم فيما مضى تقديرا لم يطلبوه هم لأنفسهم فأصبحت الآن غير قادر على الحكم عليهم.

وهذا هو ما حدث في الأسبوع الماضي مع كلير بلوم.. أصارحك القول أني دخلت المسرح وفي نفسي رغبة خفية في أن أراها تفشل حتى أنتقم لأسبوع

تلا رؤيتي لفيلم «أضواء المسرح» كنت أرسم فيه صورها وأشتري المجلات الأمريكية الغالية التي كانت تكتب عنها.. وفشلتْ بالفعل؛ لا في رأيي فحسب بل وفي رأي النقاد أيضا. قالوا إن چولييت كلير بلوم منذ أربعة أعوام كانت كما أرادها شكسبير؛ وديعة بريئة. أما ما طلعت علينا هذا العام فعانس شهوانية، ليست بريئة على الإطلاق. تقرأ الشعر كما كان يُقرأ في عهد شكسبير بين ممثلين يحاولون إظهار واقعية رواياته.. ولكي تخفي عدم مرونة صوتها وعدم قدرتها على تنويعه التجأت إلى خفضه ورفعه فإذا به عند رفعه يخرج مبحوحا لا يمكن تمييز الكلمات معه.. وعلل أحد النقاد نجاحها في «أضواء المسرح» بأنه في السينما وخاصة مع مخرج جيد يمكن حتى للطفل أو الكلب أن يجيد التمثيل.

ومكثت طوال الرواية أشعر برغبة في أن أخرج لساني لها.. وإذ كانت ترتدي حذاء قبيح المنظر فقد ظللت أنظر إليه مدققا حتى أغيظها.

كلمة عن أثر شكسبير على المسرح الإنجليزي.

في الأدب كما في الواقع ليس من اللازم أن يكون للمَثَل الطيب نفوذ طيب.. فكما أن الأخ الكامل إما أن يكون قدوة حسنة لأخيه أو أن يدفع أخاه إلى اليأس والتحدي بالإمعان في الشر إن رأى الجميع يمتدحون أخاه، كذلك الأديب العملاق إما أن يعين الأدب من بعده (كما في حالة أثر شاتوبريان على الأدب الفرنسي) وإما أن يشله إن كانت محاكاته ميئوس منها وهذه هي الحالة مع شكسبير.

كتب الأديب الإنجليزي J.B. Priestley في إحدى المجلات يقول: «إننا بالطبع نفخر بأن يكون شكسبير انجليزيا غير أنه ما أسعدنا وما أسعد المسرح الإنجليزي لو أن هذا الرجل كان أجنبيا».

إن المسرح الإنجليزي ـ كما قال أورسون ويلز ـ هو أرقى مسرح في العالم اليوم. ولكنه ليس مسرحا انجليزيا.. الروايات التي تعرض فيه من أرقى المسرحيات في الأدب، ولكنها جميعا (باستثناء شكسبير) مترجمة من الآداب الأجنبية: أنوي، سارتر، إبسن، أوجو بيتي، أو بيرانديللو. والسبب في ذلك هو عدم وجود كتاب مسرحيين معاصرين في إنجلترا، والسبب في ذلك، هو شكسبير.. لماذا؟

أولا لأن إدارات المسارح لا تدفع أجرا للمؤلف أو ورثته وبذا يصبح في استطاعتها أن تستخدم المال المخصص للمؤلف في تأجير خدمات أكبر الممثلين كأوليفييه وجون جيلجود. ثانيا لأن الجمهور البريطاني ليس جمِهور

مسرح، يفضل التيليفزيون ولا يقصد المسرح إلا للاحتفال بتخرج جون أو خطبة ماري. فما هي أفضل رواية يذهبون إليها في مثل هذه المناسبات؟ بالطبع، شكسبير! فالرواية ممتازة في نوعها، غير بذيئة، يستطيع الكبار والأطفال أن يستمتعوا بها ويخرجوا منها مسرورين أنهم إلى جانب التسلية قد أدوا واجبهم في ميدان التثقيف.

ومع ذلك ورغم أن إدارات المسارح المخصصة لعرض روايات شكسبير تكسب أرباحا طائلة من جماعات تلاميذ وتلميذات المدارس التي تملأ قاعة المسرح في حفلات الماتينيه إلا أن هذه المسارح بالذات Old Vic & Stratford تتلقى أكبر منح الإعانات من الحكومة. فالـOld Vic مثلًا يتلقى ما بين ٣٥ ألف و٥٠ ألف جنيه سنويا من الحكومة.

إذن فكيف نرى في لندن مسرحيات ناجحة لأمثال أنوي وسارتر؟ السبب هو أن الكتاب الناشئين في معظم بلدان أوروبا الغربية قد أفسح لهم المجال للتأليف للمسرح ومشاهدة مسرحياتهم عدة مرات كي يعرفوا أوجه الضعف فيها حتى يتغلبوا عليها.. ولذا فإن مسرحياتهم تصل إلى إنجلترا ناضجة مما يضمن النجاح المادي لها، هذا إلى جانب شهرة مؤلفيها العالمية.. ولكن كيف يمكن لكاتب انجليزي ناشئ أن يقنع مدير مسرح في لندن بعرض مسرحيته؟ وأيهما سيفضل مدير المسرح؛ مسرحية هذا الأديب الناشئ أم هاملت التي لا يدفع رسوما عليها والتي يمكنه أن يعتمد على نجاحها ماديا بل وحتى على إعانة من الحكومة؟!!

اليوم عيد ميلادي.. وقد دعتني صديقتي بهذه المناسبة إلى رواية As you like it لشكسبير!!!!! وكانت خبرة جميلة لي. إذ أن المسرح في الهواء الطلق وسط حدائق Regent’s Park وقد وضعت الكراسي الطويلة (كراسي البلاجات) على الحشائش وخشبة المسرح نفسها عبارة عن حشائش وأشجار حقيقية تصفر فيها العصافير طول الوقت. كانت أمسية جميلة، غير أن هناك ثلاثة عيوب، أولًا الصوت.. ثانيا العصافير التي (تطرطر) على رؤوس المتفرجين، وثالثا أنه عند مرور الطائرات فوقنا يتوقف الممثلون عن الكلام حتى تمر الطائرة. هذا إلى جانب حشرات الحشائش التي تزحف إلى شعر أرجلنا طوال الوقت.

حدث أول هذا الشهر أمر سبب لي أكبر ضيق.. وهو أن زميلي عبد الرحيم الرفاعي أخبرني أنه اضطر إلى دفع ثلاثين جنيه لإدارة الغاز ولم يعد بإمكانه أن يمنحني العشرين جنيه المستحقة لي وقال إنه سيسلمها لي في أول الشهر القادم. وأعطاني شيكا بها. غير أن هذا يعني بالطبع عدم تمكني من السفر إلى أسبانيا.. ولذا فإني سأقضي نصف عطلتي هنا في لندن ثم أسافر

في نهاية أغسطس إلى هولندا لقضاء أسبوعين. وقد أشتري ببعض النقود التي معي الآن ما أحتاج إليه من ملابس.

لقد خطب [...] فتاة سويسرية هي صديقته منذ عام.. وكتب إلى أبيه يأخذ إذنه فرد بأنه لا يريد أن يتدخل.. وسيتزوجها بعد حوالي ثلاثة أشهر. وكان في البدء ينوي أن يقضي إجازته معها عند والديها في سويسرا غير أن والدها أرسل إليها خطابًا يأمرها بعدم المجيء ويعلن سخطه على زواجها من أجنبي.

عرَّفني [...] بالفتاة: اسمها لويزا، في الواحدة والعشرين، غير جميلة، لا تجيد الإنجليزية (ولذا فهي تتحدث معه بالفرنسية)، وديعة، غير مثقفة، وتعمل سكرتيرة في أحد المتاحف.. الغريب أنه لا هو ولا هي سعداء بالخطوبة.. ربما بسبب فتور استقبال العائلتين للخبر غير أنهما عازمان على الزواج.

جلس يوم أمس يحدثني في انفعال: «قوللي بس الواحد إن ماجَّوزش هنا حايعمل إيه في مصر؟ أخللي أمي تخطب لي! حد بيقدر يمشي مع بنت في مصر لحد ما يعرف أخلاقها زيِّ اللي بيعمله الواحد هنا! ثم أيِّ بنت في مصر حتى لو كان معاها شهادة جامعية، مثقفة ثقافة البنت الأجنبية حتى لو كانت بتشتغل سكرتيرة؟»

نفس الكلام الذي يقوله كل مصري هنا والكلام الذي ناقشته في خطاب سابق..

٢٠ يونيو ١٩٥٦

أفرغ من ترجمة نشرة أخبار الفجر فأودعها حقيبتي السوداء ثم أنزل إلى الأستوديو في الطابق الثاني تحت الأرض. وأضيء النور فأجد المهندسة التي تدير لنا الأسطوانات وقد كانت جالسة وحدها في الظلام على كرسي وقد غلبها النوم من الإعياء. ويوقظها النور فتهب مذعورة ثم تبتسم متمنية لي صباحا طيبا فأتمنى لها المثل، وتنظر هي خفية إلى مرآة حقيبتها لتتأكد من أن نومها لم يؤثر على مظهرها الخارجي.

وبينما تعدُّ هي تسجيل القرآن وتضبط إبرة السماعة عند «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» أقلب أنا نظري في صفحات الدفتر الذي يسجل فيه إخواننا المذيعون خواطرهم وملاحظاتهم أثناء إذاعات الفجر.. فهذه ملاحظة من الطيب صالح يطلب فيها علاوة لمذيع الفجر. وأخرى من الرفاعي يطلب فيها تركيب مروحة بالاستوديو أضاف حاشية لها فيما بعد يشكر على تلبية طلبه،

وثالثة من جمال الكيناني يطلب فيها إخراج المروحة من الأستوديو لأنها تسبب صداعا له.

ولكن هنا تبدأ أجمل ساعات إذاعة الفجر وألطفها على النفس. وذلك رغم أنه كان من المفروض أن تزداد قسوة كلما ازداد الفجر اندماجا في الصباح. إذ هنا يبدأ دائما حديث بيني وبين المهندسة في الاستوديو لا أخبر أجمل منه في ساعات اليقظة الكاملة.. عن ماذا؟ عن أي شيء.. كل شيء.. ما شاهدتُه من مسرحيات، ماشاهدتْه منها، ماذا أقرأ حاليا وماذا تقرأ، أين سأقضي إجازتي السنوية وأين قضتها في العام الماضي. حتى إذا ما بدأت الإذاعة وحييت المستمعين وذكرت لهم أطوال الموجات وبدأ القرآن استأنفنا الحديث فتسألني هي عن سبب تمهل المقرئ بين كل آية وآية، وعن سبب قراءته للقرآن على هذا النحو الموسيقي، ومن المفروض الذي كتب القرآن، محمد أم الله؛ وعما إذا كان الإسلام أقرب إلى المسيحية أم إلى اليهودية. ثم تقطع حديثها فجأة وتسألني في أدب جميل عما إذا كان حديثها يعطلني عن الإنصات إلى القرآن وعما إذا كنت أريدها أن تسكت.

وفي فترة الراحة بين الإذاعة الأولى والثانية تخرج هي من حقيبتها تفاحتين فتناولني واحدة وتغرس أسنانها في الأخرى، ثم تقوم لإعداد تسجيل القرآن للإذاعة الثانية. حتى إذا ما بدأت وحييت المستمعين وذكرت لهم أطوال الموجات عدنا ثانية إلى الحديث. فأسألها أنا بدوري عن المسيحية، عن نسبة الكاثوليك إلى البروتستانت في إنجلترا، عن رأيها في نظام الاعتراف للقسيس، إلى آخره..

وتنتهي إذاعة الفجر على نحو من الجمال أكاد معه ألا أكون حانقا على نظام هذه الإذاعة.

ماذا تقرأ الآن؟ لقد بدأت منذ شهر في قراءة تمثيليات يوجين أونيل Eugene O’Neill أكبر كتاب المسرحية الأمريكيين (وقد توفي على ما أعتقد في العام الماضي) وقد قرأت له منذ أيام مسرحية أوصى بعدم نشرها إلا بعد وفاته ونشرت بالفعل في الأسبوع الماضي.. وهي عن أمه هو وكيف كانت مدمنة للمخدرات.. حاول أن تقرأها إن كانت قد وصلت مصر، واسمها Long day’s journey into night فهي من أجمل المسرحيات التي قرأتها.

في يوم ١٨ يونيو كنا نذيع برنامجا خاصا بمناسبة عيد مصر القومي. وإذ أنه لم يكن لدينا وقت لتسجيله فقد أذعناه «live» وقت إذاعته وجاء الرئيس الإنجليزي للقسم ليشرف على إخراجه.. وإذا بالمهندس الذي يدير

الأسطوانات وأثناء كلمة لجمال عبد الناصر يدير خطأ أسطوانة «نامي نامي» لأم كلثوم فغطت على كلمة عبد الناصر. واحمر وجه رئيس القسم وثار وسب.. غير أن المهم أن المهندس بعد انتهاء البرنامج همس في أذن إحدى السكرتيرات الانجليزيات وكانت تحضر البرنامج: «إنني مسرور أن هذا حدث مع عبد الناصر بالذات».. ونقلت السكرتيرة ما قاله إليَّ..

مثل هذا الحادث قد يعطيك فكرة عن مدى غيظ الإنجليز من سياسة عبد الناصر وهم يستقون آراءهم بالطبع من الصحف الإنجليزية التي أجمعت هذه الأيام على مهاجمته وإظهاره بمظهر عدو بريطانيا في الشرق الأوسط، صحف المحافظين تهاجمه لموقف الحياد الذي يتبعه وصحف العمال والأحرار بسبب تعصبها لإسرائيل.. غير أنها جميعا وخاصة التايمز بعد كل مقال مرير ضد مصر وجمال عبد الناصر لا تستطيع أن تمنع نفسها من ذكر جملة أو اثنين لا يمكن إلا أن تبهج قلب كل مصري وتشعره بالفخر. ذكرت التايمز في مقال لها اليوم: «إن حاملة لواء سياسة الحياد في العالم اليوم ليست الهند كما كانت منذ أعوام وليست يوغوسلافيا كما يظن البعض وإنما مصر.. ولذا فإنه في الاجتماع المقبل بين الرئيس تيتو والبانديت نهرو والبكباشي عبد الناصر سيكون الأخير أبرز شخصياته».

هل أدليت بصوتك يا ترى في الانتخابات؟(16)

«سلامي إلى أخي حمادة» وأرجو أن يصلني خطاب منكم قريبا

حسين

* * *

لندن ـ أول يوليو ١٩٥٦

والدتي العزيزة، عزيزي حافظ، عزيزي جلال

لا أدري كيف أشكركم على كل هذه الهدايا.. يا الله! أية حلويات! وأي فول! وأية حلاوة طحينية. وأي بحث ذلك الذي أرسله جلال (لم أقرأه بعد، ولكن أي حجم!)

شيء هام أريد أن أحذر جلال منه. وقد ترددت يومين قبل أن أجلب نفسي على التعرض له خشية أن أثير استياءه. ورجائي أن يكتب إليَّ لإقناعي بوجهة رأيه إن فشلت في إقناعه بوجهتي.

لا أدري ما إذا كان جلال قد أرسل لي هذه المجموعة من المجلات المصرية (الهدف، وكتابات مصرية) لمجرد أن آخذ صورة عن تيار الكتابات المصرية في الوقت الحاضر، أم كمظهر لتحمسه هو لاتجاه هذا التيار، ورغبة في أن أتحمس له أيضا. إن كان الأول هو السبب الحقيقي فلا شك في إن إرسال المجموعة قد نجح في إعطائي صورة للاتجاه الجديد للأدب المصري، أما عن الأثر الذي أحدثه الإطلاع على هذه الصورة فيَّ فلا أبالغ إن قلت أنه مزيج من الفزع واليأس والاختناق، وكأني حيال عاصفة رملية هوجاء.

لا أريد بأية حال أن يأخذ جلال هذا على أنه ضعف في الشعور الوطني، أو تخلف عن إدراك التطور في مصر بسبب إقامتي في الخارج، وإنما أكتب ما أكتبه الآن لسببين: هو أن أول هدف لكتاباتي عندما أعود إلى مصر ـ وقبل كل شيء آخر ـ هو محاولة الوقوف في وجه هذا التيار (وهي محاولة أنا أعلم من الآن أنها ستفشل)، والثاني هو أني لا أريد شابا نابغا ذا روح علمية كجلال أن يغريه السير في هذا الاتجاه.

أريد أولا أن أتوجه بسؤال لحافظ (وهو أكثرنا إلماما بدراسة تاريخ الحضارات) عن: ما هو المظهر الأول لحضارة معينة الذي يجعلنا نصف هذه الحضارة على الفور بأنها حضارة؟ ما الذي ينصرف إليه الذهن على الفور عندما تشير إلى أي من هذه الحضارات؟ ألا ينصرف إلى هرقليطس بصدد الحضارة اليونانية، والقانون الروماني بصدد الحضارة الرومانية، وفولتير بصدد الحضارة الأوربية الحديثة؟ ما الذي يجمع بين كل هذه الأشياء؟ وماذا يجعلنا نشير إلى بترارك على أنه أبو حضارة عصر النهضة؟ السبب في رأيي أنا هو ظهور الروح العلمية في البحث في كل من هذه الحضارات بعد فترات طويلة من أي نوع من أنواع التعصب والتصلب العقلي والخرافة.

ولننظر الآن إلى أي صحيفة مصرية اليوم وأي مجلة، وأي مظهر من مظاهر الأدب في مصر (ما عدا يوسف إدريس).. الصحف؟ كل خبر، عن أي بقعة من بقاع الأرض، قد أصبح يُنظر لا إليه وإنما إلى انعكاسه في مرآة التفكير المصري. قبرص، فورموزا، الأزمة الاقتصادية في بريطانيا، الجزائر، شيبيلوف، معرض تجارة الصين الشعبية، الماو ماو، جنوب أفريقيا، بل وحتى صحة الرئيس أيزنهاور، قد أصبح ينظر إليها وكأنها تحدث لأن مصر موجودة، لأن مصر تبارك وتلعن. هناك اضطرابات في بريطانيا لأن بريطانيا احتلت مصر ٧٤ سنة، شيانج كاي شيك رجل مضحك لأن مصر اعترفت بالصين الشعبية، والماو ماو قاموا بحركة ضد الإنجليز لأن مصر تناصر فكرة الاستقلال لجميع الدول.. وأصبحت النتيجة أنه بالنسبة لقارئ الصحف والمجلات المصرية لا يمكن أن

تقوم ثورة في أي مكان، ولا يمكن أن تحدث أزمة في أي دولة، ولا يمكن أن يصيب أيزنهاور مرض في الأمعاء الدقيقة لسبب لا يتعلق بمصر.

هذا العقم، أكرر ثانية، هذا العقم، في الأدب المصري في الوقت الحاضر قد تسبب فيه أناس جعلتهم دراستهم في الفن والأدب (دون أن تكون لديهم على الإطلاق موهبة فنية) يظهرون على المسرح الفني لا كنقاد ولكن كفنانين.. والسبب في نجاح فنان عبقري خالص كيوسف إدريس في الزمن الحاضر هو أن القراء أساءوا فهمه وظنوا أدبه أدبا شعبيا يناصر فكرة الفن للحياة. ولم يرض هؤلاء «الأدباء» أن يكتفوا بعامل كالشيوعية التي قتلت الأدب الروسي، فأضافوا إليه قومية بغيضة عمياء ترفض أن ترى كل ما لا يتفق معها.

«الاقتصاد البريطاني مهدد بالدمار!» هكذا تكتب مجلة الهدف في عددها الذي أرسله جلال إلي، وبروح تصرخ بالسرور والتشفي، وكأنما يسرها أن يُطرد العمال الإنجليز من مصانعهم، وألا تتمكن سيدة إنجليزية من شراء ما تحتاج إليه من زبد.. لماذا هذا الفرح؟ لأن إنجلترا احتلت مصر ٧٤ عاما؟ أهو الله الآن بعدله وكلمته يعاقبها على أنها دولة استعمارية؟

ثم أي دمار هذا الذي تعنيه مجلة الهدف؟ كما قلت الآن، فعلت المجلة ما يفعله الجميع الآن في الميدان الأدبي في مصر، أخذت الجملة الأولى من تصريح وزارة المالية البريطانية وتركت الجملة الثانية لأنها لن ترضي الشعور القومي الكاذب.. والجملة الثانية من تصريح الوزير هي أن «الأمر السيئ هو أن الأحوال الاقتصادية في بريطانيا أحسن مما ينبغي!» Things are too good، إذ أن ارتفاع مستوى المعيشة في بريطانيا، بالإضافة إلى التأمين ضد حوادث العمل والشيخوخة، قد أغرى الناس على الزيادة من الاستهلاك وإنفاق أموالهم في الشراء وعدم اهتمامهم بالإدخار مما قلل من كمية صادرات الدولة.

ولكن قراءتي «للهدف» لم تفسد ذرة من شهيتي لأكل الحلويات التي أرسلتموها، والتي أكرر شكري لكم من أجلها.

حسين

* * *

لندن ١٠ أغسطس ١٩٥٦

عزيزي جلال

في خطاب استقالتي من الإذاعة كتبت أنها «لا لسبب سوى إيماني بأن هذا هو الوقت الذي أستطيع فيه أكثر من غيره أن أخدم بلادي»... ثم عقد رئيس القسم ـ وهو بريطاني ـ اجتماعا للمذيعين العرب وشرح لهم سياسته في إخلاص. قال: «إني أقدر موقفكم وأقدر أن بعضكم، إن لم تكونوا كلكم، تؤيدون التأميم.. ولكني أطلب منكم في نفس الوقت أن تقدروا موقفنا نحن، موقف القسم العربي من الإذاعة، والغرض منه كما لا يخفى عليكم هو نقل وجهة النظر البريطانية إلى العالم العربي. ورغم أنكم بعملكم هنا تعتبرون موظفين لدى الحكومة البريطانية، إلا أنني قررت ألا أورد في إذاعتنا شيئا ضد التأميم إلا مع ذكر مصدر القول قبل كل جملة، وأن أورد التصريحات المؤيدة للتأميم».

لم يثر هذا خيالي، كقصصي، كما أثاره التغير الذي طرأ على علاقتي بصديقتي الإنجليزية.. هل تذكر قصة جولزوورثي Defeat. فيها يقص قصة عاهرة ألمانية كانت في إنجلترا أثناء الحرب العالمية الأولى، تصحب إلى غرفتها جنديا إنجليزيا عائدا في إجازة. ويتكلمان طويلا فيربط بين قلبيهما شيء من الود. وفجأة يأتي صوت باعة الصحف في الطريق يعلنون عن هزيمة ألمانيا في موقعة ما، فيقفز الشاب جاريا إلى النافذة في فرح وحماس، ثم يتناول سترته من المقعد ويهرع إلى الشارع تاركا العاهرة الألمانية وراءه في يأس وحزن.. ويقول المؤلف في النهاية: «إنها لم تكن هزيمة ألمانيا تلك التي أعلن عنها باعة الصحف.. إنها هزيمة هذين الاثنين».

والد صديقتي ووالدتها يلعنان المصريين (خاصة وقد استدعي ابنهما ـ شقيق صديقتي ـ للتوجه إلى الشرق الأوسط)، ويقرآن الصحف في الصباح ثم ينظران إلى ابنتهما في عداء، ويسألان عن رأيها في تهكم. ولا تنطق هي بحرف. وتقابلني ووجهها عابس. ورغم أنها غير مهتمة إطلاقا بالسياسة إلا أنها لا تريد أن ينظر إليها قومها، وأن تنظر إلى نفسها على أنها خائنة، فتهاجم مصر، ولكن في غير حماس، لأنها تريد أن تتزوج (وهذا أهم). ثم تنهار فتبكي، ثم تودعني في برود.

أول أمس جلسنا في غرفتي نستمع إلى خطبة أنتوني إيدن في الراديو ـ هذا عدوي ورئيس وزرائها يتحدث. جلست أنا على السرير واضعا رأسي بين كفي، ووقفت هي أمام المرآة تصفف شعرها وتسمع: «بني وطني، سعد مساؤكم». هذا لها. «لن نقبل الوضع إطلاقًا». هذا لي. «هذه مسألة حياة أو موت بالنسبة لكل بيت في البلاد». هذا لها.. «وقد اتخذنا جميع الإجراءات العسكرية التي يتطلبها الموقف». هذا لي. ثم «طابت ليلتكم»، لها.

ووضعت هي المشط، وأزحت أنا كفي عن رأسي. ولكن عينينا ظلت لا تلتقي مدة. كنا نعلم أن علاقتنا يجب ألا تتأثر بمثل هذا الأمر.. ولكن ها هو صوت رجل واحد ظهر من المذياع في غرفتي.. فميَّز بيننا كما يُفصل اللب عن السوداني من كبشة من الاثنين.

حسين

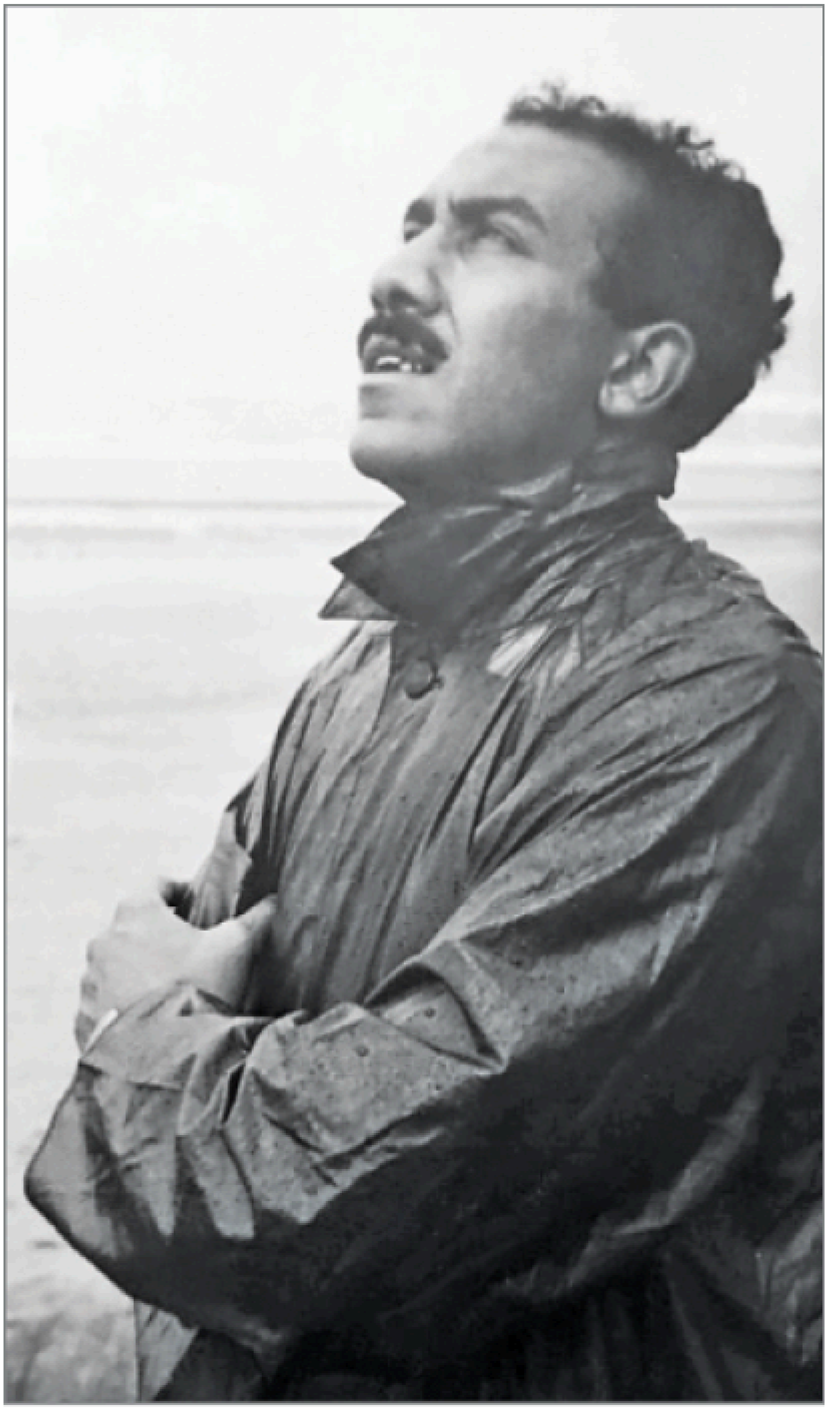

حسين أمين في هولندا عام ١٩٥٦

نوردفيك، هولنده في ١ سبتمبر ١٩٥٦

والدتي العزيزة،

أكتب إليكم في اليوم السادس من إجازتي في هولندا. وهي بلاد من النادر أن يفكر فيها مصري أو عربي للسياحة، فليس لدى أهلها صفات يسرنا تشابهها مع صفاتنا (كإيطاليا واليونان) ولا تبسط أمام السائح فرص اللهو التي تبسطها باريس ولا تربطنا بها روابط تاريخية كإنجلترا.

بلاد جميلة صغيرة هادئة.. جمال وهدوء جعلني بعد ثلاثة أيام من إقامتي كلما فكرت في أمور سياسية، أؤمن بأن السياسة شيء قذر غير صحي. لذا فقد توقفت مؤقتا عن قراءة الجرائد أو الاستماع إلى نشرات الراديو تاركا العالم الخارجي للعالم الخارجي ومقتصرا على الأكل (مقادير أضطر معها في نهاية الوجبة إلى فك أزرار البنطلون) والتمشية على البحر والنوم من العاشرة مساء حتى الثامنة في الصباح.

هذه هي أول إجازة حقة أقضيها منذ زمن طويل. فرحلتي السابقة إلى فرنسا وإيطاليا كانت أشق من العمل في الإذاعة وعدت منها في حاجة إلى إجازة. أما هولندا فبلاد صغيرة يمكن التفرج على معالمها الرئيسية في خمسة أيام دون عجلة أو اندفاع، وباستطاعتك في الأيام الباقية من الإجازة قضاؤها إما على شاطئ البحر عند نوردفيك (حيث أقيم) أو في الريف.

أكثر ما لفت انتباهي هنا هي المنازل.. منازل تكاد تكون من زجاج. فالنوافذ كبيرة حتى تكاد تكون في طول الحائط، والستائر مزاحة طول الوقت فتصبح حياة السكان فيها عارية أمام المار في الطريق، ولا يشعر المار في الطريق هنا (كما نشعر عادة في المدن) بأنه حبيس الشارع وبأن الحياة المنزلية أغلقت دونه.

ثم الأزهار.. لدى كل نافذة وفي كل ركن وعلى كل مائدة آنية للأزهار. حتى ليكاد الأجنبي يسائل نفسه: أهذه منازل أم بيوت زجاجية للنباتات؟ في كل مكان سوق لبيع الأزهار بالمزاد أو محل عادي لبيعها أو رجل يجر وراءه عربة محملة بها. فإن قصدت سوقا استقبلتك عند الباب جماعة من الصبيان يغرسون في عروة جاكتتك وردة مجانا، والغرفة التي ليس بها ـ لسبب أو لآخر ـ أزهار، لا تعدم صورة أو صورتين لباقات من الزهور.

وما زلت أسائل نفسي أيمكن أن تكون لدى الله فكرة أخرى لتصميم منازل الجنة على غير غرار المنازل في هولندا؟

في الأيام الثلاثة الأولى راعني ما بدا لي أنه صحية الشعب والحياة في هولندا. صحة لا في الجسم فحسب بل في العقل واتجاه التفكير أيضا. الفتيات هنا لسن في فساد الفتيات في انجلترا وعلى وجوه الجميع براءة من النادر

مقابلتها في انجلترا ومن المستحيل مقابلتها في مصر. هذه الفكرة قلّت في الأيام التالية بعد زيارتي للمدن الداخلية وخروجي عن محيط نوردفيك المصيف على البحر الذي من الطبيعي أن تواجهنا فيه ـ كما تواجهنا في الإسكندرية أو رأس البر ـ صحية الحياة. غير أن هذا الانطباع لم يطغ تماما. وما زلت ـ كلما رأيت في إحدى السينمات فيلما فرنسيا أو أمريكيا عن أعمال عنف أو خداع أو تجارة غير مشروعة أستغرب أن يسمح بعرض هذه الأفلام أمام جمهور بهذه البراءة وكأن الأفلام الوحيدة التي يليق عرضها هنا هي أفلام والت ديزني وتشارلي شابلن.

وبالمناسبة عرضوا هنا في نوردفيك فيلما إسرائيليا لا بد أنكم سمعتم به «التل رقم ٢٤ لا يجيب» عن الحرب بين اليهود والعرب كان الجمهور أثناءه لا يكف عن التعبير عن عطفه على الإسرائيليين والضحك على العرب الذين أظهرهم الفيلم على نحو لا أجد داعيا لوصفه.

لا أجانب هنا في هولندا سوى من الإندونيسيين والأوروبيين ولا أمر في الطريق بجماعة (وخاصة من النساء) إلا وحدقوا فيَّ طويلا ولكز المنتبه منهم بذراعه غير المنتبه حتى ينظر إلى هذه الظاهرة الطبيعية غير المألوفة التي هي محسوبكم. «هذه العيون.. أوه! هذه العيون.. دعني فقط أنظر إلى عينيك» هكذا قالت لي فتاة هولندية.

كم أتشوق الآن إلى أن أركب الأوتوبيس في القاهرة فلا يجذب دخولي انتباها خاصا من الركاب، وأقول للكمساري دون لكنة أو اعوجاج لسان «باب اللوق لو سمحت» فيعطيني التذكرة في غير اهتمام دون أن ينظر إليَّ كحيوان غريب.

حسين

* * *

مرة أخرى من لندن في ١٨ سبتمبر ١٩٥٦

عزيزي جلال،

أريد أن أحدثك أولا عن الحالة التي وجدت عليها القسم العربي من الإذاعة هنا عند رجوعي من هولندا. فهي حالة لا أعتقد أن القسم مر بها منذ افتتاحه عام ١٩٣٨.

ـ «اسكت يا حسين عارف مين استقال؟»

كانت هذه أول جملة استقبلني بها الزملاء بعد تمنياتهم أن أكون قد قضيت إجازة طيبة.

ـ لأ.. مين؟

وانهالت الأسماء: محمد عشماوي، صباح محيي الدين، جورج يعقوب، منير شما...!

ـ منير شما؟!!! يا خبر أبيض!

ـ رايح إذاعة صوت أمريكا في وشنجطن في أول نوفمبر.

ـ وصباح؟

ـ في شركة للنفط في بيروت..

ـ وجورج؟

ـ في شركة النفط العراقي في البصرة.

ـ والعشماوي؟

ـ راجع على مصر.. وموش بس كدة ـ مش كانوا منتظرين هنا أربع مصريين ييجوا يشتغلوا في الإذاعة بعد ما عملنالهم امتحانات؟ رجعوا كتبوا إنهم مش جايين عشان حكاية قناة السويس.. ومصطفى رجب راح للمدير قال له إنه ماهواش ناوي يقرا أي نشرة أو تعليق فيه مساس بمصر.. روح اتفرج دلوقت على وايتهد..

ورحت أتفرج على وايتهد (مدير القسم).. ورغم أنه انجليزي إلا أنه في الحقيقة صُعُبْ عليَّ. كان لسان حاله يقول: «أنا إيه اللي رماني في القسم ده؟ ما كانوا يحطوني في القسم التركي ولّا الإيراني ولّا حتى الإسرائيلي! مايحطونيش إلا في قسم منبع المصايب؟!!»

وهو يعاملنا الآن كالتالي: رغم أننا لا نبذل جهدا أكبر في العمل عن السابق إلا أنه أصبح يمطرنا كل يوم برسائل رسمية من الشكر والمدح والثناء ذاكرا أنها ستحفظ في ملفاتنا وأنها سيكون لها أثر في ترقيتنا. وأصبحنا الآن لا ندخل إلى

مكاتبنا في الصباح إلا ووجدنا عليها تذاكر لمسارح أو دعوات للشاي في مكان أو آخر.

حسين أمين مع زملائه في لندن، يناير ١٩٥٦

حسين أمين وإلى يمينه شقيقه حماده، وبين يديه ابنتيه نهال إلى اليمين ثم نيفين، وإلى يمينه الدكتور عبد العزيز عتيق ثم فاطمة، وفي الخلف من اليمين منى ثم زينب، في منزل الدكتور عبد العزيز عتيق وفاطمة بمصر الجديدة، ديسمبر ١٩٥٦

ومع ذلك ورغم أنه أخبرني أني سأعين كبيرا للمذيعين في أول نوفمبر بعد رحيل شما مع منحي درجة وعلاوة فإني أفكر جديا في العودة. إن النقود ما كانت في يوم من الأيام عاملا مغريا لي (ربما لأني لم أحتج إليها في حياتي يوما). ورغم أن مرتبي قد بلغ الآن مائة وعشرين جنيها في الشهر (وسيصبح مائة وثلاثين في نوفمبر) إلا أني أجد مستوى معيشتي ـ فيما عدا الذهاب إلى المسارح ـ قد انخفض عن مستواها في مصر.. غرفتي في مصر كانت أجمل ألف مرة من غرفتي هنا، والأكل بالطبع أحسن في مصر والشياكة في الملبس التي كان يحسدني عليها في مصر حتى أحمد لم يعد لها أثر هنا.

ثم الكتابة (كما ذكرت في خطاب سابق).. لا أستطيع أن أصور لك يا جلال مدى الغيرة التي أشعر بها عندما أرى كيف لمعت أسماء كيوسف إدريس وأحمد بهاء الدين ومحمود العالم وقد جاء معظم لمعانها في ظرف السنتين اللتين قضيتهما في الخارج.. وها أنذا الآن قد بلغت الرابعة والعشرين ولا أحد يعرفني! لا تأخذ هذا على أني نادم أني قدمت إلى أوروبا. لقد استفدت هنا خبرة ما كان باستطاعتي استقاؤها من الكتب، ولكني أخذت الكفاية من هنا وأريد الآن أن أعوض ما فاتني من الوقت في الميدان الأدبي.

ثم فوق كل هذا أريد أن أراكم.. أريد أن آخذ حَمَّاما في منزل دون أن أضع ستة بنسات في العداد، أن أجلس إلى مدفأة، دون أن يبدأ لهيبها في الانخفاض عندما ينفد حقي في الشلن الذي وضعته منذ ساعة. أن أمرض فتضع والدتي فمها على جبيني دون خوف من العدوى (قائلة إن الأمهات لا تنتقل إليهن العدوى من أبنائهن)، أن أقرأ قصصي عليك فلا تتثائب، أن تربطني بمن حولي علاقة غير علاقة الفائدة.

غير أني لا أريد مع ذلك أن أستقيل في وقت لن تغفر لي الإذاعة هنا استقالتي فيه.. أريد أن تظل علاقتي بهم هنا طيبة حتى يقبلوا مني تمثيلياتي التي سأرسلها إليهم من مصر. والمؤسسات البريطانية كالإذاعة لا تنس قط معروفا أو شرا جاءها من أجنبي.

هل تعني يا جلال أن تقول لي إني لم أذكر شيئا في خطاباتي السابقة عن البحث الذي أرسلته لي؟ أم أنك تريدني أن أمدحه لك مرة أخرى؟ أعتقد أن أطيب ما يمكن أن يوصف به أنه لو قيل لي إن هيجيل هو الذي كتبه لما أبديت استغرابا اللهم إلا استغرابا لوضوح أسلوب هيجيل. لقد قرأته منذ شهرين أو ثلاثة وسأقرأه مرة أخرى لأناقش تفصيلاته.

ولكن هل توقفت عن كتابة القصص؟ أرجو ألا تكون قد فعلت فميدانك مهما حاولت إقناعي وإقناع نفسك هو في القصة لا في القانون ولا في الاقتصاد.. اكتب كما كنت تفعل في الماضي وأدخل إن أحببت الاقتصاد في قصصك إن كنت تصدق أدباءنا المصريين الشبان. أما أنا فقد طَلَّقت الاقتصاد بالثلاثة.

صباح محيي الدين يشكرك على ثنائك على قصته. إنه في اعتقادي أفضل من أي أديب عندنا في مصر.. على الأقل في ثقافته. ما هناك ذرة في السماء ولا في الأرض، ما يتعلق بالعلم أو الأدب أو الفلسفة أو التاريخ أو الطب أو الزراعة، إلا ووَسِعَ به علمه.. عيبه الوحيد أنك عندما تجلس إليه لا تشعر أنه يستفيد منك شيئا وأنه إن أصغى إليك فإنما يصغي تأدبا وهو يكتم التثاؤب لذلك فإننا نكتفي الآن بأن نسأله أسئلة:

ـ الخنفسة لها كام رِجل يا صباح؟ ـ إبن سينا ألِّف كتاب «شفاء النفس» سنة كام؟ ـ مين وزير المعارف في المكسيك؟

ويجيبنا وهو ينظر إلى السقف.. ويشرح لك عيوب سياسة وزير المعارف في المكسيك وكيف أنه ـ بصراحة وماخَبِّيش عليك ـ يفضل وزير المعارف السابق.

من أمثلة الأجوبة التي نتلقاها منه: سألته مرة عما إذا كان قد سمع عن الكاتب المسرحي الألماني بيرتولد بريخت الذي سمعت أنا به لأول مرة منذ شهرين أجابني صباح وهو يرفع جفنيه في برود:

ـ سمعت عنُّه!!!! أنا واخد ماجستير في بيرتولد بريخت سنة ١٩٤٨...!!!

حسين

* * *

تتوقف خطابات تلك الفترة عند الخطاب السابق المؤرخ ١٨ سبتمبر ١٩٥٦، إلا أن ما حدث لحسين في المدة المتبقية له في لندن دوَّنه تفصيلًا في كتابه «شخصيات عرفتها». يذكر حسين أن المصريين السبعة العاملين في القسم العربي وجدوا أنفسهم في ورطة وحيرة شديدتين، إذ حاولت الـ«بي بي سي» استمالتهم حتى يمتنعوا عن الاستقالة، وأعطتهم مهلة شهرًا مدفوع الأجر حتى يقرروا موقفهم، فاجتمع السبعة عصر يوم ١٩ نوفمبر ١٩٥٦ بصالة الشاي في فندق «ستراند بالاس». فأدى اختلاف طبائعهم وأعمارهم وأهدافهم إلى اختلافهم في الرأي، فمنهم من كان حاقدًا على نظام عبد الناصر ويفضل

البقاء في لندن، ومنهم من رأى إذاعة بيانات مؤيدة لبريطانيا بمثابة ضعف وخيانة.

أما حسين فكان مترددًا بين هذا وذاك. ويذكر حسين أن سؤالًا مهمًّا كان يشغله لأول مرة في حياته: ماذا أريد؟ عيشة هنية؟ ثيابًا ومسرحًا وكتبًا وصديقات؟ أم أن ثمة شيئًا يُسمى واجبًا تجاه الوطن؟ هذا إلى جانب سؤال آخر هو: هل ستفيد استقالتي بلدي أكثر مما ستضر بي أنا بحيث أقبل أن أضحي بنفسي عن طيب خاطر؟(17)

قرر حسين أخيرًا الاستقالة وعاد إلى القاهرة مع محمود مرسي ومحمد زكي العشماوي يوم ٢ ديسمبر ١٩٥٦، وكان دافعه في ذلك مزيجًا من إحساسه بالواجب الأخلاقي الذي يوجب الاستقالة، وإحساسًا أكبر بأن احتراف الأدب لن يتأتى له بالبقاء في إنجلترا بعيدًا عن مادة الأديب، وأن ما تنعم به مصر من تناقضات، وإن لم يكن فيها ما في لندن من مسارح ومعارض ومتاحف، كفيل بأن يطلق العنان لخيال الأديب ويشحذ همته.

(4) حسين أمين، شخصيات عرفتها، ص٩٥. (المحرر).

(5) يذكر جلال في كتاب «ماذا علمتني الحياة؟»، ص٣٢٤، أن والدته كانت شديدة القلق على أبنائها من البرد وخاصة بعد أن أرسل أحد الأبناء خطابًا أثناء وجوده في السويد يقول فيه إن أنف الرجل أو المرأة أو آذانهما قد تتجمد أثناء سيرهما في الطريق. «وقد أحدث هذا الخطاب رعبًا لديها ظل ملازمًا لها لسنوات طويلة حتى عاد كل أبنائها من أوروبا، إذ كانت تتصور أن أحدًا منهم قد يفقد أنفه أو أذنه بسبب البرد». ويضيف جلال أن والدتهما كانت لها نظرية متطرفة للوقاية من البرد فتسد كل منافذ الهواء أثناء نومهم وتجبرهم على الذهاب إلى المدرسة في الشتاء بفانلة صوفية غريبة لا تكف عن وخز الجسم. (المحرر).

(6) جلال أمين، مكتوب على الجبين، ص٦٣، ٦٤. (المحرر).

(7) حسين أمين، أبو شاكوش، ص٥٥. (المحرر).

(8) تايلاند حاليًّا. (المحرر).

(9) «يا أمي! عليكِ أن تخجلي من نفسك! هذه هي المرة العشرين التي تأتين فيها إلى هنا». (المحرر).

(10) في مارس ١٩٥٥، أثناء استعداد بريطانيا لاختبار أول قنبلة هيدروجينية، قاد «أنورين بيفان» تمردًا مع ٥٧ نائبًا من حزب العمال في مجلس العموم، وامتنع عن التصويت لصالح مقترح عُمَّالي يتماشى مع موقف حكومة المحافظين فيما يخص اختبار القنبلة الهيدروجينية، فصوت حزب العمال على إعفائه من منصبه كرئيس للكتلة البرلمانية للحزب، ولكن أُعيد بعد شهر، بسبب شعبيته الجارفة. (المحرر).

(11) توفي أحمد أمين في ٣٠ مايو ١٩٥٤. (المحرر).

(12) يذكر جلال في كتابه «ماذا علمتني الحياة؟» أن والدتهما أصابتها بوادر الحزن والاكتئاب في سنواتها الأخيرة، وخاصة بعد وفاة والدهما وزواج بعض أولادها وبناتها وسفر آخرين للدراسة أو العمل بالخارج. فبدأت تشعر بأنه لم تعد لها مهمة واضحة في الحياة، ولم يعد هناك من تسهر على العناية به وخدمته. (المحرر).

(13) جاءت شهرة حسين في ثمانينيات القرن العشرين بعد عدد من المقالات والكتب التي تهاجم أصحاب الأفكار الأصولية والإسلامية المتطرفة، وقد أدت في العديد من الأحيان إلى هجوم شديد عليه ومنعه من النشر في عدد من الدول العربية. وعلى الرغم من ضيقه بمنع مقالاته من النشر في بعض الأحيان فإنه ـ حسب اعتقادي ـ لم يرَ في هجوم الإسلاميين عليه وعلى أصحاب الأفكار المستنيرة سببًا للغضب بقدر ما رأى فيه دليلًا على النجاح وسببًا إضافيًّا لذيوع الشهرة. (المحرر).

(14) كان أحمد أمين رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر منذ عام ١٩١٤ وحتى وفاته عام ١٩٥٤. (المحرر).

(15) تأسست وكالة أنباء الشرق الأوسط (أ.ش.أ) في ١٥ ديسمبر عام ١٩٥٥ كشركة مساهمة تملكها دور الصحف المصرية برأس مال لم يتجاوز ٢٠ ألف جنيه، ثم شاركت الحكومة المصرية بالنصف بعد عدة أشهر إلى أن صدر قرار مجلس الوزراء المصري فى ٨ فبراير ١٩٥٦ بإنشاء الوكالة، وفي ٢٨ فبراير بدأت توزع أولى نشراتها باستخدام جهاز «الرونيو». (المحرر).

(16) يقصد الاستفتاء الذي أُجري يوم ٢٣ يونيو ١٩٥٦ على انتخاب جمال عبد الناصر رئيسًا للجمهورية، وعلى دستور جديد، وجاءت نسبة الموافقة على الاستفتاءين ٩٩.٩٪ و٩٧.٦٪ على التوالي. (المحرر).

(17) حسين أمين، شخصيات عرفتها، ص١١٢، ١١٣. (المحرر).

مباهج لندن

عقب تخرجه في كلية الحقوق، عمل جلال لفترة قصيرة كمعيد في قسم الشريعة الإسلامية على الرغم من عدم حصوله على شهادة أزهرية، إذ لم يكن ذلك شرطًا من شروط التقدم للوظيفة آنذاك. ولكن ما إن علم بوجود بعثة حكومية لدراسة الاقتصاد في الخارج حتى تقدم بأوراقه إلى إدارة البعثات، وحصل على بعثة حكومية إلى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، واحدة من أشهر الكليات في العالم. يذكر جلال في كتاب «ماذا علمتني الحياة؟» أنه عند حصوله على البعثة حذره بعض أساتذته في مصر من أنه «سائر بقدمه إلى عرين الأسد»، وحذروه من أن يعود دكتورًا في الاقتصاد ولكن أميًّا في كل شيء آخر.

وفي ٢٣ يناير ١٩٥٨ كان جلال يودع عائلته في بورسعيد صاعدًا إلى الباخرة المتوجهة إلى إنجلترا، وهو في الثالثة والعشرين من عمره. واستمرت إقامته في لندن ست سنوات تزوج خلالها من فتاة إنجليزية وحصل على شهادة الدكتوراه قبل أن يعود هو وزوجته إلى مصر عام ١٩٦٤. وقد وصف جلال تلك السنوات الست، كما وصف حسين سنوات إقامته في لندن من قبل، بأنها أكثر سنوات حياته خصوبة.

* * *

٣١/١/٥٨

عزيزي حسين

أكتب إليك على عجل من روتردام، حيث وقفت السفينة ونزل أغلبية الركاب وهم هولنديون طردهم سوكارنو من إندونيسيا. وقد كان الضباب كثيفا منع السفينة مؤقتا من مواصلة السير إلى لندن فقضينا خمس ساعات في روتردام. وهي بلد جميل جدا جدا. البرد شديد ولكنه محتمل وعلى كل حال أقل مما توقعت، وألذ أيضا. سلامي الكثير جدا إلى والدتي وإلى حافظ والجميع.

جلال

* * *

لندن في الجمعة ٧ فبراير ١٩٥٨

والدتي العزيزة.

من مسكني الجديد أكتب الآن وأنا راقد على السرير وفوقي بطانيتان ولحاف وتحت رجلي قربة ماء ساخن وتحت قدمي قربة أخرى، والمدفأة موقدة ومع ذلك أعطس.. فالبرد شديد ولأول مرة رأيت اليوم الثلج وهو يتساقط كقطع الريش الأبيض. وقد كانت أيامي الأربعة الماضية شاقة، فقد كان عليَّ أن أحمل هم كل شيء: السَكن.. الدراسة.. الغسيل، المكوة.. الإجراءات التي تطلبها الحكومة الانجليزية من الأجانب..إلخ. ولم يكن تدبير أي شيء من ذلك سهلا. ومع هذا فقد مرت الأيام الماضية بسرعة لأني لم أكن أجد دقيقة واحدة فاضية. واليوم وبعد أن استقريت نسبيا بدأت أشعر بالوحدة. لقد حاولت أن أجعل من غرفتي شيئا مشابها لغرفتي في مصر ووضعت فيها أشياء كثيرة تذكرني بمصر ولكن لم يفلح ذلك في القضاء على وحدتي.. أنا الآن ـ والحمد لله ـ أتمتع بسكن مريح وجميل ونقود متوفرة وبدأت أفهم طريق الدراسة. ولكن ما ينقصني هو الناس.. أعتقد أن هذا مهم جدا.. لقد ساعدني أصدقاء حسين هنا كثيرا وأحاطوني بجو من المودة (وقد ظهر لي أن حسين له هنا أصدقاء ومعارف أكثر بكثير مما له في مصر) ومع هذا فلا بد من وقت حتى يصيروا أصدقائي أنا أيضا أو أكوِّن لي غيرهم..

[...] لهذا أفتقد العائلة كثيرا كما أفتقد أصدقائي في مصر الذين كانوا على استعداد دوما للتضحية بسهولة.. الذي جعلني أكتب لك أنتِ الخطاب اليوم أنني أفتقدك أكثر من الآخرين.. فأنت بلا شك أكثر الناس استعدادًا للتضحية من أجلنا..

الغرفة التي أسكنها الآن سأدفع أجرة لها ٤٢٠ قرش في الأسبوع مع الإفطار. وهو مبلغ كبير وهي تعتبر هنا غالية ولكني قبلت الإقامة فيها أولا لأنها على كل حال أرخص من اللوكاندة وثانيا لأنها في وسط البلد وثالثا لأنها قريبة من المدرسة فأنا أقطع المسافة للمدرسة مشيا في ربع ساعة. والبيت يملكه زوجان إيطاليان. أما التدفئة فأنا أدفع ثمنها حيث أن المدفأة لا تعمل إلا بالنقود. لقد تفرجت على حجرة في نفس المنزل الذي كان يقيم فيه حسين ولم تعجبني إطلاقا، ولا أدري هل كانت حجرة حسين بهذا الشكل أيضا، لا يمكن فهي واسعة جدا (واتساع الحجرة في انجلترا عيب لأنه يجعل من الصعب تدفئتها) كما أن عفشها رديء جدا. وقد طلبت صاحبتها القبرصية ٢٥٠ جنيه في الأسبوع بدون إفطار فلما حسبت أجرة الإفطار والمواصلات بينها وبين المدرسة وفرق العفش وجدت الحجرة التي أنا بها الآن أحسن بكثير.

إن كل شيء أخذته معي من مصر نفعني هنا والشيء الذي ندمت على أني لم أحضره هو (وابور السبرتو) الذي نصحتيني بأخذه ولكني سأحاول شراء واحد هنا.

الأكل هنا لا يُذاق، وأنا أبدأ الأكل وأنا شاعر بجوع شديد فإذا ما أكلت لقمة أو لقمتين انسدَّت نفسي.. فين الأكل المصري.. فين.. والناس هنا لا يتمتعون بالحياة كما يتمتع المصريون ـ على الأقل من كان من طبقتنا في مصر ـ فالحياة هنا صعبة وقاسية حتى على الإنجليز.. لا أناقة هنا ولا تمتع بالأكل أو غيره، وإنما عمل وعمل فقط.. لقد كنا نعيش في مصر على الحرير دون أن ندري، ولكن ما أن يضع أحدنا قدمه في انجلترا حتى يبدأ في عمل حساب لكل مليم ويمسك الشلن بيديه وأسنانه.. وأنا لا زلت في حيرة أيهما أفضِّل: المصري الذي يعتبر الحياة تمشية في طريق مُشْمِس أو الإنجليزي الذي يعيش في دوامة العمل دون أن يعرف رأسه من رجليه. والشيء الذي لفت نظري هنا أيضا بشدة، أن الناس هنا، بعكس الناس في مصر، لا يتفرجون على بعض، بل كل واحد في حاله يبحلق في الطريق أمامه دون أن يشعر بوجود أحد أو شيء آخر.. والواقع أن كل من المصري والإنجليزي على طرفي نقيض بحيث يصعب تفضيل أحدهما على الآخر..

اكتبي يا ماما حالا.. واعتبري الكتابة لي عملا كإعداد الأكل للبهوات حافظ وحسين.. أنا أعتبرهما فعلا الآن بهوات إذا ما قارنت حالهما بحالي.. ولا تعتمدي على أحد في الكتابة إليَّ فمع هذا الخطاب أرسل لك ظرفا عليه عنواني، وما عليك سوى أن تضعي ورق البوستة. اكتبي لي عن صحتك، وعما إذا كان حافظ قد انتقل إلى حجرتي (أرجو ذلك) وعن أخباركم كلكم ولك أحسن تمنياتي.

جلال

* * *

لندن في الاثنين ١٠ فبراير ١٩٥٨

عزيزي حسين

أرجو أن تكون قد أرسلت لي خطابا قبل أن يصلك هذا الخطاب. وتحياتي لكم جميعا. أكتب لك من حجرتي الجديدة وقد كتبت لوالدتي عنها بالتفصيل، وأرجو ألا أضطر إلى تغييرها في وقت قريب لأن اعتياد بيت معين يساعد في القضاء على الشعور بالوحدة. ولكن أخبرني البعض هنا أنه في بداية الصيف يأتي إلى

لندن كثير من السياح فترتفع أسعار البيوت فيلجأ أصحابها إما إلى أن يطلبوا من السكان إخلاء البيت أو أن يطالبوهم بأجرة أكبر.

قابلت June حتى الآن مرتين. في المرة الثانية كانت قد دعتني إلى حضور مسرحية في Arts Theatre تأليف «چان أنويّ» واسمها «The Iceman Cometh»(18) وذهبت معنا ماري صديقتها، ومسلم صديق ماري. وقد استمرت الرواية أربع ساعات بدون حساب مدة الاستراحة، وتعشينا خلال الاستراحة الطويلة في مطعم قريب.

أما عن الرواية فقد أتعبتني لهجة الكثير من الممثلين، لأنها لم تكن ـ وباعتراف چون والآخرين، إنجليزية سليمة وإنما كانت قريبة من «الكوكني». وعلى كل ففي حدود تتبعي للهجاتهم بدت لي الرواية لطيفة ومرحة ولكنها ليست عميقة.

إن چون بدت لي في المرتين حزينة بعض الشيء، أما ماري فبدت لي ـ في حدود المقابلة القصيرة ـ غبية وعادية أو حتى أقل من العادية.

قابلت كثيرا من زملائك وأصدقائك هنا وكلهم أبدوا مودة كبيرة نحوي، وكما كان المدرسون في الماضي يقدمونني لبعضهم البعض بقولهم «ابن الأستاذ أحمد أمين» فقد كنت في لندن في الأيام الماضية أقدم إلى الناس بأني «أخو حسين أمين».

قابلت الكناني والطيب وتشوثي ومسلم وببي والعربي من الإذاعة. كما قابلت شخصا اسمه مصطفى عبد المتعال مدح فيك كثيرا ولكن أشك في أنك تذكره، كذلك يعرفك هنا «خليل حسن خليل» وهو عضو بعثة اقتصاد في نفس مدرستي.

وقد تغذيت مع الكناني وببي والعربي، وتناقشت في السياسة مع الاثنين الأخيرين، ويبدو أن آراءهما ليست تقدمية كثيرا.

ولكن على رأس الجميع تأتي «هدى سعد» لقد حاولت أن تفعل كل ما تستطيع لتساعدني في أيامي الأولى بلندن. وكانت تشعر بالأسف لأن معاوية ليس هنا وتحاول أن تفعل ما كان يمكن أن يفعله معاوية. لقد ذهبت معي إلى المنزل الذي كنت تسكنه، ولكن لم تعجبني الغرفة التي رأيتها (وهي ليست غرفتك)، وعرفتني بمذيع جديد اسمه «رضوان مولوي» يدرس في نفس مدرستي على أمل أن يساعدني في التعرف على طريقة الدراسة وفرَّجتني على شقتها وأبدت استعدادها لأن تقدم لي أي شيء أحتاجه. وفضلا عن كل ذلك وجدتها

ظريفة ونشيطة وجميلة ولا أثر للخجل لديها ولكنها تحترم نفسها والجميع يحترمونها. كما أعجبت باعتماد معاوية عليها في بيع عفشهما وثقته في إمكانها البقاء بدونه في لندن حتى يهيئ لها بيتا في الكويت. (وعلى فكرة إنه سيعمل في الكويت مديرا لمعهد لتدريس اللغة العربية للأجانب الذين يعملون في شركة البترول بالكويت).

حجزت تذكرتين ليوم الأربعاء في مسرح Haymarket وسأدعو چون بالتليفون لمصاحبتي (هل تسمح لي؟) والرواية من تمثيل ريتشاردسن وسيليا چونسون.

خطر لي أكثر من مرة هذا الخاطر: كم يكون ممتعا لو أن حسين عُيِّن بسفارة لندن. ولكن على العموم أنا مستعد للتضحية لو أرادت والدتي بقائك في مصر(19).

أنا لم أنس ما تريده من الكتب وعلى الأخص Les Mandarins ولكن أعطني بعض الوقت حتى أعرف راسي من رجلي.

اكتب حالًا ويا حبذا لو كتبت أيضًا إلى هدى لتشكرها على شعورها. ولماذا لا تكتب إلى چون أيضا؟ تحياتي لوالدتي والجميع.

جلال

* * *

القاهرة في ١٠ فبراير ١٩٥٨(20)

عزيزي جلال

زارني أول أمس في البيت يوسف إدريس وأحمد عباس صالح، وجلسنا نتحدث في الأدب حتى الثانية والنصف صباحا.. قال إدريس: «إن ثقافتي، (أي ثقافة إدريس) لا تبلغ نصف أو عُشر ثقافتك، ومع ذلك فإن الفارق بيني وبينك هو أني عرفت عامة الشعب منذ طفولتي وصباي، بينما لم تكد تخرج أنت عن نطاق عائلتك وعملك حتى الآن. إنني قد اكتسبت خبرات من الكثرة بحيث أصبحت في حاجة الآن إلى العزلة للتفكير فيها وهضمها، أما أنت ففي حاجة إلى الخروج من عزلتك لاكتساب خبرات...». ونصحني أن أستقيل من عملي.. وأن عليَّ أن أنزل إلى الشعب، أن أكتشف مصريتي بمخالطتي إياه، وأن أبني أدبي على أساس هذا الاكتشاف...

حسين

* * *

كان حسين يعلم، منذ كان في لندن، أنه يريد أن يصبح أديبًا كبيرًا. يذكر جلال في كتابه «مكتوب على الجبين» أن حسين توفَّر لديه القدر اللازم من الذكاء والحساسية الكافيين للحكم على أوجه الجمال في العمل الأدبي الجيد، والقدرة على التمييز بين الغث والسمين في الأعمال الأدبية، وذاكرة قوية جدًّا فيما يتعلق بما يقرأه، ولغة عربية صحيحة وجميلة، فضلًا عن الدرجة اللازمة من قوة الإرادة لكي ينكب على قراءة كتاب بعد آخر.

كان تحقيق هذا الحلم، أي اتخاذ الكتابة مهنة جدية، سببًا لاستقالة حسين من الإذاعة البريطانية وعودته إلى مصر، إذ وجد أن تحقيق هذا الحلم محال في إنجلترا. فبالإضافة إلى صعوبة الخروج بفكرة رواية من الحياة الإنجليزية المنظمة، فإن حسين كان مقتنعًا بأن استمرار الإقامة في الخارج سيؤدي إلى حصر كتابات الأديب بعيدًا عن مجتمعه الذي أتى منه ويكتب من أجله. وقد أتى رأي يوسف إدريس في الخطاب السابق ليؤكد له تلك الفكرة ويوجهه بعيدًا عن السكن في «البرج العاجي» البعيد عن الشعب.

وقد كان حسين في تلك الفترة متأثرًا بأفكار الكاتب الروسي «تولستوي» ويرغب في الاقتداء به؛ فكان يحلم بالانعزال عن الحياة المدنية والانتقال للريف لمساعدة الفلاحين. إلا أنه عند عودته من لندن والتحاقه بالخارجية عام ١٩٥٨ وجد نفسه يبتعد شيئًا فشيئًا عن الاقتداء بهذه المُثُل بل وعن حياة الأديب التي تخيلها وسعى إلى تحقيقها. كان يحلم بأن تكون حياته «حياة مغامر في الآفاق» وليست «حياة موظف حكومة»، ووجد نفسه على مدار حياته الوظيفية في صراع نفسي عميق، وظلت هذه المُثُل تطارده فيحلم بالتفرغ لها وتحقيقها، ويكتب بها إلى جلال الذي يرفضها رفضًا قاطعًا ويعدد له مزايا عمله الدبلوماسي، والتجارب التي لا بد وأن يمر بها بسبب وظيفته، ويؤكد له صعوبة الاعتماد على ما تدره حياة الأديب من دخل.

* * *

لندن في ٢ مارس ١٩٥٨

عزيزي حسين

أشكرك على خطابك الذي كتبته بعد وصول خطابي مباشرة (وأنا أعرف أن هذا يعتبر عملا معجزا بالنسبة لك) ولو أن الظاهر أنك لم ترسله إلا بعد مدة من كتابته، والذي أرجوه أن تحاول تكرار هذا العمل.. فقط حاول!

طبعا أهم ما جاء في خطابك هو مسألة موقفك من الخارجية، وما قاله لك يوسف إدريس. وأنا أحب أن أقول لك رأيي في هذه المسألة رغم أني لا أعرف هل انتهى وقتها، أي هل كانت مجرد فكرة عابرة، أو أنك لا زلت قلقا وعلى العموم فما لاحظته منك دائما هو أنك تستشير في شئونك أكبر عدد ممكن من الناس، وتوهم الجميع أنك تثق في رأيهم كل الثقة بل وستنفذ قطعا ما يشيرون به، ثم لا تفعل إلا ما في رأسك، ومع ذلك فسأقول لك رأيي.

باختصار أنا أعارض جدا جدا في أن تترك الوزارة، فإنها أنظف وظيفة ممكن أن تنالها ومن أحسن الوظائف على العموم كما أنها أكثر الوظائف اتصالا باهتماماتك، فلن تجد وظيفة أدبية صرفة، ولو كانت في مصلحة الفنون، أما عملك في الخارجية فلأنه سياسي أعتقد أنه لذيذ إلى حد كبير ويفيدك أيضا على عكس معظم الوظائف الأخرى. وبناء على ذلك يكون تركك لوزارة الخارجية في رأيي يتضمن قرارا نهائيا بعدم الالتحاق بأي وظيفة بعد الآن. وهذا خطأ واضح للأسباب الآتية:

١- أنت في الواقع لا تريد (الآن) التفرغ للكتابة وإنما التفرغ للقراءة. وأنا أعتقد وكما قال يوسف إدريس أيضا ـ أنك تقرأ بما فيه الكفاية، إن لم يكن أكثر، وأن ما تحتاجه هو الكتابة لا القراءة. وأعتقد أن من غير المعقول أن تتفرغ للكتابة قبل أن تثبت فعلا أن الوقت الفاضي أمامك الآن تستغله فعلا في الكتابة وأنه لم يعد يكفي، ولكن الذي ظهر لي أنك تكتب الآن قليلا، ثم يجب أن يعترف الناس بك ككاتب أولا لا أقصد أنه يجب أن تكون مشهورا أولا ثم تترك الوظيفة بل أقصد أن أثبت (لنفسك على الأقل ولعدد معقول من الناس) أنك أديب ثم اترك الوظيفة.

٢- أما مسألة أن الوظيفة تمنعك من الاتصال بالناس والشعب كما قال يوسف إدريس، فأظن أن هذا ليس حقيقيا بالنسبة لك، وأظن أنك توافقني أيضا على هذا. فعدم اتصالك الكثير بالناس لا يرجع إلى انشغالك في الوظيفة وإنما إلى طبيعتك الخاصة.

والشيء الذي أريد أن أقوله أخيرا أنني فعلا أعتقد أن محاولة زيادة اتصالك بالناس سيفيدك ـ ككاتب ـ كثيرا جدا. إن لك بلا شك بصيرة نافذة ولكنها تحتاج إلى موضوعات من الآدميين لكي تنفذ فيها، لأن الإنسان ـ خاصة في علاقاته

المختلفة ـ هو أهم ما يكتب عنه. إنك بلا شك ـ منذ الآن ـ تستطيع أن تكتب عن الحياة والناس من وجهة نظر فلسفية ولكن الأهم من ذلك كشف علاقات الناس بعضهم ببعض، كما يفعل يوسف إدريس مثلا الآن. ومع كل ذلك فإني لا أحاول أن أقلل من أهمية التفكير الفلسفي في ذاته، إني فقط حاولت أن أقلل من أهميته النسبية. فإن اخترت (كما قال يوسف إدريس) طريق النقد والتأمل والكتابة والفلسفة، فرغم اعتقادي بأنها أقل درجة من الكتابة الاجتماعية ـ فإني أعتقد أنه سيكون لك فيها مستقبل زاهر.

دعتني جون يوم الجمعة الماضي إلى الـAlbert Hall حيث شاهدنا فرقة رقص شعبي روسي، وكانت رائعة. أحسن بكثير من الفرق التي شاهدناها في مصر. إن جون لا زالت حزينة، هل كانت دائما كذلك؟ سأدعوها يوم الجمعة القادم إلى رواية جديدة في السينما «لأنَّا مانياني» اسمها wild is the wind. وبهذه المناسبة شاهدت من يومين رواية جديدة لطيفة لتشارلي لوتون كان فيها رائعا Witness for the Prosecution. أقرأ الآن Not by Bread Alone وسأرسلها لك بعد انتهائي منها. كما سأرسل لك Les Mandarins خلال هذا الأسبوع.

تحياتي الكثيرة إلى والدتي ولأحمد، كيف حال أحمد؟ وهل سيعود من جديد إلى أوربا؟ وهل تزوج؟ وممن؟

إني أكتب لكم الآن من حجرتي الجديدة فلا تخطئوا بكتابة العنوان القديم.. اكتب.. اكتب..

جلال

Cairo Egypt

United Arab Republic

Galal Amin,
63 Greencroft Gardens,
Finchley Rd,
London N.W.6.

AN AIR LETTER SHOULD NOT CONTAIN ANY ENCLOSURE; IF IT DOES IT WILL BE SURCHARGED OR SENT BY ORDINARY MAIL.

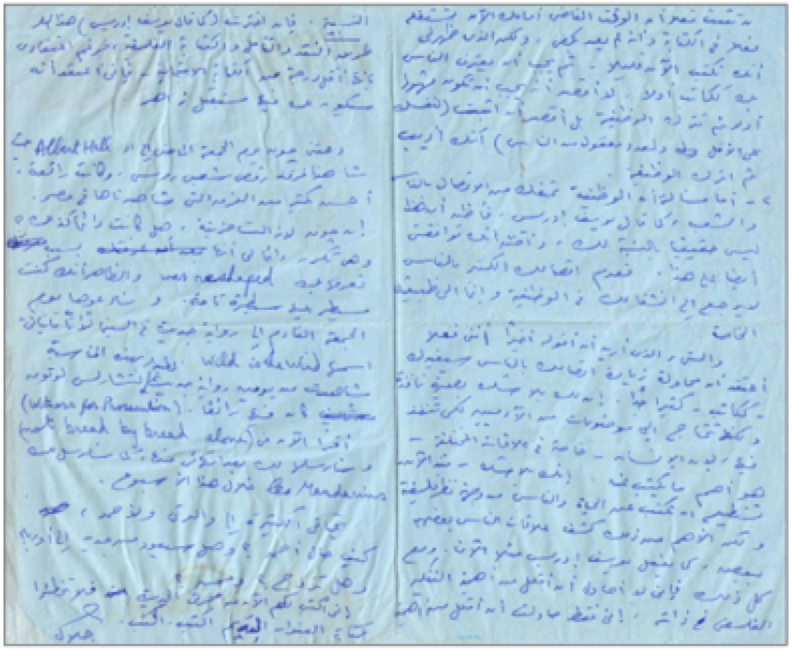

خطاب جلال أمين بتاريخ ٢ مارس ١٩٥٨، ويُلاحظ مُلصق «مصلحة الرقابة المصرية: فُتح بمعرفة الرقيب»

وجه جلال تركيزه الأكبر إلى الدراسة والقراءة في الموضوعات الاقتصادية المتعلقة بها، فلم يجد من الوقت المتبقي ما يسمح له بمشاهدة العدد نفسه من الأفلام أو المسرحيات الذي شاهده حسين من قبل، أو وجد نفسه في

ضائقة مالية لم تسمح له بذلك. إلا إنه مع ذلك كان حريصًا على ذكر آخر الأعمال المسرحية والأفلام التي شاهدها في خطاباته لوالدته وإخوته وتحليل ما يجده منها شيقًا وجديرًا بالمشاهدة. يذكر جلال أن هذه الأعمال الفنية كان لها أثر بالغ في تكوينه العقلي والوجداني لا يقل عن أثر الأعمال الأخرى التي قام بها في الفترة ذاتها(21).

كان حسين هو من عَرَّف جلال بأهمية المسرح الإنجليزي وألح عليه لمتابعته. كما كان يحاول تقويم توجه جلال الفني، فيبدي دهشته من إعجاب جلال بالمؤلف المسرحي «يونسكو» محاولًا تغيير وجهة نظره فيه، أو يحثه على تغيير وجهة نظره في المخرج الإيطالي «فليني» مشددًا على خطورة محاولاته لتغيير واقعية السينما الإيطالية. ويبدو أن هذه المحاولات أفلحت في تغيير رأي جلال وإعادة تقييمه لما يراه من أعمال مسرحية وسينمائية، فيغير وجهة نظره في «يونسكو» ويكتشف أنه وقع في فخ أرجعه إلى أن دراسته للاقتصاد جففت عقله ولم تترك له وقتًا لقراءة الأعمال الأدبية فجاءت هذه الأفلام لتعويض ما كان يفتقده من قراءة الروايات والقصص(22).

* * *

لندن في ١٦/٣/١٩٥٨

عزيزي حسين:

أشكرك على خطابك، والظاهر أن سياستك قد نجحت: فلأني لم أكن أتوقع منك أن تكتب لي كثيرا (هكذا فهمت منك)، أصبحت لخطاباتك قيمة كبيرة لدي والخطاب الذي وصلني هو ثالث خطاب تكتبه ولكنني لم أتسلم الثاني وسألت عنه في منزلي القديم..

سأحدثك أولًا عن المسرح: حتى الآن شاهدت أربعة مسرحيات: The iceman cometh وThe Flowering Cherry لرالف ريتشاردسن وThe Potting Shed من تأليف جراهام جرين وأخيرا Little Eyolf لإبسن. وقد حدثتك عن الروايتين الأوليين ولخصت الثانية في خطاب لحافظ وبوجه عام كانت المسرحيات الثلاثة الأولى مخيبة لأملي بعض الشيء، إن التمثيل فيها جميعا ممتاز ولكن لم تنجح واحدة منها في هز مشاعري أو تحريك ذهني تحريكا عنيفا، كما فعلت مثلا The Three Sisters والمسرحية التي شاهدتها من ثماني سنوات لبيتر أوستينوف. والمسرحية الثالثة التي قام بدور البطولة فيها (جون جيلجود) تدور حول مشكلة نفسية. وأعتقد أن المؤلف يظن أنه قد عبر بها عن فكرة ما، ولكني لم أجد في الرواية أي فكرة عميقة تستحق الوقوف عندها والتروي.

وبالمناسبة أذكر لك أنها انتهت بشبه دعوة إلى الإيمان بالله. أما بالأمس فقد شاهدت مع جون مسرحية إبسن Little Eyolf، وقد ذكرتني بجميع المسرحيات التي شاهدتها أو قرأتها لإبسن سواء من حيث الجو أو طابع الكتابة: فهو دائما له حوار شيق ولكنني دائما أخرج من المسرحية شاعرا بأن المؤلف لا بد يريد التعبير عن فكرة معينة ويكون من الصعب عليَّ دائما أن أقطع بما هي هذه الفكرة. ولكن على كل حال أعجبتني المسرحية كثيرا ـ وأعتقد أنك لا بد قد قرأتها، ففي الفصل الثاني على الأخص حوار غاية في العمق وقد بعث في نفسي سرورا فائقا، وفيه حاول المؤلف بنجاح أن يكشف وجها عميقا من أوجه الضعف الإنساني، والبطل طوال الرواية يحاول ألا يكون bound to the earth بينما تحاول زوجته جره إلى الأرض وحينما يشعر باليأس من محاولتها، ويشعر هو أيضا باليأس من تحقيق آماله في الارتفاع عن الحياة، يتخلى كل منهما عن أمله ويعيشان بلا قلب مخصصين حياتهما لخدمة بعض الأطفال المشردين. وأنا على كل حال لست واثقا من أني فهمت الرواية كما يجب أن تُفهم وسأطلب المعونة اليوم في الـSunday Times كما أطلب منك المعونة أيضا! وفي المدرسة شاهدت بالأمس مسرحية مأخوذة عن قصة قصيرة لتشيكوف (The Avenger) كما مثلوا جزءا من Baby Doll لتينسي ويليامز وقد نجحوا نجاحا باهرًا.. هذا وقد اشتركت في رحلة سيقوم بها النادي المصري إلى ستافورد في أبريل حيث نشاهد مسرحية لشكسبير ونطوف البلد التي ولد بها، كما حجزت تذكرتين لي ولجون في الفرقة المسرحية الروسية التي ستأتي هنا في مايو لتمثل بعض تمثيليات تشيكوف وسنشاهد The Three Sisters.

لعلك قرأت في العدد الماضي من The Observer مقالة سارتر التي أثارت هي وملابساتها ضجة كبيرة في الصحف البريطانية الجادة. لقد خصصت The M. Guardian الجزء الأكبر من اهتمامها في الأسبوعين الماضيين لقضية تعذيب محرر فرنسي على يد بعض الجنود الفرنسيين في الجزائر لكي يتحصلوا منه على معلومات عن الثوار الجزائريين. ولم يرضخ المحرر ونشر بعد الإفراج عنه كتابا اسمه La Question ذكر فيه الأساليب الفظيعة التي استخدموها في تعذيبه ونشرت بعض الصحف الفرنسية مقتطفات من الكتاب فصادرتها الحكومة الفرنسية، ثم كتب سارتر مقاله الرائع تعليقا على الحادث ونشرته جريدة فرنسية فصودرت أيضا. وقد أدت The Guardian وThe Observer واجبهما بأن نشرت الأولى مقتطفات من كتاب La Question وعلقت عليها بمقال قوي هاجمت فيه الحكومة الفرنسية بعنوان Debasement كما نشرت العديد من تعليقات القراء مستنكرون جميعا فيها سلوك الجنود الفرنسيين والحكومة الفرنسية. ونشرت الـObserver ترجمة لجزء كبير من مقال سارتر وسأرسل لك غدا هذه المقالات كلها وأرجو أن تطلع «حافظ» عليها. كذلك فإني أعتقد أن الكتابة عن هذا الموضوع في مصر تفيد جدا القضية العربية،

وبخاصة فإن مقال سارتر يدين سلوك فرنسا في الجزائر بشكل قوي. ويمكننا جدا الاستفادة منه. أرجو أن تقوم أنت بالواجب فتحاول مثلا ترجمة مقال سارتر ونشره في صباح الخير أو غيرها إن لم يكن قد نشر بعد.

منذ أيام وجدت بين البريد «كارتين بوستال» أرسلتهما الانسيكلوبيديا بريتانيكا، والمقصود بالكارت أن يملأه من يريد أن يعرف بيانات عن كيفية شراء الأنسيكلوبيديا بالتقسيط. فملأت الكارتين: واحد باسمي والثاني باسمك. وإذا بجرسي يدق اليوم ويدخل شخص بذقن طويلة ويقول إلي أنه آت من طرف الإنسيكلوبيديا. وأفهمني أن ثمن الإنسيكلوبيديا ١٠٥ جنيه بالتقسيط ويستطيع المقيم في انجلترا أن يدفع ١٥ جنيه دفعة أولى، وحوالي ثلاثة جنيهات ونصف كل شهر لمدة سنتين. وطبعًا أنا طلبت معرفة ذلك من أجلك. فإذا استطعت أن تحوِّل لي هذا المبلغ اشتريتها لك.

أما الكتابين The Mandarins وNot by Bread Alone فسأرسلهما لك غدا أو بعد غد وهما موجودان عندي وسأرسل لك برأيي في الكتاب الثاني إما بداخل الكتاب أو في خطاب مستقل. واكتفي الآن بأن أخبرك أنه فعلا يستحق كل ما قام لأجله من ضجة في الغرب لا بسبب قيمته الفنية ولكن بسبب ما يفهم منه بطريق غير مباشر عن الحياة الآن في روسيا.

إن حافظ مدين لي بخطاب وأنا في الانتظار، وسيسرني بشكل منقطع النظير أن يأتي إلى إنجلترا في الصيف.

تحياتي للجميع وأحسن تمنياتي

جلال

* * *

لندن في ٣١ مارس ١٩٥٨

عزيزي حسين،

وصلني خطابك الطويل من أسبوع وفي الواقع هيَّ دي الجوابات ولَّا بلاش، وأرجو أن تواظب على ذلك.

أرسلت لك من حوالي أسبوعين الكتابين: The Mandarins وNot by Bread Alone ولكن طبعا بالبريد العادي وأرجو ألا يتأخروا في الوصول. وأما عن

الكتب التي تريد شراءها عن طريق اليونسكو فأنا طبعا مستعد لأي خدمة في هذا الصدد. أما عن الإنسيكلوبيديا فسأكتب إلى زكريا طالبا منه نقودا لي ولك فإن أرسل مبلغا محترما سأشتريها لك، وتستطيع أنت أيضا ـ عن طريق محمد حافظ ـ أن تكتب له.

إن الجريدة اليومية التي أقرأها هي «المانشستر جارديان» وذلك أنها في نظري أحسن الجرائد اليومية من الناحية السياسية. وطبعا الـTimes تمتاز عنها في النقد الفني، ولكن الجارديان تمتاز عنها في أنها أقل محافظة. كما أنني أحيانا أشتري مع الجارديان جريدة يومية أخرى صغيرة. أما جريدتي الأسبوعية فهي الـObserver وأحيانا أقرأ الـEconomist والـNew Statesman. والـObserver بلا شك جريدة عظيمة. يكفي التلخيص الذي تقدمه كل أسبوع لأخبار العالم كله. وأنا مواظب على قراءة تعليقات هذه الجرائد على أحداث كنت أقل اهتماما بها في مصر: مثال ذلك حوادث تونس وأندونيسيا والجزائر وأخبار البطالة في أمريكا..إلخ. وأعتقد أن الجرائد المصرية لا تعطي هذه الأخبار حقها على الإطلاق. والغريب بالفعل أنني حينما أطلع على جريدة الأهرام في النادي المصري، أجد أنها تشوه الحقائق وتعطي صورة ناقصة جدا ليس فقط لأخبار العالم بل لأخبار مصر أيضا. وعلى هذا فمن أراد أن يفهم حقيقة الموقف العربي فليأت إلى هنا. طبعا التحيز هنا قائم دائما وهم «يتمنون لنا الغلط» على رأي المثل العامي. ولكنهم في نفس الوقت يعرفون مقامنا أكثر مما نعرفه نحن في مصر.

ومن الأخبار الأخيرة التي نشرتها الأوبزرفر والتي أعتقد أن الجرائد المصرية لن تذكر تفسيرها الحقيقي: الغرض من زيارة عادل عسيران(23) لعبد الناصر أخيرا، فالمقصود بها ـ تصور ـ هو أن يحصل لبنان على تأكيد من عبد الناصر أنه لن يثير الرأي العام العربي على محاولة كميل شمعون تعديل الدستور لمصلحة استمراره في الحكم.. إن نفوذ عبد الناصر في العالم العربي وفي العالم كله لا يجهله إلا المصريون، وقد أثار خبر قرب زيارته لموسكو قلق السياسيين هنا!

بالنظر إلى أن حالتي المالية في الخمسة عشر يوما الأخيرة كانت «ليست على ما يرام» فإني لم أشاهد فيها سينما ولا مسرح، وإن كان الجو الفني حافل في هذه الأيام: ففي السينما Bonjour Tristesse وFarewell to Arms لهمنجواي، وفيلم عن فرقة البلشوي وفي المسرح رواية لتنسي ويليامز وروايات لشكسبير. أرجو أن أرى بعضها على الأقل في أبريل.

إني موافق على الطريقة التي فسرت بها رواية إبسن وأنا رغم تقديري لحوار إبسن، وحبكة مسرحياته، فلي رأي في هذا النوع من التمثيليات أؤجل الكلام عنه إلى مرة أخرى وأكتفي بالقول الآن أن المسرحية في نظري هي التي تتوافر فيها العناصر الآتية:

أولًا طبعا الكمال الفني: بحيث يتوافر فيها عنصر التشويق والحبكة وجمال الحوار والواقعية.

ثانيًا: أن تحتوي على فكرة جديدة وعميقة.

ثالثًا: أن تكون هذه الفكرة من النوع «الدافع للعمل» أي لا تكون فكرة عقيمة.

الربيع جاء بلا شك إلى لندن. وهو جميل على الأخص لما يبشر به من صيف وشمس. والمزية المباشرة التي شكرته من أجلها هو أنه جعل المدفئة تتوقف عن ابتلاع نقودي!

أعطاني الأستاذ بعض أسئلة للجواب عليها، وهي صعبة جدا وأبذل الآن كل جهدي للانتهاء من الإجابة قبل الانتهاء من أجازة الإيستر.

وكنت قد كتبت خطابا لنادية أعتقد أنه كان من الناحية الأخلاقية «ثوري» شوية على الأقل بالنسبة لنادية. ولا أشك في أنه لو مرَّ على والدها قبل أن تتسلمه لمنعها من قراءته.. فلا أدري الآن مصير الخطاب!

أرجو منك مرة أخرى ألا تجعل خطاباتك الطويلة «نادرة» وقد وصلني خطابات من حافظ وحمادة وآخر من أحمد وسأرد عليهم قريبا وأريد من والدتي ألا تقصر في الكتابة أيضا.

وسلامي وأحسن تمنياتي لكم كلكم.

جلال

أرجو أن تخبرني بأخبار سفرك وكذلك أخبار مجيء حافظ إلى لندن

* * *

لندن في الأحد ١٣ إبريل ١٩٥٨

والدتي العزيزة، إخوتي الأعزاء:

أعتقد أن هذا الخطاب سيصلكم في العيد أو الوقفة فكل سنة وأنتم طيبين، وهل عملتم كحك؟ ولكن المؤكد أنه لم يصلكم كحك من صديقة أحمد: ليلى، وحتى إذا أرسلت لكم فأعتقد أن أكله الآن خطر! أما عن العيد هنا، فسيقيم النادي المصري حفلة أول أيام العيد سيقدم فيها كحك مع الشاي، وستقوم سيدة مصرية هنا بعمله..

انتهت الأجازة القصيرة التي أخذَتْها مكتبة المدرسة بمناسبة الإيستر، وقد اضطررت خلالها إلى المذاكرة في البيت، واحْتَسْت حوسة كبيرة خلال هذا الأسبوع في الأكل فقد كانت المدرسة توفِّر عليَّ عناء التفكير فيه. وأنا عادتي أني لا أفكر في الأكل إلا إذا جعت جوعًا شديدا.. فمثلا بعد مُضِيِّ يومين في الأجازة اكتشفت أنني لمدة يومين لم آكل لحمة.. فأنزل آكل في مطعم.. وبعد يومين آخرين أرجح أنني الآن محتاج إلى خضروات. وهذه أمور لم يكن يخطر للواحد في مصر أن يفكر فيها، ففي كل يوم كان الواحد يأكل أكلة واحدة على الأقل تتوافر فيها كل ما يحتاجه الجسم..

على كل حال أنا أذاكر الآن بمعدَّل ٥ أو ٦ ساعات في اليوم، وأقرأ في كتب أو مجلات أخرى نحو ساعتين. والكتب الخارجية التي أقرأ فيها الآن هي أيضا في الاقتصاد ولكن من لون غير الذي أقرأه في المدرسة.. كما أني آخذ درسا في اللغة الانجليزية مرة كل أسبوع من أستاذة في الجامعة، وكنت قبل أجازة الإيستر آخذ دروسا في الانجليزية أيضا في داخل المدرسة وستستأنف بعد الأجازة..

والمسرح أنا مقصِّر في حقه ولكن السبب يرجع إلى قلة ما معي من نقود أكثر مما يرجع لانشغالي في المذاكرة، فكنت أستطيع يوم السبت على الأقل أن أذهب إلى مسرح أو باليه أو إلى الـFestival Hall.. والذي امتص نقودي إلى حد كبير أنني اشتريت جرامافون وراديو بالتقسيط، وكلاهما في الواقع مهم جدا بالنسبة لي. فالجرامافون أحاول أن استمع لبعض الموسيقيين الذين ليست لديَّ فكرة عنهم كباخ مثلا أو براهمز، وأنا أشتري كل شهر أسطوانة واحدة، أظل أديرها حتى يأتي آخر الشهر فأكون مللتها تماما.. وعلى رأي «چون» إني على آخر المدة سيكون عندي كمية كبيرة من الاسطوانات التي «لا أطيق سماعها»!

أما الراديو فهو يجعلني على صلة بأخبار مصر، وأعتقد أن الاستماع لراديو مصر من هنا أمر ضروري، فأنا شخصيا حريص على أن أكون ـ بعد عودتي ـ قادرا على الانفعال بكل شيء مصري مهما كان سخيفا!

وتصلني الآن صباح الخير كل أسبوع فقد اشترك لي فيها «شكري» كما تأتيني جريدة سورية أيضا كل أسبوع..

والآن كلمتين مخصوصين لحافظ: سررت كثيرا بانتهائك من الرواية وتأكد أنه ستسرني جدا قراءتها لو عنيت أنت بإرسالها، وتأكد أيضا أنني سأستطيع على الفور معرفة ما قمت به فيها وما قام به أمين يسري.

ولم تخبرني يا حافظ هل ستأتي إلى لندن أم قامت عقبات؟ تأكد أنك لو حضرت فلن تحتاج لشيء، بس انت اركب المركب وتعال.. ولكن يهمني معرفة ميعاد حضورك لأني أنوي زيارة أمين في ألمانيا ونبيل العربي في روما قبل عودة أمين إلى مصر. وقد كتب لي أنه سيعود في آخر يونية..

وكلمتين مخصوصين لحسين: أولًا خبر هام: هناك احتمال ٩٩٪ أن تسافر چون إلى أنقره في مايو القادم أو يونية (أي بعد شهرين) وذلك لأنهم قبلوها في وظيفة في وزارة الخارجية الإنجليزية وعرضوا عليها السفر إلى أنقرة بمجرد نجاحها في الكشف الطبي وموافقتهم على الـreferences.. وثانيا سأحاول أن أرسل لك مع صديق سيأتي إلى مصر بالطائرة في اوائل الشهر القادم إبرتين للجرامافون والمسألة متوقفة فقط على ميزانيتي وسأكتب لك عندما يسافر.. وهل وصلك الكتابان ولماذا لم يرد طارق وحسين عبد العزيز على خطاباتي إن هذا الكسل في الواقع «مصري» ١٠٠٪ ولا يبرره أي عذر..

أهم الأخبار السياسية هنا تدور حول الاسلحة الذرية والواقع أننا في مصر لم نكن نعطيها ـ ولا نزال ـ الأهمية التي تستحقها. إن الرأي العام هنا وخاصة المثقف، مشغول انشغالًا تاما بالتجارب الذرية والخطر الذي يهدد العالم لو استعملت الأسلحة نفسها. وأنا أتساءل لماذا لا تتكون في مصر جمعية تعمل للدعاية ضد هذه الأسلحة وضد تجاربها بحيث تتعاون مع مثيلاتها في العالم كله؟ ألا تعتقد أن الموضوع يستحق الاهتمام؟ وعلى رأي مجلة New Statesman إنه إذا كان العالِم أقل جبنا من الجاهل فإن هذه القاعدة لا تنطبق في حالة الأسلحة الذرية، إننا كلما ازدادت معرفتنا بها كلما ازداد خوفنا.. وعلى رأيها أيضا ردا على أمريكا التي رفضت عرض روسيا بوقف التجارب الذرية بحجة أن روسيا لم تفعل هذا إلا بعد أن انتهت من تجاربها هي، تقول New Statesman إنه منذ أكثر من ثلاث سنوات وكل من أمريكا وروسيا قد وصل تسلحهما بالأسلحة الذرية إلى حد تستطيع معه إفناء الحياة كلها، فما معنى استمرار التجارب بعد الآن إلا أن يكونوا قد دخلوا في نطاق الـ«metaphysics»!

وكنت أحب أن أشترك في الـMarch العظيم الذي حصل هنا منذ أسبوع لمسافة خمسين ميلا (24) والذي سمعتم به طبعا لولا أنه كانت أمامي مذاكرة لا بد من الانتهاء منها. ومن الحوادث الطريفة التي حدثت لهذا الـmarch أن بعض المحافظين ركبوا سيارة عليها ميكروفون وحاولوا إفساده بأن أخذوا ـ بجوار الطابور الطويل ـ يذيعون هذه الجملة: «إنكم باشتراككم في هذه المظاهرة تسعون بأقدامكم إلى الخضوع لسيطرة روسيا الاستعمارية!» فما كان من بعض المشتركين في المظاهرة إلا أن هجموا على السيارة وحطموا الميكروفون حتى لاذت بالهرب..

كذلك حضرتُ هنا احتفالا بيوم الجزائر أثار في ذهني بعض المقارنات بين اجتماعات الإنجليز السياسية واجتماعاتنا السياسية العامة في مصر. إن ما يبدو أنه مشكلة الإنجليز هو أنهم «too civilized».. إنهم يتناولون مشكلة كمشكلة الجزائر بنزعة إنسانية نبيلة ولا شك وموقفهم منها ـ أقصد التقدميين منهم ـ لا غبار عليه ولا يطلب منهم أيضا أكثر منه، ولكن المسألة أنهم لا يستطيعون الانفعال.. إنهم يحللون مشكلة الجزائر تحليلا علميا كأنهم في جامعة لا في اجتماع سياسي غرضه تجريم حليفة لهم. فإذا قارنت هذا بما يحدث في يوم للجزائر في مصر مثلا لا تملك إلا أن تبتسم: في مصر كثير من العواطف والقليل من العلم، والعكس هنا.. في مصر مثلا يعتبر في اجتماع كهذا أنه من غير اللائق أن «ينكِّت» المحاضر مثلا.. هنا المحاضر لا يأنف ـ وكذلك المستمعون ـ من أن يذكر بعض الحوادث أو الأفكار الطريفة والمضحكة أثناء الحديث عن بشاعة الاستعمار الفرنسي.. هنا مثلا يقول المحاضر إن أسباب اهتمامنا بالاجتماع من أجل الجزائر هي: أولا وثانيا وثالثا... أما في مصر فتسمع: فرنسا المجرمة إن لم تكن العاهرة.. وهكذا..

لا أستطيع أن ألوم المصريين ولا أن أمتدح الإنجليز، إن هذا وذاك هو مجرد نتيجة للمرحلة الحضارية التي يمر بها هؤلاء وهؤلاء.. كما أعتقد أننا أيضا في حاجة إلى هذه العواطف، إنهم ببرودهم يستطيعون أن يغزوا بورسعيد لأننا أممنا قناة السويس التي نمتلكها أصلا، ونحن بدون عواطف لا نستطيع أن ندافع عن أنفسنا..(25)

أرجو أن يصلني منكم خطابات قريبا ولكم أحسن تمنياتي

جلال

* * *

لندن في ٥ مايو ١٩٥٨

والدتي العزيزة ـ إخوتي الأعزاء.

منذ ثلاثة أسابيع لم أكتب خطابا لا لكم ولا لغيركم، والسبب في ذلك، هو إلى حد ما أن الأيام تمر هنا بسرعة بحيث لا أشعر بمرورها، وإلى حد ما إلى خطاب حسين الأخير لي، الذي نزل على خطاباتي نَزْلة قاسية كرَّهتني في الكتابة كلما خطر لي أن أكتب. وأنا على كل حال لا ألومه فمن الخير دائما أن يقال الحق مهما كان، ولا بأس حتى من القسوة. ولا أدري هل سيكون لهذا النقد أثر في خطاباتي القادمة أم لا..

يسألني حسين عن تطوري الروحي.. لقد كنت في مصر أعتقد أن السفر سيكون بالنسبة لي كميلاد جديد، وأنا أعتقد الآن أنني فعلا ولدت من جديد، وقد اكتسبت هنا أشياء لا يقلقني إلا خوفي أن أفقدها بعد عودتي إلى مصر.. وأعتقد أن أهم تطور نفسي طرأ عليَّ في هذه المدة القصيرة، هو تعلمي كيف أكون أنا لنفسي سبب سعادتي الوحيد. إنني كنت في مصر كالمُستَنِد دائما على شخص أو شيء، «عاطفيا». والآن أصبحت أستطيع الاستغناء عن كل شيء خارج عني. إني في مصر كنت لا أستمتع بجلسة في الشمس الجميلة أو أكلة شهية أو بمجرد الراحة إلا إذا كان معي شخص ما. الآن تعلمت كيف يكفيني في يوم الأحد أن أقضي اليوم بطوله في الشمس في حديقة جميلة ومعي جريدة أو كتاب.

كذلك تعلمت من الإنجليز «الابتسام». إن الجميع هنا يبتسمون لك بمناسبة وبغير مناسبة، الجرسونة في المدرسة تعطيني الشاي وتبتسم وتقرن طلبها الثمن بكلمة dear.. وإذا كدت أصطدم بأحد في الطريق مثلا يبتسم وبالتالي أبتسم له أيضا.. وأعتقد أن هذا، بالإضافة إلى معاملتهم الطيبة للأجانب ولبعضهم البعض، واستطاعتهم التمتع بالحياة، يرجع كله إلى شعورهم بالاطمئنان وأن حياتهم الاقتصادية مستقرة ومستقبلهم لا يخيفهم.. ولهذا فإن الإنجليزي يكاد يبتسم حتى للشمس، إذا طلعت.. أما المصري، فإنه، ويالأسف، أسرع للتكشير منه إلى أي شيء آخر، وهو مستعد نفسيا لأن يجعل من بقية الناس أعداء له، لمجرد أن الحياة في الواقع عدوة حقيقية له ولأنه غير مطمئن على مستقبله ومستقبل أولاده..

ثم أنا لا أتصور كيف كانت حياتي في مصر «غير منتجة» بهذا الشكل، وكيف لم يكن للوقت قيمة؟ إن أكثر من ثلاثة أرباع حياتنا في مصر ـ بدون أي مبالغة ـ تضيع في الدردشة.. نتكلم عن حياتنا وننتقد الناس، وحياتنا تضيع دون أن ندري يوما بعد يوم.. لا القانوني محتاج إلى فهم القانون ولا المهندس محتاج لفهم الهندسة لأن لا أحد منهما يستعمل القانون أو الهندسة.. لقد كنت أنتقد الانجليز

أول الأمر لأن حياتهم روتينية، وكنت أظن أن اقتصارهم على الفسحة يوم الأحد يضيع تمتعهم بالفسحة نفسها. ولكني أعتقد العكس الآن تماما. إن العمل الشاق هو الشيء الوحيد الذي يبعث الثقة بالنفس واحترامها، والراحة لا يكون لها معنى إذا كانت لا نهاية لها.

أنصح حسين بأن يشتري الاسطوانة الآتية: السيمفونية الثانية لـSibelius فهي رائعة، وعلى الأخص الحركة الأخيرة منها، وقد اشتريتها منذ يومين ومنذ سمعتها لا أتوقف عن تدويرها، وفي المدرسة «أصفِّرها».. رأيت في الشهر الماضي رواية Bicycle Thieves وهي بلا شك من أحسن الروايات التي رأيتها إن لم تكن أحسنها وقد كتبت عنها نقدا بالانجليزية لمدرستي..

أما عن علاقاتي النسائية، فرغم كثرة صديقاتي من المدرسة، لم تحاول للأسف حتى الآن أي واحدة منهن أن تبتلع أقراص الأسبرين أو ترمي نفسها في التيمز.. ولكن ولا واحدة استطاعت أن تهز مشاعري.. وكثير من بنات المدرسة مستعدات للخروج مع أي شاب بمجرد الطلب.. وعلى سبيل المثال، تعرفت أثناء شرب الشاي على فتاة أمريكية «مثقفة» تحضر الدكتوراه في «السياسة الفرنسية»، في اليوم التالي، حينما دخلتُ المكتبة أبديت لها باختصار إعجابي بشعرها الطويل الأسود فشكرتني بكل أدب.. وفي اليوم الثالث سألتها عما إذا كانت تحب أن تصحبني إلى السينما فقبلت وقالت بكل سرور، ومع الشكر أيضا.. وذهبنا إلى السينما ولم ألتفت طويلا للفيلم، ولا هي.. وفي الصباح عادت إلى المدرسة لتكتب فصلا جديدا في بحثها عن السياسة الفرنسية..

أرجو من حافظ أن يرسل لي تمثيليته وقد فرحت جدا بانتهائها وبإعجاب حسين بها. وهل مسألة تمثيل روايتيه في الموسم المقبل أمر مؤكد؟ إن كان ذلك فلا شك أنه خبر عظيم..

لا يكفيني أن تقول لي والدتي إن «صحتي على ما يرام»، فإني في مصر كان يهمني أن أعرف أخبار أصابعها وصحتها بالتفصيل.. أريد أن أعرف مثلا هل الجروح التأمت أم لا؟ وهل تشعرين بتحسن في قدرتك على المشي والحركة؟ ها أنا قد أخبرتك ببعض الموضوعات التي تعطيك بعض «الإنشا» حينما تكتبين لي. وسأرسل لك هدية عظيمة مع صديق لي سيأتي إلى مصر في يولية.. أما حسين فستصله مني هدية قريبا جدا.. كل هذا رغم أن النقود التي طلبتها لم تأتني بعد..

تحياتي لكم وفي انتظار خطاب.

جلال

* * *

وصف حسين وجلال الفترة التي قضياها في لندن بأنها أكثر فترات حياتهما خصوبة. إلا أن تلك العبارة لا يمكن فهمها حق الفهم بالنظر إلى ما حضراه من مسارح ومعارض وأفلام، واطلاع على الحياة الثقافية الإنجليزية فحسب، بل إن هناك جانبًا آخر له القدر نفسه من الأهمية ألا وهو ما أثارته هذه الانطباعات الثقافية من تساؤلات بشأن ماهية الثقافة ومعنى الأدب والفرق بين العلم والفن وكيفية تحقيق الإنسان لذاته من خلالهما. والحق أنه لا يمكن النظر إلى إنتاجهما الثقافي والأدبي اللاحق بدون النظر إلى رؤيتهما المختلفة لتلك التساؤلات. كما يصعب أن يتخيل المرء أديبًا أو مثقفًا كبيرًا بدون أن يكون قد دارت بذهنه أسئلة مشابهة وحاول جاهدًا أن يجد إجابات لها.

ويدور عدد من الخطابات القادمة حول موقفهما، فضلًا عن موقف أخيهما حافظ من هذا الأمر. وقد نشأت تلك المناقشة بعد عدة خطابات ـ لم تصلنا ـ كتبها حافظ وحسين إلى جلال توضح نظرتهما المختلفة للثقافة. فحسين يرى في القراءة العامل الأبرز لتنميتها، بينما يرى حافظ أن الاتصال بالناس والحياة الاجتماعية أكثر أهمية من القراءة. ولعل هذه الرؤية المختلفة أدت إلى اعتماد كل من حسين وحافظ لأسلوب حياة مختلف عن الآخر، فيكثر حسين من القراءة ولا يجد ضررًا من العزلة الاجتماعية، بينما يزيد حافظ من اتصاله بالناس وتعميق حياته الاجتماعية، وإن ظلت تأتيه تعليقات حسين وجلال تدعوه لتغيير موقفه.

* * *

ملحوظة: إذا لم يعجب هذا الخطاب حسين أيضا،

فيا ترى كيف يمكن أن أرضيه؟

لندن ٢٧/٥/١٩٥٨

عزيزيَّ حافظ وحسين

لم أكن أتوقع أن تدوم المعركة «الفنية» بينكما أكثر من خطاب واحد، ولهذا دهشت فعلا عندما تسلمت ثالث خطاب يشير إلى هذا الموضوع. وأنا لي رأي في الموضوع واضح في نظري، فاسمحوا لي أن أذكره واغفروا لي أنني

سأنصِّب من نفسي حكمًا بينكما: إن في الواقع كلا منكما يواجه مشكلة معاكسة تمامًا لمشكلة الآخر: حافظ يواجه مشكلة النجاح السريع، وحسين مشكلة عدم حصوله على النجاح بعد رغم المجهود المضني الذي بذله ويبذله باستمرار، والمشكلتان في نظري خطيرتان لسبب بسيط: هو أن اعتداد كل منكما بنفسه يعتمد أساسا على الكتابة، فضلا عن أن حسين بالذات «يفني عمره» ـ بدون مبالغة ـ في القراءة. إذن فالوصول إلى رأي صحيح في هذا الموضوع جدير بالاهتمام.

إن حافظ في خطابه الأخير يحاول أن يكون عادلا فيقول إن الثقافة لها طريقان: القراءة، وهي توسِّع الثقافة، والاتصال بالناس، وهذا يعمقها. وكون القراءة والاتصال بالناس ضروريين للثقافة، لا خلاف عليه، ولكن هذا القول من حافظ يحجب تفضيلا خفيا منه للاتصال بالناس، وهذا يرجع بالطبع إلى أن حافظ يتصل بالناس أكثر مما يقرأ.. هذا التفضيل يتضح مثلا من حكاية التوسيع والتعميق.. فالتعميق بلا شك أهم من التوسيع ولهذا احتفظ حافظ به «للاتصال بالناس».. إذن، فإذا كان لي كلام أقوله لحافظ فهو أن أحاول أن أقنعه بعدم صحة هذا التفضيل.. إن الثقافة (أو القراءة) والتجارب هما في نظري كحدَّي المقص لا يمكن أن يقطع أحدهما بدون الآخر. فالقراءة أولا: هي الأداة التي تساعدك على ملاحظة الواقع ملاحظة فنية، فهي تخلق في نفسك «الرادار» الذي يجعلك تكتشف النقاط الفنية في كل ما تراه والانصراف عن القراءة مدة طويلة يعطل هذا الرادار ويجعل منك بالتدريج شخصا عاديا، أي يفقدك النظرة الفنية للأمور.

ثانيا: القراءة تطلعك على الأساليب المختلفة للتعبير الفني بحيث تختار بعد ذلك ما يلائمك من هذه الأساليب.

ثالثا: القراءة تطلعك على النماذج البشرية التي كثيرًا ما لا تتاح لك فرصة مقابلتها وبالتالي تزيد تجربتك غِنى.

رابعا: القراءة تزيدك «حكمة» بل لعلها المصدر الرئيسي للحكمة، وهذه الحكمة شيء لا غنى عنه للأديب.

وهذه النقاط الأربعة تنصرف أساسا إلى القراءة الأدبية والفنية.

خامسا: وهذا أيضا هام جدا، القراءة هي وسيلة ضرورية لكي يعرف الأديب غرضه من الكتابة، بعبارة أخرى، ليعرف ما الذي يريد أن يقوله للناس. وهذه النقطة تنصرف إلى القراءة في شتى الموضوعات. فمثلا: الأديب الذي يريد أن يحل مشكلة اجتماعية، أليس من البديهي أن من واجبه دراسة هذه

المشكلة ـ علميا ـ واختيار حل علمي لها قبل أن يشرع في الكتابة؟ وإلا، فإن الأديب قد يجد نفسه ـ وهذا يحدث مع بعض الأدباء فعلا ـ وقد بلغ الفصل الثالث من المسرحية مثلا، يقول للناس شيئا ساقته إليه سوق أحداث الرواية دون أن يكون هذا الحل الذي يقدمه صحيحا من الناحية العلمية أو الاجتماعية ـ وكأن أي حل اجتماعي سواء لديه، وما دامت المسرحية محبوكة من الناحية الفنية..

لكل هذا أُلح على حافظ أن يعامل نفسه بحزم من ناحية القراءة. وإن نجاح مسرحيته، يجعلني أخاف عليه أكثر، فإن النجاح السريع ـ كما لا بد أن حافظ يعرف ـ سهل، ولكن الاحتفاظ به يحتاج إلى رسوخ الجبال. وهل يحتاج حافظ إلى أن أذكر له أسماء لمعت واختفت ولا أمل في لمعانها من جديد؟ بل وأسماء لا زالت لامعة، ولكن يا ليتها كانت صدئة، لأنها حينما ستصدأ ستعامل بقسوة لا مثيل لها، لمجرد أنها احتلت كرسي الشهرة مدة طويلة بدون مبرر. (ويوسف السباعي مثل رائع لهذا الصنف الأخير)..

ومشكلة حسين أعقد من مشكلة حافظ بكثير.. فمن السهل أن أقول لحافظ أن عليه أن يقرأ كثيرا، ولكن ليس من السهل أن أقول لحسين: اتصل بالناس.. والقول لحسين: اتصل بالناس، قد يكون بمثابة تعجيز له. أنا واثق أن حسين سيكتب في يوم من الأيام شيئا له قيمة كبيرة، بل إن الأجزاء الصغيرة التي كتبها هي أشياء لها قيمة رغم أنها لم تتم.

الذي يحتاجه حسين هو أن يشرع في الكتابة بحزم وأن يحاول إهمال القراءة قليلا. ويا حبذا لو استطاع أيضا أن يتخلص من احتقاره للناس الذي يمنعه من الاتصال بهم. فإذا استطاع ذلك ضمنت له أن يكون أديبا ممتازا، فإذا لم يستطع فإني أضمن أن يكون «كاتبا» ممتازا ولمدى طويل، وإن لم يصبح أديبا فهناك أنواع أخرى من الكتابة لا تحتاج إلى اتصال كبير بالناس. وكتاب حسين عن الأدب الروسي وأنا أعتبر أنه قد تم فعلا حتى لو كان حسين لم يضف إليه شيئا بعد سفري، مثال طيب جدا لما يمكن أن يضمن لحسين النجاح في الكتابة غير الأدبية (بالمعنى الضيق). والذي ضمن النجاح لوالدي لم يكن هو الأدب بل العلم، فلا شك أنه لولا فجر الإسلام وضحى الإسلام ما أصبح والدي مشهورا أو ناجحا، وفجر الإسلام ليس أدبا في الواقع.. وأنا أتسائل لماذا لا يكون كتاب حسين عن الأدب الروسي أو كتابا مماثلا سببا لشهرة ونجاح حسين!

شيء آخر أعتقد أنه ينقص حسين، ومن المهم أن يلتفت حافظ إليه أيضا، وهو ضرورة اتخاذ موقف اجتماعي.. إني أؤكد لحسين أن هذا الشرط قد بدأ يصبح ضروريا وسيصير أكثر ضرورية في المستقبل للحصول على أي نجاح جدير بالذكر.

وأؤكد لحافظ أنه لولا أن مسرحيته كان لها مضمون تقدمي ـ كما فهمت مما كتب لي عنها ـ لما قُبلت، ومن الجيد أن موضوع مسرحية حافظ الجديدة يدور أيضا حول مشكلة اجتماعية..

لقد كنت أريد التحدث عن أشياء أخرى كثيرة، منها مسرحية تشيكوف The Three Sisters التي مثلتها الفرقة السوفييتية هنا ولي تعليق عليها طويل، ولكن من المؤكد أن أي خطاب أطول من ذلك سيمنعني من المذاكرة الليلة نهائيا، لهذا وجب وضع حد له.

سلامي الكثير إلى والدتي وأتمنى أن تكون صحتها «بمب» وأرجو ألا تفكر هذه السنة في الذهاب إلى رأس البر وأن تقضوا جميعا وقتا سعيدا في اسكندرية. سلامي الكثير أيضا لأحمد وسأكتب له قريبا جدا وإلى حمادة ومنى وأنا مقصر في الكتابة لهما أيضا.

جلال

* * *

لندن في ٢٠/٦/١٩٥٨

عزيزي حسين

وصلني خطابك. وأنا أعتقد أن مشكلتك التي دارت حولها خطاباتنا الأخيرة وإن كانت أساسية، فإنه لا يمكن أن يستمر شعورك بها طويلا، فلا تلبث أنت ـ كما لا يلبث حافظ ـ أن تعود إلى طريقة حياتك العادية؟ وكل ما لي من تعليق على خطابك الأخير أني أتمنى لو كان لي نفس شعورك هذا بأن عليك القيام بعمل غير عادي وكفاحك المستمر من أجل القيام به في يوم ما. إن عزلتك هذه قد حرمتك إلى حد ما من معرفة الناس على حقيقتهم (وأنا أذكر أنك كنت أحيانا تكلم من تكون معهم عن أشياء أحس أنه من غير المعقول أو المجدي أن يحاول الواحد منا الكلام معهم عنها). ومع هذا فإن هذه العزلة نفسها مع القراءة، أكسبتك روحا شبيهة بروح الأطفال، أتمنى أن تكون فيَّ. (وهنا أذكر أيضا طريقة تجوالك في المحلات في يوم سفري ببورسعيد، حيث كانت تستهويك بعض أشياء وتبدي إعجابك بها كالأطفال، بينما كنا نحن نفكر ـ في نضوج تام وياللأسف ـ في مدى اعتدال السعر)..

لفت نظري إلى هذه الحقيقة الأخيرة، وهي تمتعك بروح كروح الأطفال كتاب أعطته لي جون اسمه through Literature to Life.. فأحد فصوله وهو معنون

Literature & Children يتكلم فيه المؤلف(26) عن أن من مهام الأدب أن يعيد إلينا هذا الشعور الجميل الذي يوجد عادة مع الطفل ونفقده كلما تقدمنا في السن، وهو الشعور «بالفرح» بكل شيء جديد. الطفل يفرح من مجرد رؤيته كرتين إحداهما حمراء والأخرى صفراء.. مجرد مقارنة اللونين تثير فرحه.. مجرد مرور الجارة لابسة قبعة.. مجرد مرور طائرة...إلخ. بينما نحن قد تحولت قلوبنا إلى صخور.. لا شيء ـ وياللأسف ـ يثير الآن دهشتنا..

إن هذا الكتاب أقنعني بضرورة الأدب وبفائدة الفن عموما.. بعد أن كان قد بدأ يعتريني الشك.. والأمر كما تعرف ليس لازما لكي يصبح الواحد منا أديبا.. وإنما لكي يستطيع أن يتمتع بحياته..

في السينما شاهدت بعض التحف.. شاهدت أولا فيلما عن حياة تشيكوف وقصة من قصصه The Marriage، وقصة جوركي Childhood. والفيلمان روسيان ورائعان. ومن المدهش جدا مقارنة هذين الفيلمين ـ اللذان أُنتجا منذ أكثر من ١٥ سنة ـ بالأفلام السوفييتية الحديثة، والذي لاحظناه من تمثيل أقرب إلى الخطابة في أفلامهم الحديثة لا تجده في هذين الفيلمين القديمين. إن كل شخصية مثلت في The Marriage لا تقل براعة عن تشارلي شابلن. كذلك شاهدت جريتا جاربو في Camille، ومن المدهش أيضا الواقعية التي تبدو في تمثيلها. وشاهدت ـ وهذا مسك الختام ـ Giulietta Masina في فيلم من إخراج صديقك فلّيني اسمه Cabiria أرجو أن يأتي عندكم قريبا وأن تراه لتشاركني إعجابي به.

ولكن يبدو أنه ليس هذا مسك الختام. فقد شاهدت أيضا فيلما إيطاليا آخر The White Nights لدستويفسكي وفيلم بولندي عن المقاومة البولندية للألمان اسمه Kanal والاثنان ممتازان.

في المسرح شاهدت The Three Sisters مثلتها أحسن فرقة تمثيلية روسية وهي الفرقة التي ما زالت عضوة بها زوجة تشيكوف، ولكنها لم تأت إلى لندن لتقدمها في العمر ولكنها أرسلت إلينا تحياتها. مثلت الرواية بالروسية، وقد قرأتها قبل ذهابي. ومع تقديري لكون الرواية تمثل بلغة لا أفهمها، فإني وجدت من الصعب تفضيل الفرقة الروسية على الفرقة الانجليزية التي شاهدتها تمثل نفس الرواية منذ ثماني سنوات. بل إني أتجرأ وأقول إني لاحظت بعض لمحات من الطريقة الخطابية التي لاحظتها في الأفلام السوفييتية الحديثة.

كذلك شاهدت The Twelfth Night لشكسبير وقد قرأتها قبل ذهابي أيضا. وقد هزني جمال بعض مقطوعاتها وأطمع أن أستطيع في المستقبل تقديره بشكل

أكبر وقد حجزت في رحلة ستقام في الشهر القادم إلى ستراتفورد حيث أرى رواية أخرى له.

وشاهدت أيضا فيفيان لي وكلير بلوم في رواية جديدة اسمها Dual of Angels، والرواية لا عمق فيها. وفيفيان لي تذكرني بيوسف وهبي من حيث ثقتها المطلقة بنفسها وسيطرتها سيطرة تامة على من حولها واستئثارها بانتباه الجمهور وشعورها دون بقية من يمثل معها بحرية تجعلها تتصرف في الدور كما تشاء.

كذلك اكتشفت كنزا بجوار بيتي في Finchley Road. فعلى بُعْد خمس دقائق تقع The Central Library التي أستطيع أن أستعير منها لمدة أسبوع أي عدد من الأسطوانات! وقد اشتريت كتابا يعرِّفني بأحسن المقطوعات الموسيقية وبدأت فعلا في الاستعارة، استعرت أولا: St Matthew’s Passion لـ«باخ» وهي جميلة جدا ومن أطول المقطوعات الموسيقية إذ تقع في أربع أسطوانات long playing ومنها سَرَق عبد الوهاب جزءا كبيرا من مقطوعة «إليها».. وهذا الأسبوع استعرت En Saga لسيبيليوس، وهي عندك، وسيمفونيته الأولى وهي تقل كثيرا عن مستوى سيمفونيته الثانية.

أما قراءتي في غير الاقتصاد ـ فهي ضعيفة جدا، والواقع أن تتبع ما يكتب عن أحداث العالم في الجارديان والإيكونوميست يتطلب وحده مجهودا كبيرا. ومن ناحية أخرى فإني أتقدم في الاقتصاد تقدما سريعا لم يكن من الممكن إطلاقا تحقيقه في مصر في أضعاف المدة.

المانشستر جارديان لا تخلو يوما واحدا من التعليق على حوادث لبنان(27)، وأنا أحمد لها تحذيرها انجلترا وأمريكا من محاولة التدخل وهي تعاود تذكيرهما بمأساة السويس وتربأ بهما من أن يكونا من ضعف الذاكرة بهذا الحد! على أن الخبر الذي قفز إلى المقدمة في اليومين الأخيرين هو خبر إعدام «إمري ناجي» في المجر(28). وقد صدرت الجارديان أمس محتوية على أربع مقالات عن الحادث. والواقع أن اكتشاف الحقيقة من أقوال الجانبين أمر في غاية الصعوبة. هل إمري ناجي خائن استعماري كما تقول روسيا أم شيوعي قومي على مذهب تيتو كما تقول الجارديان؟ وهل من الصواب أن نتمسك بما يتمسك به البعض من «أن هذا كله دعاية أمريكية؟» أوليس هذا جوابا سهلا على كل ما يثار ضد روسيا؟ إن الحكم الصحيح صعب، وسهولة الحكم وسرعته قد تكون في ذاتها دليلا على الخطأ.. إن من السهل التمسك بمذهب معين وسد الأذن ضد أقوال الآخرين، ولكن من الصعب جدا الاستماع المحايد إلى أقوال الطرفين والحكم في النهاية حكما نزيها.. إني من الناحية الأخرى

أكره بشدة محاولة اتخاذ الموقف الوسط الذي يدين الجانبين المتناقضين، ولكني أيضا أشعر بسخافة التحمس الذي لا يردعه رادع إلا التنازل الصريح من المتحمِّس له.. المشكلة على العموم عويصة، وإدراك صعوبتها في حد ذاته خطوة!

إني في انتظار خطابك وأتمنى لك أحسن التمنيات.

جلال

* * *

لندن في ٢٥/٦/٥٨

عزيزيَّ حافظ وحسين

بعد خروجي أمس من المسرح شعرت بأن من واجبي أن أكتب لكم بشيء من التفصيل عن المسرحية. فالمسرحية غريبة وتثير الانتباه كما أنها توحي بأن وراءها أكثر بكثير مما يبدو منها في الظاهر. والنقاد يعطون لها اهتماما أكبر من غيرها، وفي الاستراحة تباع كتب للمؤلف. ثم إن كلام حسين عن «بريخت» لا زال يرن في أذني، وربما ظهر أن «أيونسكو» لا يقل أهمية عنه.. واهتمام حافظ بالمسرح لا يحتاج إلى بيان، فإذا لم أكلمه عن أيونسكو، فمتى سأكتب كلاما مفيدا عن المسرح؟

المسرحية من فصل واحد واسمها «الكراسي» The Chairs، والمؤلف أيونسكو، وهو روماني المولد ولكنه عاش معظم عمره في فرنسا ويكتب بالفرنسية.

وأشخاص المسرحية اثنان، ومع التجاوز يمكن إضافة ثالث إليهما، والتجاوز ضروري لأن هذا الثالث لا يظهر إلا لمدة ثلاث دقائق في آخر الرواية ولم يتكلم كلمة واحدة، كما سيجيء..

والشخصان: رجل وزوجته، عجوزان في التسعين من عمرهما.. والمسرح جوُّه كئيب للغاية، الضوء ضعيف والجدران سوداء ولا أثاث بالمرة إلا كرسيين قديمين يجلس عليهما الرجل وزوجته.. ويبدآن الكلام.. فتطلب الزوجة منه أن يحكي لها حكاية مرت به في شبابه، وينبهها إلى أنه قد حكاها لها مئات المرات من قبل وأنها تحفظها عن ظهر قلب، ولكنها تطلب منه مع ذلك أن يستمر، فإذا نسي منها أجزاء كمَّلت له أو صححت أخطاءه.. ويدق الجرس ويخرج

الزوجان لاستقبال القادم.. ثم يعودان ومعهما الضيف.. ولكن الواقع أنه لا ضيف هنالك. فالمتفرجون لا يرون أحدا غير الزوجين، ولكن الزوجين يكلمان شخصا ثالثا المفروض أنه جاء لزيارتهما وأنه أمامنا على خشبة المسرح. ويحضران له كرسيا ثالثا ويستمران في محادثته والترحيب به. وبعد برهة يدق الجرس من جديد ويأتي ضيف جديد ويحضران له كرسيا جديدا.. ثم ضابط وزوجته.. ويزداد عدد الكراسي ويستمر الزوجان في محادثة الجميع ونحن لا نرى غيرهما..

على اليمين الزوج يحدث «زوجة الضابط»، وإلى اليسار الزوجة العجوز تحدث الضابط.. الزوج يقول أنه كان لنا ابن ولكنه هجرنا، والزوجة تقول للضابط أنه لم يكن لنا أبناء قط.. ويستمر التناقض في حديثيهما بعض الوقت.. ثم يخف حماس كل منهما في الحديث إلى ضيفه وإذا بهما يجيب أحدهما على كلام الآخر.. وينتهي كل منهما بأن يقول: Well.. ويسود السكون المسرح..

ثم يقف الزوج فجأة ويعلن لزوجته أنه آن أن يعدا المكان للاحتفال.. ويدق الجرس ويتهافت الحاضرون المدعوُّون.. وكلهم وهميون، ويتسابق الزوجان في إحضار الكراسي واستقبال الضيوف بحرارة ويرشدانهم إلى أماكنهم ويشيع الزوجان حركة «مخيفة» في المسرح بدخولهما وخروجهما وإحضار الكراسي وترتيبها في صفوف، وتعلو موسيقى تصويرية كئيبة ومخيفة وتزداد سرعة الحركة حتى تفتح الأبواب وتغلق من تلقاء نفسها ولا يقوم الزوجان إلا بمجرد تحريك أيديهما من الباب إلى الأرض دلالة على إحضار الكراسي.. ثم تهدأ الموسيقى والحركة بالتدريج ويسود السكون من جديد..

ثم تتذكر الزوجة فجأة وتقوم بتوزيع بروجرام وهمي على الحاضرين.. ثم يعلن الزوج فجأة أن الامبراطور نفسه قد شرف الحفلة وينحني الزوجان للامبراطور الوهمي ويرشدانه إلى مكانه ثم يعلن الزوج أن الخطيب «The orator» سيصل حالا ليشرح للجميع رسالة العجوز في الحياة، (his message) وأنه ـ أي العجوز ـ سينسحب هو وزوجته حيث يموتان معا.. ويظهر الشخص الثالث: الخطيب في وسط المسرح وسط هالة خيالية من الضوء ويختفي الزوجان.. ويستعد الجميع للاستماع لما سيقوله الخطيب عن رسالة العجوز إلى العالم، وينشر الخطيب ورقة طويلة ويفتح فمه ليقرأ.. فإذا به يحرك شفتيه دون أن يخرج منهما صوت.. وهكذا تنقضي برهة.. ثم يتفوه بعد ذلك بصوت شبيه بصوت الأخرس الذي يحاول الكلام، ولكن لا كلمة واحدة يمكن تمييزها.. ويسدل الستار..

لقد جاء في البروجرام أن لكل منا أن يستخرج من الرواية المعنى الذي يشاء، وأن الرواية تحاول أن تجعل المتفرج يحس بفراغ الحقيقة وحقيقة الخيال.

«The emptiness of reality and the reality of fantasy»

وأعتقد أن من الممكن فهم الكراسي على أنها تمثل جميع الناس الذين نقابلهم في حياتنا بل وحياتنا كلها: ناس وأشياء وحوادث وعواطف. وأننا طوال عمرنا نحاول أن نبث في هذه الأشياء معنى وأن نجعل لحياتنا هدفا.. والحقيقة أن حياتنا لا معنى لها ولا هدف.. ويعبر عن ذلك الخطيب الذي ـ حينما أراد الكلام عن الرسالة ـ حرك شفتيه أولا بلا صوت ثم تكلم كالأخرس..

وتقول الأوبزرفر أن أيونسكو يريد أن يقول أن تعبير الناس عن عواطفهم وأفكارهم بواسطة «الكلمات» عبث لا طائل ورائه، فالكلمات وسيلة فاشلة لاتصال الناس بعضهم ببعض.. وأن ذلك بدا في عجز كل من الزوجين العجوزين عن أن يعبر عن نفسه سواء لكي يفهمه الآخر أو لكي يفهمه العالم، كما اتضح من طريقة كلام الخطيب..

على كل حال أرجو أن يكون لهذا الذي كتبته بعض الفائدة على الأقل في لفت نظركم إلى أيونسكو إن لم تكونوا قد تعرفتم إليه بعد، خاصة وأنه قد كتب عنه أنه لم يثر كاتب مسرحي منذ الحرب من الجدل مقدار ما أثاره أيونسكو، باستثناء «Beckett» الفرنسي أيضا.

جلال

* * *

القاهرة في ٢ يوليو ١٩٥٨

عزيزي جلال

هذا الوغد، يوجين يونسكو (كما أفضل أن أسميه)، ما كان ينبغي أن يخدع شخصا ذكيا مثلك لم يفقد إحساسه الخلقي بعد، ولم يصب ذوقه الفني ما أصاب الناس في عهدنا هذا من انحراف. لقد كنت أتوقع، عندما تبينت من الفقرة الأولى من خطابك أنك في سبيل التحدث عنه، أن أسمعك تستسقط لعنات السماء على هذا الرجل وعلى عقلية المجتمع الذي سمح لمثل أدبه أن يظهر وينتشر (وهو ما حدث لي عقب مشاهدتي لثلاث من مسرحياته في لندن(29)). فإذا بي أجدك... ماذا! تقارنه ببريخت!!

بعض الحياء!

أود أولا، وقبل الحديث عن أدب هذا الرجل وأمثاله (صامويل بيكيت(30) ، جان كوكتو، جيمس جويس، فرانز كافكا...إلخ) أن أنبهك، خاصة وأنك في لندن معرض لمصادفة أشكال جديدة في الفن كانت غريبة عنك، إلى الضرورة القصوى التي تقضي علينا جميعا أن نكوِّن لنا أساسا نحكم بهديه على ما نطلع عليه من فنون، حتى تكون لنا القدرة على لفظ الزائف منها دون أن نسمح لها بأن تشوِّه عقليتنا، وتؤثر مستقبلا في قدرتنا على الحكم الصائب. فإن أنت سلمت معي أن مهمة الفنون إن هي إلا توجيه حياتنا الروحية، وجب اعتقادك بضرورة اتخاذ موقف واعٍ إزاء ما قد يعرقل من هذا التوجيه. وحذار من التأثر بآراء النقاد في هذا الصددً، أو إتاحة الفرصة لهم لكي يكيفوا لك حكمك. فالحكم على الفن مسألة ضمير، ضمير كل شخص على حدة، وليس في قدرة ناقد مهما كان، متى رأيت أن عملا فنيا معينا يعرقل حياتي أنا الروحية، أن يثبت لي العكس. وغالبا ما تكون هذه الحياة الروحية لدى النقاد من الموت بحيث تجدهم قد فقدوا حاسة التمييز بين الخبيث والطيب في الفن، إن لم يكونوا قد اتخذوا بالفعل موقفا عدائيا من الفن الطيب، الذي يظهر مدى قبح أرواحهم وعدم أخلاقية حياتهم. وكينيث تاينان (في الأوبزرفر) مثل حي لهذا الصنف من النقاد.

اسأل نفسك عقب خروجك من المسرح مباشرة عما إذا كنت قد أصبحت، بفضل مشاهدتك التمثيلية، إنسانا أفضل؛ عما إذا كان عزمك قد ازداد على أن تؤسس علاقات مع الناس على أسس أكثر إنسانية مما كنت تفعل في الماضي؛ عما إذا كنت قد أصبحت أكثر «نبلا» و«طيبة». فإن كان جوابك بالإيجاب فإن العمل الذي شاهدته عمل فني من الدرجة الأولى. ولا حاجة بك إلى تقصِّي مدى تمتع المسرحية بالحبكة والصنعة والبناء.

ثم طبق ذلك على يونسكو. قطعا لم تخرج منه «أكثر نبلا وطيبة»، قطعا لم تنظر إلى العاملة في البار الذي دخلته بعد المسرح لتناول كأس من البيرة نظرة أكثر عطفا وإنسانية. العكس تماما هو الصحيح. هو أنك أصبحت أكثر احتقارا للناس واستخفافا بهم وبأمانيهم وبما يكدحون من أجله، وأكثر انفصالا من الوجهة العقلية ـ عن مظاهر الحياة حولك. تشيكوف أيضا باستطاعته أن يوضح لك أن الكلمات وسيلة فاشلة لا تصل الناس بعضهم ببعض؛ باستطاعته أن يبين لك مدى قبح بعض مظاهر الحياة حولنا. غير أن أدب تشيكوف يحمل في طياته الحل؛ الهداية؛ وسيلة مواجهة القبح؛ وأدبه لا يمكن اعتباره بأي حال من الأحوال أدبا متشائما حتى وإن كان كئيبا. أما بخصوص يونسكو فخبرني بالله، أي إنسانية تجدها في إبرازه أن حياتنا لا معنى لها ولا هدف؟ المهم في

الفن هو ما يريدنا الفن أن نتخذه من موقف إزاء ما بسطه. فما هو التصرف الذي يريدنا يونسكو أن نتبناه إزاء حقيقة أن الحياة خالية من القيمة؟ أن نلقي بأنفسنا من فوق جسر واترلو؟ أن ندمن الخمر؟ أن نستقيل من أعمالنا؟؟ إنه يجعل الخطيب «الذي أراد الكلام عن الرسالة» يحرك شفتيه أولا بلا صوت ثم يصدر أصواتا كأصوات الأخرس، إشارة منه إلى عجز الناس عن التعبير عن أنفسهم لكي يفهمهم الآخرون. حسنا. ماذا يريدنا أن نصنع إزاء هذا؟ أن نسكت؟ أن نمتنع عن الكلام لأن الناس لا يفهمون كلامنا الفهم الصحيح؟ ألا ترى معي أنه كان الأجدر به هو، بيونسكو نفسه، أن يسكت؟

في مسرحية «الدرس» التي تضمنها البرنامج الذي شاهدته، ماذا يريد أن يقول لنا؟ إن مجرد إغفالك ـ عن عمد ـ لذكر هذه المسرحية أثناء حديثك عن مسرح يونسكو لدليل كاف بالنسبة لي على أن حكمك عليه إن هو إلا حكم عقلي نتج عن انبهارك بالجديد المستحدث في هذا المسرح. يريد أن يخيفنا لمجرد الإخافة أم أن يضحكنا لأن الدق الذي سمعناه في بدء الرواية ولم ندر كنهه، كان سببه نفس السبب في الدق الذي سمعناه في النهاية وهو إعداد تابوت لضحية جديدة؟ ذكاء من المؤلف؟ أم إنسانية؟ أم ماذا؟

هذا الاتجاه في الفن، صدقني، ليس له إلا علة واحدة ومصدر واحد؛ وهو أن الفن في المجتمع الذي يتحرك فيه أمثال هؤلاء الفنانين المنحلين لا ينظر إليه باعتباره أداة جدية لتكييف أرواح الجماهير التكييف الصحيح، وإنما باعتباره وسيلة للمتعة والتسلية وتخدير الفكر. وإذ تبلى صنوف التسلية بالتكرار، فإن هذا الصنف من الفنانين يرون مهمتهم في ابتداع أنواع متجددة من التسلية لمجرد إمتاع الطبقة المسماة بالمثقفة، والحيلولة دون سأمها. تماما كما في لعب الورق؛ كلما سأم المجتمعون لعبة تحولوا إلى غيرها، من البوكر إلى البريدج، من البريدج إلى لعبة ثالثة. الورق ثابت واللعبة متغيرة. وإذ إن أمثال يونسكو ليس لديهم في الحقيقة شيء جديد يريدون قوله فإن عنايتهم تنصب على تغيير الشكل لا الإتيان بالجديد في الموضوع. وهل أنا في حاجة إلى إثبات أن السيريالزم في الرسم ليس إلا مظهرا لهذه الحقيقة، وهي السعي الدائب لتسلية الطبقة «المثقفة» ومنع سأمها من شكل معين لعدم تجاوبها عادة مع المضمون؟ لقد كان الفنانون القدامى إذا أرادوا أن يقولوا شيئا قالوه؛ لا يفتحون فمهم إلا إن كانوا يريدون أن يقولوا شيئا، فإن فتحوا فمهم قالوا هذا الشيء لأنهم ما فتحوا فمهم إلا ليقولوا هذا الشيء. أمر بديهي؟ حسنا إنه ليس بديهيا بالنسبة لصديقك يونسكو، الذي ليس لديه شيء يقوله ومع ذلك فهو يفتح فمه موهما إيانا بأن لديه شيئا يريد قوله، تاركا إيانا نعصر عقولنا كي نفهم ما هو هذا الشيء، فرحين بأنفسنا إن توهمنا أننا وجدناه. والنتيجة؟ كيف يمكن أن تكون هناك نتيجة سوى صدور أصوات كأصوات الخرس؟

مرة أخرى أقولها لك: بعض الحياء.

حسين

* * *

لندن ٤/٧/١٩٥٨

والدتي العزيزة

وصلني خطابك الآن. وقد فرحت به كثيرا، فمنذ ثلاثة أسابيع لم يصلني خطاب واحد من مصر، وأنا في صباح كل يوم، أول شيء أعمله هو أن أدخل المطبخ وأنظر دون أن تكون عيناي قد فتَّحت تماما إلى صينيتي التي يضع عليها «مستر سويفت» الخطابات التي تأتي لي. وطوال الأسابيع الثلاثة الماضية كانت هذه النظرة ترتد خائبة مرتين في اليوم، مرة في الصباح ومرة عند عودتي من المدرسة..

سرني من خطابك أيضا أن خطك كويس، وأنا أعرف صحتك كويِّسة والَّا لأ من خطك..

منذ مجيئي إلى انجلترا لم أمرض والحمد لله، ومع هذا فقد طرأت عليَّ مرتين أعراض المرض، ولكن الواحد منا هنا لا يسمح لنفسه بالمرض، ولذلك تجدين أنه يفزُّ غصبا عنه وبهذا تزول عنه الأعراض بالتدريج.. فالواقع أن شعور الواحد في مصر بأنه لو رقد سيكون هناك من يسأل عنه يشجعه على المرض، أما هنا فالواحد عارف إن أحسن له يمشي كويِّس!

الجو هنا غريب، والواحد مش عارف هل الشتاء ببلاويه أحسن ولا الصيف.. فالجو الآن له ميزته من حيث أنه مش برد وبالتالي الواحد غير محتاج للانكماش والتقرب إلى المدفئة طوال الليل، ولكن الرطوبة الآن فظيعة بالنهار، والمطر مستمر، أكثر منه بكثير في الشتاء.. ولكن الليل هنا يذكِّر بليالي القاهرة الجميلة في الصيف، بل إن الهواء هنا يكون بالليل أكثر حركة وأقل حرارة، وبهذا تكون التمشية في الليل ممتعة..

إن المدرسة أصبحت لذيذة هي الأخرى منذ بدأت الإجازة الصيفية الطويلة منذ ثلاثة أيام، فقد أصبحت المكتبة هادئة جدا والطلبة قليلين، وحتى الأكل تحسَّن لأن الظاهر أنهم لما بيطبخوا لعدد كبير بيبقى الأكل لا طعم له، الآن بدأ يصبح له طعما.. ورغم أنه بقى لي في انجلترا خمسة أشهر فإن الأكل الإنجليزي لا

زال يعد بالنسبة لي شرًّا لا بد منه، والأكل الذي أتمتع به هو بعض الأكل الذي أصنعه لنفسي أو الذي أتناوله في مطاعم تركية أو إيطالية..

لماذا لم تذهبي مع حافظ إلى مرسى مطروح؟ يجب أن تصيِّفي شهرًا على الأقل، ولكن لا تذهبي إلى رأس البر ولا إلى أي مكان آخر وحدك.. أرجو أن تقضي مع حسين في مكان ما مدة إجازته.. وأعتقد أن مرسى مطروح مناسبة لك أكثر من الاسكندرية بكثير..

جلال

* * *

[لندن، يوليو ١٩٥٨]

عزيزي حسين

شكرا على خطابك وأرجو أن يكون قد وصلك خطاباي الآخران. طبعًا أنت قرأت مقالة أيونسكو في العدد الماضي من الـObserver لقد أعجبتني بشكل مدهش، وتمنيت لو أن كل المقالات تكون بهذا التركيز والعمق. إني الآن أكثر تقبلًا لفكرة ترك الحرية للأديب وأميل إلى الاعتقاد بأن أدباء «الفن الهادف» يسجنون أنفسهم في غرفة ضيقة في داخل قصر لا نهاية لحجراته.

رأيت فيلم La Strada مرة أخرى. وأعجبت به أكثر وأكثر. ويمكن أن يؤخذ هذا الفيلم مثالا على الفيلم الهادف الذي تضمن الهدف بشكل غير متكلف وغير متعمد.. وأنا مشترك في الـNational Film Theatre والـArts Theatre منذ شهور وقد رأيت أفلاما عظيمة في الأول. وسيعرض فيه ابتداء من سبتمبر أفلاما تتغير يوميا تمثل تطور الفيلم من سنة ١٩٣٣ حتى الآن.

لقد سافرت جون. ولقد أسفت وفرحت لسفرها في نفس الوقت، لكي أكون صريحًا.

أسفت لأنها كانت تخفف عني وحدتي بدرجة كبيرة، وقد كنت أراها مرة كل أسبوع، وكنت دائمًا أتمتع بصحبتها وقد رأيت معها تقريبًا كل الأفلام والروايات التي رأيتها حتى الآن.. كما ساهمت في تقدم لغتي الإنجليزية كثيرا.

ولكني من ناحية أخرى فرحت لسفرها، لسبب مادي تافه وسبب معنوي قوي. السبب المادي أن مقابلاتها كانت تكلفني الجلد والسقط، فمصاريف فُسَحِي

كانت مضاعفة، وأنا أحس الآن برخاء مادي كان سفرها سببه بدون شك!

ولكن تعال إلى السبب الآخر الأهم: إن وجودك بيننا كان «مزعجًا»! أنا طبعا لم أحبها وهي أيضا لم تحبني، ولكن كان من الطبيعي أن أحاول الظفر بتقديرها على الأقل.. ولكن شعوري بحبها لك وبأنها تقارن دائما بيننا كان يتلف محاولاتي إتلافا كبيرا ويقلق راحتي.. وكان استئثارها بجزء كبير من وقتي ونقودي يمنعني من بذل محاولات لمصادقة فتاة أخرى..

إنها الآن في أنقرة، وقد أضاف حبها لك إلى عمرها الكثير، وامتناعك عن الكتابة إليها كان يجرحها ولا يزال وإن كان قل عما كان.. وقد قالت لي قبيل سفرها إنها لن تكتب لك من أنقرة لأنه يبدو أنك لا تعبأ بوصول خطابات منها ما دمت لا تجيب.. ثم أرسلت لي خطابا من هناك قالت فيه أنها تريد أن تكتب لك ولكنها تخشى من ملاحظة السفارة لوصول خطاب من القاهرة يحمل طابع البريد المصري..

على كل حال، إن مضي الأيام على معرفتي بها كان يزيد اعتقادي بأنك لم تكن مخطئا في اختيارك لها رغم أني كنت في الأسابيع الأولى أجدها فتاة عادية وكنت أتسائل عن الميزة التي وجدتها فيها.. إنها ذكية وصريحة ولا تحاول اللف والدوران، كما أن تقديرها للثقافة حقيقي وغير متكلف، وهي حساسة إلى حد العصبية أحيانا، ولم تحاول قط أن تتملقني.. قد كانت في كثير من الأحيان، ولا تزال في الواقع، تثير في الشفقة من أجل إهمالك لها.. وهي تقول إنها واثقة من حبك لها، ولكني أشك في اعتقادها ذلك، كما أشك في هذه الحقيقة ذاتها.. وهي تعزي نفسها بأنك لست ممن يتزوجون، على الأقل الآن..

شكرا على إعطائك النقود لوالدة زكريا فإنه يهمني ألا تتأخر النقود عليها وأرجو أن تكرر العملية في أول أغسطس كما أرجو الإسراع بشراء التذاكر وإرسالها إذ أني لن أقوم بأي إجراء في السفر إلا بعد وصول التذاكر. وشكرا على احتفاظك بخطاباتي، فهذا يهمني أيضًا. وقد أعطتني جون كتبك وأنا مستعد لإرسال ما تطلبه منها.

ما أخبار سفرك؟ الآن أنا لا أريد سفرك لكي تبقى مع والدتي.

إن رؤيتي وقراءتي للـThree Sisters أثار إعجابي بتشيكوف وقد كتبت عنها بضعة صفحات بالانجليزية بعنوان: ?What is Tcheckov trying to say حينما طلبت مني المدرسة الإنجليزية أن أكتب عن أي موضوع أختاره. وكتبت فيها أن كتابة تشيكوف كالموسيقى، لأنها تثير من الشعور ما لم ينطق به المؤلف ولأن كل شخصية من شخصيات مسرحياته كالآلة الموسيقية التي لا شخصية

متميزة لها ولكنها تتعاون مع الكل لإعطاء الشعور النهائي، ولأنه يثير عواطف أكثر مما يثير من الأفكار. ثم كتبت الـTimes معلقة على مسرحياته بأن كتابة تشيكوف كالموسيقى!

كتب مدير الفرقة الروسية التي مثلت روايات تشيكوف هنا مقالا في الـObserver (كما كتب نفس الشيء في البرنامج) أنهم يفسرون تشيكوف الآن تفسيرا جديدا، وضرب المثل على ذلك بالحوار القصير الذي دار بين حبيب باشا والطبيب العجوز، والذي قال فيه الأول أنه يؤمن بالتطور وأن هذه النقائص كلها ستزول...! هل يصح أن نسلط الضوء على قطعة صغيرة عرضية كهذه ونهمل الغرض الأصلي الذي يرمي إليه تشيكوف لمجرد أن هذه القطعة الصغيرة فيها بعض الديالكتيك؟!

حتى خطاب بهذا الطول لا يعطيك فكرة صحيحة عن حياتي هنا، لأنه لا يحتوي أي شيء عن «الاقتصاد» رغم أنه يشغل معظم تفكيري، ولكني «أقتصد» في الكلام عنه لمجرد اعتقادي بأن الكلام فيه لن يثير الكثير من اهتمامك، هل يهمك مثلا أن تعرف إني انتهيت من دراسة The Theory of Price دراسة عميقة وتامة وإني مخصص هذا الشهر لدراسة The Theory of Distribution؟ أنه لا زال أمامي قبل الامتحان موضوعات أخرى هامة: Money and Banking وما يسمى بالـMacroeconomics وكتاب على الأقل في History of Economic Thought.

إني لا أكاد أقابل الأستاذ إطلاقا وبحلول الأجازة ثبت أني لن أقابله إلا في أكتوبر.

لا صديقة لي الآن، وجاري البحث والتحري.. لا أجد ما أقوله أكثر من ذلك فتقبل إذن أحسن تمنياتي.

جلال

* * *

لندن في ٢٣/٧/٥٨

عزيزي حسين

لم تصلني التذكرة بعد رغم أني كدت أنتهي من ترتيبات السفر على أساس أن يكون خلال الثلاثة أيام الأولى من أغسطس. إذا لم تكن قد أرسلتها فور وصول

هذا الخطاب إليك فقد يعني ذلك انهيار مشروع سفري إلى أوربا بأكمله. وأرجو أن ترسلها إلى عنواني الجديد.

أخبار العراق سببت لي وللمصريين هنا اضطرابا وقلقا كبيرا(31). فأنا أقرأ هذه الأيام جريدتين أو ثلاثة في الصباح، وطوال اليوم أشتري الملاحق المتتابعة من جرائد بعد الظهر التي تظهر طبعة جديدة منها كل ساعة تقريبا. كما أسمع جميع نشرات أخبار الـB.B.C ومعظم نشرات الأخبار المصرية أيضا. وليس من السهل الكلام كلاما هادئا عن هذه الحوادث فإن الفرح من ناحية والقلق من ناحية أخرى يغري بالحماس أكثر من التحليل. ومع هذا فأريد أن أعلق على بعض النقاط بشكل سريع حتى لا يعطل طول التعليق من إرسالك التذكرة إليَّ (ظهر فيما بعد أن التعليق طال رغما عني).

١- بدون أي مبالغة، إن ثورة العراق، هي إيذان بتحقيق بعث الأمة العربية. وأنا أعني من هذا الكلام مدلوله الواقعي ولا أستخدمه كإنشاء. فهذه الثورة تعني انهيار أكبر حصن للسياسة الغربية في البلاد العربية وأكبر سند للحكام الموالين للغرب داخل هذه البلاد، وهي تشجع بقية البلاد العربية الأخرى على الثورة بأسرع مما نتصور، كما أنها تقرِّب الوصول إلى حل في مسألة إسرائيل يكون في صالح العرب.

٢- إن الغرب بلا شك قد أصيب بذهول لا يمكن وصفه، وقد كان التدخل المسلح السريع متوقعا جدا. والتدخل الغربي لا يعني أنه حل موفق حتى لمصلحة الغرب نفسه ولكنهم تدخلوا لمجرد أنهم رأوا أن «التدخل لا يمكن أن يكون أسوأ من عدمه». وقد قال ماكميلان هذا بنصه في مجلس العموم. كما قال أيضا، وبحق، أن قرار التدخل كان أصعب قرار اتخذه في حياته السياسية. فالغرب قد أحس فجأة بأن طوفان الحركة القومية المتحررة يحيط به من كل جانب، لا التدخل المسلح ينفع في صده، ولا السكوت عنه يهدئه.

لإدراك الصدمة العصبية العنيفة التي أصابت الغرب، قارن فقط بين سلوك الغرب إزاء الثورة المصرية ١٩٥٢ وسلوكه إزاء ثورة العراق بعد ست سنوات. كان الغرب ١٩٥٢ واثقا من نفسه ومن قدرته على الضغط على الشعب العربي فحاول أن يكسب ناصر إلى صفه. أما ١٩٥٨ فهو يتدخل تدخلا مسلحا في اليوم التالي مباشرة للثورة. حقا لقد تأخرت ثورة العراق قليلا، ولكن انظر السرعة التي تتصرف بها لتلائم نفسها مع مرور ست سنوات: إن قضاءها على الملكية تم في أول يوم، بينما تم ذلك في مصر بعد سبعة شهور من الثورة. والثورة العراقية تتبنى سياسة الحياد الإيجابي في اليوم الثاني للثورة، في حين تبنتها الثورة المصرية بعد ثلاث سنوات.

من السار جدا تتبع لهجة الصحافة الإنجليزية إزاء المشكلة في هذه الأيام. إنها لهجة الذلة والاعتراف بالخطأ بعد وقوع الفضيحة.

إن هذه الصحف تقول مثلا إن العرب يريدون التوحيد، ووحدتهم ستتم حتما في يوم ما شئنا أم أبينا، وأنهم اختاروا ناصر زعيما لهم ومن نحن حتى ننصب عليهم شخصا غيره؟ وكثير من الجرائد ينصح الغرب بالاعتراف بسيادة العرب والدخول معهم في اتفاقات على قدم المساواة لضمان الحصول على البترول ومحاولة مراضاتهم حتى لا يعتدوا على إسرائيل. إن شعور الغرب الآن هو بالضبط الشعور بالانفضاح التام الذي لم يعد يمكن ستره.

والموضوع يشبه إلى حد كبير حالة بعض الأولاد الذين توفي أبوهم وترك لهم ثروة كبيرة في يد وصي محتال. وظل الوصي يسرق أموالهم متعللا بقلة وعي الأولاد وصغر سنهم، مع أن الأولاد يكبر سنهم ووعيهم بالتدريج شاء هو أم أبى، ويفيق الوصي فجأة، كما أفاقت أمريكا وانجلترا على ثورة العراق، على ثورة الابن الأكبر ـ ويدرك فجأة الخطر الذي أصبح يهدده ليس فقط بضياع الثروة من يده ولكن أيضا بأن توقظ ثورة الابن الأكبر بقية الأولاد.

٣- إن «القومية العربية» أصبحت في نظر الصحافة الإنجليزية من البديهيات وأصبح الشك فيها يعتبر في نظرها جهلا يؤدي بصاحبه إلى الهاوية. فما بالك إذن بانتصار هذه الفكرة داخل البلاد العربية نفسها؟ إن استماعي لخطبة عبد الناصر أمس ملأني سرورا لأن القومية العربية قد غدا مفهومها واضحا جدا عنده.

٤- من المصائب التي لا شك يدركها الغرب أيضا الآن، أن معاداته لشخصية ناصر لم تعد ذات موضوع. فأنا أعتقد أن الغرب يفكر الآن (أو على الأقل سيفكر بعد أن يفيق من الأزمة) على النحو التالي: «افترض حتى أننا استطعنا القضاء على ناصر، كيف يمكن القضاء على «قاسم» وأمثاله. ومن منا كان يعرف قاسم من قبل. إذن فالقومية العربية أصبحت تحبل وتلد بسرعة «البق»»!

٥- تصور أن ثورة العراق أصبح الغرب إزاءها من الضعف بهذه الدرجة. تدخل مسلح هذا صحيح ولكنه موقوت جدا والجميع يعرف ذلك، وضعف دبلوماسي بالغ أيضا في دوائر هيئة الأمم. فماذا إذن عن أي إجراء داخلي آخر كالتأميم في أي بلد عربي حكومته شرعية؟ كيف يستطيع الغرب بعد ذلك أن يتنفس؟

٦- الأمر الهام أيضا والذي يجب توضيحه هو الخطأ العام المنتشر في جميع الجرائد الانجليزية المتحررة نسبيا: فبعد أن تعترف هذه الجرائد بوجود القومية

العربية وقوتها وحتمية توحيد البلاد العربية وخطأ سياسة الغرب، توجه النصح إلى الغرب بأن يعدل سياسته على أساس إقامة صداقة مع البلاد العربية، بدعوى أن كلا من العرب والغرب على السواء لهم مصالح مشتركة في هذه الصداقة، فالغرب يريد البترول والعرب يريدون تصريف البترول، والغرب يريد استقرار السلام في هذه المنطقة والعرب أيضا يريدون السلام في المنطقة. هذا المنطق تلحظه في The Observer وNew Statesman وThe Economist وThe M. Guardian. والخطأ وتجاهل الحقيقة في هذا الكلام واضحان. فالغرب لا يريد شراء البترول وإنما «سرقة البترول»، والسلام الذي يريده الغرب هو السلام المبني على حكومات يرأسها أمثال نوري السعيد أو كميل شمعون، بينما السلام الذي نريده نحن هو من نوع مختلف تماما، بل إننا نفضل الحرب على ذلك النوع من السلام الذي يريدونه. وعلى هذا فمن الواجب إظهار التناقض بين مصلحة الغرب ومصلحتنا لا تجاهله وتغطيته.

٧- لكل هذا لا أعتقد أن من الممكن في السنوات القادمة أن تتحسن علاقة الغرب بالعرب بل على العكس أعتقد أن المشاحنات والاحتكاكات ستستمر بشكل قد يزداد حدة. وإذا كان قد مضى بين الاعتداء الثلاثي على مصر والاعتداء الثنائي على لبنان والأردن عامان، فإني أميل إلى الاعتقاد بأن المدة التي تفصلنا عن الاعتداء القادم ستكون أقصر بكثير. وبناء على هذا فإني أميل إلى الاعتقاد أيضا أن الحالة الدولية ستزداد سوءا في العام القادم أو العامين القادمين، حيث أن الكتلة الشرقية ستظل على موقف التأييد لنا، بل وسيزداد التأييد قوة كلما كانت المعركة أعنف، وأنا أرجح ازدياد عنف المعارك القادمة واتساع نطاقها.

لكل هذا تبدو خطورة النتائج المترتبة على ثورة العراق.

أرجو أن تكتب لي سريعا وأن تجعل والدتي تكتب لي سريعا وأن تجعل والدتي تكتب لي معك فالدور عليها في الرد.

جلال

لا مجال الآن لمناقشة «أيونسكو» في مثل هذه الظروف السياسية، وإن كنت أكتفي بالاحتجاج على بعض العبارات الواردة في خطابك وأنت ولا شك تعرفها، ولا تظن أني سأتخذ من هذه العبارات موقف «اللامبالاة» أو سأقف «متفرجا»!

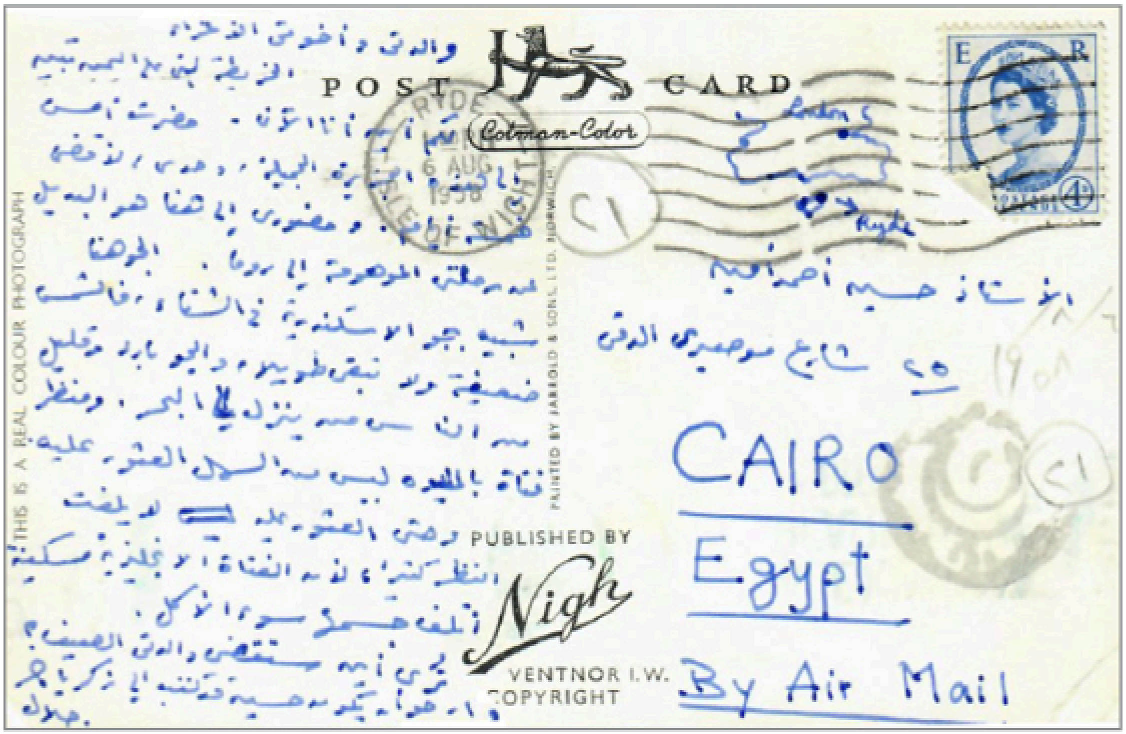

كارت جلال أمين من جزيرة «رايد» بتاريخ ٦ أغسطس ١٩٥٨

٦/٨/١٩٥٨ [Ryde]

والدتي وإخوتي الأعزاء

الخريطة التي على اليمين تبين لكم أين أنا الآن. حضرت أمس إلى هذه الجزيرة الجميلة، وحدي، لأقضي خمسة أيام. وحضوري إلى هنا هو البديل عن رحلتي الموهومة إلى روما. الجو هنا شبيه بجو الاسكندرية في الشتاء، فالشمس ضعيفة ولا تبقى طويلا، والجو بارد وقليل من الناس من ينزل البحر. ومنظر فتاة بالمايوه ليس من السهل العثور عليه وحتى العثور عليه لا يلفت النظر كثيرا، لأن الفتاة الإنجليزية مسكينة أتلف جسمها سوء الأكل.

تُرى أين ستقضي والدتي الصيف؟ وأرجو أن يكون حسين قد كتب إلى زكريا.

جلال

* * *

Ryde في ٨ أغسطس ٥٨

والدتي وإخوتي الأعزاء

من Ryde إحدى بلاد Isle of Wight أكتب لكم. ولكن هذا لا يكفي لتحديد مكاني بالضبط فأنا أكتب من مكان منعزل جدا من هذه البلدة. جالس في مقهى صغير على البحر. إحدى واجهتي المقهى تطل على البحر والثانية تطل على حديقة لا آخر لها.

وهذا يجعلني أتساءل: أنظر أين أنا وأين أنتم؟ ما الذي جعلني أقطع كل هذه المسافات: أركب الباخرة ثم القطار إلى لندن، ثم القطار من لندن إلى Portsmouth ثم باخرة صغيرة إلى Isle of Wight، وحدي لكي أقبع في النهاية في هذا المقهى المنعزل، أكتب لكم خطابا..!

وأنا الواقع أبدأ الخطاب وفي نيتي أن أكتب لكم خطابا طويلا طويلا.. لأني أولا لدي كلاما كثيرا أقوله ولأني جئت إلى هذه الجزيرة عازما على عدم قراءة أي شيء يرهق المخ وبالتالي أمامي وقت طويل بلا عمل، ولأن هذا هو رابع يوم لم أكلم فيه أحدًا غير الكلام الضروري الموجه إلى صاحبة اللوكاندة أو إلى الجرسونة في المطعم وأخيرا لأني أعتقد أني في خطاباتي السابقة لم أعبر عن نفسي التعبير الكافي..

الجواب المباشر على تساؤلي: هو أني تركت مصر وقطعت كل هذه المسافات من أجل: العلم! وهي إجابة تثير الغرور أيضا! ولكن الإجابة الأصح هو أن الانكماش في بيت الأهل طول العمر وضع غير طبيعي وأن الواحد منا لا

يمكن أن يفهم نفسه ويفهم الدنيا ما لم يسافر مثل هذه السفرة البعيدة لمدة طويلة.. وأنا أميل فعلا إلى الاعتقاد بأنني بدأت أفهم نفسي أكثر وأفهم الدنيا أكثر، رغم صعوبة تحديد ما هذا الذي فهمته بالضبط..

أريد في هذا الخطاب أساسًا أن أكلمكم عن هذه الجزيرة.

لن يكفي بالطبع أن أقول أنها في غاية الجمال.. فهو قول مألوف لا يمكن أن يثير شعورا حقيقيا.. ولكني أقول: إذا لم تكن هذه هي الجنة فكيف تكون الجنة إذًا؟ أعتقد أن الله ـ إذا لم يكن قد انتهى من خلق الجنة بعد ـ لا بد أنه سيستعير من هذه الجزيرة بعض الأفكار. كل شيء يمكن تصور أنه يدخل السعادة في نفوس المصيفين فعلوه، كما أني حتى الآن لم أر مناظر طبيعية بمثل هذا الجمال.. إن لبنان بها بعض الشبه بهذه الجزيرة ولكن هنا أجمل بكثير..

والتصييف في انجلترا ـ كما بدا لي ـ غريب جدا إذا قورن بتصييفنا في مصر. إن الجو هنا على الشاطئ لا يختلف إطلاقا عن الجو في لندن، بل أحيانا يكون الجو في لندن أحسن منه هنا.. والمطر هنا كثير مما يجعل حمل الشمسية أثناء التمشية على البحر أمرا ضروريا، ويمنع الانجليز من متعتهم البسيطة: وهي الجلوس على كراسي البلاج لعدة ساعات على الرمل يقرأون الجرائد أو يكتبون خطابات.. ومن الطريف أيضا رؤية الانجليز في يوم مطِر ـ كاليوم ـ وقد استبدلوا بالجلوس على كراسي البلاج متعة أخرى: وهي مجرد أن تأتي العائلة في سيارتها وتركن السيارة على الكورنيش وتبقى العائلة في السيارة تتكلم أو تقرأ الجرائد!

إن اعتماد حياة الانجليز على الجو أمر جدير بالتأمل، إن كل يوم جديد يحمل بالنسبة لهم مفاجأة، وهم يستيقظون كل صباح على أمل: ترى كيف سيصبح الجو اليوم؟ وكأنهم في كل يوم كالطفل الصغير الذي ينتظر هدية تحت وسادته من «بابا نويل»، فإذا طلعت الشمس، شعروا وكأن الله أعطاهم هدية ولهذا لا يدخروا وسعا في الاستمتاع بالهدية قبل أن تضيع.. ومن المسلي أيضا رؤيتهم على البلاج وقد كشف كل رجل وكل امرأة عن أكبر جزء ممكن من جسمه لكي لا يُحرم من الشمس فإذا كان الرَّجل مرتديا بنطلونا شَمَّر بنطلونه حتى غدا كالبنطلون القصير(*)، وإذا كانت المرأة مرتدية فستانا رفعت فستانها عن أكبر جزء ممكن من ساقها لكي تعرضها للشمس. ولا أدري لماذا يشعرك هذا المنظر بأن مسألة «الفتنة» وعرض الأجسام غير موجود عندهم بالمرة.. إن البنت تلبس المايوه لأنها فعلا تريد التمتع بالجو والبحر، لهذا فإن سيقان المرأة الانجليزية سواء هنا على البحر، أو في لندن حينما تراها مثلا

عائدة من ملعب التنس، لا تثير شعورا جنسيا بالمرة تماما كسيقان راقصات الباليه.. (أترك لكم المقارنة بين هذا وبين فتيات مصر)..(32)

لهذا لا أجد أن كلام الانجليز المستمر عن الجو أمر مستهجن أو فيه حماقة، إني أتمنى لو وجد هذا التقلب في الجو عندنا في مصر، لأن من شأنه أن يجعلنا على اتصال دائم بالطبيعة، على توقع شيء جديد منها على الدوام. إن استقرار الجو عندنا يفقدنا حاسة التفكير في الطبيعة إطلاقا وهذا أمر سيئ وما أجمل أن يكتسب شعبنا حبا للشمس كالحب الذي يشعرون به هنا نحوها.

إن رؤيتي مناظر جميلة باستمرار طوال الثلاثة أيام الماضية جعلني أكتشف في نفسي حب المناظر الطبيعية، وإلا فما سر شعوري بالسرور طوال هذه الأيام رغم أني وحدي؟ وهذا الاكتشاف هو من فوائد التغرب والوحدة أيضا، فربما لو كان معي صديق أو صديقان، لألهاني الكلام والاستماع إلى كلام ـ أغلبه فارغ ـ عن السرور التام بهذه المناظر وعن اكتشاف درجة تمتعي الفعلية بها.

لا أخفي عليكم ـ وعلى حسين خاصة ـ أنني أحاول أن أكتب كلاما مستواه عالٍ نسبيا. والواقع أنني بدأت أعتقد أخيرا، أن مجرد اعتقادي أنني لست أديبا (وهذا مؤكد) لا يجب أن يمنعني من أن أكتب وأن أتكلم أيضا بقدر المستطاع كلاما عالي المستوى(**).(33)

لأن مسألة كون الشخص أديبا مسألة درجات وليس الأمر هو إما أن يكون الشخص أديبا مشهورا له كتب مطبوعة أو أن يكون شخصا عاديا على الإطلاق، وإنما المطلوب أن يكون بالشخص درجة معقولة ـ وأن تزداد بقدر المستطاع ـ من الإحساس بالجمال ومن التعبير أيضا عن هذا الإحساس..

وأعتقد أن المناظر الطبيعية الجميلة توسع الأفق شأنها شأن الكتب وشأن التعرف على أشخاص جدد، وربما كان السبب في ذلك أن رؤية المناظر الجميلة يثير في الشخص شعورا بالتساؤل عن مركزه من كل هذا الاتساع وكل هذا الكون. وأظن أن الشعور الذي تثيره المناظر الجميلة شبيه بالشعور الذي يثيره مثلا، السكون التام. بينما يفقد الإنسان نفسه في الضجة.

رغم كفري بعض الزمن بالأدب فإني أعتقد الآن أن العلم ما هو إلا وسيلة والأدب غاية.. إذا فهمنا الأدب بمعناه العام جدا. فالعلم يجعلنا ندرك الحقائق ويجعل حياتنا أكثر ترفا وراحة وأقل تعبا بينما الأدب وحده هو الذي يجعلنا نفهم الحياة ونتمتع بها التمتع الإيجابي. العلم يجعل بإمكاننا بناء مساكن على

الشاطئ وزراعة الزهور وحماية الأشجار إلى أن تموت ولكن ماذا كانت تصبح فائدة هذا كله إذا لم يكن بإمكاننا التمتع بالنظر إلى البحر والأزهار والأشجار؟

إن إعجابي بالإنجليز لا يمكنني وصفه. ولا أعتقد أن من المحتمل أن أصادف شعبًا أرقى منهم.

الأمر الذي يملأ النفس سرورا بهم هو أنهم في الواقع يشعرون نحو بعضهم البعض كأفراد من عائلة واحدة.. لا يمكنك عدم ملاحظة ذلك إذا رأيت ابتساماتهم لبعضهم البعض، تحملهم لأخطاء الآخرين، حبهم لأطفال الآخرين، ثقتهم المتناهية في الآخرين.. إن الأطفال هي وسيلة مضمونة لكي يتعرف الإنجليز بعضهم ببعض في أي مكان، وخاصة إذا كان الطفل رضيعا.. والكلاب أيضا. ثم انظر كيف يعامل رجال البوليس الناس وكيف يعاملهم الناس.. البوليس عندنا مهمته الأساسية هو إخافة الناس بلا شك.. هنا مهمته تخفيف متاعب الجمهور.. الأطفال هنا هم الملوك، ويليهم مباشرة في المرتبة الكلاب.

ركبت منذ يومين سيارة أتوبيس مع حوالي ثلاثين انجليزيا طافت بنا حول الجزيرة.. وكان معنا شخص يشرح لنا ما نراه في الطريق.. كان من الطريف مقارنة طريقة استماع الانجليز لكلامه بما كان يمكن أن يكون عليه الحال لو أن مصريين كانوا مكانهم.. منتهى الأدب، منتهى الاهتمام بما يقول، إذا قال التفتوا إلى اليمين لتروا الكنيسة الفلانية، التفتت الرؤوس كلها إلى اليمين وساد السكون، وإذا قال التفتوا إلى اليسار للتمتع بمنظر البحيرة من زاوية أجمل، تحركت الرؤوس كلها إلى اليسار وسمعت همهمات الموافقة: Oh, yes.... Lovely.. Yes.

أعتقد أن شعورهم هذا وكأنهم عائلة واحدة هو الذي يفسر حبهم لملكتهم.. إن الملكة فيما يبدو فتاة عادية ليست رائعة الجمال ولا ذكية بشكل غير عادي.. ولكن كل ما هنالك أنها على رأس العائلة..

إن في ذهني كثيرا من الحوادث الفردية التي تثبت إنسانيتهم ولكني لا أجد أني سأنتهي لو ذكرتها..

الأهم من ذلك أنه دارت بيني وبين صديق لي مصري يدرس الاقتصاد أيضا وأفكاره اشتراكية، مناقشة طويلة حول الإنجليز، وحينما تكلمت عن إنسانيتهم عارضني وأثار الحجة المألوفة: إنسانية إيه وهمَّ كانوا عمَّالين يقتلوا فينا في بورسعيد؟

وهي حجة وجيهة وتثير على الفور التساؤل عن كيفية التوفيق بين إنسانية لا شك فيها تبدو في الأشخاص الإنجليز العاديين، وبين وقوف جيوشهم، بأوامر حكوماتهم بالطبع، هذه المواقف غير الإنسانية بالمرة.. ليس من الصعب الفصل بين الحكومات والشعب. الأمر يشبه في نظري وضع طفل ربِّي أحسن تربية وفي أرقى المدارس وتمتع بكل المتع من مالٍ حرام كسبه أبوه..

إن الإنجليزي العادي فيه كل مزايا ابن الذوات، وفي ذهني صورة صديقي نبيل العربي، الإنسانية والذوق والرقة وعذوبة الشخصية وتقدير الجمال وحب الأطفال والحيوانات، والذكاء واللباقة والصبر والتسامح....إلخ.

ومع كل هذه المزايا فإن الوعي السياسي معدوم في الشعب الإنجليزي، تماما كما هو الحال مع معظم أبناء الذوات. في الوقت الذي يربتون على ظهر الكلب في عطف زائد لا يعرفون ما يفعله الجيش الإنجليزي في بورسعيد أو كينيا أو الأردن ولا يتتبعونه..

إني أتمنى من كل قلبي أن تصبح أخلاق الشعب عندنا هي أخلاق ابن الذوات، وأنا واثق أنه حينما يتحقق ذلك لن يكون الوعي السياسي ضرورة، ومع هذا فإن تحقق هذه الأخلاق لنا سيكون بالضرورة مصاحبا لنضج الوعي السياسي بعكس الحال مع الانجليز، وذلك بالنظر إلى اختلاف ظروف ثورتنا عن ظروفهم.

ما زال لدي كلام كثير أؤجله لخطاب آخر.

جلال

أرسلت لوالدتي هدية ستصلها بعد حوالي أسبوعين أو ثلاثة ولكنها ليست فخمة بالنظر إلى قلة ما معي من نقود، وهي عبارة عن «هديتين»، وأرجو أن يكون المقاس الذي أحضرته مناسبا وإلا فإني أعرف لمن ستؤول إحدى الهديتين.

* * *

[لندن] ١١/٨/١٩٥٨

والدتي وإخوتي الأعزاء

أرجو ألا يكون «اقتضاب» خطاب حسين الأخير لي دليلا على أن خطابي الذي تكلمت فيه عن زكريا وعن رحلة أوربا قد أغضبكم بدوركم. والمسألة أن زكريا قال لي في خطابه أنه تسلم خطابًا من محمد حافظ يقول له فيه ألا يرسل لي نقودًا «بناء على رغبة إخوتك» وأبدى أسفه لأنه لا يعرف كيف يوفق بين طلبي وبين الخطاب الذي تسلمه من محمد حافظ..

وعلى كل حال أرجو أن يكون حسين قد أرسل خطابا إلى زكريا كما أرجو أن يرسل لي زكريا نقودًا بسرعة، وهذا هو آخر شهر سأطلب فيه نقودًا من زكريا إذ ستستقيم أحوالي المالية بعد ذلك.

أخبرني أمين أن والدتي في حاجة إلى دواء أعطاني اسمه وأنه غير موجود في مصر. أرجو أن يكون هذا الدواء مجرد دواء عادي قديم وألا تكون والدتي قد احتاجت إليه بناء على استشارة الطبيب مرة أخرى. وسيصل الدواء إليكم قريبا جدا فقد تأكدت من وجوده هنا. كما أرجو إذا كان أحد منكم يريد شيئا من هنا أن يخبرني.. كتاب أو غيره، لأن صديقا لي سيسافر إلى مصر في الشهر القادم، كما أرجو أن تحمِّلوه ما لذ وطاب عند عودته بعد ثلاثة أشهر..

أرجو أن يقبل حافظ أسفي لأني لا أحدثه كثيرا عن المسرح هنا فالواقع أولا أن معظم المسرحيات في هذه الفترة لا تستحق مجرد الرؤية، كما أن وقتي لا يسمح لي بأن أذهب إلى المسرح كثيرا كما كان يفعل حسين، فإني مواجه بامتحان صعب والأساتذة هنا يفترضون فينا مستوى خياليا أعلى من الواقع بكثير جدا، فهم يظنون أن مستوى دبلومات الدراسات العليا التي حصلنا عليها في مصر في مستوى دراستهم العليا. وهذا وهم كبير..

وقد طلبت من نبيل العربي موافاتي بالمسرحية، وكان أمين قد أرسلها له (بقى يصح تروح لنبيل قبل ما تجيلي؟) وسأكتب لحافظ برأيي فيها عندما تصلني.

لقد تحولت بكل أسف من تلميذ مجد إلى طبَّاخ ماهر.. ما العمل؟ على كل حال إن قيامي بجميع الأعمال اليدوية التي أحتاج إليها وعدم قيام أي شخص بمساعدتي فيها: من تسوية السرير يوميا إلى غسل الأطباق عدة مرات في اليوم إلى رمي الزبالة إلى إرسال ملابس للمكوى إلى الطبيخ..إلخ. كل هذا أفادني حتى معنويا بشكل كبير.. فإني الآن بدون شك أحمل احتراما «لحمامة» أكبر بكثير من الماضي.. إن قيامي بهذه الأعمال اليدوية أفهمني أولا كيف يعيش العمل العقلي عالة على العمل اليدوي، وكيف أن العمل اليدوي ضروري تماما كالعمل العقلي وأن الحياة تتكون من كليهما بدون انفصام.

كذلك علمني الطبيخ كيف أن «الدلع» على والدتي من أجل الأكل كان خطأ كبيرا، فلماذا «نتأمر» عندما يقوم غيرنا بإعداد الأكل، ونرضى بأقل شيء توفيرا للتعب عندما يقوم الواحد منا بإعداده؟ كذلك استخسرت النقود التي كانت تضيع في مصر على المطاعم فيما تبين لي أنني كنت أستطيع عمل ما كنت آكله بسهولة وبسرعة وبنفس المهارة تقريبا..

كذلك زال الوهم الكبير الذي كان في ذهني عن الطبيخ فقد كنت أتخيل أن تحويل الأكل من مواد أولية إلى أكل ناضج يحتاج إلى معجزة فتبين لي أن المسألة خرافة روَّجتها النساء (اعتذاري لماما..) كما بدا لي أيضا أن إعداد الأكل لا يجب مطلقا أن يكون هو أحد الدوافع إلى الزواج...

إني بكل إخلاص أرسل تحياتي إلى حمامة ـ إذا كان ما زال معكم ـ ولا أعتقد أنني سأرضى ـ عند مجيئي ـ بأن يغسل هو البانيو بعد استحمامي أو حتى يغسل الأطباق التي أكلت فيها أو يعمل لي القهوة أو أن أرسله في المشاوير السخيفة التي تقوم على رغبات صبيانية لي أو كنت أستطيع القيام بها وأنا في الخارج.. وإلَّا فكيف أني أقوم هنا بكل شيء ولا أستعين بأحد إطلاقا؟ المهمة التي من المعقول أن يقوم خادم بها هي تنظيف البيت كل مدة معينة..

أخباري الأخرى في اختصار:

ـ إن جسمي يفقد سمنة بشكل ملحوظ وهذا يسرني كثيرا..

ـ أني أقضي الآن أسبوعا لا أذاكر فيه وقد قرأت معظم قصص مجموعة The Black Monk لتشيكوف ومن القصص التي أطربتني فيه Sleepyhead وThe Family Council حتى أكثر من القصتين الطويلتين Ward No. 6 وThe Black Monk.

ـ يفيدني كثيرا قراءة التعليقات السياسية هنا، فالواقع أن الروح العلمية تغلغلت في الإنجليز حتى في هذه التعليقات. وبمقارنتهم بنا في هذا الصدد يبدو أن الصحفي الوحيد الذي يمكن أن يشرِّف الصحافة المصرية هو أحمد بهاء الدين، فتعليقاته موضوعية وطريقته في التحليل علمية، كل ما هنالك أنه يزيد على الإنجليز بروحه الوطنية.

ـ في البيت الذي أسكن فيه عدا العائلة صاحبة المنزل المكونة من زوجين شابين وطفل صغير، تسكن في الحجرة التي على يميني فتاة وفي الحجرة التي على يساري فتاة أخرى.. والتي على يساري يهودية في غاية الجمال،

توطدت إلى حد ما الصداقة بيني وبينها، رغم أنها مصرة على أنه إذا قامت حرب بين العرب وإسرائيل ستسافر لتحارب مع إسرائيل..

ـ إن حجرتي الجديدة في غاية الجمال حتى أنه خطر لي أكثر من مرة أنه حبذا لو زارني فيها أحدكم ليرى هذه الجنة التي أعيش فيها.. فالحي كله حدائق، تلاحظون هذا من اسم الشارع والمنطقة، الشارع ترجمة اسمه بالعربي: «حدائق الحقل الأخضر!» وللمنزل حديقة خلفية واسعة أستطيع استعمالها متى أشاء فإذا ظهرت الشمس جلست فيها أقرأ متمددا على كرسي من كراسي البلاج..

تضايقت عندما علمت من أمين أن والدتي لم تصيِّف حتى الآن. إني أعتقد بضرورة قضائك مدة على البحر مع أحد إخوتي.. المهم في انتظار خطاباتكم تقبلوا أحسن تمنياتي.

جلال

لماذا لا يكتب لي أحمد؟

* * *

[لندن] ٢/٩/٥٨

والدتي العزيزة وإخوتي الأعزاء

شكرا على خطابك ولو أنه قصير جدا وأرجو أن تكوني قد نفذت مشروعك في السفر إلى الإسكندرية.

منذ عودتي من رحلتي القصيرة وأنا أذاكر بهمة كبيرة فالامتحان بقي عليه ثلاثة أشهر فقط، وهو امتحان صعب جدا، أرجو أن أمر منه. وعلى كل حال فقد سمحوا لنا بفرصة أخرى في يونية التالي إذا رسبنا في امتحان ديسمبر وقد قالوا لنا أن لنا حرية دخول ديسمبر على أساس أنه «بروفة» إذا نجحنا فيه خلاص، وإن لم ننجح دخلنا امتحان يونية. وأنا أنوي الحضور بعد امتحان ديسمبر مباشرة إذا نجحت فيه فإن لم أنجح حضرت في يونية.

صحيح أنكم مواظبون في الكتابة إليَّ بشكل لم أكن أتوقعه قبل سفري ولكني مع هذا أتمنى لو زادت خطاباتكم. أحمد لم يعد يكتب لي رغم أني أريد أن أعرف متى سيجيء إلى هنا. وأخبار زواجه وحافظ أيضا لا يكتب كثيرا. وأنتِ

خطاباتك قصيرة نوعا ما، يا حبذا لو طالت. وأنا أريد أن أعرف منك أخبار صوابعك: هل لا زالت هناك جروح؟ لقد كتبت إلى نبيل بخصوص الدواء الذي تحتاجينه وكتب إليَّ واعدا بإرساله لكم قريبا.

قرأت ما كتب عن حافظ في صباح الخير وسرني كثيرا، والمهم أن يحاول حافظ التفوق على نفسه في المسرحيات القادمة.

في الشهر الماضي تلقيت درسا قاسيا ولكنه مفيد في قيمة الفلوس. في بعض الأيام كنت أطبخ عدسا بدل اللحمة وتعلمت بهذه المناسبة طبخ «الكشري» فأسعفني في الأيام الأخيرة من الشهر وقد أرسل لي أخيرا زكريا عشرين جنيها هي آخر مبلغ سآخذه منه ولكن المبلغ جاء بعد أن أصبح «للبنس» الواحد قيمة كبيرة جدا عندي.

كتبت إليَّ نوسة خطابا جاء فيه أنكم طلبتم جاتو من توماس.. إن ملاحظة عابرة كهذه ذكرتني بأشياء كثيرة عن حياتنا في مصر كنت قد نسيتها.. أرجو الإكثار من مثل هذه الملاحظات الصغيرة لأني أفتقدها.

اشتريت أمس مضرب تنس وجميع معدات اللعب من ملابس وكور وسأبدأ اللعب يوم الأحد القادم. إني أنوي بشدة أن أستمر في اللعب لأن الرياضة لها أثر كبير على نفس الشخص فضلا عن جسمه، وقد قل وزني بشكل ملموس ولكني أطمع في أن يقل أكثر وأكثر.

أظن إني مقصر بعض الشيء في الكتابة لكم عن دراستي. إني أقرأ كتب الاقتصاد بالانجليزية الآن بسهولة وسرعة رغم أن الكتب التي أقرأها مستواها في العلم واللغة عالي جدا. كما أني أكتب ما يطلبه مني الأستاذ بسرعة أيضا. وقد كتب لي الأستاذ أخيرا رأيه فيما كتبته له حتى الآن، وكان هذا يتضمن أول كلمة تشجيع أتلقاها منه. لكن على العموم إن فكرته الأساسية ستتكون من نتيجة الامتحان. إن الأستاذ المشرف عليَّ هو شخصية كبيرة جدا سواء في علمه أو في الحياة العامة فهو مثلا مشترك في إدارة الـnational gallery والـCovent Garden وهو مدير المدرسة ولهذا فإني نادرا ما أقابله وكثيرا ما نتبادل الكلام عن طريق خطابات داخلية في المدرسة.

ومستواي في الاقتصاد يتطور بسرعة نتيجة لنوع الكتب التي أقرأها، وهذا يجعلني أحتقر دبلومات مصر احتقارا كبيرا، وأنا أعتقد أن المتاعب البسيطة التي صادفتها هنا لا تستحق الذكر إذا قيست بالفوائد الجمة التي حصلت عليها هنا في جميع النواحي: في الاقتصاد، في اللغة، في إطلاعي على الصحافة الانجليزية، تتبعي للحوادث السياسية ولطريقة التحليل السياسي، إطلاعي

على نفسية الشعب الانجليزي، ثم إدراكي لعيوب كثيرة كانت تشوب حياتي في مصر ويجب التخلص منها عند العودة.

بالنسبة للحوادث السياسية أنا شخصيا متشائم بالنسبة للمدة القصيرة القادمة، فحوادث الشرق الأوسط ثم ما يدور الآن في الصين يجعلني أشعر بقرب وقوع حرب كبيرة(34).

إني مشتاق جدا إلى الكلام مع والدتي في حجرتها عن الأشياء التي رأيتها هنا، وإلى المناقشة مع حسين في السياسة وفي الأدب الذي أنوي أن أعطي له عناية أكبر بعد انتهائي من الامتحان، والاستماع إلى مسرحيات حافظ والكلام كلاما خاصا مع أحمد، وكذلك إلى زيارة أمين وحمادة ونعيمة والاستمتاع بعزايم فاطمة، ولكن أمامي شهورا طويلة من المذاكرة الشاقة قبل أن أستطيع تنفيذ كل هذا. إن الجلوس في مينا هاوس في الشمس هو بالنسبة لي هنا كالحلم الجميل، رغم أنه كان في مصر شيئا عاديا. ولكني مع هذا لن أضيع عند عودتي إلى مصر دقيقة واحدة.

إن كثيرا من أفكاري تغيرت هنا أو في طريقها إلى التغير، وقد اقتنعت بكثير من آراء حسين التي كنت أخالفه فيها، ولكن لم أفقد حماسي للسياسة وإن كانت بعض أوجه نظري السياسية قد تغيرت أيضا.

ومن الأشياء التي أعتقد أني تعلمتها أن أكون أوسع صدرا مع من أخالفهم في الرأي وأن أقلل من اكتشافي عيوب الناس.

أرسل إلى حسين قصة ليوسف إدريس منشورة بمجلة باكستانية باللغة الأردية أعطاها لي صديق باكستاني بالمدرسة. وقد خطر لي أنه إذا أعطاها حسين ليوسف إدريس سيسره ذلك كثيرا.

أختم الخطاب الآن لأواصل المذاكرة. أرجو أن تكتبوا لي بسرعة.

جلال

أرجو أن تتضمن خطاباتكم الإجابة على الأسئلة الآتية ولا تنسوا:

١- هل لا زالت هناك جروح في رجل والدتي؟

٢- هل لا زال حمامة عندكم؟

٣- ما أخبار حافظ مع زوجته، هل تسلمت العفش وهل حاولوا الصلح؟

٤- هل يفكر أحمد في الزواج وما أخبار بعثته؟

٥- هل لا زال الدور الثالث بنفس وضعه؟

٦- ما الاسم النهائي لبنت حمادة؟

٧- ما أخبار الأدب الروسي بتاع حسين؟

٨- كيف صحة علي الآن وجريتا؟

٩- هل احتفلتم في هذا العام بذكرى وفاة والدي؟

١٠- كيف صحة عمتي أم زكي؟

١١- هل صحيح أن حمادة تِخِن كثيرًا؟ وقد تركت حسين وهو سائر في نفس الاتجاه فما وزنه الآن؟

١٢- هل تخرج والدتي من البيت كثيرًا أم أنها لا زالت تقضي وقتًا طويلًا في البيت؟

١٣- كيف علاقتكم الآن مع عائلة «منى» وما رأيكم في منى الآن؟

١٤- ما أخبار حسين في وزارة الخارجية؟

١٥- هل لا زال حافظ كثير الشكوى من الشغل؟ وما أثر «الشهرة» عليه؟

١٦- هل لا زال الحمَّام دائما أرضه مبلولة والسيفون خربان؟

١٧- ما أخباركم مع «المكوجي» ألا يزال يأتي كل خمسة دقائق مرة وتصممون على تغييره ثم لا تفعلون؟

أظن بعد هذه الأسئلة لا حجة لوالدتي في أن تقول إن «ماعندهاش إنشا تكتبها!»

* * *

١٩/١٠/٥٨

عزيزي حسين

أرسل لك ثلاث مقالات نشرت في الأسبوع الماضي. وهي على أحسن الفروض، أي إن لم يكن مقصودا بها «التوقيع» فعلا بين ناصر والبلاد العربية الأخرى وزيادة الخلاف، تعكس الحقد المكتوم لدى الانجليز علينا وعلى ناصر.

أرسلت خطابا لكم منذ أسبوع وفيه رأيي في مسرحية حافظ أرجو أن يكون قد وصلكم. هل صحيح نبأ خطبتك لبنت الشيخ [...]، وما أخبارك في الخارجية..

أرجو أن تكتب لي قريبا وأن تعذروني إذا تأخرت في الكتابة في فترة الامتحان.

جلال

* * *

القاهرة في ٢١ أكتوبر ١٩٥٨

عزيزي جلال

كلمة قصيرة عن مجموعة من الاحتمالات ستصبح كلها في ظرف أسبوع واحد إما يقينا موجبا أو يقينا سالبا وسأكتب لك تفصيلا عندما تتكشف عن النتائج.

أهمها احتمالان: السفر والزواج.

ذلك أنني اختِرْتُ لأكون ملحقًا بقنصلية زيوريخ، والمتوقع أن يصدر بذلك قرار في بحر أسبوع، فإن صدر فسأكون في سويسرا في أواخر نوفمبر، وقد أمكث عند نبيل أسبوعا في طريق الذهاب. ومع ذلك فالأمر غير مؤكد بعد (عُين محمود سليمان ملحقا بليبيريا. (راجع الخريطة)).

الأمر الثاني الزواج: في يوم ١١ أغسطس تقدمت لخطبة بنت الشيخ [...] بناء على رأي فاطمة وتوصيتها ودون أن أرى الفتاة سلفا (فضيحة، ألا تعتقد؟!). وقد وافق الأب والأم على أن توافق الفتاة. وبالفعل دبرا لنا مقابلة في نادي الجزيرة. فتاة في السادسة والعشرين (٢٦) قبيحة الملامح، خاصة أسنانها العريضة البارزة وحبوب الشباب التي تملأ وجهها، قوية الشخصية، بادية الحيوية والذكاء. غير أن هذا الذكاء وهذه الحيوية قد اختلطا بغير قليل من المرارة المعهودة في العانسات مما يزيد عادة من نفور الرجال منهن. بها كل

ما يبشر بالعانس: حدة لسانها، وذكاؤها، واهتمامها بالهوايات والفنون ولذاعة ملاحظاتها وأعصابها المتوترة واحتقارها الظاهري للشبان مع الرغبة فيهم. وفي حديثها السافر عن مصر استعملت لفظ disgusting ما يزيد عن خمس مرات وكان لها في كل مرة تفوهت بها وقعا بغيضا في نفسي. شبهها حافظ عندما وصفتها له بعد عودتي بكاترين هيبورن كما نعهدها في الأفلام. وهو وصف دقيق خاصة بالنظر إلى روحها الطيبة واحتمالات تحولها إلى أنثى أكثر وداعة ورقة بعد الزواج.

فتاة لا تلفت إليها انتباه رجل عابر في الطريق، تثير الاحترام والضيق (في أول جلسة على الأقل) مع بعض النفور والميل إلى تجنب الدخول في جدال معها، ومع ذلك فمن الواضح أن المرء يمكن أن يفخر بها كزوجة.

حاصلة على شهادة في الصحافة من كمبريدج وشهادة في النحت من لندن، وهي تستورد الرخام من إيطاليا لتماثيلها.

بعد المقابلة بيوم واحد سافرت هي وعائلتها إلى سويسرا (وفق برنامج سابق لا بسبب المقابلة!!) ومكثوا هناك حتى أول أمس. إذ كان الشيخ [...] قد ذكر أن الأمر يحتاج إلى مقابلة ثانية فسنتصل بهم هذا الأسبوع لهذا الغرض ومعرفة النتيجة، من يدري! قد تراني أنت في سويسرا بعد شهرين وعلى ذراعي زوجة. وقد تعود بعد سنتين فتجدني عازبا مستقيلا أقرأ في مكتبتي. كافة الأوضاع جائزة بالنسبة لي.

حسين

* * *

٢٤ أكتوبر ١٩٥٨

والدتي العزيزة، أعزائي حافظ وأحمد وحسين

قررت التمرد وعدم المذاكرة هذا المساء والكتابة إليكم. وصلني خطابك وخطاب حسين ونبيل وأمين، بعد مدة طويلة لم يصلني فيها خطاب من أي إنسان ورغم إن الإنشا كانت ضعيفة هذه المرة فإن خطاباتك لها دائما قيمة كبيرة عندي.

تقولين في خطابك إن مجلس الدولة كان أحسن وأنا أقول لك أنه لا شيء أحسن مما أنا فيه الآن(35). وأنا أعتقد بكل إخلاص أن الفرصة التي أتيحت لي

أنا، أحسن من الفرص التي أتيحت لجميع إخوتي. فأنا أدرس في أحسن مدرسة في العالم في الاقتصاد، والأستاذ المشرف عليَّ شخصيته عظيمة جدا وهو يعتبرني ابنه لا تلميذه فقط وكل من يعرف أنه هو أستاذي يحسدني على حظي. هذا فضلا على أنه بمرور الوقت عليَّ في المدرسة بدأت أصبح «عالما» بصحيح، فأنا أقرأ أهم الكتب والمقالات وأتتبع تطور العلم الذي أدرسه وأشعر أنه لا بد أنه سيكون لي شأن كبير في بلدي حينما أرجع.

ثم استفادتي من الحياة الاجتماعية هنا لا تقدر. ففرصة التحاقي بمدرسة كهذه لم تتح لأحد من إخوتي من قبل والعلم الذي أدرسه هو أهم علم بالنسبة لمصر.. ماذا أريد بعد ذلك؟

وقع لي في المدرسة حادث لطيف منذ يومين: أنا عضو في جمعية للأبحاث الدولية وسكرتيرة الجمعية صديقة لي، من بعيد. بينما كنت أقرأ في المكتبة جاءت إليَّ وقالت إن هناك ندوة نظمتها الجمعية عن الخلاف بين «عبد الناصر وبورقيبة» ولكن المتكلم السوري اعتذر بأنه مريض والندوة أعلن عنها وسيحضرها حوالي ستين شخصا وسألتني ما إذا كنت مستعدا لأن أفتح المناقشة فقط وأتكلم لمدة دقيقتين ثم أتركهم يتناقشون.. قلت لها مافيش مانع.. فكلام دقيقتين لا يحتاج إلى تحضير.. وتنهدت هي بارتياح وانصرفت..

كان باقي على الندوة ساعة ونصف حَضَرْت خلالها محاضرة في الاقتصاد ثم ذهبت إلى مكان الندوة وأثناء صعودي السلم فكرت فيما سأقوله في الدقيقتين.

ودخلت القاعة.. أكثر من ستين شخصا من جميع الجنسيات، بنات ورجال ينتظرون. وبدأت التكلم عن المسائل التي يجب علينا مناقشتها في موضوع ناصر وبورقيبة(36).. وإذا بالمسألة ليست مناقشة ولكن متكلم أساسي ثم أسئلة توجَّه إليه هو، وهو يجيب، وأن الفتاة خدعتني لكي تخلص نفسها من الورطة.. وإذا بالأسئلة تنهال عليَّ والمفروض أن أرتجل الإجابة بالانجليزية وسط هذا الحشد.. والذي يزيد الطين بلة أن معظم الحاضرين يهود يريدون التشهير بناصر وإحراجي لا الاستفهام..

إذا بيهودي يسألني: أليست القومية العربية هي دعوة «طوباوية» وأنها لا تحمل أيديولوجية؟ وإذا بآخر: ما المقصد بالوحدة العربية؟ وثالث: ما رأيك في ديكتاتورية ناصر؟ وطالبة لبنانية من أتباع شمعون: توافق على أن بورقيبة عبَّر عن رأي بقية البلاد العربية؟...

المهم أني تحملت الورطة وبدأت أجيب إجابات كنت أظن أنها ستكون قصيرة، فإذا بي «أنفرد» وأنسى نفسي في شرح الأيديولوجية العربية حتى حاول اليهودي إنهاء كلامي، وأخذ الطلبة العرب الحاضرون يهزون رؤوسهم بالموافقة والفتاة الانجليزية السكرتيرة تتطلع برقبتها إليَّ ترجو أن أقوم بالمأمورية كما يجب حتى لا ألومها في النهاية..

وفي النهاية جرت إليَّ لمصافحتي لأني أنقذت الاجتماع وأخذ العرب يهنئوني.. طبعا كان فرحي بنفسي لا يقدَّر وكان أهم سبب هو قدرتي على الارتجال بالانجليزية وسط هذا الحشد من الناس.. ثم أني تمكنت من الدفاع عن ناصر أمام هجوم اليهود..

فرحت جدا بما تضمنه خطاب حسين وأنا طبعا موافق على مسألة تذكرة روما-لندن إذا كان ذلك ممكنا وهي متوقفة عليكم أنتم لا عليَّ..

إذا كان أي واحد منكم يريد أن يصنع خدمة لي فليشترك لي في مجلة الآداب اللبنانية.. فهذا يسرني جدا. وقد سألني نبيل عما أريده من هناك فلا بأس من أن يحضر لي معه بعض الكتب العربية الحديثة التي لها قيمة مما ينشره الأدباء الشبان.. والواقع أني لا أفتقد في مصر إلا شيئين: الأشخاص وهؤلاء لا يمكن نقلهم، والأكل، وهذا نقله غير مجدي لأني لن ألبث أن أجوع بعد أن أنتهي منه. فماذا أطلب؟ لا شيء غير هذه الكتب العربية الصغيرة.

هناك كلمة لطيفة قالها لنا الأستاذ المشرف عليَّ لا أستطيع أن أمنع نفسي من ذكرها، فقد أشار إلى أنه لو كان الأمر بيده لما نصح أحدا بعمل دكتوراه، ولاكتفى من الطالب بأن يكتب مقالات قصيرة، وقال لنا إن أحد الأساتذة الكبار سئل مرة لماذا يكتب كتبا كبيرة الحجم فقال لأنه فقط لا يجد الوقت لتأليف كتب قصيرة! وهذا صحيح تماما..

إني أحيانا أقرأ مقالة في ست صفحات تغني عن كتاب بأكمله ويكون لها شأن في تطوير العلم أكبر من عدة كتب..

لا زلت أذكر أن حافظ كان يسخر مني أنا وحسين حينما كنا نقول أثناء مذاكرتنا للحقوق «إني ذاكرت النهاردة ١٠٠ صفحة» فقد تعلمت هنا أن ما كان يقوله حافظ صحيح من أن المهم هو معرفة شيء بعينه.. وتعلمت أنه لا فائدة من التعليم إطلاقا إذا لم يكن الطالب يبحث عن الإجابة عن سؤال معين في ذهنه.

هل يبدو من خطابي أني فرحان بنفسي أكثر من اللازم بسبب دراستي؟ إذًا سأحاول في المستقبل أن أكون أكثر تواضعا!

جلال

أرسل تهنئة متأخرة لحافظ بمناسبة عيد ميلاده وتهنئة مبكرة جدا إلى أحمد..

* * *

القاهرة في ٢٧ أكتوبر ١٩٥٨

عزيزي جلال

لا أخبار بعد عما كتبت به إليك في خطابي السابق؛ السفر والزواج. ولكن هناك مجموعة أخرى من الأخبار:

١. وافق وزير الصناعة على بعثة أحمد إلى ألمانيا لمدة ستة أشهر. وسيسافر بعد حوالي شهر إلى برلين الغربية مارا بنبيل العربي في روما واسماعيل رضا في زيوريخ. عادت إليه الحياة بعد سماعه بالموافقة وأصبح يبتسم الآن أحيانا. ثمانية أشهر لم يتحدث أثناءها إلا عن تأخر الموافقة تاركا غرفته والطابق الأعلى بأسره في حالة من الفوضى على أمل السفر قريبا، يقتل الوقت بلعب الورق. تغير هذا الآن. أصبح وجهه متهللا تهلل من نزل عليه الوحي بحقيقة العالم. من يدري؟ ربما كان السفر إلى برلين هو حقيقة العالم بالنسبة إليه؟

٢. حفل خطوبة بنت عمتي يوم أمس. يكفي أن أقول هذا لكي تتصور الباقي: العروسة تصر على حضورنا لكي تظهر للعريس أن لها أقارب محترمين «حسين ابن خالي، في وزارة الخارجية» «أهلا وسهلا»، والد العروسة يقفل عليه أهله الباب بالمفتاح حتى لا تحدث فضيحة.... في الوقت الحاضر؛ والد العريس لا يحضر... غير موافق؛ والدتي تتعجب كيف تتمكن عمتي دائما من «اصطياد» عرسان لقطة؛ كامل فراج يتحدث عن كيف أن الساعات في زيوريخ كانت برخص التراب قبل الحرب العالمية الثانية (اشترى واحدة منها بما يعادل خمسة وسبعين قرشا عاشت معه ثلاثة عشر عاما)؛ حسنية تدعو الله بحرارة أن يخلليني لهم وتخطئ فتناديني بحافظ؛ مع أقداح شربات وبعض الملبس.

٣. [...] على وشك الطلاق. وأخت [...] ضربت زوجها على وجهه لأنه نام مع امرأة أخرى بعد الغداء في منزل الزوجية وهي موجودة بالبيت. و[...] تطلب من حمادة أن ينقل الزوج (وهو مهندس) إلى مدينة بالأقاليم على سبيل الانتقام. حمادة يرفض.

٤. أمين يكتب في رسالة الدكتوراه استعدادا لتقديمها في ألمانيا في شهر فبراير القادم. ذهبت إلى شقته اليوم لأول مرة منذ عودته من ميونيخ. عشرات الأشياء أراناها مما اشتراه من ألمانيا لتجميل المسكن وتوفير أسباب الراحة فيه وضمان هدوء الأعصاب. «هذا الجهاز على الحائط هنا يبين لنا مقدار الضغط والحرارة والرطوبة. كنت أحيانا أشعر بضيق شديد من نفسي ومن العالم ولا أعلم لهذا الضيق سببا، حتى إذا ما نظرت إلى هذا الجهاز علمت السر وهو ارتفاع درجتي الرطوبة والحرارة معا..»... وعشرات من الأجهزة والأدوات الأخرى المتعلقة بالإضاءة والطهي والكي السريع وإسناد الرأس إلى وسادة من الاسفنج في البانيو ومسند لسماعة التيليفون إن أردت استخدام اليدين معا في الكتابة أثناء الحديث التيليفوني إلى آخره.. أثناء تفريجه لنا على هذه المشتريات دق جرس التيليفون. رجل يعاكس جريتا. ويصفر وجه أمين ويفتر حماسه في عرض مشترياته علينا. وأنظر إلى يديه فأجدهما ترتعشان.. لا أثر لكيفية الإضاءة.

٥. حافظ يتبع سياسة جديدة حكيمة، قرر الزيادة من قراءاته واطلاعه على روائع المسرح العالمي، والزيادة من التأمل والتفكير، على ألا يبدأ في الكتابة من جديد إلا بعد عام ونصف. أمام تمثيل مسرحيته «القضية نمرة ٧» بعض الصعوبات يرى أنها رغم جودتها لن تعجب الجمهور (وهو عكس رأيي تماما) ومع ذلك فما زال هناك أمل في أن تمثل في آخر الموسم.

٦. خادم سنية حاول أن يقبلها فطردته. خطف ابنها الأصغر وهو عائد من المدرسة فبلغت البوليس فقبض عليه ورد إليها ابنها. وأشرف يكتب إلى أبيه يرجوه العودة.

٧. لكم جنينا على [...] بأحاديثنا التي شهدتها! أشعرناه بتخلفه عنا ثقافيا فإذا بالرغبة الجديرة بالثناء في اللحاق بنا تدفعه خطأ إلى اختصار الطريق والإيمان برأي [...] بدلا من أن يفكر لنفسه. فقد شخصيته وطابعه الخاص الذي كان يتميز به وأصبح يردد كليشيهات عفا عليها الدهر ولم يعد حتى [...] يستخدمها. والنتيجة أن هذا الشخص الذي كان يمكن أن يبرز في عالم الأدب والثقافة قد بات ترسا في عجلة، لا قيمة جوهرية له.

٨. يسافر نبيل إلى روما يوم ٣ نوفمبر. قد أعطيه قصة كتبتها ليرسلها لك. وقد أرسلها لك بنفسي من زيوريخ.

هل قرأت Dr. Zhivago لباسترناك؟

اشتريت من هنا دائرة المعارف البريطانية بمبلغ ١٢٠ جنيها (طبعة ١٩٥٨) وكان من الواجب أن أنتظر حتى أشتريها من سويسرا... أطيب تمنياتي لك في المذاكرة.

حسين

* * *

[لندن] السبت ٦/١٢/٥٨

عزيزي حسين

أكتب لك لكي أخبركم بموعد امتحاني، فقد أخبرونا أخيرًا بأنه سيكون يومي الخميس والجمعة القادمين من ١٠-١ ولا نعرف شيئا عن ماهية الورقتين إلا أنهما سيتناولان: General Economic Theory والامتحان معد لثلاثة فقط: أنا واثنان آخران أحدهما أول الجامعات الثلاث ١٩٥٤ وثانيهما أول جامعة اسكندرية ١٩٥٥. وأنا أنوي السفر إلى روما بعد الامتحان وأنا فقط في انتظار خطاب من نبيل حتى أقوم بحجز المكان..

أرجو إخباري بما إذا كان أحمد سافر أو سيسافر إلى ألمانيا قريبا حتى أمر عليه في طريقي، وإذا كان قد سافر فأرجو ألا تتأخروا في الرد.

طبعًا لا أحد سيصحيني يوم الامتحان إلا المنبِّه ولا أحد سيهتم بأن يصنع لي كبدة أو مخ على الإفطار، وسأكتب لكم فور انتهاء الامتحان بما صنعت..

علمت أن لديكم في مصر الآن الفيلم الروسي The cranes are flying أرجو ألا يكون قد فاتك. وقد رأيت الأسبوع الماضي فيلم The old man & the sea واعتقادي أن سبنسر ترايسي ساهم في عدم إنجاح الفيلم، وقد قالت الصحف هنا أن القصة لا تصلح للسينما، وهذا صحيح إلى حد ما. كما تمتعت بمشاهدة ثلاثة أفلام عن حياة جوركي، كل منها أحسن من الآخر وسينما Everyman's سينما تستحق كل خير حتى أني أكاد أريد أن أبحث لي عن سكن فوقها، حتى لا يفوتني فيلم من أفلامها.

وأخيرا أرجو أن يصلني منكم خطاب قبل سفري إلى روما.

جلال

* * *

القاهرة في ١٠ ديسمبر ١٩٥٨

عزيزي جلال

أكتب إليك بسرعة على ورقة وفي مظروف من مخلفات الجيش (أحمد) لأتمنى لك حظا سعيدا في الامتحان ولأفيدك ببعض الأخبار قبل سفرك للإجازة:

١) سافر أحمد يوم الثلاثاء ٢ ديسمبر إلى إيطاليا وسويسرا في طريقه إلى ألمانيا وقد مكث ثلاثة أيام في روما وميلانو (لا أدري ما إذا كان قد اتصل بنبيل أم لا) ثم يومين في زيوريخ وهو الآن في نورنبرج حيث سيقضي بضعة أيام في مركز شركة سيمنس يسافر بعدها (إن لم يكن قد سافر بالفعل) إلى برلين الغربية. كتب إلينا من زيوريخ وأوصانا أن نرسل خطاباتنا بالعنوان التالي في نورنبرج حتى بعد أن يسافر إلى برلين الغربية وذلك إلى أن يصلنا منه عنوان المستقر. فإليك العنوان إن أحببت الاتصال به:

Siemens Gästehaus,

Burgschmiet Str. 8

Nürnberg _ Deutschland

وقد ذكر لنا أنه سيكتب لك ليخبرك بوصوله وللاتفاق معك على مكان تتقابلان فيه.

٢) باتت فرص سفري أنا إلى زيوريخ ضعيفة نظرا لتفكير الوزارة في الاكتفاء بإرسال قنصل عام وقنصل وأمين محفوظات نظرا إلى صغر القنصلية. ومع ذلك فما زال هناك احتمال أن أسافر لإصرار القنصل العام على اصطحاب ملحق معه.

٣) أما بنت الشيخ [...] فقد فشل أمرها أيضا. قال الأب إن الفتاة في الحقيقة في التاسعة والعشرين وأنها ترغب في الزواج من رجل في الأربعين. ولا أدري ما إذا كان هذا حقا أم مجرد رفض مؤدب. على كل حال فقد سررت بالرفض.

٤) سنؤجر الطابق الأعلى بعد سفر أحمد لوالدة مستأجرة الطابق الأسفل ووالدها بقيمة ١٤ جنيه شهريا مع العلم بأنهما لن يمكثا فيه إلا ثلاثة أيام أو أربعة كل شهرين والباقي في بلدتهما ملّوي. إنهم يريدون شراء البيانو، طلبنا فيه ستين جنيها والراجح أن يقبلوه بخمسين. اكتب لنا عما إذا كنت توافق على بيعه.

٥) شاهدنا فيلم The cranes are flying منذ حوالي شهرين. فأما حافظ فقد خرج بعد نصف ساعة من بدئه. وهو في رأيي فيلم تافه رغم جودة التصوير السؤال هو: هل كان اغتصابا أم بالتراضي؟ فإن كان اغتصابا فما علة صنع الفيلم على الإطلاق its raison d'être وما الداعي إلى تلك الخطبة الطويلة للأب في المستشفى عن انعدام الوفاء؟ وإن كان بالتراضي فأين عناصر الفساد في الفتاة أو في الحرب التي أدت إلى عدم الانتظار؟ إن المخرج لا يدري ما يريد قوله ومن ثم فشل. على العموم فهو خطوة إلى الأمام في السينما السوڤييتية.

٦) [...] في حالة نفسية سيئة نظرا لعدم التحاقه بوظيفة مع تركه للمحاماة، نحل جسمه واصفر وجهه وضاعت حمرة خديه التي كانت تميزه. هناك حالة انحلال عامة في معارفك [...] هنئ نفسك أنك نجوت منها... أما عني فقابع في مكتبتي على الدوام، يتردد عليَّ البعض من الخارج يحدثونني عما شاهدوه أو وقع لهم أثناء النهار وكأني سجين منزلي قد أقعدني المرض عن الاشتراك في الحياة فيقصدني معارفي من حين لحين لموافاتي بالأخبار والتسرية عني. ليس هذا هو تصويري للوضع فحسب بل لقد صار هذا هو شعور إخوتي وأصدقائي إزائي؛ مزيج من المودة والاحترام والإشفاق.

إليزابيث باريت وإخوتها؟(37) مارسيل بروست وأصدقاؤه؟

٧) زارت نعيمة شيخا طالبة المشورة: «خبرني يا سيدي الشيخ؛ ما العلة في أن الله قد وهب إخوتي سعة في الرزق والعيش، بينما ضيق على زوجي رغم أني أنا وهو أكثر تدينا منهم جميعا؟». أجابها الشيخ: «لقد فتح الله الطريق أمام إخوتك كي يتمادوا في الضلالة، بينما سلط على زوجك الأحزان والضيق ليختبر إيمانه وصلابة عقيدته».

مع أطيب تمنياتي لك في الامتحان.

حسين

* * *

[لندن] ١٥/١٢/١٩٥٨

والدتي العزيزة، أعزائي حافظ وحسين

أخيرا انتهى امتحاني الذي بذلت عشرة أشهر في الاستعداد المستمر له. في كلمة واحدة: عملت كويِّس..

والآن بشيء من التفصيل:

لو كنت أجبت الورقة الأولى بنفس المستوى الممتاز الذي أجبت به الورقة الثانية، لما ضمنت النجاح فحسب بل لتوقعت أن يأتيني خطاب شكر من المدرسة على التقدم السريع الذي أحرزته. ولكن للأسف كانت إجابتي على الورقة الأولى في مستوى متوسط.. وحيث أن الأسئلة في الأولى جاءت غير متوقعة وتحتاج إلى تفكير أكثر من قراءة فقد أضربت عن المذاكرة في المساء ونمت عشر ساعات نوما عميقا، وإذا بإجاباتي على الورقة الثانية تأتي نموذجية، انتقدت فيها «بقسوة» بعض النظريات وأتيت بحجج كلها من عندي أنا بحيث سيدهش الأستاذ كيف يتسنى لي ذلك من قراءة عشرة أشهر فقط مع أني حينما قدمت من مصر كنت أقرأ كتبًا في مستوى «القراءة الرشيدة»!

كان أول شيء صنعته بعد الامتحان أن ذهبت إلى مكتبة «كوليت» واشتريت بعض المجلات السياسية وكذلك كتاب Brothers Kramazov وقد بدأت في قراءته، وحيث أن حافظ بدأ قراءته أيضا فقد سجل بذلك حسين انتصارًا لن يكمل مع ذلك إلا إذا انتهى كل منا من قراءة الرواية..

هل صحيح أن حسين قد أصبح كالراهب الخاشع في مكتبته؟ إني بالطبع أقدر كثيرا حرص حسين على تنمية عقله وشخصيته، ولكني مع ذلك أتساءل هل الحياة تستحق كل هذا؟ وأنا آسف جدا على ما يقوله حسين عن «الانحلال» الذي أصاب بعض أصدقائي، وأنا لا أكاد أصدق أن [...] أيضا أصابه بعض ذلك. وأرجو من كل قلبي أن يعثر [...] على وظيفة مناسبة وبسرعة، كذلك لا أحب لـ[...] أن يُقتل بين ملفات مجلس الدولة وأنا أصيح بهم من هنا: الهرب.. الهرب..

إن ثاني شيء عملته بعد الامتحان هو أنني عزمت نفسي على أكلة فراخ، وهذا أمر لا يتكرر كثيرًا..

المهم أنني في اليوم التالي احترت في كيفية قضاء الصباح وتبين لي أن الآمال التي علقتها على الفراغ بعد الامتحان كانت خيالية.. فالراحة في انجلترا لا يمكن أن تستمر أكثر من نهاية الأسبوع بالإضافة إلى المساء بعد العودة من العمل ولكن فيما عدا هذا لا بد من العمل، وهكذا أخذت حقيبتي في اليوم التالي وفيها الـBrothers Kramazov وذهبت إلى المدرسة!

المدرسة في الواقع هي الآن بيتي، فيها أقرأ وأتناول غذائي وعشائي وكثيرا ما أتناول إفطاري فيها أيضا. بعد الغذاء أقضي بعض الوقت في قاعة كبيرة فخمة اسمها «Shaw room» نسبة إلى برنارد شو الذي كان أحد مؤسسي المدرسة. وهي تتميز بأثاثها المريح وهدوئها وأنه تعزف فيها موسيقى كلاسيك. كما تحتوي على مكتبة منفصلة عن المكتبة الرئيسية في المدرسة، وبخلافها تتضمن كتبا في الأدب والفنون المختلفة، والدواليب مفتوحة والمطلوب منك فقط أن تعيد الكتاب بعد القراءة إلى مكانه.

والمدرسة تشبه في الواقع «كيس الحاوي»، فمظهرها بسيط وغير جذاب ولكن فيها كل ما تطلبه وأكثر. في كل يوم اثنين يعرض في مسرح المدرسة فيلم من أحسن الأفلام والدخول بستة بنسات والمحاضرات والندوات والحفلات الموسيقية وحفلات الكوكتيل لا نهاية لها..

وفي كل يوم خميس يجتمع طلبة الدراسات العليا (وأنا منهم) في حجرتهم بالدور الرابع حيث يتناولون الشاي معًا ويستمعون إلى حديث عام يلقيه أستاذ من المدرسة أو أستاذ زائر من الخارج.. وفي كل يوم سبت حفلة رقص في المساء..

أما المكتبة فلا تغلق إلا أسبوعين اثنين طوال العام حتى يستفيد منها أكبر عدد ممكن..

وقد أصبح جميع من في المدرسة الآن يعرفونني.. تلاميذ إلى موظفين، لأنه لا أحد يفوقني في المواظبة وأنا أنوي أن أوطد علاقتي بأستاذي بعد الامتحان..

ومن الجدير بالذكر أن أستاذي، وكثير من الأساتذة غيره، لهم سراير بحجراتهم بالمدرسة وكثيرا ما يقضون الليل فيها!

المهم أن المدة التي قضيتها هنا علمتني قيمة الوقت، ولعل حرص حسين على وقته هو نتيجة المدة التي قضاها في انجلترا، كما أن الحكايات الصغيرة التي تتكرر كل يوم وتعكس شخصية الانجليز كثيرة ومؤثرة ولكني أحتفظ بها لحين عودتي..

كتبت مقالة بعنوان President Nasser and the Classics, a suggested interpretation ستنشر في الأسبوع الأول من يناير في مجلة المدرسة، والمجلة يطبع منها ١٠٠٠ نسخة. وفيها أشبِّه الخلاف بين ناصر والدول الغربية بالخلاف بين كينز والاقتصاديين الكلاسيك، وقد استعرت العنوان من مقالة مشهورة حاولَت وضع تفسير جديد للخلاف بين كينز والكلاسيك.

المهم أني مبسوط وأحب أن أسمع عنكم دائما أنكم مبسوطين أيضا. وقد سرني أنكم أجرتم الدور العلوي وأن تفكيركم قد أصبح عمليا، بدلا من تركه عدة شهور بلا فائدة. وأنا أوافق على بيع البيانو بخمسين جنيها أو حتى إلى ٤٥ جنيه ولكن لا أقل من ذلك.

كتبت إلى نبيل العربي أسأله عن إمكان زيارته في روما في الكريسماس ولكنه لم يرد حتى الآن. على كل حال بالنظر إلى تأخره في الرد حجزت إلى ألمانيا وسأستلم التذكرة غدا وسأسافر غالبًا يوم السبت القادم لمقابلة أحمد وسأعود على بداية يناير. أما مجيئي إلى مصر فقد قررت العودة في الصيف وذلك لأن أجازتي في الصيف طويلة جدًا، والجميع يسافرون وحتى الأساتذة يشجعوننا على ترك انجلترا في الصيف..

ـ كلمة صغيرة على The cranes are flying. حسين يتساءل عما إذا كان سلوك البنت بالاغتصاب أو بالتراضي. أعتقد أنه كان واضحا أنه كان بالتراضي، وقد أيد ذلك أشياء كثيرة في الفيلم أهمها شعورها الدائم بتأنيب الضمير. وهذا هو الحل الواقعي وأعتقد أن مساوئ الحرب تتضح في حالة التراضي ولا تتضح في حالة الاغتصاب. فلو كان الأمر اغتصابا لما كان للحرب دخل. إذ الاغتصاب جائز في الحرب والسلم بعكس استسلامها بعد أن فقدت أبويها وفقدت الأمل في حياة حبيبها. فكلتا الكارثتين سبقتهما الحرب. فالفيلم واقعي ومؤثر وتصويره وإخراجه ممتاز (هل تذكر منظره وهو يموت والذكريات التي مرت

بذهنه) والشخصيات واضحة وفوق كل ذلك يتخلص من الخطابة التي كانت موجودة في الأفلام السوفييتية.

ـ تأثرت بمنح أرفع وسام لتوفيق الحكيم. وهذا العمل يعطي فكرة عن نفسية الحكومة وعبد الناصر في الوقت الحاضر.

أشكر والدتي على الحلويات والمأكولات التي أتطلع إلى مشاركة أحمد فيها (إن كان قد أبقى لي شيئا!)

كما أتطلع إلى مقابلة أحمد ومعرفة أخباركم التفصيلية منه، الأخبار التي لا تظهر في الخطابات.

منذ بضعة أسابيع احتجبت عنا الشمس احتجابا تاما، حتى لأعتقد أنها رحلت إلى بلد أخرى في رحلة طويلة، وانتهى الأمر بأني نسيتها. ولكن البرد محتمل.

يسرني كثيرا أن يرسل لي حافظ وحسين آخر إنتاجهما، وأرجو أن تكون والدتي تتفسح وتتمتع بشمس الشتاء الجميلة في مصر.

جلال

* * *

٢٣/١٢/٥٨

عزيزي حسين

تحياتي لكم من ألمانيا. اكتب خطابا سريعا لأرجو منك ـ مع عدم مؤاخذتي لإرهاقي لك بالطلبات ـ أن تعطي «محمد عبد العزيز» خمسين جنيها من حسابي. هذا ولي في شركة مصر للسياحة مبلغ من المال أظن حوالي ٢٠ جنيهًا أرجو تحصيله من يحيى الصادق الذي يشتغل هناك، وربما يكون هو قد اتصل بك فعلًا.

سأرحل اليوم إلى برلين لأقضي أسبوعا هناك وسيلحق بي أحمد. وسأكتب لكم خطابا طويلا عن ألمانيا من هناك.

جلال

* * *

برلين في ٢٩/١٢/٥٨

والدتي العزيزة، عزيزيَّ حافظ وحسين

أكتب لكم من برلين وقد مضيت فيها حتى الآن خمسة أيام، ولا أظن الآن أن هناك مكانا هاما في برلين الشرقية أو الغربية لم أشاهده. وعلى هذا فأنا مؤهل الآن أن أحدثكم عن ألمانيا وعلى الأخص عن الفرق بين شرق برلين وغربها. عندما وصلت إلى نورنبرج لم يكن يخطر ببالي أن بإمكاني رؤية برلين، وعلى أحسن الفروض أن أتمكن من دخول برلين الشرقية ولكن تبين لي أن الأمر سهل وأن دخول ألمانيا الشرقية ـ فيما عدا برلين ـ هو المستحيل.

قطار واحد يغادر نورنبرج إلى برلين يقطع رحلته في تسع ساعات والرحلة كلها تقع خلال الليل، وربما كان هذا مقصودا لعدم التمكن من مشاهدة أي شيء من ألمانيا الشرقية. فبرلين ـ كما لا يخفى عليكم، تقع في المنطقة السوفييتية.

في أثناء مرور القطار بالمنطقة الشرقية صعد بعض رجال البوليس الشرقي وفحصوا جواز سفري ومنحوني تأشيرة لبضعة أيام في برلين. وكان هذا أول شيء أراه من العالم الشيوعي: وجوه مرهقة بالعمل ولكن معاملتهم طيبة.

في القطار تبادلت الحديث مع امرأة ألمانية ـ هي الوحيدة التي كانت تعرف الانجليزية في العربة التي كنت بها. وهي تعمل في نورنبرج ولكن أمها تقيم في المنطقة الروسية وقد سألتها كيف سمحوا لها ـ وهي من الغرب ـ بالذهاب إلى أمها في شرق ألمانيا في بلدة غير برلين، فقالت إنها تحاول الحصول على إذن منذ أكثر من عشرة أشهر، وأنها كانت تنوي زيارة أمها في الصيف فلم تتمكن وأخيرا سمحوا لها بزيارتها في الكريسماس.

حينما سألتها عما إذا كانت تفضل الشرق أم الغرب ابتسمت وقالت «لماذا أقيم إذن في الغرب؟ هذا هو أقصى ما تمكنني الدبلوماسية من أن أقوله لك».

كنت على كل حال متهيئا نفسيا لتقبل فوارق ضخمة بين الشرق والغرب ولكن جاء الواقع لا يقل في تأثيره عما تخيلته. فالمقارنة فعلا شيقة.

برلين تشبه في نظري رجلا يلبس بنطلون بدلة ردنجوت وجاكتة بيجاما. وجاكتة البيجامة تشير بلا شك إلى شرق برلين. وأنا متمسك بتشبيه شرق برلين بجاكتة البيجامة أكثر من تمسكي بالجزء الآخر من التشبيه.

في شرق برلين ـ دون غربها ـ تجد صبية بين السادسة عشرة والعشرين يبدو عليهم إرهاق العمل، يرتدون ملابس رخيصة، لا يعتنون بهندامهم، ويشربون السجاير والبيرة بكثرة مما لا يتفق وعمرهم، ولكنهم مؤدبون ومخلصون وتحس أنهم ناضجون قبل الأوان(*). هذا الوصف ينطبق على البنات كما ينطبق على الأولاد.(38)

كذلك: المحلات في برلين الشرقية قريبة الشبه جدا بالمحلات الصغيرة التي تجدها في مكان «كالظاهر» بمصر أو شارع سان استفانو بمصر الجديدة: الذوق في التنسيق منحط جدا، التراب يعلو المعروضات، الفاترينات كثيرا ما يترك جزء كبير منها خاويا، كما أن أصناف البضاعة من نوع رديء أو متوسط غالبا.

كذلك: جزء كبير من الملابس التي يرتدونها هي من نوع الملابس الرخيصة المعروضة عندنا في العتبة أو شارع عبد العزيز.

إن جزءا كبيرا من برلين الشرقية يجعلك تحس لو زرتها وكأنك تزور برلين عقب الحرب بأيام قليلة لا بثلاثة عشر عاما. فالمباني المهدمة والأراضي الخاوية لا نهاية لها.

شارع واحد جميل جدا وبذلت فيه كل عناية: هو طريق ستالين. وهو شارع يبلغ طوله حوالي طول شارع فؤاد، صفت المباني الضخمة على جانبيه، وكلها بناها الروس على طراز واحد جميل، والمحلات التجارية في هذا الشارع رائعة التنسيق، وفي منتصف الشارع تمثال لستالين، وبجواره مكتبة ضخمة اسمها مكتبة كارل ماركس، تحوي بالطبع كل كتب ماركس وانجلز ولينين بالألمانية ولكنها لا تحتوي من الأدب الروسي غير كتب جوركي (الأمر الذي ذكرني بالفصل الأول في كتاب حسين عن «الباب الخلفي»!)

جميع المحلات بهذا الشارع تحمل على أبوابها وفاترينااتها الحرفين: HO وهما اختصار لكلمتين ألمانيتين بمعنى Trade Organization وكلها ملك الدولة، بدون استثناء، من مطاعم إلى مراقص إلى مكتبات إلى أكشاك لبيع الجرائد، هناك بعض المحلات الصغيرة في برلين الشرقية متروكة للأفراد مع فرض ضرائب مرتفعة جدا، ولكن هذا قليل.

في برلين الشرقية أيضا حديقة رائعة الجمال أقامها الروس تخليدا لذكرى الجنود السوفييت الذين ماتوا في الحرب. في هذه الحديقة رأيت أشد ما رأيته من التماثيل تأثيرا في النفس وهو تأثير مستمد من ضخامتها ومن الأفكار التي تعبر عنها. أحد هذه التماثيل تمثال للوطن الأم تبكي أبناءها الذين ماتوا في

الحرب، وتماثيل لجنديين روسيين راكعين تحية لذكرى الجنود، وتمثال ضخم في الوسط لجندي روسي يحمل طفلا في يده اليسرى وسيفا بيده اليمنى. في أرض الحديقة دفن سبعة آلاف جندي سوفييتي. على أن الأثر الطيب الذي تركته الحديقة في نفسي «تميَّع» عندما قال لي شاب ألماني عند خروجي أن هذه الحديقة استُعْمل الألمان في بنائها ليلا ونهارا خلال عامين كان الألمان يقاسون فيهما الجوع..

من الأشياء الطريفة في برلين الشرقية خلوُّها من الإعلانات من النوع الذي نعرفه في الدول الرأسمالية: في محطات الـunderground مساحات من الجدران مخصصة للإعلان ولكن لا إعلان فيها، كل ما تجده من إعلانات هو من النوع الإخباري، بخصوص سيرك روسي أو مباراة كرة قدم، أو معرض، أو بيان بالروايات الموجودة بالمسارح المختلفة، أو بعض الدعاية للشيوعية بمناسبة مرور أربعين عاما على الثورة. ونظرا إلى أن ترك الجدران بلا إعلانات أو أوراق ملونة يجعلها كئيبة المنظر فقد عمدوا أحيانًا إلى لصق عدة نسخ من الإعلان الواحد، جملةً في مكان واحد وبلا مبرر!

راعني في بداية الأمر أن البائعات في المحلات لهن وجوهًا بشعة أشبه ـ مع عدم مؤاخذتي للتعبير ـ بوجوه العاهرات أو وجوه النساء اللاتي رأيتهن مرة في حديقة الأورمان يوم شم النسيم واللاتي جئن الحديقة بالأرواب وبوابير الجاز. وطبعا لا وجه لمقارنة هؤلاء بالوجوه الصبحة النضرة التي تصادفك في أي محل رأسمالي. ولكن أليس هذا مما يحمد للنظام الاشتراكي؟ أليست هذه الوجوه البشعة هي بالضبط من تشتغل بالدعارة في النظام الرأسمالي لعدم وجود عمل؟ وهل الفتاة الجميلة هي وحدها التي يحق لها أن تحصل على عمل شريف؟

لهذا تعودت بعد الصدمة الأولى أن أسر لرؤية هذه الوجوه في المحلات الشرقية.

حينما تدخل محلا لا يقابلك بطبيعة الحال التملق الكريه المعهود في المحلات الرأسمالية ولا محاولة لخداعك، فلا يمكن إذًا أن تنتهي الصفقة بأن تشتري حذاء واسعًا أو قماشا يتبين لك فيما بعد أنه لو كانت لديك فرصة التروي ما اشتريته. فالبائعة بالطبع لا مصلحة لها في ترويج البضاعة وهي تكتفي بوصفها لك. ومع هذا فلم ألحظ من البائعين أي تكاسل.

اشتريت من هناك مفكرة ونتيجة للحائط فما راعني إلا أن البضاعة سلمت إليَّ ملفوفة في «ورق لحمة»! طبعًا! فما هو الداعي إلى أن يلفوها لك في

ورق مزركش ويربطوها بشريط من حرير؟! الحكومة على ما يبدو ليست حريصة على أن تعود إلى الشراء منها! أما المفكرة، فهي مملوءة بعبارات مكتوبة بالخط الأحمر في أسفل كل صفحة عن تواريخ ميلاد كارل ماركس وانجلز ولينين (ولكن ليس ستالين) وبهذه المناسبة فإن كارل ماركس وانجلز حظيا في ألمانيا الشرقية ـ باعتبارهما ألمانيين أيضا ـ بتمجيد لا أظنهما كانا يحلمان به، هناك مثلا مقاطعة كاملة باسم ماركس وميدان باسم ماركس وانجلز وكتبهما تملأ فترينات المكتبات.. (أرادت ألمانيا الغربية أن تظهر تسامحها فأطلقت هي الأخرى اسم كارل ماركس على أحد شوارعها، وأنا متأكد أن هذا ما كان ليتم لولا المنافسة مع الشرق في الظفر بتأييد الألمان، وعلى كل حال فشارع كارل ماركس في الغرب لا يقارن من حيث الطول والأهمية بالشارع المسمى باسم الفيلسوف المثالي «كانت»، وهذا كاف للدلالة على سوء نية الغرب!)

لا داعي بالطبع أن أتكلم عن التسهيلات الاجتماعية في ألمانيا الشرقية فهي معروفة: التعليم مجاني، الطب مجاني، السكن رخيص جدا، الطالب معتنى به من كافة النواحي. كذلك المسارح وقاعات الموسيقى كثيرة. وأسوق إليكم بعض أمثلة للأسعار نقلتها من الفيترينات وتدل على العموم على أن مستوى المعيشة معقول جدا:

فرن بوتاجاز (بموقدين) ٧٠٠، حذاء وجيه ٢٠٠، راديو ٣٠، قميص شيك ٣٠٠، فانلة صوف ٦٠، بلوزة دنتلة جميلة ١٠٠، بيجامة صوف ٣٠٠، آلة تسجيل ٦٠٠٠، شراب نايلون للسيدات ٧٠، قماش بدلة صوف المتر ٣٠٠.

كذلك تناولت غذائي هناك مرة: عبارة عن قطعة كبيرة من الكفتة مع بطاطس بالمايونيز بما يعادل ثمانية قروش.

سؤال أخير هام: هل الشعب سعيد هناك؟ لم أوفق حتى الآن في الدخول في حديث محترم مع ألماني والسبب هو جهلي بالألمانية وجهلهم بأي لغة أجنبية. على أن الذي أسمعه دائما ممن له مدة طويلة هنا أن الشعب غير سعيد بالحياة في الشرق. ومن ملاحظاتي البسيطة أن الصبية العمال الذين أشرت إليهم من قبل تلهفوا على السجاير التي عزمت بها عليهم، لأنها من السجاير المصنوعة في الغرب، وأنني حينما استخدمت الكلمات الألمانية المكسرة التي أعرفها وبالاستعانة بيديَّ للقول بأن برلين الشرقية أحسن من الغربية، لمجرد جسِّ نبضهم، أبدوا استغرابهم من قولي ولكن بمجرد التعبير بالوجه دون أن يتكلموا، ولا أدري هل هذا بسبب الخوف أو لعدم معرفتهم لغتي.

ليس هناك أي حاجز يمنع المرور بين برلين الشرقية والغربية(39) فالترام والـunderground يمران بدون توقف بين القسمين. على أن هناك بعض العقبات الاقتصادية، فما هي؟..... (للبحث صلة) (قريبًا مشاهداتي في برلين الغربية)

جلال

أخبرني أحمد أن والدتي دخلت المستشفى مرة أخرى بعد سفري. وقد أقلقني هذا كثيرا خصوصا وأني عرفت من هذا أنكم لا تكتبون إليَّ بكل أخباركم. على العموم أنا راجع في الصيف لأعرف الحق من الباطل!

(قررت أن أتم الخطاب وأرسله)

عمدت حكومة برلين الغربية لمحاربة الاقتصاد الشرقي إلى بيع عملة ألمانيا الشرقية برخص التراب، فالمارك الشرقي يباع في برلين الغربية بربع مارك غربي، وهذا يؤدي إلى خفض قيمة المارك الشرقي نتيجة لوفرة المعروض منه. لمواجهة هذا الإجراء عمدت ألمانيا الشرقية إلى منع بيع أي شيء في برلين الشرقية ما لم يقدم المشتري ما يثبت حصوله على إذن بالإقامة فيها، وهذا الإذن هو غير الإذن بدخول برلين بصفة عامة فهو لم يعط لي مثلا رغم أني أستطيع دخول برلين الشرقية والغربية. وعلى هذا فأنا مثلا لا أستطيع قانونا شراء أي شيء من برلين الشرقية ولا حتى تناول الشاي في مطعم ولا دخول سينما. على أن الذي يحدث أنهم يتساهلون مع الأجانب أمثالي إذ أن الإجراء موجه أساسًا إلى الألمان المقيمين في الغرب. والذي يفعله الطلبة العرب هنا أنهم يستبدلون المارك الغربي بأربعة ماركات شرقية ويذهبون إلى برلين الشرقية فيشترون حاجيات الأسبوع ويعودون، وبهذا يكونون في الواقع يدفعون ربع التكاليف العادية.

برلين الغربية هي مدينة من ذهب، الأضواء تتلألأ طول الليل، المباني عالية وفاخرة، المحلات رائعة التنسيق..إلخ. والواقع أن الأمريكان بصفة خاصة لم يدخروا وسعا في محاولة تجميلها. فبرلين ليست إلا مكانا لتنافس الشرق والغرب. كل ما هنالك أن الغرب متهور وطائش ينفق بلا حساب والشرق عاقل و«ثقيل». في أثناء مروري بجولة ببرلين الغربية كان المرشد يقول لنا كل حين وآخر: هذا المبنى الجميل هو هدية من الحكومة الأمريكية، هذه المكتبة هدية من أمريكا، هذه الجامعة بناها فورد...إلخ. والمساعدات الأمريكية هي العذر الذي يقدمه الروس لتبرير تأخر مستوى المعيشة في شرق برلين عن غربها.

خادمة باللوكاندة قالت لي اليوم أنها هربت من شرق برلين منذ عام تاركة عائلتها وأنها لا تستطيع العودة الآن وإلا حبسوها ولا تستطيع ترك برلين إلا بالطائرة لأنها لا تستطيع المرور بأراضي ألمانيا الشرقية وإلا حبسوها. وأنها إذا استولى الروس على كل برلين سترحل إلى انجلترا أو كندا. سألتها عن سبب هروبها، فبدا القرف على وجهها وسألتني هي بدورها: ألم تلاحظ الفرق؟ وكأن الفرق من الوضوح بحيث لا يمكن إغفاله.

اليوم في قهوة جلست بجوار عامل ألماني يجيد الإنجليزية لحسن حظي. هو عامل منجم وملابسه قذرة للغاية. سألته أيهما يفضل الشرق أم الغرب. فقال الغرب ولكنه لم يُبْد أسبابا مفهومة. وفي النهاية قال وهو يضحك أنهم في الشرق «have no souls». ولكني لم آخذ جملته بشكل جدي لأني أشك في أنه يعرف معنى ما يقوله.

لا أستطيع بسهولة أن أستخلص حكما نهائيا، ولكني أظن أني مددتكم بعناصر تساعد على تكوين هذا الحكم. وعلى كل حال فالإنصاف يستلزم إتقانا للغة الألمانية والبقاء مدة أطول بكثير والتغلغل في الحياة الاجتماعية.

خاب ظني في الشعب الألماني، على الجملة فلم أر أي أَنَفة أو اعتدادا بالنفس مما سمعت عنه. وفي الأدب والتحضر الانجليز أسيادهم. في الترام يندر أن تجد هنا أحدا يقرأ بينما الجميع يقرأون في انجلترا. كلمة «أشكرك» و«آسف» نادرًا ما سمعتها هنا، بينما كانت تربي لي صداعًا في انجلترا. وأنا على كل حال أفضل معاشرة الإنجليز ألف مرة على معاشرة الألمان. في القطار شهدت خناقة حامية بين ألمانية وألماني لأنه منعها من المرور وسط الزحام إلى العربة المجاورة. وكانت اللهجة والصوت أشبه بخناق أولاد البلد في الدرجة الثانية من أتوبيساتنا. إكرام الضيف ومساعدة الأجنبي موجود، ولكن أعتقد أن هذا موجود في كل بلد مهما كان نصيبه من التحضر.

أما عني أنا فقد تمتعت بالرحلة، واستفدت منها الكثير. حضرت فرقة برلين السيمفونية ثلاث مرات، وفرقة أوپرا برلين مرتين وسأذهب إليها غدا مرة أخرى لقضاء رأس السنة. رأيت فيها «حكايات هوفمان» و«عطيل» وسأرى غدًا «حلاق أشبيلية». ورأيت متحف برلين الضخم ورأيت فيه «رأس نفرتيتي» وحجرتين مملوءتين بالآثار المصرية والسورية.

كنت في حفلة لفرقة برلين السيمفونية اليوم ولأول مرة استطعت أن أقدِّر دور المايسترو. كان المايسترو اليوم رجلا غير عادي اسمه «هربرت فون كارجان» كان التفرج عليه متعة في حد ذاته فحركات يديه كانت كرقصة

الباليه، وكأنه بعصاه يعزف جميع الآلات في الأوركسترا. وقد ظل الجمهور يصفق له أكثر من خمس دقائق. وعند انتهاء العزف قفزت فتاة جالسة أمامي لأنها لم تستطع تمالك نفسها من السرور. وقد عرف أفراد الأوركسترا أن التقدير موجه للمايسترو فانسحبوا بعد منتصف التصفيق وتركوه يتلقى الباقي وحده. وقد تضمن البروجرام قائمة بالاسطوانات التي سجلتها شركة «كولومبيا» بقيادة هذا المايسترو.

أرجو أن تكتبوا لي كثيرا وقد انتهى امتحاني وأعد بالرد بخطابات مفصلة. جاء أحمد إلى برلين وهو مبسوط جدا بحياته هنا. أرجو لوالدتي دوام الصحة الجيدة ولحافظ التوفيق في مسرحياته ولحسين أن يكون قد انتهى من كتابة قصته على بعضها.

جلال

* * *

[نورنبرج] يناير ١٩٥٩

والدتي العزيزة، عزيزي حافظ وحسين

من نورنبرج (ألمانيا) أكتب لكم. قابلت أحمد اليوم وأقيم معه في نفس البيت. سأقضي عشرة أيام بين ألمانيا وسويسرا ثم أعود إلى لندن لأبدأ الدراسة من جديد. تمتعت بأكل المأكولات المصرية التي أرسلتموها مع أحمد.

كنت معجبا بانجلترا حتى خرجت منها. فالشعب الألماني أرق بكثير وأكثر حبا للناس ـ على الأقل فيما يظهر ـ والروح الريفية الجميلة تظهر هنا بينما لا تظهر بتاتا في انجلترا. أسعار المعيشة هنا أعلى من انجلترا ولكن الطعام أفضل.

الألمان أقل نظافة من الانجليز ولكنهم أكثر مرحا. أتمنى لكم عاما سعيدا

جلال

* * *

[لندن] ٨ فبراير ١٩٥٩

والدتي العزيزة

أكتب لأطمئنك على مسألة قماش البالطو، فقد وعدني زميلي المراكشي بإعطائي النقود اللازمة خلال هذا الشهر، والمسافرون إلى مصر كثيرون، وكان حقك طلبتيه في أول الشتاء ومع هذا سأحاول جهدي أن يصلك قبل انتهاء البرد.

شكرا لحسين على البيان المالي، ومع هذا فمن مدة لم يكتب لي خطابا طويلا. وقد لاحظت أن حسين لم يقبض بعد النقود المتبقية لي في شركة مصر للسياحة (لدى يحيى الصادق)، وهي فرق ثمن تذكرة ألمانيا من تذكرة روما، وقد أخبروني هنا أن هذا الفرق سيدفع لمن اشترى التذكرة في مصر.

مر عيد ميلادي كغيره من الأيام: الأشياء الجميلة الوحيدة التي حصلت فيه هو استلامي لعدد كبير من كروت المعايدة الجميلة (شكرا عليها) وكذلك أنني عندما عدت إلى حجرتي في المساء وجدت على سريري تورتة مع كارت صغير بالتهنئة من صاحبة البيت وزوجها. وكان هذا لطيفا جدا منهما، ولا أعتقد أن من السهل العثور على صاحبة بيت مثل التي أقيم عندها، وهي شابة رقيقة في الثامنة والعشرين، إيطالية. وهي تذكرني في كثير من الأشياء بفاطمة. فهي ظريفة وحسَّاسة وتحب الموسيقى والقراءة وإن كان ابنها الصغير لا يترك لها وقتا. بمقارنتها بزوجها نخرج بملاحظات طريفة جدا. فهو شخص لا هم له إلا الفلوس. وهي تترك له إعداد حسابي وقبض النقود، وتتركه أحيانا يحرس الولد ليلا وتذهب هي لتحضر حفلة موسيقية. وهو يحرِّم عليها شرب السجاير ـ لأسباب مالية طبعا ـ فتحبس نفسها في الحمَّام لتدخن سيجارة، أو تجيء إلى حجرتي وتطلب مني سيجارة وتدخنها معي. والطريف أيضا أنه ولو أننا نناديها بـ«نيتا» فإن اسمها الحقيقي «فاطمة»! فأبوها حينما كان في مراكش سمع الاسم وأعجب به فلما رزق بها سماها فاطمة. وحينما كانت تذهب إلى المدرسة في إيطاليا ويسألونها عن اسمها وتقول فاطمة ينفجر الأطفال بالضحك وتنفجر هي بالبكاء، ولهذا إنقاذا لها أخذوا ينادونها بـ«نيتا»..

قُطِع زرار البالطو مرة ولم أجد خيطا أسود وكانت لا تزال عندي بكرة الخيط الأبيض التي أعطيتها لي، فاستعملت الخيط الأبيض ثم أحضرت القلم الرصاص ولونت الخيط من الناحية الخارجية! ولكنها الآن تقوم لي بهذه الأعمال..

البروفسور الذي أشتغل معه لا يزال يحوطني بمزيد من العطف والكرم الزائد. طلبت منه أخيرا شهادة بأنني سأستفيد كثيرا لو نظمت لي إدارة البعثات دروسا خصوصية في الرياضة، فلم يكتف بهذا بل كتب إنه «سعيد جدا

إذ يفعل هذا حيث إن المستر أمين طالب جاد وكفء» (a serious and able student) ـ أرجو أن أسمع منكم قريبًا.

جلال

* * *

لندن ١٢ فبراير ١٩٥٩

عزيزيَّ حافظ وحسين

كان الامتحان الماضي نهاية لمرحلة كاملة من حياتي في لندن، وأنا متهيئ الآن نفسيا لبداية مرحلة جديدة أريد فيها أكبر استفادة ممكنة وتصحيح بعض الأخطاء التي وقعت فيها في السنة الماضية. هذا علمًا بأن السنة الماضية مع هذا كانت من حيث فائدتها لي بمثابة ثلاثة أو أربعة أعوام من النوع الذي كنت أقضيه في مصر.

فرغم أني أفهم وأتكلم الانجليزية جيدا فقد لاحظت في نفسي في الشهور الأخيرة تكاسلا في معرفة كلمات جديدة اعتمادا على أني أصبحت أفهم كل جملة أقرأها، مع أن معرفة المعنى الدقيق للكلمة هام جدا خصوصا لإمكان استعمالها في الكتابة. وبهذا الصدد لاحظت أن القوي في اللغة العربية أقرب إلى إتقان اللغة الأجنبية لأن الكلمات التي تؤدي نفس المعاني، الحقيقية والمجازية، كثيرا ما تكون واحدة. كذلك فإن معرفة معاني الكلمات الجديدة يوسِّع الأفق، إذ أنه يلفت النظر إلى الكلمات والاصطلاحات الجميلة حتى في لغة الشخص الأصلية. حيث كان استعماله الدائم لها يمنعه من التمتع بجمال لغته.

سأبدأ في الأسبوع القادم أخذ دروس خصوصية في الرياضة، حيث إن الإلمام بها ضروري لقراءة كثير من كتب الاقتصاد.

وبدأت اليوم دروسا خصوصية في الرقص كما أفكر جديا في شراء كمان في هذا الشهر وبدء أخذ دروس من جديد.

إن نشاطي في المدرسة والجامعة ليس بسيطا، ففي الأسبوع الماضي اشتركت في ندوة في جامعة لندن عن: «The social and economic problems of the Middle East» ودارت بعدها مناقشة حامية بيننا وبين بعض الإسرائيليين

الذين أثاروا أسئلة بعيدة تماما عن الموضوع وكلها تدور حول «ضرورة إجراء مفاوضات بين إسرائيل والعرب لإقرار السلام في المنطقة».

ويوم الجمعة القادم سأشترك في ندوة أيضا في الجامعة عن: «The place of religion in the modern world». وفي الشهر القادم سيعقد في المدرسة «مجلس أمن صوري» يحاول بقدر الإمكان أن يكون صورة من اجتماعات مجلس الأمن الذي سيعقد «بحق وحقيق» في نفس الوقت. وسأمثل مع اثنين آخرين الـU.A.R وسيناقش المجلس من بين أعمال أخرى مشروعًا مقدما منا عن الجزائر ومشروعا مقدما من مندوب إسرائيل.

منذ شهر وأنا أدرس الاقتصاد الماركسي وأستطيع الآن أن أقول أني فهمته بدرجة طيبة جدا ولي نتائج شيقة من هذه القراءة وسأظل أتابع الموضوع إلى أول الشتاء القادم، بالإضافة إلى القراءة في تاريخ نظريات توزيع الدخل منذ أفلاطون حتى الآن.

انتهيت أخيرا من كتاب «فجر الإسلام»، الكتاب الذي بدونه كنا بلا شك سنرتدي ملابس أقل أناقة، ونأكل أقل. وقد امتلأت حماسًا لوالدي بعد قراءته. فهو كتاب قيم بكل معنى الكلمة، والواقع أن أهميته الكبرى هي الآتية: كاتب مسلم تربى تربية دينية يكتب سنة ١٩٢٨ عن مسائل هي في صميمها دينية بمنهج علمي لا يقل علمية بأي حال عن أرقى الكتب الأجنبية، وهو في طول الكتاب يحرص على ألا يكتب إلا الشيء المبتكر.

يضاف إلى هذا إيجاز باهر وأسلوب مشوق مع التواضع والحزم في نفس الوقت.

فإذا قارنت الكتاب بمقدمة طه حسين له، كان الفرق في الواقع كالفرق بين كتاب علمي من الدرجة الأولى وموضوع إنشاء يكتبه طالب مغرور في ثانوي(40).

تركت Brothers Kramazov دون إتمامها إذ أمامي كتب أهم في نظري ـ أرجو ألا يغضب حسين. وأقرأ الآن في: Ten Days that Shook the World

سرني كثيرا أن تكتب المساء عن مسرحيتي حافظ بهذه اللهجة من الثناء، أرجو أن يتم تمثيل القضية رقم ٧، ومع هذا فحتى إذا لم تمثل فهناك احتمال أن تمثل هنا في النادي المصري فقد قرأها سكرتيره وأعجب بها والنقطة الوحيدة التي تقلقه أنها تتضمن هجوما على القضاء المصري!

أرسل لكم صورة لأحمد أرسلها لي مع خطاب يتضمن ترجمة الكلام المكتوب معها وكذلك يشكو من أنكم لا تكتبون إليه.

إن تتبعي لأخباركم غير مرضٍ لأنكم لا تكتبون منذ مدة بشكل مفصل. فمثلا ما أخبار وظيفة حسين، نادية أصبح عمرها الآن ١٩ سنة فما التطورات التي طرأت عليها، وكذلك رجاء وأحمد، ما أخبار «منى» زوجة حمادة، إن الصورة التي في ذهني لها تصبح بالتدريج مثل الحلم من قلة ما أسمعه عنها، كذلك كيف أخبار حمادة أرجو أن يكون ما زال محتفظا بقوته وحيويته، وهل لا يزال أمين يتميز بالحكمة والظرف وهل يؤلف شيئا جديدا؟ كذلك ما آراء حافظ في الزواج الآن؟ وكيف تقبَّل حكم العفش، أرجو أن يكون قد تقبله بصدر واسع وألا يفكر في أي شيء يشبه الانتقام. رد والدتي: سرني طلبها البالطو فهذا يعني أنها تكثر من الخروج ولكن هل لا زال الخروج يتعبها، وهل لا زالت محتفظة بمرحها المعهود؟ ثم حسين: حيث أن تفكيره في الزواج من بنت الشيخ [...] كان لا بد مؤسسا على أسباب قوية فهل نسي الأمر كلية أم له مشروع آخر؟

حتى حمامة أريد أن أعرف ما إذا كانت تعاوده نوباته العصبية أم لا. وهل أنتم مرتاحون مع تأجير الدور الثالث؟

و[...] هل وجد وظيفة وإن لم يكن فما أثر ذلك عليه؟ أرجو أن تحاولوا أن تكتبوا لي خطابا يجيب على هذه الأسئلة وعلى غيرها ولا تخافوا من ذكر التفاصيل فإن أقلها أهمية له شأن لديَّ وإنما يضايقني عدم تتبع أخباركم لمدة طويلة.

جلال

سلامي الكثير إلى والدتي ولن أنسى موضوع البالطو حتى أرسله لها؟

ملحوظة صغيرة لحسين: لا زلت أتراسل مع June ولكن على فترات متباعدة. حينما أفكر الآن في علاقتكما أحمد الله على أنك لم تتزوجها ـ رغم مزاياها. فقد كانت فكرتي الأولى عنها نتيجة لكونها أول بنت تعرفت عليها في انجلترا. بمقارنتها بزميلاتي في المدرسة أجدها أقل بكثير. وبدون شك إنك جدير بمن هي خير منها مائة مرة.

ملحوظة أخرى مخصوص لوالدتي: لم يصبني من برد يناير إلا كحة بسيطة. في أثناءها مرت على المدرسة بعثة صحية مهمتها الكشف على صدور التلامذة بالأشعة. وكشفت وطلع صدري زي البمب. المهم، ليس فقط إن الكشف

مجانا بل سبقته دعاية لمدة أسبوعين لحث التلاميذ على التكرم بالكشف على صدورهم مجانا!

* * *

لندن ٢١/٢/١٩٥٩

عزيزيَّ حافظ وحسين

أخشى أن تكون خطاباتي الأخيرة تتضمن بعض دلائل الغرور. أرجو إذا لاحظتما ذلك أن تنبهاني إليه. ومع هذا فإن عليَّ أن أصف لكم النجاح الباهر الذي أحرزته اليوم في مؤتمر أقيم بجامعة لندن.

نظمت إحدى الجمعيات بالجامعة مؤتمرا بعنوان: «The East and The West and the uncommitted» الغرض منه إمداد الطلبة بدراسة authoritative لمشاكل دول كتلة الحياد الإيجابي وعلاقة هذه الدول بالمعسكرين. وقد بدأ الإعداد للمؤتمر منذ شهرين على أن يتكون المتحدثون: أستاذ بمدرسة لندن للاقتصاد، سكرتير ثاني بالسفارة السوفييتية، الملحق الثقافي بالسفارة الاندونيسية، محرر جريدة نيجيرية، المشرف على العلاقات الخارجية ببيت الهند، ووكيل المكتب الثقافي المصري ليقدم وجهة النظر العربية. قبل موعد المؤتمر بأربعة أيام يظهر أن وكيل المكتب المصري خاف من أنه لن يتمكن من الكلام في السياسة والاقتصاد فطلب مني أن أتكلم بدلا منه. وقبلت أنا قبل أن أعرف من سيكون باقي المتكلمين. وحينما عرفت لم أتمكن من الاعتذار. المهم حبست نفسي أربعة أيام أكتب في محاضرة مدتها ثلث ساعة، وقرأت من أجلها كتابا ظهر حديثا اسمه Egypt in Transition أمدني ببعض الإحصاءات اللازمة كالفوائد الاقتصادية للسد العالي، وكذلك بتاريخ علاقتنا بالغرب من ناحية المساعدات الاقتصادية ومشكلة التسليح.

دام المؤتمر ٢٤ ساعة كاملة لم نغادره خلالها إلا للنوم في بيوتنا والعودة من جديد في العاشرة صباحا.

تكلم أولا برفيسور من مدرستي، وأخذ يباهي بالديمقراطية الغربية وبالذات بالحرية التي نتمتع بها نحن، الطلبة الأجانب، الذين يجيئون إلى الغرب للدراسة. وكان كلامه فصيحا وظريفا وجذابا ولكنه خال تماما من أي منطق أو أدلة قاطعة.

فتح بعده باب النقاش وطلبتُ توجيه سؤال إليه، وطبقا للقواعد وقفتُ وذكرت البلد الذي أنتمي إليه: UAR فإذا بالحاضرين وخصوصا المنتمين لبلاد متخلفة مثلنا يرحبون بهمهمات: «Here, here» وكان سؤالي هو:

I wholy agree with Professor..... on the freedom we enjoy here in British universities, I only would like to ask him a simple question: Do you not think that but for the West, more universities would have been established ?in our countries

كانت إجابته من أحسن ما يمكن الحصول عليه: أنه لا يدعي أن الغرب ليست له أخطاء.. تكلم بعده السكرتير الثاني بالسفارة السوفييتية: شاب لطيف، لم تغادر وجهه ابتسامة احتقار مكتوم طوال حديث البروفسور الانجليزي ولكن ـ وهذا أثار دهشتي ـ لغته الإنجليزية ليست قوية، حتى إنه كان أحيانا في نصف الجملة يتوقف ثم يعيد الجملة من جديد ليغير تركيبها، بالنظر إلى أنه لم يجد الكلمة التي كان يبحث عنها!

كان الدور عليَّ في اليوم التالي، لم أنم ليلتها قبل الثانية والنصف صباحا حيث كنت «أبيِّض» الكلمة. وكان قد أثار قلقي أنه في افتتاح المؤتمر أخذ الـChairman يبين أهمية المؤتمر حيث أن المحاضرين «are distinguished people» أثارت كلمة distinguished رعبي ولهذا لم أدخر جهدا في إعداد الكلمة. قبل قرائتها اعتذرت لهم لأنني سأضطر إلى قراءة الكلمة بدلا من ارتجالها بالنظر إلى أن المتكلمين كلهم distinguished!

المهم بدأت كلمتي بداية أثارت انتباههم حيث أني قلت، أنني إذ أستعرض مشاكل العالم العربي الداخلية: I do not know of any one problem of which the West is not responsible. وقلت أنه قد يُعترض على هذا بأنه موقف غير علمي أن أحاول رد مشاكل بهذه الكثرة والتعقيد إلى سبب واحد. صحيح أن الطريقة الديالكتية في التفكير تعلمنا أن ندرك تداخل الأسباب المختلفة وتأثير بعضها في بعض. ولكن الطريقة الديالكتية نفسها تعلمنا أيضا أنه من بين العوامل المختلفة يوجد دوما عامل أساسي بالغ الأهمية وقد يكون مسئولا عن وجود العوامل الأخرى. ثم بدأت أستعرض مشاكلنا مشكلة مشكلة وأبين كيف أن الاستعمار مسئول عنها، مدعما كلامي بالأرقام والبيانات الدقيقة.

من أدلة نجاح كلمتي ما يأتي:

١. حينما وقف الملحق الأندونيسي ليتكلم بعدي بدأ بقوله أنه حيث أنه يتكلم بالنيابة عن آخر فإنه لم يتوفر لديه الوقت ليعد كلمة well-prepared ومزودة

بالـdocuments ككلمة المتحدث السابق (كلمة العبد الفقير!)

٢. قُدمت إلي تسعة أسئلة ولم يُقدم إلى الاندونيسي إلا سؤال واحد.

٣. قام متحدث باكستاني يدافع عن انضمام بلاده لحلف بغداد وأشار إليَّ بقوله: The distinguished speaker of the U.A.R

٤. تكلم متحدث أمريكي فقال إنه رأى من واجبه أن يرد على الانتقادات الموجهة من المتحدث السوفييتي وعلى الـ«strong attack of the Arab speaker»

كانت ثمانية من الأسئلة التسعة الموجهة إليَّ تدور حول إسرائيل! وكلها ذات مضمون واحد: لماذا لا يجلس العرب مع إسرائيل ليتفاوضوا للوصول إلى حل سلمي؟ وهاجمتُ في ردي فكرة أن السلام أمر مطلوب في كافة الظروف وقلت أن العدالة هي الهدف الأولى بالرعاية وأنه إذا تعذر تطبيقها بالسلم فيجب تطبيقها بالعنف. وعلق انجليزي ذو مظهر مهيب تبين فيما بعد أنه وكيل الـBritish Council على كلمتي قائلا أن الوحدة العربية لم يكن السبب في تفكيكها هو الاستعمار الغربي بدليل أنه قبل ذلك قسم الأتراك البلاد العربية إلى عدة دول. ثم أشار إلى أنه لا يمكن إنكار الخدمات التي قدمها الغرب أثناء وجوده في بلادنا.

عن السؤال الأول قلت أن التقسيم التركي للبلاد العربية كان إداريا وليس سياسيا وأنهم لم يحاولوا قط غرس فكرة القومية المستقلة في البلدان المجزأة، كما فعل الإنجليز والفرنسيون. وعن الثاني قلت أن الغرب لم يعطينا إلا الحد الأدنى اللازم لاستمرار بقائه في بلادنا.

المهم أني كونت لي أيضا كثيرا من الأعداء بهذه الكلمة وخاصة من اليهود، الذين أصبح بيني وبينهم ثأر شخصي. حينما عدت إلى البيت كانت البنت الإسرائيلية التي تقيم معنا قد سمعت بالمؤتمر من اليهود الآخرين، وحاولت مناقشتي لإقناعي والظاهر بلا شك أن هؤلاء اليهود أخبروها بأنها يجب أن تحاول تغيير رأيي. ورفضت مناقشتها لأنه سبق أن تناقشنا من قبل فتخاصمنا وارتبكت صاحبة البيت فيمن تُرْضي وخافت أن يترك أحدنا البيت بسبب الآخر. والآن وقد تصالحنا لا أريد تكرار الموضوع.

بعض الملاحظات الختامية:

١- اليهود لا يضاهون في التنظيم والنشاط، ولا يمكن أن يتركوا مناسبة تافهة أو هامة إلا وكان لهم صوت فيها.

٢- العرب هنا يثيرون الحسرة، كان منهم في المؤتمر اثنان فقط أحدهما فلسطيني والثاني عراقي ولم يفتح أحدهما فمه، وبدلًا من أن يتفرقا في فترات الراحة ليكلما أجانب كانا يكلمان بعضهما!

٣- تثير هذه المواقف والملاحظات إشفاقي الشديد على عبد الناصر. إن فجوة ضخمة جدا تفصله عن الشعب فهو يسبقه في الوعي والثورية بمراحل كبيرة، وبينما يدرك اليهود والغربيون أهميته لا يحاول الشعب أن يشاركه المسئولية بل لا زال سلبيا وفرديا.

٤- المانشستر جارديان تؤيدنا دائما إلا في مسائل إسرائيل فتتخذ مواقف تثير السخط.

٥- القوميين العرب هنا، وهم يسيطرون على رابطة الطلاب العرب لا همَّ لهم بعد تفوقهم على الشيوعيين إلا مهاجمة الشيوعيين، وكأن الاستعمار قد انتهى من بلادنا، ومستواهم الثقافي يثير الرثاء، قولوا هذا لمختار أرجوكم واجعلوه يحذر الوقوع في هذا الخطأ.

في كتاب Egypt in Transition حقائق قيمة جدا عن الثورة الصناعية التي تحققها مصر وهو كلام يرفع الرأس جدا، وأنا أتساءل أليس من الأفضل لو نشرت الجرائد المصرية مثل هذه الحقائق بدل الكلام الفارغ الذي يملأها؟

سمعت في الراديو اليوم المذيع المصري وهو يعلق على الوصلة الثانية لأم كلثوم، فأثار قرفي الشديد استعماله لنفس العبارات القديمة: «ماذا أقول.. المعنى الرائع الجميل مهما قلت فلن أستطيع أن أصف لكم أيها السادة أثر كوكب الشرق..» إلى آخر الكلام الفارغ.

أحب جدا أن أسمع منكما عن تطور آرائكما السياسية ـ مع أحسن تمنياتي.

جلال

* * *

[لندن] ٢٤/٢/٥٩

عزيزي حسين

أرجو أن يكون قماش البالطو وصل إلى ماما ولكن أملي ضعيف في أنه سيعجبها.

جعلتني قراءتي في الشهرين الأخيرين أكتشف الخديعة الكبرى التي أوقعنا فيها الاقتصاديون غير الماركسيين حيث جعلوا علم الاقتصاد ينحرف انحرافا خطيرا عكس اتجاهه الصحيح بغرض إخفاء العلاقات الاجتماعية التي تحكم النظام الاقتصادي. لا أقول إن نتائجهم غير صحيحة ولكنها مشوبة بالعيبين الخطيرين الآتيين:

أولا: بدأ علم الاقتصاد عند آدم سميث، وباعتباره علما اجتماعيا، بداية صحيحة حيث وجه عناية كبيرة إلى علاقة الناس بعضهم ببعض كمنتجين ومستهلكين. أما على يد النظرية الحديثة فقد تجاهلوا علاقة الناس بعضهم ببعض وركزوا على علاقة الإنسان بالسلعة، ومن ثم ظهر ما يسمى بنظرية المنفعة. وبالتالي أصبح الشخص العادي وطالب الاقتصاد ينقبان عبثا في كتب الاقتصاد الحديثة عن العلاقة الاجتماعية بين الناس من حيث الإنتاج وتوزيع الثروة.

ثانيا: بذل الاقتصاديون المحدثون جهدهم لجعل قواعد علم الاقتصاد من العمومية بحيث تنطبق على أي مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي: الإقطاع، الرأسمالية، الاشتراكية. وظنوا، وحاولوا أن يجعلونا نظن، أن هذا دليل على تقدم العلم. وساعدهم على هذا أن هذه المحاولة تجعل العلم بطبيعة الحال بالغ التجديد (وهذا هو السر في دخول الرياضة بشكل صارخ في الاقتصاد الحديث)، ومن ثم زعموا أن الاقتصاد، ولو أنه علم اجتماعي، إلا أنه يقترب بالتدريج، والمطلوب أن نجعله يقترب، من العلوم الطبيعية من حيث كونها علوما دقيقة: exact sciences.

وهكذا يظهر لك بسهولة، أنه ولو أن النتائج التي يتوصلون إليها صحيحة ودقيقة، إلا أن هذا على حساب الحقيقي والجوهري. فكَوْن العرض والطلب يحددان الثمن في أي مجتمع، كلام جميل ولا اعتراض عليه، ولكن الوصول إلى قواعد تنطبق على حد سواء على الرأسمالية والاشتراكية يؤدي من غير شك إلى حجب الفوارق الجوهرية بين الاثنين. فَهُمْ إذًا بهذا التجديد قد غسلوا الطفل ثم ألقوه مع الماء!

ما أخبار سفرك؟ أرجو أن تكتب لي خطابا طويلا فمنذ مدة لم أتلق منك شيئا.

جلال

* * *

«والآن سأتحدث إليك أيها الأخ الأحمق پرسيوس

ولا أبغي من حديثي سوى الخير لك».

ـ هزيود، «الأعمال والأيام»(41)

[القاهرة] ٢/٣/٥٩

إنني أبعد الناس عن أن أعلق أهمية كبيرة على الخطابات لاستكشاف اتجاهات راسلها وحقيقة أحواله. نظرة واحدة ألقيها على الخطابات التي كتبتها من لندن كفيلة بأن توضح لي أن المرء عادة يسعى من وراء خطاباته إلى إحداث انطباعات معينة لدى قارئها أكثر من سعيه إلى تصوير حاله تصويرا صادقا، خاصة إذا كان الخطاب موجها إلى عائلة أو مجموعة من الناس، كما كانت الحال مع رسائلي، وكما هي مع رسائلك، حيث ينعدم الطابع الشخصي أو يكاد وكيف أنسى كيف كنت في كثير من الأحيان أكتب رسالة ملئها المرح إلى شخص، أعقبها في نفس اليوم بكتابة رسالة كئيبة إلى آخر، بينما لم يكن يمكن وصف شعوري في ذلك اليوم بهذا الوصف أو ذاك؛ أو كيف كنت أبث في خطاب لصديقتي عاطفة تبدو حارة مخلصة، بينما أكون وقت كتابته بارد الشعور نحوها غير مكترث.

بل إنك لواجد هذه الصفة العرضية للخطابات في رسائل كبار الأدباء بينما كان المفروض، وهم المدركون لما يعلقه عليها الباحثون والتاريخ من أهمية، أن يكونوا أكثر حرصا أثناء تدبيجها على دقة وصفهم لمشاعرهم وآرائهم فإذا قرأت مثلا ما ورد في رسائل تولستوي عن دوستويفسكي خيل إليك أنه كان يبغضه وينفر من أعماله ومنهج تفكيره، بينما يسجل في كتابه «ما هو الفن» ـ وهو هنا أكثر حرصا وشعورا بالمسئولية ـ يسجل أعمال دوستويفسكي بأسرها كأرفع مثل لما كتب في الأدب. كما تجد في رسائل معينة سطرها تشيكوف عقب مقابلات له مع تولستوي استصبابا للعنات على تولستوي، واصفا إياه بالسطحية والتجني، بينما ما كان ليكتب هذا الرأي المتسرع الهوائي في كتاب أو مقال يحتسب عليه ويؤاخذ به.

مع كل هذا ورغم ما يعتري الإنسان من الخجل في معظم الأحيان عندما يستعرض خطابات كتبها في فترة ما من حياته، خاصة إن كان ملئها الغرور والإحساس الخاطئ بالتفوق، فإنه من الممكن للمرء أن يستشف من وراء الخطاب لمحة عن تطور كاتبه الروحي حتى إن كان من الصعب أو المستحيل

التعرف على حالته النفسية وحقيقة مشاعره. ذلك أنه من الممكن على الأقل من متابعة طبيعة الاهتمامات الجديدة لمحرر الرسالة، والتغير الذي يطرأ على تقييمه للأشياء، تخمين الاتجاه الذي يسير فيه تطوره الأخلاقي.

ربما يصيبك من الجزع والدهشة ما أصابني منها، عندما تبينت منذ أيام وأنا في سبيل إعادة قراءة «الأنساب المختارة» لجوته، أننا قرأناها، أنا وأنت، لأول مرة وفي نفس الوقت تقريبا، عام ١٩٤٩، أي منذ عشر سنوات. عشر سنوات! وكما أن المسافر يكوِّن فكرة عن سرعة القطار وما يقطعه من مسافات من مراقبته للطبيعة تتراجع خارج القطار، كذلك حاولت، إذ أعدت إلى ذهني بالتذكر ومراجعة اليوميات صورة لتلك الفترة الممتازة، أن أستكشف مدى التقدم أو التقهقر الذي طرأ على شخصيتي، وشخصيتك، أثناء هذه المدة الطويلة منذ كان شعورنا قويا بالابتهاج بالحياة والتفتح الروحي للحقيقة. وصدقني عندما أقول، إن الذي خرجت به من المقارنة لم يكن بالأمر المبهج.

لست ممن يؤمنون بقيمة كثرة التجارب ما لم يكن لهذه الكثرة أثر طيب في تهذيب الخلق وترقيق المشاعر. وهو أمر يمكنك أن تلمسه من الكتب الدينية التي وعدت بالجنة الممتازين في الخلق والمشاعر دون الحكماء والأذكياء أو المثقفين. قد تعلمك التجارب أن تكون أكثر استخفافا بالمرأة وأكثر جرأة في معاملتك إياها عند التعرف بها ولكن، هل هذا هو الحق؟ وقد يدهشك أن تعلم أنني بدأت مؤخرا أميل إلى أن أنسب المسئولية الأولى لهذا التقهقر إلى الفترة التي قضيتها في انجلترا. لقد تضاعفت أثناءها تجاربي غير أن شعوري الأخلاقي المرهف قد لمست بعد عودتي أنْ قد علاه الصدأ.

والسبب؟ هذا ما أحاول الآن معرفته كي تتمكن من الاستعداد له إن آمنت بصحته. أعتقد أن السبب الأساسي لهذه الظاهرة هو أننا عند سفرنا إلى الخارج، وبالنظر إلى توقعاتنا التي كوَّناها منه، وكثرة ما نتعلمه ونضيفه إلى خبراتنا، نصبح أكثر شعورا بأشخاصنا وانغماسا في ذواتنا، حتى لكأنما نحن مركز الكون. فالناس أدوات، والمرأة وسيلة لإشباع حاجة لنا، والحب مفتقد، والتعاطف لا مكان له، والفكر منصرف إما لشهادة أو لزيادة علم أو لتهيئة ظروف مادية ملائمة. ويزيد من هذا الإحساس بالنفس قوة، وجودنا في ظروف أجنبية عنا وقوم غرباء قلما يستضيفونا إلا لأمر في نفوسهم، أو يكونون معنا علاقات صداقة عن غير غرض مادي. وإنك لتسير في طرقات غريبة باردة، وتحشر نفسك بين كتل آدمية مخالفة، فكيف يمكن إلا أن يزيد شعورك بذاتك وتقوقعك على نفسك؟

سبب آخر كنت قد ذكرته لك في خطابي عن مسرح أيونسكو، ألا وهو انبهارنا بما يصادفنا من أشكال جديدة للفنون وسائر اتجاهات الفكر، انبهارا هو راجع إما إلى شعور خاطئ بصغر أنفسنا تجاه المسمين بقادة الفكر الغربي، أو رغبة سطحية فجة في الظهور أمام معارفنا بمظهر المطلع على أمور هم جاهلون بها. والنتيجة في كلا الحالين أن يفقد الشخص حاسته الخلقية المرتجلة الصافية للتمييز بين العميق أصلا وما اتخذ سمات العمق تكلفا واصطناعا.

فإن ارتبط كل هذا بإيمان أو حتى بدراسة طويلة يشوبها العطف، للفلسفة المادية، وأعني الماركسية على الأخص، فقل على صاحبك العفاء، واطلب الرحمة لمعارفه. فما رأيت في حياتي أناسا هم أكثر صلفا وزهوا بمعارفهم، وأية معارف! من أولئك الذين آمنوا بفلسفة هيأت لهم أن يضعوا كافة مظاهر الحياة في جيوبهم، ينفخون في وجهك بعللها في كل حين، دون أدنى ذرة من التفتح أو رغبة بريئة في معرفة الحق، وكأنما بسط الله أمامهم الحق بسطا، ما عليهم إلا أن يراجعوه. «وهكذا يظهر لك بسهولة، أنه حتى لو كانت النتائج التي يتوصلون إليها صحيحة ودقيقة، إلا أن هذا على حساب الحقيقي والجوهري». فإن لمست معي أن غالبية أفراد هذه الطائفة هم عادة شباب في العقد الثاني والثالث من حياتهم، فهمت ما أعني.

علمت منذ أيام أن أكثم الخولي، ذلك الشاب الذي طالما سمعنا عن تفوقه ونبوغه، قد عين مدرسا للقانون التجاري في كلية الحقوق بعد أن نال شهادة الدكتوراه في... «الكمبيالات»!!! أي أسف تملكني له وحسرة على مواهبه ونبوغه عندما سمعت الخبر، خاصة وقد كان المفروض في رأيي من شخص مثله أن يفعل في باريس ما فعله توفيق الحكيم؛ فيخالف رغبة أبيه ويدرس الأدب أو الفلسفة أو فرع من الفنون. سيدفن إذن بقية حياته في دراسة وتدريس الشروط اللازم توافرها لصحة الكمبيالة، مؤمنا بقيمته، وقيمة شهادته، أو ربما بالقيمة الإنسانية لما خص جهوده به. قد يحدث فيترك قراءة الإنجيل إلى قراءة كتاب كامل ملش في شروط الإفلاس باعتباره «أكبر قيمة»، وقد يترك فيما بعد التدريس بالجامعة إلى المحاماة، متى ارتأى أن الأخيرة تدر عليه ربحا أوفر.

حسين

* * *

[لندن] ٦/٣/٥٩

عزيزي حسين

سلمني ساعي البريد اليوم، خطأ، خطابا موجها إلى «الأخ الأحمق پرسيوس»، ومع هذا فحيث أن الخطاب تضمن بعض عبارات تخصني فقد رأيت ضرورة الرد عليه.. رغم إعجابي بعمق الخطاب وذكائه فقد خلَّف في نفسي بعض الحزن، إذ أنبأني بأننا، أنت وأنا، مقبلان على مرحلة كثيرا ما سنختلف فيها.

إن خطابك غني، ولهذا فقد استطاع انتزاع موافقتي على بعض أفكاره، ولكن اختلافي معك ينصب على الجوهر: على الروح العامة المسيطرة على الخطاب، على النظرة إلى الحياة، وباختصار، وللأسف، على الميزان الذي تقوِّم به الأشياء.

وببعض التفكير لاحظت أن اختلاف نظرتنا إلى الحياة راجع إلى اختلاف قديم في المزاج. لقد درست أنت الماركسية ولكنها لم تستطع أن تستوقفك بينما حينما درستها أنا، استوقفتني، ولم يعد بَعْدُ من الممكن أن تثير حماسي أفكار لنيتشة أو أمثاله مهما احتوت من الذكاء. تُرى ما السبب في اختلاف موقفينا؟ حينما كنت صبيا قرأت عن نابليون، وقد استحوذ فترة طويلة على حماسك، ولم تستطع أخطاؤه أن تقلل من هذا الحماس والإعجاب. وقد قرأت بعد ذلك عن لينين واستحوذ منك على نفس الإعجاب رغم الاختلاف العظيم بين الشخصيتين.

تُرى هل صحيح أنك كنت دائما، ولا تزال، تُفْتن بالجميل لا بالصحيح، بالضخم لا بالصادق؟ وهل صحيح أنني على العكس تماما من ذلك؟ أنا أعتقد هذا. هذا في نظري هو سر إقبالك على الأدب والفنون وعدم استطاعتك الصبر على العلم.

إذا وافقت على هذا فسيريحني هذا كثيرا في مناقشاتي المقبلة معك، إذ سيحصر المشكلة في أيهما الأفضل والأجدر بالاهتمام وأيهما الأجدر بأن يضحى به: الجميل أم الحقيقي، وأنا لا أتردد على كل حال في اختيار الثاني. خطابك الأخير يؤيد هذه الحقيقة، فهو يتضمن بعض الأخطاء، وبعض القفزات من مقدمات إلى نتائج لا تترتب على المقدمات، والتسوية بين أمور لا وجه للتسوية بينها. كما يتضح مما يلي:

الخطاب في عمومه، والجزء الأخير منه بشكل خاص يعكس عدم موافقتك على موقف الشخص المؤمن بالفلسفة المادية. ومع هذا فقد أتعبني بحثي عن أي حجة واضحة تقدمها لتأييد موقفك. هل حجتك في هذه العبارة: «فإن ارتبط كل هذا بإيمان أو حتى بدراسة طويلة يشوبها العطف، للفلسفة المادية، وأعني الماركسية على الأخص، فقل على صاحبك العفاء، واطلب الرحمة لمعارفه. فما رأيت في حياتي أناسا هم أكثر صلفا وزهوا بمعارفهم، وأية

معارف!..»؟ لا أجد في هذه العبارة غير هجوم لغوي. ربما كان أقوى من ذلك قولك أنهم «آمنوا بفلسفة هيأت لهم أن يضعوا كافة مظاهر الحياة في جيوبهم، ينفخون في وجهك بعللها في كل حين، دون أدنى ذرة من التفتح أو رغبة بريئة في معرفة الحق، وكأنما بسط الله أمامهم الحق بسطا، ما عليهم إلا أن يراجعوه».

فهذه الفقرة تتضمن اتهامين: أولا اتهام بعدم الحيدة «دون... رغبة بريئة في معرفة الحق». وثانيا: اتهام كثيرا ما يتردد هنا بأن الماركسيين يقدمون تفسيرا هو (too simple to be true). لا أدري على أي أساس يمكن أن يوجه الاتهام بعدم الحيدة إلى الماركسيين دون غيرهم من أصحاب الرأي. لعل السبب هو حماسهم الشديد لفكرتهم بحيث يثار الظن بأن حماسهم سابق على اقتناعهم. ولكن الحماس ليس جريمة. وليس ذنب الماركسيين أن أفكار معارضيهم تفتقر إلى الحق وبالتالي عجزت عن إثارة الحماس.

ولعلك ترى في حالتي أنا دليلا يقنعك. فلا يستطيع أحد أن يتهمني بأني عندما بدأت دراسة الماركسية كنت غير محايد، فأنت تعرف أنه كان لي رأي مضاد، وكان الطبيعي أن أقرأ الماركسية للعثور على ثغرات وعيوب فيها وليس على مزايا.

ثم دعني أذهب أبعد من ذلك: من في هذه الدنيا ـ ما لم يكن لا قلب له ـ يبدأ في دراسة شيء دون أن يكون لديه نوع من التحيز؟ ومع هذا فهذا التحيز غير ذميم. لأنه حتى هذا التحيز الابتدائي كان نتيجة نوع ـ ولو بدائي ـ من الدراسة والمعرفة. فحينما أصادف شحاذا في الطريق ويثير في نفسي العطف، أي «تحيزا» له ضد الأغنياء، ثم أعود إلى البيت فأبدأ في دراسة الماركسية، لا أكون في الواقع غير علمي، لأن إدراكي لحالة الشحاذ كان تجربة علمية كاملة.

ليس بصحيح أيضا أن التفسير الذي يقدمه الماركسيون is too simple to be true فالجهال من «الماركسيين» هم فقط الذين يصدرون أحكاما سهلة سريعة ومتشابهة على كافة الأحوال، وليس مثل الماركسية فلسفة أدركت الحياة في تعقيداتها. وكل «ذنب» الماركسية أنها أدركت أنها يجب أن تكون فلسفة للعمل وليست مجرد نظرية في الفراغ، وأن نهاية الفكر وغايته هو العمل وليس البرج العاجي، وأنه يجب وضع حد للفلسفة التي تريد تفسير العالم دون تغييره. و«ذنب» الماركسية أيضا أنها ليست فلسفة انهزامية تكتفي بملاحظة تعقيدات الحياة دون التوغل فيها لحلها، وأنها رأت وضع حد لكل الفلسفات التي تنتهي برفع الأيدي إلى السماء الخاوية والتساؤل المشوش المتشائم عن معنى الحياة.

شيء آخر يجعلك أنت بالذات مستعدا أكثر من غيرك لتقبل هذا الانتقاد للماركسية بأنها «too simple to be true»، هو مزاجك الأدبي. فالحقيقة التي يجري وراءها العالِم أقرب بكثير إلى متناول اليد من الحقيقة التي يجري وراءها الفنان. فبينما موضوع حقيقة العالم هو مثلا: ما الذي يجعل الفقير فقيرا، يحاول الفنان فهم الوحدة والوحشة والضعف البشري..إلخ. بل الفارق أهم وأخطر من ذلك: إن الفنان في الواقع لا يحاول فهم أسباب الوحدة والوحشة والضعف البشري..إلخ بل يحاول التعبير عنها والانفعال بها، بينما مهمة العالم تحليلية.

هذا الفارق الضخم هو الذي يجعل العالِم دائم التقدم ولا يتوقف عن إحراز المكاسب اليقينية، بينما لا يزال الفنان يدور في نفس الدائرة، معمِّقا إياها بلا شك ولكنه لا يتجاوزها، وهو على كل حال لا يصل إلى نتيجة يقينية قط ولا زالت الأسئلة التي تعذب فنان القرن العشرين هي الأسئلة التي كانت تعذب فنان اليونان القديم: من أنا؟ ما معنى الحياة؟ هذه الأسئلة: من أنا وما معنى الحياة للعالِم جواب جاهز عليها، ولكن الفنان في الواقع لا يسألها بغرض العثور على جواب: إنه فقط يعبر عن عذابه وألمه(42)..

إني أوافق تماما على تحليلك العميق لأثر التجارب الجديدة على نظرتنا للحياة، وأتجاوب تماما مع ما تقول عن اختلاف حالتنا النفسية وشخصيتنا منذ كنا نقرأ الأنساب المختارة. ومع هذا فإني لا أوافقك على قولك أن هذا تقهقر. لا أوافق على أن تعلم الجرأة في معاملة المرأة والشعور العميق بالعزلة النفسية وزيادة الشعور بالذات، يعتبر تقهقرا. أنت في هذا تفضل سذاجة الطفل على واقعية الرجل، تفضل سعادة الشخص أثناء حلمه على المتع الواقعية والناضجة التي يتمتع بها أثناء الاستيقاظ. وأنت تقول إن هذه التجارب قد يكون لها أثر ضار وعكسي على تهذيب الخلق وترقيق المشاعر. هذا ليس صحيحا إلا بالنسبة للتجارب الخاطئة، أما التجارب الصحيحة فهي تهذب الخلق وترقق المشاعر وإن كانت في نفس الوقت تكسبنا واقعية وقوة.

ثم أنت في النهاية تقفز فجأة إلى مثال «أكثم الخولي» والقانون التجاري. هل تعنيني إلى حد ما بهذا المثال؟ لقد سحرتك المقارنة بين «شروط صحة الكمبيالة» وبين جمال الحياة وفنيتها وتعقيدها حتى ظننت أنك قد لمست الصواب. إن مزاجك الأدبي يجرك مرة أخرى إلى اعتبار تصرف توفيق الحكيم في باريس من حيث تفرغه للأدب والفلسفة والفن هو التصرف الوحيد المعقول. إني معك أرثى لحال من حكم عليه بأن يحاضر في شيء لا يمر في ذات الوقت بقلبه، ولكن هذا لن يكون حالي وليس هذا بالضرورة حال كل من اشتغل بالعلم. إن العلم «الصحيح» لا بد أن يمر بالقلب بشكل أو بآخر، كما يمر

بالعقل، ولن أحاول الدخول فيما أعني بالعلم الصحيح فأظنك تستطيع فهم ما أعني.

ولكنك تقفز بعد ذلك قفزة أكبر غير مبررة، فتقول إن أكثم الخولي قد يترك التدريس بالجامعة بعد هذا إلى المحاماة إذا ارتأى أن الأخيرة تدر عليه ربحا أوفر.. لقد عجزتُ عن معرفة ما تعني؟ هل عدم التصرف كما تصرف توفيق الحكيم في باريس يجر حتمًا إلى الاشتغال بالمحاماة لأسباب مادية؟ وهل من المستحيل أن يكون للعالِم رسالة نبيلة وغير مادية كما قد يكون للفنان هذه الرسالة؟

أرجو أن ينجح هذا الخطاب في إقناعك بأن الأخ پرسيوس، ليس على كل حال بالحماقة التي افترضها فيه هزيود في البداية.

جلال

* * *

[لندن] ٢٢/٣/٥٩

عزيزي حسين

كتب إلي «محمد عبد العزيز أحمد» طالبا سلفة قدرها عشرون جنيهًا فأرجو إعطاءها له.

لم يصل إلى الأخ الأحمق پرسيوس أي رد من أخيه هزيود ردا على خطابه فما السبب؟

عزيزي حافظ،

وصلني خطابك الذي تضمن مجموعة من الاتهامات لي مثل «الحماس مع عدم الوعي» وأني «أقرأ كلمات لا معنى لها» وأني «أتهم شعبنا بالتأخر» ونحو ذلك، وكلها اتهامات مرفوضة لأنها غير صحيحة. ولكن الاتهام الثاني بالذات كان أقل الثلاثة إثارة لاستيائي وفي نفس الوقت أكثرها إثارة لدهشتي. ولن أحاول بالطبع أن أدافع عن القراءة فلا يمكن أن تكون أنت تعني انتقادها (وإن كان باستبعاد هذا الظن يصعب العثور على أي معنى آخر للعبارة) ولكن أريد فقط أن أذكر نقطة بسيطة: لقد ذكرتَ في أكثر من خطاب أن (ممارسة

الحياة نفسها أهم بكثير من القراءة) أو ما يشبه ذلك. ما الذي تقصده بممارسة الحياة؟

كنت أتقبل هذه الملاحظة من شخص ثار على حياة المدينة الرتيبة وسافر للحياة مع الفلاحين في الريف، أو شخص يزور الأماكن الشعبية أو يجوب العالم للعيش مع الشعوب المختلفة.

ملحوظة أخرى صغيرة: لماذا تصر أنت وحسين على اعتبار «الفن» الميدان الوحيد الذي يمكن للشخص أن يظهر فيه ذكاءه وإنسانيته؟ إني أعتقد أن هذا الموقف هو من قبيل «الإرهاب» الذي يجب الكف عنه.

رأيت فيلم The Old Man & the Sea، ولم يعجبني كثيرا بمقارنته بالقصة، ولكنه في حد ذاته جيد. وعيبه الخطير في رأيي، وإن كان أحدا من النقاد هنا لم يذكره، أن سبنسر تريسي بدا وكأنه «لا يأخذ الفيلم جد»، فكان طول الفيلم تعلو وجهه ابتسامة لا تتغير ولا معنى لها، كل ما هنالك أنها هي ابتسامته الشخصية.

من الأفلام الجميلة التي رأيتها أخيرا، فيلم يوناني A Matter of Dignity، حبذا لو جاء عندكم، وفيلمين إيطاليين قديمين: Umberto D إخراج دي سيكا وSunday in August، وفيلم فرنسي قديم أيضًا لجان جابان اسمه La Grande Illusion وقد قيل عنه في معرض بروكسل أنه من أحسن ١٢ فيلم التي ظهرت على الإطلاق. وكلها من الأفلام، التي تعتبر مشاهدتها مكسبا حقيقيا.

من الأشياء الكثيرة التي تعلمتها هنا، سواء من الندوات التي تعقد في المدرسة أو خارجها، هو طريقة المناقشة بحيث تنتج المقصود منها. والمناقشة العلمية المنظمة من الأشياء التي نفتقدها في مصر.

أرجو أن تحتوي خطاباتكم القادمة على الإجابة على الأسئلة التالية:

١. هل ولدت منى وجريتا. وما نوع المولود؟

٢. هل هناك تفكير لدى حافظ أو حسين في الزواج؟

٣. ما احتمال إعادة العلاقات الدبلوماسية بين الجمهورية العربية وبريطانيا؟

٤. هل تشعرون بضيق من تأجير الدور الثالث؟

٥. ماذا تم بالنسبة للجنة التي كان الغرض منها وضع أيديولوجية جديدة لبلادنا والتي كان الدكتور عبد العزيز عضوا فيها؟ هل أصدرت أي شيء مطبوعا؟

٦. ما أخبار رمضان في عائلتنا هذا العام، هل صام أحد؟ أم هل نُسي الموضوع كله؟

٧. كيف صحة والدتي بالتفصيل. (كلمة «على ما يرام» أرجو عدم استعمالها)

٨. متى يسافر عبد الحميد من جديد إلى ألمانيا؟

٩. ما أخبار حسين في التأليف. هل طبع شيئا؟

كذلك أرجو من حافظ إرسال «المدى الجديد» إليَّ وكنت قد طلبت من قبل أن تشتركوا لي في مجلة الآداب فلماذا يا ترى لم تفعلوا؟

مع تحياتي لوالدتي.

جلال

* * *

القاهرة في ٣٠ مارس ١٩٥٩

عزيزي جلال

شكرا لخطابك الأخير. ولعلك توافق معي على تأجيل مناقشة الموضوعات التي أثرناها إلى حين يهيئ لنا أن نجتمع. فقد يؤدي الخلاف النظري عن طريق المراسلة إلى خلاف حقيقي، كما أن الغالب أن يكون لدى أحدنا حجج يحجم لسبب من الأسباب عن بثها في رسائله فيصبح من غير الإنصاف الاكتفاء في تقدير موقفه بما اقتصر على إبدائه من الحجج. نقطة واحدة أحب أن أشير إليها قبل أن نقفل ـ بعد إذنك ـ باب المناقشة. وهي أني لا أحسبك مبالغا حين تذهب إلى ما ذهبت إليه من تأكيد لاختلاف شخصيتينا، وإشارتك إلى هوة وهمية تفصل بين نزعاتنا وعقليتينا. ومع هذا فإني لا أرى في هذا الاعتقاد منك أمرا مستغربا. فالشبيهان أكثر نزوعا إلى تهويل أوجه الخلاف بينهما من صاحبي الطباع المتناقضة. فإن كنت قد بتَّ مغرما بالاقتصاد والسياسة فإني أضرب لك مثلا لهذا ما نلمسه من تشاحن بين أحزاب اليسار تشاحنا هو أعظم حدة وأشد لغطا من ذلك الذي تستشعر به هذه الأحزاب نحو أحزاب اليمين.

بل إنه حتى لو كان الأمر على ما ذكرت فإني لا أرى هناك مجالا لحزن أو أسف، أو إشفاق لما قد يؤدي إليه الاختلاف بيننا من نقاش وسجال. فليتمسك كلانا ـ إن شئت ـ بما آمن به بعد تفكير أو نتيجة لحدس داخلي، ما دام في تمسكه محتفظا بعين هي دوما ترنو إلى الحق:

For the end of both is one;

To be tablets for the Lord,

Clean for him to write upon.

وما الحق؟ إنه في اعتقادي لا يَعْدُو سعي الإنسان إليه دون أن يكون له في الأصل وجود. وما الله سوى رغبة كل إنسان منا على حدة في معرفته؟

لنتفق إذن (ولو إلى حين) على أن ندع كل زهرة تتفتح. ولنعد إلى كتابة خطابات كتلك التي يكتبها سائر الخلق، فإنه ليخيل إليَّ أننا نكتب رسائلنا وعيننا على مؤرخي سِيَرِنا، وكأنما نحاول حاليا تخفيف العبء عمن سيحرر فيما بعد «رسائل حسين أمين (أو جلال أمين) إلى إخوته وأصدقائه»!!

إليك بعض أخبارنا وإجابتي على أسئلتك:

١. وضعت جريتا أول أمس مولودا ذكرا في مستشفى علي ابراهيم. لم يسموه بعد، وإن كان الراجح أن تتغلب إرادة جريتا التي تريد أن تسميه «طارق» على إرادة أمين الذي يفضل «أحمد» والظاهر أنه قد بات حقا معترفا به للزوجات الأجنبيات أن يخترن هن أسماء أولادهن التي يمكنهن بسهولة نطقها أو المرتبطة في أذهانهن بمعان رومانسية. حزنت جريتا أن المولود ذكر لا أنثى (وكذلك أمين إلى حد ما). أما منى فالمنتظر أن تلد في بحر أسبوعين. وحماده كما يمكنك أن تتوقع يريد إبنا بشدة. وهو يقول لأمين مازحا: «إزاي مش قادر تجيب بنت مع إن دي أسهل حاجة في الدنيا؟!»

٢. كانت لدى حافظ بالفعل فكرة الزواج مرة أخرى من امرأة معينة ثم عاد فغير رأيه وأصبح يستحسن التريث والانتظار إلى أن يأتي حب حقيقي، عملا بالمثل: Marry in haste, repent at leisure وهو مثل تحقق من صحته من «الحياة» لا من الكتب!!

أما عني فقد أصرت فاطمة منذ بضعة أشهر على أن لديها عروسة ممتازة لي هي ابنة كامل مَلَش (أستاذ القانون التجاري الذي سبق لي الحديث لك عنه

في مقام آخر!) وقد شاهدت الفتاة في حفل أقامته فاطمة لهذا الغرض وعلقت له في الصالة صورة فلاحة تطلق زغرودة غير أن الانطباع الذي أحدثته عندي لم يكن مشجعا؛ لصغر سنها وعدم نضوجها بالقدر الذي يدل على اتجاه نموها الذهني.

٣. الذي سيتزوج بحق وحقيق هو أحمد. فقد كتب إلى أمين خطابًا بتاريخ ٢٤ مارس يذكر فيه أنه ينوي الزواج من فتاة ألمانية بعد عشرة أيام من تاريخ الخطاب في مدينة فرانكفورت ثم يقضي شهر العسل في النمسا يعودان بعده إلى برلين (وبذا يصلك خطابي هذا وقد تزوج بالفعل).

٤. اللجنة التي تشير إليها والتي كان الدكتور عبد العزيز عضوا فيها لم يقدر لها أن تباشر عملها.

٥. أمين لا يفكر حاليا في السفر إلى ألمانيا فهو يقدر ألا ينتهي من كتابة رسالته قبل نهاية هذا العام وهو مع ذلك يبحث عن وظيفة في الكويت. كما يحاول الدكتور عبد العزيز أن يشغل منصب مدير الجامعة بالحجاز الذي خلا بوفاة عبد الوهاب عزام.

أتوقف الآن عن الكتابة حتى تهضم هذه الأخبار ثم أوافيك بالمزيد في خطاب قادم.

حسين

* * *

على العكس من حسين، كان جلال شغوفًا بالموسيقى الكلاسيكية، ووجد نفسه في تلك الفترة منشغلًا بمحاولة تفسير ما يستمع إليه من ألحان ويتساءل عما إذا كان يمكن تحديد معانٍ معينة واضحة للموسيقى؟ يقول جلال في كتابه «رحيق العمر» إن بحثه عن إجابة لهذه التساؤلات وكتاباته في هذا الأمر لم تجلب له سوى السرور لأنها جاءت بدافع شخصي محض، كتبها إرضاء لذاته وحدها، بعكس معظم كتاباته وقراءاته وأبحاثه الأخرى التي كانت تأتي واجبة ومفروضة عليه(43).

إلا أن أهمية الخطابات التالية لا تكمن فيما يذكره جلال عن نظريته في الموسيقى فحسب ولكن في تغير لهجة حسين تجاه أخيه بعد هذا الخطاب. فبعد أن كان حسين ينظر لجلال نظرة الأخ الأكبر والأكثر خبرة، فيوجهه مثلًا بضرورة تحويل أوراقه من شعبة الآداب إلى شعبة العلوم، أو يصفه مازحًا

بـ«الأخ الأحمق» ويعنفه إذ انطلت خدعة «يونسكو» على شخص ذكي مثله، فإذا به بعدها يعامله معاملة الند للند ويقبل بأن تكون له آراؤه المستقلة عنه.

* * *

[لندن] ٣/٤/٥٩

عزيزي حسين

شكرا كثيرا على الروح التي كتبت بها خطابك الأخير، وأنا أوافقك طبعا على أن المناقشة يجب أن تقفل إلى أن نتقابل. وصلني أخيرا كارت بوستال من جون أرسلته من لبنان، وأعتقد أنها كتبته لمجرد أن تورد العبارة الآتية في آخره:

I heard that Hussein has been engaged to some girl, is it true?

ولا أعتقد أني سأرد عليها، إذ لم أعد أستلطف أن أقوم بهذا الدور: صاحب الشأن لا يكتب ولا يُكتب له، وأنا بس شغلتي أواسي وأفند إشاعات الزواج!

تعرفت أخيرا عن طريق الرقص بفتاة ألمانية لطيفة وجميلة واسمها «جون» أيضا وسأقابلها غدا السبت لثاني مرة، والـweekend هنا لمن ليست له فتاة، أو لمن لا صاحب لها، ليس أبغض منه إلى النفس.

لا أشك في أنني الآن ومنذ بضعة شهور أمر بمرحلة انتقال هامة في حياتي: سواء في ذهني أو نفسي. إني الآن أستطيب أشياء ما كنت أستطيبها، القراءة لم تعد واجبا بل لذة وأصبحت مستعدا على أن أكون في أي مكان ولو في سجن إذا أعطيتني كتابا جيدا، أصبحت أذهب للعب التنس في بعض أيام الآحاد وأنا متشوق للعب وليس أيضًا لتأدية واجب. كذلك أصبحت آلف الموسيقى الكلاسيك بشكل مدهش، فلم يعد تقديري للقطعة يستلزم أن أسمعها نفس العدد الكثير من المرات الذي كان يلزمني من قبل، كذلك ـ بصدد الموسيقى ـ أعتقد أنني وصلت إلى الإجابة على الأسئلة التالية:

ـ هل يمكن أن نحدد بالنسبة للموسيقى معاني معينة واضحة، لا.

ـ ما السبب في كون الموسيقى فنا مجردا أكثر من الأدب مثلا.

أعتقد أن السبب أنها تعتمد أساسا على سبب مجرد للجمال وهو «التقابل» أو الـsymmetry بأوسع معانيه، فهي تحتوي على التقابل بين النغم العالي والمنخفض، بين الطويل والقصير، بين أنغام معينة يُحدث التقابل بينها تأثيرات طيبة في النفس، بين النغمة السريعة والبطيئة، بين ترتيب أنغام السلم الموسيقي ترتيبات متناسقة، بالإضافة إلى الهارموني الذي هو أيضا نوع من «التقابل»....إلخ. فجمال الموسيقى في نظري شبيه جدا جدا بجمال المناظر الطبيعية، السبب واحد تقريبا: التقابل، هنا بين الأنغام وهناك بين الخطوط والأشكال. ولهذا في كليهما يستحيل أن تحدد: ما الشعور المعين الموضوعي الذي أثاره فيك المنظر الجميل أو الموسيقى الجميلة، مع أننا نستطيع أن نتفق على أن هذا المنظر (أو المقطع الموسيقي) جميل أو قبيح. كل ما هنالك أن هذا التقابل أو التناسق له القدرة على أن يفتح في صدورنا الباب لانفعالنا ربما لأن هذا التناسق أو التقابل يستجيب لحاجة معينة في جهازنا العصبي أو تركيبنا المادي أو لأنه شرط أولي من شروط الحركة بل وللوجود أو التوازن ذاته. لا يمكن أن تتصور مخلوقا مرتكزا إلا على قدمين متقابلين أو قدم واحدة ولكنها في الوسط، وفي الحالين يتحقق التناسق. تصور مثلا وجه الإنسان بدون هذا التقابل، ألا يكون بالغ البشاعة؟ (مثلا: عين واحدة فقط في الناحية اليمنى، أو أن الأنف ليست في الوسط....إلخ).

أرجو أن تحاول تتبع جمال أي مقطوعة موسيقية عن طريق إدراك ما بين الأنغام من تقابل شبيه كل الشبه بالأشكال الآتية، عليك فقط أن تضع أنغاما بدلا من الخطوط:

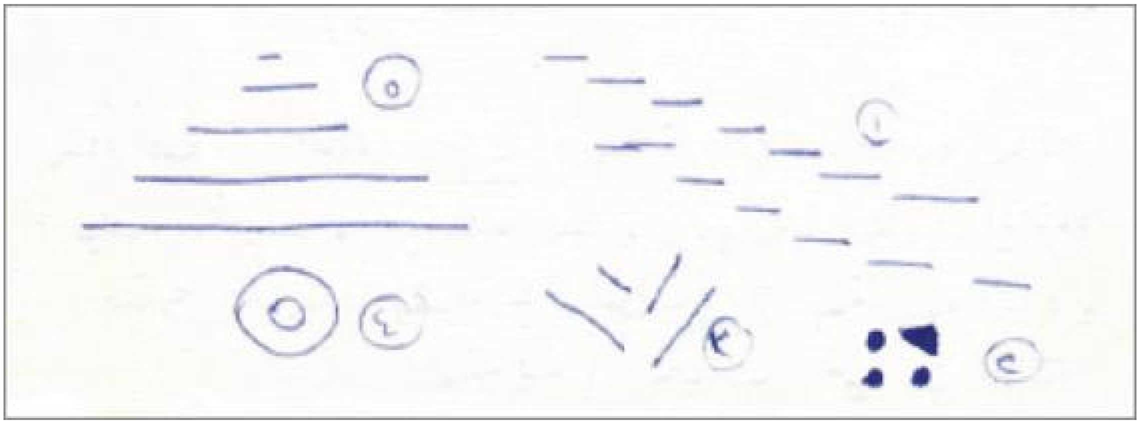

أعتقد أيضا أن موسيقانا المصرية أهم مظاهر تأخرها أن هذا التقابل (الـsymmetry والـasymmetry) بسيط أكثر من اللازم. فهو أشبه بالشكل رقم ٥ وأنه كلما تعقد هذا التقابل ـ ولكن مع اشتراط وجوده ـ كلما أولا: أثرت فينا الموسيقى أكثر. وثانيا: احتاجت إلى مرات أكثر للسماع حتى ننسجم معها

(بعبارة أخرى حتى ندرك هذا التقابل المعقد). وثالثا: كلما كانت متعتنا أكثر قابلية للاستمرار. شبيه كل الشبه بهذا، المقارنة بين الإعلانين التاليين:

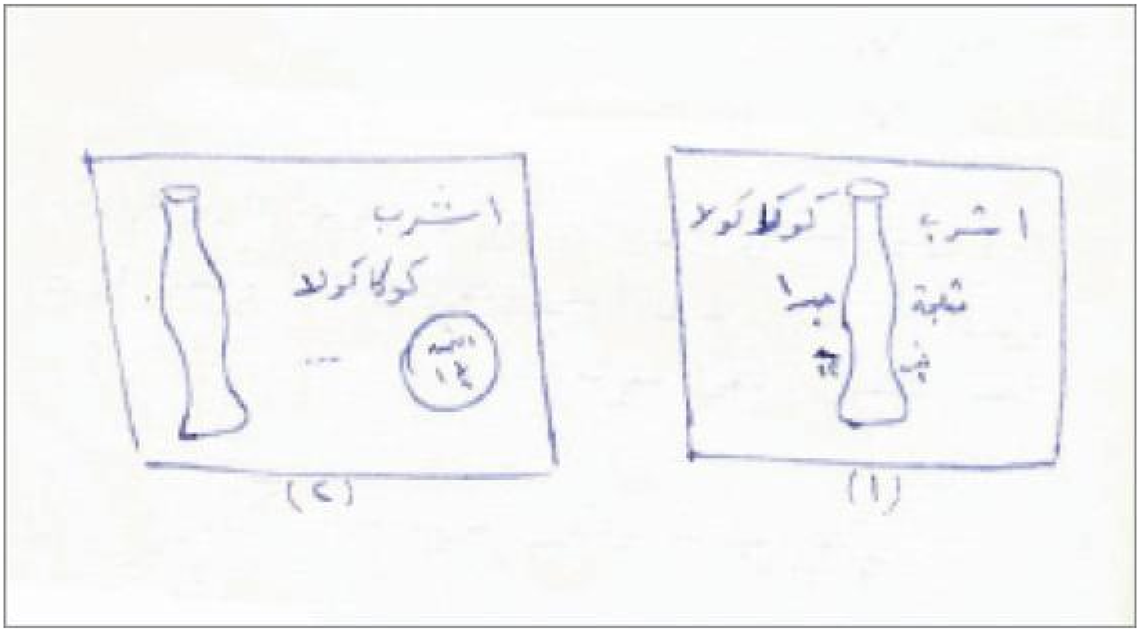

فالرسم رقم (٢) أجمل لأن «التقابل» فيه أكثر تعقيد (ولو أنه موجود) وهو شبيه بالموسيقى الكلاسيك، والرسم (رقم ١) أشبه بالموسيقى العربية حيث التقابل فيه بسيط ومباشر. إن هذه الفكرة ريَّحتني جدا لأنني لم أعد بعد الآن أحاول البحث عن حقيقة الشعور أو الفكرة التي تثيره فينا جملة موسيقية معينة. يهمني أن أعرف رأيك في هذه الفكرة. (بعد أن خطرت لي قرأت كتابا كاملا اسمه The Scope of Music لكي أبحث فيه عن تحليل سبب جمال الموسيقى والمقارنة بينها وبين سائر الفنون، فلم أعثر على شيء رغم أن فيه فصلا يحمل هذا العنوان).

أرجو من كل قلبي أن يكون المولود الجديد لحمادة ولدًا، لا لأني أعلق أهمية على هذا ولكن لأنه هو يعلق أهمية عليه.

وكل سنة وأنتم طيبين.

جلال

* * *

القاهرة ١٣ أبريل ١٩٥٩

عزيزي جلال

[جزء من الخطاب مفقود] بضرورة إعادة ترتيب (السُّوَر) لا أرى أن يخضع الترتيب الجديد للعامل الزمني والتاريخي (وإن كان لمثل هذا الترتيب كما رأينا فائدة كبرى للباحثين) وإنما وفق الموضوعات. فالقرآن في رأي المستشرق الذي أشرت إليه هو أصعب الكتب قراءة على الإطلاق (بالنسبة للغربيين على الأقل) بسبب تنقله الغريب غير المنطقي من موضوع إلى آخر: من التحذير للمطففين الذين يغشون في الميزان إلى هل أتاك حديث موسى إلى الحث على رعاية أموال اليتامى إلى آخره. وقد سألت الدكتور عتيق عما إذا كان الترتيب الحالي ترتيبا حتميا أم أنه من الجائز لنا تغييره فلم يجبني إجابة مفيدة. وفي رأيي أنه ما دام جمع القرآن في صورته الحالية قد تم بعد وفاة محمد وما دام الذين جمعوه رتبوه على أسس اختاروها هم ولم يرشدهم محمد إليها فلا أدري ما المانع من إعادة ترتيبه سواء وفقا للموضوعات (حتى يراجع الناس بسهولة وفي جلسة واحدة كل ما ذكره القرآن في موضوع معين) أو وفقا لتاريخ النزول حتى يرى الباحثون ما طرأ على الأسلوب والنظرة إلى الأشياء من تغيير.

فيما يتعلق بما كتبته عن الموسيقى أحب أولا أن أشكرك على ملاحظتك المفيدة عن التقابل كأساس للاستمتاع بالموسيقى، غير أن النتيجة التي خلصت إليها أنت بعد هذه الملاحظات استوقفتني طويلا. إذ تقول «لم أعد بعد الآن أحاول البحث عن حقيقة الشعور أو الفكرة التي تثيره فينا جملة موسيقية معينة» وذلك ردا على تساؤلك في أول الخطاب: «هل يمكن أن نحدد بالنسبة للموسيقى معاني معينة واضحة؟»

تسألني عن رأيي في الموضوع رغم علمك بجهلي به. ومع ذلك فسأحاول أن أسجل انطباعاتي الخاصة. والجاهل له من الحق في التعبير عن انطباعاته ما للفيلسوف من الحق في التعبير عن آرائه.

لا أظن من الممكن استخلاص معانٍ واضحة من الجمل الموسيقية أو من المقطوعة الموسقية كاملة. في الأدب نعم، أو حتى في التصوير، يلزم للفنان أن يدرك الفكرة أو الإحساس الذي يريد نقلهما إلى الغير إدراكا واعيا واضحا قبل البدء في عملية الخلق الفني. أما في الموسيقى (أنا الآن أتكلم عن الموسيقى الكلاسيكية) فيكفي أن يشعر الموسيقي بإحساس غامض ولكنه قوي دون أن يُقدم أو حتى أن يعبأ بتحليله لمعرفة كنهه حتى يبدأ في وضع اللحن. وهذا ـ لا فكرة التقابل ـ هو السبب في كون الموسيقى فنا مجردا أكثر من الأدب. غير أن هذا في رأيي ليس هو المهم في الأمر. لقد قارنت طويلا بين

أثر الموسيقى وأثر الأدب فيَّ (وفي الناس) فبدأت أشعر بشيء من الشك في قيمة الموسيقى الكلاسيكية. سأعطيك مثلا: تشيكوف مرت به تجربة في بيت من بيوت الدعارة أثارت في نفسه كراهية عميقة لهذا النظام. هذه الكراهية عبر عنها في قالب فني في قصة «انهيار عصبي». أقرأ أنا هذه القصة فتسري فيَّ عدوى الكراهية لنظام البغاء. وبسريان العدوى يكون الأدب قد حقق الغرض منه. (كما أوضح تولستوي في كتابه عن الفن).

يختلف الحال مع الموسيقى الكلاسيكية. فأنا أسألك مثلا: هل حدث إطلاقا أن أثار فيك المارش الجنائزي في سيمفونية بيتهوفن الثالثة عاطفة الحزن؟ هل أثارت فيك الحركة الأولى من سيمفونيته السادسة شعور الابتهاج بالحياة؟ لا أعتقد. ما تتركه الموسيقى الكلاسيكية في النفس هو أثر غامض «مائع» كشعور المؤلف قبل وضعه اللحن. تجعلك تريد شيئا لا تعرف كنهه وتشعرك بإحساس ـ هو دخيل عليك ـ لا تدري طبيعته. قد تكون في حالة من الحزن فتقرأ تمثيلية لموليير فتضحك. وقد تكون في حالة من المرح فتقرأ «مومو» فتدمع عيناك. هل للموسيقى الكلاسيكية هذا الأثر؟ للموسيقى الشعبية، نعم كألحان الفلاحين التي تثير المرح، وفي بعض الموسيقى الكلاسيكية أيضا كموسيقى باخ المثيرة للشعور الديني. فيما عدا ذلك لا ألمس لموسيقى شخص كبراهمز أو فاجنر أو حتى سيمفونيات بيتهوفن أثرا في نفسي على الإطلاق سوى شعور غامض عقيم كالماء الذي عكرت هدوءه بإلقاء حجر فيه دون سبب.

أكاد أخمن ردك؛ أن مجرد تعويد النفس على ما في الموسيقى من تقابل وانسجام مفيد للنفس. هذا جائز.. غير أنني أحكم على العمل الفني من تأثيره المباشر عليَّ: أن يضحكني، أن يبكيني، أن يجعلني أفكر في المشكلة. تمثيلية «إجمونت» مثلا لجوته التي صوَّر فيها اضطهاد الحريات في الأراضي الواطئة في عهد الحكم الأسباني ونبل الكونت إجمونت المناضل لإزاحة الظلم، تخرج من هذه المسرحية وأنت تعد نفسك في ذهنك:

I will be wise, and just, and good, and free,

If in me lies such power. For I am sick to behold

The selfish and strong still tyranize,

Without reproach or check.(44)

قارن ذلك بافتتاحية إجمونت لبيتهوفن. هل مجرد الاستماع إليها يثير فيك الشعور بكراهية الظلم والاضطهاد؟ فإذا كان التقابل وحده هو العنصر المهم في الموسيقى فلماذا سماها بيتهوفن إجمونت.

حسين

* * *

[Isle of Wight] ١٥/٤/٥٩

والدتي وإخوتي الأعزاء

إجازة قصيرة أقضيها مرة أخرى في هذه الجزيرة الجميلة على أن أبدأ المذاكرة الجد من جديد بابتداء الفصل الدراسي الصيفي.

شكرا لحسين على خطابه الثاني المحتوي على مقالة نيتشه وقد أطلعت عليه كل زملائي الذين يفكرون في الزواج.

أرجو أن تكتبوا إلي بأخبار المولود الجديد لحمادة وصحة الولد «طارق» أو أيا كان اسمه. كل سنة وانتم طيبين بمناسبة العيد وأرجو أن تكونوا قد استمتعتم بفسحتكم في الاسكندرية.

جلال

* * *

[لندن] ١٨/٤/٥٩

عزيزي حسين

ساعدني ما ذكرته في خطابك الأخير عن الموسيقى على بلورة فكرتي في هذا الصدد. ويمكن تلخيص النقاط التي أوردتها في النقطتين الآتيتين:

الأولى: أنه ليس «التقابل» هو المسئول عن صفة التجريد في الموسيقى أو على الأقل كونها أكثر تجريدا من الأدب وإنما السبب في رأيك هو أن الموسيقي حين يقدم على كتابة موسيقاه «يكفي أن يشعر بإحساس غامض ولكنه قوي دون أن يُقدم أو حتى يعبأ بتحليله لمعرفة كنهه..».

والثانية: أنك تشك في قيمة الموسيقى الكلاسيكية أو في فائدتها في تطوير الإنسان وتقدمه إذ أن أثرها، على الأقل، المباشر، ليس واضحا أو محددا ومن ثم مقدرتها على إثارة الحماس لأفكار، بله لأعمال معينة، محدودة بالتالي.

ويمكن أن يضاف إلى هاتين النقطتين شكك في آخر الخطاب في أن يكون التقابل هو العنصر الأساسي في الموسيقى والذي بررته بالاستناد إلى أن الموسيقيين عنوا أحيانا بوضع أسماء معينة أو نسبة موسيقاهم إلى موضوعات محددة وإلا فلماذا سمى بيتهوفن مثلًا افتتاحية «إجمونت» بهذا الاسم؟

١- أنا أعتقد أنه لا يمكن أن يكون المسئول عن التجريد في الموسيقى هو أن الموسيقِي يقدم على الكتابة غير شاعر بغير شعور غامض لا موضوع له، إذ أن هذا التفسير هو ذاته is begging the question إذ يطرح علينا من جديد السؤال الآتي: وما السبب أنه في تأليف الموسيقى يكفي توافر شعور غامض غير محدد بينما لا يمكن ذلك في فن آخر كالأدب؟ بل أنا أعتقد أن كون الموسيقى فنا مجردا هو الذي سمح للموسيقار بالإقدام على التأليف غير شاعر بغير شعور غامض، لا العكس: فليس غموض الشعور هو سبب التجريد، ولكن التجريد هو الذي سمح بغموض الشعور.

والذي يحدث أثناء عملية تأليف الموسيقى في نظري هو تماما عكس ما يحدث أثناء عملية الاستماع والاستمتاع بالموسيقى. ففي عملية الاستماع: يصادف المستمع شيئا جميلا، سبب جماله في نظري هو التقابل، هذا الشيء الجميل يكون بمثابة المفتاح الذي يفتح صندوقا مغلقا في صدره، بحيث يكون المستمع بعد ذلك أكثر قابلية للتأثر بما يعرض عليه في حياته اليومية، فهو إذا كان سعيدا «كثفت» الموسيقى من سعادته، ليس بالضرورة أنها تجعله أكثر سعادة (أو شقاء) ولكنها تجعله «أعمق إحساسا» بالسعادة (أو الشقاء). وكذلك فالمفروض أن تجعله الموسيقى الجميلة أكثر تأثرا بالمناظر أو المواقف التي من شأنها أن تستثير العطف، السخط، الاحتقار...إلخ. في عملية تأليف الموسيقى يحدث العكس، فالمفروض أن يُفتح أولا هذا الصندوق في صدر الموسيقار (ويلاحظ أنه باعتباره فنانا يجب أن يكون هذا الصندوق أسهل فتحا من صناديقنا، بل وربما كان باب الصندوق لدى الفنان على الدوام «مواربًا»!) فإذا فتح الصندوق، أي إذا ثارت الحساسية لدى الموسيقار لأي سبب من الأسباب كان على استعداد لوضع الجمل الموسيقية التي هو بطبعه أكثر حساسية من غيره نحو إدراك أوجه الجمال فيها، ويدرك بفطرته أو بتدريبه أي أحوال التقابل جميل وأيها جميل جدا وأيها عادي.

٢- هذا يفسر لنا الأسماء والموضوعات التي تنسب إلى القطع الموسيقية. ففي أحسن الأحوال، أي في الأحوال التي يكون نسبة الاسم أو الموضوع إلى القطعة صادقا وليس مفتعلا، لا يمكن أن يتجاوز دور هذا الموضوع إثارة حساسية الفنان إجمالا، أي فتح الصندوق! لا شك أن هذا الموضوع (مثلا الريف في سيمفونية بيتهوفن السادسة أو قصة إجمونت في افتتاحيته) قد أثار في الفنان عاطفة بعينها ولكن نوع هذه العاطفة لا يكون بذي أثر إلا على (الشكل The form) الذي يتخذه التقابل. أما الجزء المهم في التقابل وهو مضمونه فيعتمد على موهبة الفنان ذاته وعلى مقدار تفتح حساسيته إجمالا في وقت التأليف.

أعني بالشكل مجرد الصيغة الذي اتخذتها القطعة، مثال ذلك الهدوء الذي يخيم على كل السيمفونية الريفية، والطابع الشعبي والراقص الذي يطبع الحركة الثالثة منها، والسلام الذي يطبع حركتها الأخيرة. كل هذا في نظري «شكل»، وهو ليس أهم ما في القطعة، والمهم في نظري هو قوة التقابل في كل جملة موسيقية ومدى ما يتمتع به من جمال، فالموسيقى الهادئة كثيرة والموسيقى الشعبية والراقصة كثيرة أيضا، ولكن أيها لها قوة جمال السيمفونية السادسة؟ ما سر هذا الجمال الاستثنائي؟ هو في نظري جمال التقابل كما وضعه بيتهوفن في كل جملة، ولا يمكن تحليل جمال السيمفونية إلا بتحليل جمال التقابل في كل جملة من هذه الجمل. (ملحوظة: بعض أوجه التقابل في القطعة الموسيقية تدلك عليه العين السحرية في الراديو) مثال صغير: ما وجه الجمال في أول السيمفونية الخامسة لبيتهوفن. هو في نظري (وفي حدود علمي المحدود جدا) كما يلي:

نفس النغمة تتكرر عدة مرات في أزمان قصيرة يعقبها نغمة واحدة طويلة. ثم نغمة أخرى مقابلة تتكرر عدة مرات في أزمان قصيرة أيضا تعقبها نغمة واحدة طويلة مقابلة للنغمة الطويلة الأولى. ولكن هل هذا كل شيء؟ لو وقفت الجملة عند هذا الحد لما كان لها جمال غير عادي، ولكن بيتهوفن يأتي بعد ذلك «ليعوِّض» المستمع عن الـabruptness الذي يميز الجملة الأولى فيأتي بلحن مفصل ورقيق ومتموِّج ويكرره مرتين ولكنه لا يترك المستمع طويلا «ليركن» إلى هذا اللحن المتصل والرقيق بل يعود ليصله بالافتتاحية العنيفة عن طريق جملة عنيفة أخرى... وهكذا يمدنا بيتهوفن بمجموعة لا حصر لها من التقابلات أشبه ما تكون بالخلايا التي تملأ جلد الإنسان، ويزيد من جمال هذه التقابلات أنها غير متوقعة، ولكنها لا تصل من الغرابة إلى حد القضاء على مبدأ التقابل ذاته.

والذي يجب أن ننتبه إليه أيضا أنه إذا كان باستطاعة شعور قوي معين أن يفتح صندوق الحساسية في صدر الموسيقار، فليس بمقدور «فكرة منطقية» أن تفعل ذلك اللهم إلا بطريق غير مباشر، أي إلا إذا أثارت هي شعورا معينا. ومن ثم فمن العبث أن نحاول أن نرد قطعة موسيقية معينة إلى فكرة بذاتها أو تطور تاريخي لقصة معينة، كافتتاحية إجمونت، أو شهرزاد، هذا لا ينفي أن الموسيقار قد يتعمد ذلك أحيانا، مثال ذلك الحركة الخاصة بالعاصفة في السيمفونية الريفية. فإنه يمكنك على الأقل أن ترد جزءا معينا منها إلى بداية العاصفة وجزءا إلى قمتها وجزءا إلى انتهاء العاصفة، ولكن كلما بالغ الموسيقار في ذلك كلما كان يقدِّم الشكل على المضمون، وهو يشبه في هذا من يقدِّم الأسلوب اللغوي في الأدب على الأفكار. مثال ذلك أيضا استخدام الصفارة لتقليد صوت الطيور في أول السيمفونية السادسة فهو في نظري من قبيل «الحلية» التي يجب ألا تطغى على تحقيق «التقابل» الجميل الذي هو الغرض الأساسي.

٣- هذا التجريد في الموسيقى (أي قدرتها على «تكثيف» أي شعور أيا كان نوعه) هو وجه نقصها وقوتها في نفس الوقت. تماما كما أن «جفاف» العلم من الناحية الأخرى هو وجه نقصه وقوته في نفس الوقت، فالعلم لا يستهدف إثارة العاطفة إلا عن طريق غير مباشر وبعيد جدا، كما لو أثار فيك بحث علمي عن إمكانيات مصر الاقتصادية الحزن العميق لفقر بلادنا (المثل غير واقعي)، كذلك فالموسيقى لا تستهدف مدك بحقيقة معينة إلا عن طريق غير مباشر وبعيد جدا، كما لو «كثفت» شعورك بالعطف على الفقراء مما جعلك تقرأ عنهم كتابا علميا أو تفكر في مشاكلهم تفكيرا منطقيا. ولكن قوة العلم، من ناحية أخرى، هي إمدادك بحقائق لا يأتيها الباطل من أمام أو من خلف، كما أن قوة الموسيقى هي في أنها تمدك «بمكثِّف» لأي عاطفة.

بل إن هذا الذي تنتقده في الموسيقى، غموضها وتجريدها، ما هو ـ في نظري ـ إلا نفس الصفة التي ميزت الفن في مجموعه عن العلم في مجموعه، بدت في أقوى صورها في الموسيقى. فالأدب لو اقتصر على مدك بالحقائق الواضحة لما بقي أدبا ولتحول إلى علم، والذي جعله فنا هو أنه لا يعطيك الحقائق عارية ولكن مكسوَّة بالحياة، بعبارة أعم، يعطيها لك في شكل جميل، هذا الشكل الجميل قد يتخذ شكل الرومانسية أو الواقعية أو غير ذلك، ولكنه على كل حال جميل أي له القدرة على فتح الصندوق الذي أشرت إليه من قبل. والدليل على ذلك أن القصة الجميلة تثير فيك ـ إلى جانب الحقائق الواضحة التي تمدك بها خلال سردها ـ شعورا قويا ولكنه غامض، واستعدادا لكل العواطف الجميلة، استعدادا للعطف ولو لم تكن القصة تتكلم إطلاقا عن العطف، استعدادا للحزن، ولو لم تكن القصة حزينة، استعدادا للفرح ولو لم

تكن سعيدة، تبعا لظروف القارئ الشخصية. وهذا يبدو بشكل أوضح في الفيلم الجيد إذ يقوِّي هذا الطابع المجرد، استعانة الفيلم بمجموعة مختلفة من الفنون بعضها بالغ التجرد كالموسيقى.

إذًا فصحيح أن الأدب أكثر قابلية من الموسيقى على إثارة عاطفة معينة بالذات، ولكن ما هذا إلا لأنه أقرب إلى العلم من الموسيقى.

ولعل التقابل هو سر أيِّ جمال وليس سر جمال الموسيقى وحدها، ولكن الأدوات التي يتحقق خلالها التقابل في الأدب هي أدوات «مفهومة»، أي تمر خلال العقل، بينما أدوات التقابل في الموسيقى وهي الأصوات، لا تمر من خلال العقل. فالمطلوب إذًا هو قراءة شيء عن علم الجمال!

شكرا على ملاحظاتك عن القرآن، وبعضها خطر لي أنا نفسي بمقارنة الآيات المكية والمدنية، وقد لاحظت في الآيات المكية جهدًا واضحا لإحداث التأثير المطلوب، فالآيات قصيرة جدا، والقافية أكثر جرسا ورنينا. وعلى رأيك: He did not relax until he went to El-Madina.

شكرا لحافظ على خطابه الرقيق، وأنا لم أزعل قط من جوابه السابق وسأكتب له خطابا طويلا غدًا وأتمنى لكما ولوالدتي كل صحة وانبساط.

جلال

* * *

[لندن] ٢٢/٤/٥٩

عزيزي حافظ

أرجو ألا تكون قد اعتقدت أني زعلت منك بسبب الخطاب الذي أشرت إليه، كل ما هنالك أنه غاظني من الخطاب أنه خلا من الإهداء والخاتمة بينما ظننت أن لي من الأهمية ما يجعل من الضروري ذكر اسمي في الأول واسمك في الآخر حتى يتميز الخطاب عن غيره من أنواع الكتابة! على كل حال كان خطابك الأخير كافيا وزيادة لكي ينسيني هذا الغيظ!

قابلت زوجة الدكتور القصاص بالأمس، وهي امرأة تشرِّف البلد الذي تنتمي إليه على قلة ما تجد ذلك في السيدات المصريات، وقالت لي عن مقابلتها لك في المسرح، معقبة «نفس الهدوء والرزانة» وقد ظننت أنها تعني نفس

هدوئي ورزانتي، ولكنها نبهتني أنها تقصد هدوء ورزانة والدي الذي تتلمذَتْ عليه.

بالإشارة إلى فيلم The Big Country، هو فيلم من الأفلام الأمريكية التي يشار إليها هنا بالبنان ومع هذا فلم أشاهده، والسبب أنه في كل مرة أريد الذهاب فيها إلى السينما أجد من الأفلام الإيطالية أو السويدية أو الفرنسية، وعلى العموم الأفلام غير الأمريكية، ما يغنيني عن المغامرة برؤية فيلم أمريكي. كان آخر فيلم أمريكي رأيته هو The Ten Commandments، وهو باختصار عدمه أحسن منه بكثير.

اشتريت تليفزيون مؤخرا، وبهذا أصبحت حجرتي الصغيرة مزدحمة بالأشياء الكهربائية الآتية: راديو، جرامافون، آلة تسجيل، تليفزيون. والذي يساعدني على هذا الشروط السخية للتقسيط هنا وانتظام حياتي مما أدى إلى انتظام ماليتي أيضا. وأنوي قبل عودتي أن أبيعها كلها، ما عدا آلة التسجيل، وأشتري بثمنها كتبا، التي هي في نظري هنا تقابل الكنز الذي اكتشفه «علي بابا». وأنا لا أكاد أشتري اسطوانات اعتمادًا على ما أستلفه كل أسبوع مجانا.

من البرامج الممتعة في التلفزيون برنامج: The Brains Trust حيث يدعى أربعة من كبار العقول في البلد للرد على أسئلة ـ أي أسئلة ـ للمستمعين. في أثناء مناقشة أحد الأسئلة في الأسبوع الماضي، ثار السؤال التالي: بماذا يجب أن نعرِّف الذكاء intelligence وكانت الإجابة التي وافقوا عليها هي أن الذكاء هو إدراك complex relations between things واتفقوا على أن «السرعة» التي يتم بها هذا الإدراك أمر ثانوي. ما رأيكم؟ في نفس المناقشة أثار أحدهم السؤال الشيق جدا الآتي، الذي أعرضه عليكم لمحاولة الإجابة عليه حيث أنهم لم يتعرضوا للجواب: ما السبب في أنه بينما لا يطلب الإنسان من أعضاء جسمه المختلفة أكثر مما تؤديه بالفعل فلا يطلب من المعدة مثلا زيادة قدرتها على الهضم ولا يطلب من اليد أن تقوم بأكثر مما تقوم به الآن، فإن الإنسان مصر على أن يطلب من العقل (أو المخ) أن يتجاوز على الدوام قدرته وإمكانياته الحالية؟ أليس سؤالًا بديعا يصلح للعبة التي علمها لنا حسين؟

التليفزيون أيضا يعرِّفني ببلاد وشعوب لم أكن أعرف عن طريقة حياتها شيئا، فضلا عن الشخصيات التي يهم الواحد أن يعرف كيف تفكر وكيف تتصرف (مثال ذلك المقابلة التي أجروها مع مسز روزفلت).

وإلحاح وسائل الثقافة هنا على الفرد تجعله يتثقف رغم أنفه: خذ لذلك مثلا صغيرا يكاد يتكرر كل يوم: قامت حوادث التبت. فتصدرت الصفحة الأولى من

الجرائد، وتصدرت مكان التعليق أيضا من الجرائد، فإذا أهمل الشخص قراءة التعليق، طالعته الـObserver يوم الأحد بملخص كامل لأحداث الأسبوع يحتوي على قصة الـTibet منذ بدء الخليقة، ومن ثم لا ينعزل المتتبع للحوادث اليومية عن الـbackground التاريخي للمشكلة.. وهكذا..

أرجو أن تكتب لي كثيرا وأن تجعل والدتي أيضا تكتب.

جلال

والدتي العزيزة

من مدة طويلة لم أتلق منك خطابات مع أني أريد أن أعرف الكثير عن صحتك وفسحك. وكان حسين قد كتب لي أنك ستسافرين معهم إلى الإسكندرية ثم كتب حافظ أنه سافر هو وحسين فقط فلماذا الكسل عن الفسحة؟ على كل حال أرجو أن تقضي في الصيف أكبر وقت ممكن في الشقة الجديدة في اسكندرية.

أنا مبسوط بشكل «غير معقول» على حد تعبير حافظ ولا يضايقني إلا أنني لم أخس بالدرجة التي أريدها.

أما عن الجو هنا فأنا بكل صراحة أفضله على جو مصر مائة مرة. يسقط العرق ويحيا الجو الذي يجعل الواحد يلبس البالطو على طول ويجري بدلا من أن يمشي.

ذهبت في الأسبوع الماضي إلى الجزيرة الجميلة التي سافرت إليها في الصيف، فقضيت هناك أربعة أيام لطيفة وبدأت الشغل الجد هذا الأسبوع. يا ترى الفستان ماشي كويس؟ إذا مامشيش كويس بس قولي لي!

أرجو ألا تتأخري في إرسال الخطابات إليَّ ولا تكتفي بأن حافظ وحسين بيكتبوا، وأرجو أن توصفي لي المولودين الجديدين: أيهما أجمل وألطف؟

أخافني قليلا زواج أحمد، إذ قرَّب دوري جدا فلم يبق أمامي إلا حسين وأنا أرجوه ـ إذا أزمع على الاختيار ـ أن يتزوج واحدة واسعة الأفق ومثقفة إذ أن المناقشة مع امرأة مثقفة أمتع بكثير من المناقشة مع رجل مثقف، وقد ثبت لي أن النساء المثقفات موجودات وبهذا تخلصت من الفكرة العتيقة التي كانت مغروسة في أدمغتنا عن احتقار المرأة عموما.

ابنك

جلال

* * *

[لندن] ٢٣/٤/٥٩

«they (the Egyptians) can be violent at times, but they are not often without pity. They delight in flamboyant indictments in which the heads of pashas and traitors are lopped off verbally; but at the same time they dream of being the generous Caliph who, at the end of the play, stays the executioner's axe».

(from «Egypt in transition» by J & S. Lacouture)

عزيزيَّ حافظ وحسين،

لم أشعر بالحب نحو بلدي والفخر بالانتساب إليها مثلما شعرت اليوم أثناء مشاهدتي الفيلم التونسي «جحا»، ولعلها أول مرة يعرض فيها فيلم عربي في سينما بلندن لها أهمية سينما الـ«academy» التي لا تعرض إلا أحسن أفلام العام كما لا شك يعرف حسين.

وكل شيء في الفيلم عربي إلا المخرج، فهو فرنسي، وبعض الفنانين من غير الممثلين. ولكن المهم أنه حتى هؤلاء، المخرج وغيره من الفنانين الأجانب، لا تشك بعد رؤية الفيلم أنهم عرب أكثر من العرب، يحترمون حياتنا أكثر مما نحترمها ويعرفون أوجه الجمال فيها أكثر مما نعرف. وأهم من ذلك يعرفون كيف يمكن أن نساهم في الثقافة العالمية دون أن نفقد شخصيتنا بل عن طريق استخدام شخصيتنا المتميزة. كل هذا يجعل التجربة التي مارستها برؤية هذا الفيلم تجربة فريدة من نوعها.

القصة بسيطة جدا، ولن تلفت النظر بمجرد حكايتها. ولكن أي الأفلام الإيطالية العظيمة لها قصة تلفت النظر بمجرد حكايتها؟ وأنا أفضل أن يكون عرضي للقصة عن طريق تناولي للنقاط البارزة في التجربة التي قام بها هذا الفيلم:

١- لا شيء في الفيلم مصطنع ومنسوب إلى الحياة العربية دون أن يكون منها حقيقة: لا محاولة لحذف الفقر، ولا محاولة للمبالغة فيه، الحوار كما هو في

حياتنا، التمثيل طبيعي جدا. فلا شيء إذًا في الفيلم يذكّرك بالأفلام المصرية التي ألفناها ولكنه يتجاوزها ليذكرك مباشرة بطريقة حياتنا.

٢- الحذف الوحيد والإضافات الوحيدة، كلها تستهدف الغرض الوحيد التالي: أن تكون الصورة المعطاة جميلة. فالحوار رغم أن كله طبيعي، فإن كله جميل، أجمل تعبيراتنا التي نستخدمها، وخاصة الطبقات الشعبية، في حياتها اليومية استعملها الفيلم. الموسيقى التصويرية كلها عربية، كل ما هنالك أن القطعة المناسبة تستعمل في الوقت المناسب، ومن ثم يُرغم «أجعص» أجنبي على احترامها وتذوقها. استخدمت أحيانا بعض التواشيح أو التسابيح، فاحتُفظ بالنغمة الأصلية مع عرضها بالشكل الذي يجعلها جميلة ومستساغة لأي ذوق رفيع (أعتقد أن هذه شبيهة بتجربة أبو بكر خيرت).

٣- شخصية جحا اتبع فيها نفس الأسلوب، فالشخصية التي رسخت في أذهاننا عنه لم يحاول تغييرها، كل ما هنالك أنه اختار من نوادره ما له مغزى، خاصة القصة التي ارتكز عليها موضوع الفيلم. فمن النوادر التي استعملها مثلا، أن أباه بعد أن كاد ييأس من جحا لعبطه وسذاجته خطر أن يجرب للمرة الأخيرة فأرسله إلى الجامعة والجامعة شبيهة كل الشبه بصحن الأزهر، فأخذ جحا، بعكس غيره من الطلبة المستكينين يتنقل من حلقة إلى أخرى، فإذا به يجد أحد العلماء يقول إن الحقيقة بسيطة وليس أسهل من الوصول إليها، وآخر يؤكد أنه ليس أعقد منها وأنه لا يصل إليها إلا من فعل كذا وكذا.. ويصبح جحا ساخطا لأنه لا يعرف من يصدِّق ويؤدي إلى اصطدام العالمين ويثير ضحك التلاميذ ويأخذ حماره وينصرف إلى أبيه الذي خيبت آماله..

٤- ولكن قصة الفيلم الأساسية أن عالما شيخا، أدرك وحده أن جحا بعبطه أقرب إلى إدراك الحقيقة من العلماء، قرر للخلاص من شكه ووحدته وحيرته وما رآه من عدم جدوى علمه في مساعدته، قرر الزواج من فتاة صغيرة. والفتاة الصغيرة بعد زواجها تشعر بحاجتها إلى شاب صغير وتقع في حب جحا البسيط، ويزورها جحا في بيتها كل ليلة. حتى تعرف زوجة أبيه عن طريق تعقب الحمار، فتخبر أباه على مسمع من بناتها التسع، فيطلب منها ألا تخبر أحدا بالخبر، ولكن كل بنت من البنات التسع تذيع الخبر كأحسن مما تفعل أوسع الجرائد انتشارًا. ويصل الخبر للزوج العالم الطيب، فيقرر أولا الانتقام من جحا ثم يَعْدل ويطلق زوجته التي يقتلها أبوها لتلويثها البيت بالعار. كما يطرد أبو جحا، جحا من البيت بين استنكار زوجة الأب للطرد وبكاء البنات التسع، اللاتي ولا شك كن يحببن جحا. ويهيم جحا على وجهه حتى يصادفه العالم فيدعوه إلى بيته ويعامله بلطف يثير ألم جحا إلى غير حد، فينتحر بإلقاء نفسه في اليم.

٥- خلال القصة صور لنا الفيلم: العادات العربية في الزواج: الزوجة حينما تعلم بأنها سيكون لها ضُرة، الزوجة تذهب لتخطب لزوجها امرأة أخرى، الأم تعرض بنتها كسلعة لتزويجها مع تظاهرها بأن البنت لم تكن تعلم بالزيارة السعيدة، الخاطبة تتحسس جسم البنت متظاهرة بفحص الثوب، لا رأي للفتاة التي تنقل من بيت إلى بيت كقطعة الأثاث... ثم حلقات الذكر، ندب الميت، السوق، الشحاذة، طيبة قلب الجميع، حتى إذا اتخذوا موقفا قاسيا فهو عادة ضد إرادتهم وتطبيقًا لمبدأ يرونه أقوى منهم.

٦- من المواقف الممتعة الموقف التالي: أشارت الزوجة الشابة إلى إحدى وصيفاتها إلى حبها لجحا، فذهبت الوصيفة تزور شيخا صالحا لتعرف منه ما يعلم عن جحا. يقول لها الشيخ إنه عرف أربعة كل منهم اسمه جحا: الأول بحار.. ويظل يصفه بأدب شعبي رفيع، فإذا انتهى من الأول قالت الوصيفة: ليس هذا جحا الذي أعنيه فيقول: طبعا لا ويمد يده إليها فتضع فيها بعض النقود..

ويبدأ في الثاني والثالث، والفيلم يصور لنا ما يحكيه عن كل منهم بالصور، وكلها من خيال الشيخ لاكتساب أكبر قدر ممكن من النقود، فلما تهدده الوصيفة بالذهاب يبدأ في الكلام عن جحا المقصود!

٧- أراد المخرج في نفس الوقت أن يصوِّر الراوي فاستخدمه في رواية القصة كلها، مصورا شخصيته وشخصية الجمهور المستمع له، كيفية تتبعهم للقصة وتشاجرهم في النهاية حول النهاية المتوقعة للقصة، و«تُقْل» الراوي في ذكر النهاية حتى يقبض منهم النقود، قائلًا وفقا للطريقة المصرية أو العربية، إنه لا يفعل ذلك من أجل النقود فالقصة نفسها لا يمكن أن تقدر بمال!!

إن أهمية الفيلم، ليس في أنه من أجمل ما رأيته من أفلام على الإطلاق، رغم أن هذا صحيح. ولكن في أنه درس لكل من يحاول من العرب إنتاج فيلم، وأهم من ذلك أنه دليل غير قابل للجدل على أن حياتنا وأدبنا الشعبي فيهما من الغنى والغزارة ما يمكننا من منافسة أي أدب عالمي، فضلا عن أنهما يعكسان شعبا ذا روح عظيمة لا يمكن أن تستنفذ.

جلال

(أرجو أن يكون حسين ما زال يحتفظ بخطاباتي

إذ أنها هي التسجيل الوحيد لحياتي اليومية هنا)

(18) كذا في الأصل، ومسرحية The Iceman Cometh من تأليف «يوجين أونيل» وليس «جان أنوي». (المحرر).

(19) تقدم حسين بعد عودته لأداء امتحانات وزارة الخارجية وعُين ملحقًا دبلوماسيًّا عام ١٩٥٨. (المحرر).

(20) لم أعثر على أصل الخطاب إلا أن جلال أمين اقتطف تلك الفقرة منه في كتابه «مكتوب على الجبين». (المحرر).

(21) جلال أمين، رحيق العمر، ص١٣٨. (المحرر).

(22) المصدر السابق، ص١٤٦، ١٤٧. (المحرر).

(23) رئيس المجلس النيابي اللبناني آنذاك. (المحرر).

(24) مسيرات «ألدرماستون» كانت مظاهرات سنوية مناهضة للأسلحة النووية في خمسينيات وستينيات القرن العشرين تقام في عيد الفصح. وتقطع المسيرة مسافة ٥٢ ميلًا (نحو ٨٣ كيلومترًا) من مؤسسة أبحاث الأسلحة الذرية في قرية «ألدرماستون» إلى العاصمة لندن. (المحرر).

(25) يتشابه ذلك الوصف مع ما ذكره حسين في خطابه من نيس بتاريخ ١٩٥٥/٦/٩ عن الفرق بين برود الإنجليز من ناحية وعاطفة المصريين والفرنسيين من ناحية أخرى، يذكر حسين: «الفرنسيون مغرومون بالتعبير عن عواطفهم كالمصريين وبعكس الإنجليز. إذا سرهم شيء ضحكوا وإذا أغضبهم شيء ثاروا وشتموا. أما الإنجليز فإنهم إذا سرهم شيء سكتوا وإذا أغضبهم شيء ازدادوا سكوتا». (المحرر).

(26) Ernest Raymond.

(27) شهد لبنان عام ١٩٥٨ صراعًا سياسيًّا بين رئيس الجمهورية كميل شمعون، الموالي لحلف بغداد، ومعارضيه من المؤيدين للانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة. وانتهت الأزمة بتدخل عسكري من الولايات المتحدة في يوليو، استمر ثلاثة أشهر، حتى انتهاء مدة شمعون الرئاسية. (المحرر).

(28) إمري ناجي هو سياسي مجري شيوعي، عاش في الاتحاد السوفييتي وعمل مخبرًا لدى أجهزة الأمن السوفييتية، ثم تولى رئاسة الوزراء المجرية

عام ١٩٥٣ حتى أقيل منها عام ١٩٥٥ لخلافه مع الاتحاد السوفييتي. على الرغم من ذلك فقد كان معارضًا للنظام المجري الموالي للاتحاد السوفييتي ورآه المجريون رمزًا للإصلاح. وأعيد اختياره رئيسًا للوزراء بعد ثورة شعبية عام ١٩٥٦ فانسحب من حلف وارسو، وحل البوليس السري، ووعد بإدخال الديموقراطية. وقد جاء رد القوات السوفييتية باجتياح المجر في نوفمبر ١٩٥٦ فقبضت عليه وأعدمته عام ١٩٥٨. (المحرر).

(29) a. The Lesson b. The Bald Prima Donna c. the New Tenant.

(30) صامويل بيكيت كاتب مسرحي أيرلندي وليس فرنسيا كما ورد في خطابك. ومع ذلك فهو يعيش في فرنسا منذ مدة طويلة ويكتب بالفرنسية. من المسرحيات التي شهدتها له في لندن Waiting for Godot سنة ١٩٥٦.

(31) سقط النظام الملكي العراقي الموالي للغرب في حركة ١٤ يوليو ١٩٥٨ واغتيل على إثر ذلك الملك فيصل الثاني وولي عهده ورئيس الوزراء نوري السعيد، واستبدل بالدولة الهاشمية الجمهورية العراقية تحت قيادة الضابطين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف. (المحرر).

(32)(*) هذا المنظر قد يثير السخرية لولا أن الشعور «بالإنسانية» يسبق إلى النفس. وهو في مصر ـ لو فرض وجدته ـ يثير السخرية للأسف..

(33)(**) الذي أقنعني بهذا، كلام ورد في قصة Ward No. 6 لتشيكوف التي قرأتها هنا، وهي رائعة.

(34) وقعت أزمة مضيق تايوان الثانية في ٢٣ أغسطس ١٩٥٨، بين جمهورية الصين الشعبية بقيادة «ماو زيدونج»، وجمهورية الصين (تايوان) المدعومة من الولايات المتحدة. وقد ساهمت المساعدات العسكرية التي أرسلها الرئيس الأمريكي «أيزنهاور» إلى الحكومة الوطنية في فشل محاولات القوات الشيوعية لاقتحام الجزر التابعة لتايوان. واستمرت حالة التوتر حتى اعتراف الولايات المتحدة بالصين الشعبية في عام ١٩٧٩، إلا أن حربًا كبيرة لم تقع كما توقع جلال. (المحرر).

(35) بقدر ما كانت والدتهما ترى في سفر أولادها إلى أوروبا ضرورة لبناء مستقبلهم إلا أن عاطفة الاشتياق إليهم ورغبتها في بقائهم بجانبها طغيا عليها، فكانت تتلهف لعودتهم من الخارج. وكما ذكرت لجلال أن بقاءه في مجلس الدولة كان أفضل له، فقد سبق وذكرت له أثناء إقامة حسين في لندن عام ١٩٥٥ أنها تعتقد أن حسين أخطأ بسفره إلى لندن. وكما رد جلال بقوله إن «لا

شيء أحسن مما أنا فيه الآن»، قال حسين آنذاك إن رأي والدته «قطعًا غير صحيح». وتظهر تلك العاطفة بشكل أكبر في خطابها لحسين عام ١٩٥٥. فعلى الرغم من قِصَر الخطاب فإن أغلبه يدور حول فكرة واحدة وهي عودة أبنائها من الخارج وعدم رغبتها في سفرهم، فتقول: «فرحت خالص خالص بحضور الدكتور عبد العزيز وفاطمة إلى مصر وعقبالك انت يا سيد حسين الدور عليك وحمادة وثريا رجعم من اوربا وحافظ وعروسته رجعو من الشام. ومرات خالك حافظ رجعت من الحجاز ونعيمة وحسين رجعو من الأسكندرية وكلنا بخير ولا ينقصنا إلا أنت. وحمادة اتنقل إلى مصر واحنا فرحانين جدا بس إذا كان أحمد مايسفرشي راخر لأني مفياش حيل يسافر حد». (المحرر).

(36) كان الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة يرى أن الوحدة العربية غير واقعية وغير عملية، وذلك أن العرب لم تكن لهم يومًا دولة واحدة عبر التاريخ، فضلًا عن صعوبة معاداة الدول الكبرى لأن الدول العربية غير قادرة على ذلك. كما رأى أن القضية الأساسية هي أن تهتم كل دولة عربية بترقية البشر عن طريق الاهتمام بالتعليم والصحة والتنمية وتحرير المرأة، بعيدًا عن مشروع الوحدة العربية (المحرر).

(37) «إليزابيث باريت» (١٨٠٦-١٨٦١) شاعرة إنجليزية، كان لها أحد عشر أخًا وأخت. وكانت، على العكس من أشقائها، تفضل الانعزال والقراءة عن المشاركة في الطقوس الاجتماعية لعائلتها. (المحرر).

(38)(*) مثال لأدبهم أنهم أسرعوا بإحضار كرسي لي في مقهى بمجرد إدراكهم أني أجنبي، وأوسعوا لي مكانًا في مائدتهم.

(39) كُتب هذا الخطاب قبل بناء حائط برلين عام ١٩٦١. (المحرر).

(40) على الرغم من صداقتهما، فإن عددًا من الخلافات وقعت بين أحمد أمين وطه حسين، وخاصة بعد انتخاب أحمد أمين عميدًا لكلية الآداب عام ١٩٤٠، وما لمسه أحمد أمين من محاولات طه حسين التدخل لصالح معارفه وإملاء إرادته على الكلية وعلى وزارة المعارف. وقد رفض أحمد أمين تعيين من رشحهم طه حسين بغير حق، حتى استقال من العمادة بعد عامين. ويبدو أن حسين وجلال أمين ورثا مشاعر والدهما نحو طه حسين، ووقفا في صالح والدهما وأخلاقه وطيبته ووطنيته الحقة وصدقه وبعده عن النفاق والرياء في السياسة. وقد كتب ثلاثتهم عن هذا الخلاف في كتبهم (أحمد أمين في كتاب «حياتي»، وحسين أمين في كتابيه «شخصيات عرفتها» و«في بيت أحمد أمين»، وجلال أمين في كتاب «ماذا علمتني الحياة؟»). (المحرر).

(41) قصيدة للشاعر اليوناني القديم «هزيود» كتبها نحو عام ٧٠٠ق.م، يُقدم فيها نصائح لأخيه «پرسيوس» في فنون الزراعة ونصائح أخلاقية حول الطريقة المثلى للتصرف في الحياة. (المحرر).

(42) أرجو ألا تفهم من هذا بأي حال أنني أريد التقليل من دور الفنان في حياتنا، ولكن محاولة رد اعتباره من شأنها أن تستغرق عشرة صفحات أخرى!

(43) نشر جلال مقتطفات من خطاباتهما المتبادلة التي تشرح تطور نظريته في الموسيقى، في كتابه «رحيق العمر». (المحرر).

(44) جزء من قصيدة «The Revolt of Islam» للشاعر الإنجليزي «شيلي» كتبها عام ١٨١٧ وتدور حول اندلاع ثورة ضد حاكم مستبد لدولة خيالية تُدعى «أرجوليس»، ترمز إلى الإمبراطورية العثمانية. (المحرر).

أجمل الكائنات

لم تكن والدة حسين وجلال تمثل لهما روح الأمومة الخالصة فحسب بل كانت قبل كل شيء رابطًا لهما بأرض الوطن، وخاصة بسبب ظروف سفرهما وإقامتهما بالخارج لفترات طويلة. فلم يقبلا منها تأخرًا في الرد على خطاباتهما ولا تهربًا من الإجابة بشأن أحوالها الصحية.

وقد كان شوقها إليهما ورغبتها في إبقاء أولادها بجانبها يجعلانها متلهفة لعودتهما. أما بالنسبة لحسين وجلال فعلى الرغم مما وجداه من صعوبات الوحدة ومشقة التغرب مقارنة بالمعيشة السهلة في بيت العائلة، فإنهما لم يجدا بدًّا من تطوير أنفسهما وتحمل شظف الحياة والوحدة، فيذكر حسين في خطابه بتاريخ ١٦ نوفمبر ١٩٥٥: «يقول جلال في خطابه إن والدتي ما زالت تعتقد أنني أخطأت بمجيئي إلى انجلترا. هذا قطعا غير صحيح». ويذكر جلال لها في خطابه بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٥٨: «تقولين في خطابك إن مجلس الدولة كان أحسن وأنا أقول لك أنه لا شيء أحسن مما أنا فيه الآن».

ولذلك فقد شعرا عند وفاتها بأنهما فقدا جذورهما وتوقهما للعودة مرة أخرى إلى أرض الوطن. وقد كتب جلال لأخيه يسأله يوم ٢٣ مايو ١٩٥٩ (أي بعد وفاة والدته بيوم، وقبل تلقيه نبأ وفاتها) عما إذا كانت والدته تحتاج لرؤيته، حتى يحدد ما إذا كان عليه العودة إلى القاهرة من عدمه. أما وقد وصله نبأ وفاتها، فقد طغى عليه شعور بأن جزءًا كبيرًا من الشوق الذي كان يدفعه للعودة إلى أرض الوطن اختفى. أما حسين فشعر بأنه «فرع قد قطع من شجرته وألقي بعيدًا في تيار الحياة، لا شيء يربطني بالعالم الذي أتيت منه. أصبحت أشعر الآن وكأنما لا بيت ولا مِلْكَ ولا جذور لي؛ على أتم استعداد وتقبل لأن أموت في أية لحظة دون أسف».

* * *

[لندن] ٢٣/٥/٥٩

عزيزي حسين

أرجو أن يكون قد وصل إلى والدتي الخطاب الذي هنأتها فيه بعيد ميلادك، وكل سنة وانت طيب. وأنت الآن ـ الآن فقط في سن قد يسمح لك بأن تقدم ما

أشرت إليه في خطابك السابق من «فلسفة أخلاقية كاملة»، وإن كنت سأظل أشك في مدى كمالها حتى أطلع عليها. ولكن من ناحية أخرى، هل تعتقد فعلًا أن من الممكن أن ينتج واحد منا ـ أنت أو حافظ أو أنا ـ شيئا ذا قيمة قبل سن الأربعين مثلا؟

الجو الآن، ومنذ حوالي شهر، من أجمل ما يكون وأنا أسافر كل أسبوع تقريبا لقضاء يوم في إحدى البلاد الجميلة على الشاطئ. والواقع أن هنا مناطق غنية بالمناظر الطبيعية، والسبب بالطبع يرجع إلى عدم استواء الأرض وكثرة الأمطار، الكفيلة وحدها بأن تجعل من أي مكان بقعة جميلة.

وسأسافر إلى إيطاليا في شهر أغسطس القادم لمدة ١٥ يوما (فلورنس وروما) في رحلة جامعية رخيصة ستتكلف كلها ٣٢ جنيها. والسبب الذي جعلني أعدل عن رجوعي إلى مصر في الصيف هو أنني أعتقد أن من الصواب الانتظار حتى أحصل على شهادة محترمة هي الـM.Sc. في يونية من العام القادم، فالامتحان الذي اجتزته حتى الآن لا يستحق أن أرجع إلى مصر بعده خصوصًا وأني أخشى أن يشتت هذا الرجوع من تفكيري، وأني أعتقد أنكم لو قابلتوني في العام القادم بدل هذا العام ستكون «استفادتكم» مني أكثر بكثير! إذ أني الآن في مرحلة أفكاري فيها تتغير يوما عن يوم ولا أعتقد أني سأستقر قبل عام، وفي نفس الوقت فإني لا أعتقد أن عقلي كان متفتحا بدرجة مثلما هو متفتح الآن. Please tell me how much, or how little, my mother needs to see me. (45)

لا زلت مصرًّا على فكرة الـsymmetry في الاستمتاع بالموسيقى وإن كنت أميل الآن إلى الاعتقاد بأنه يتعين الالتفات في نفس الوقت إلى جوانب أخرى فيها. فصحيح أن جمال الموسيقى في جمال الـsymmetry وأن موسيقيا يكون أعظم من آخر لأن الـsymmetry في موسيقاه أجمل، ولكن هذا يجرنا على الفور إلى سؤال آخر: ما الذي يجعل الـsymmetry جميلا، ما عناصر جمال الـsymmetry؟ لا شك أنه ليس بالضرورة مقدار تعقيده، بدليل أن هناك قطع غاية في الجمال في حين أن الـsymmetry فيها بسيط جدا (مثال ذلك موسيقى Limelight لشارلي شاپلن)؟

لمحاولة معرفة الإجابة استعرت كتابا من المدرسة اسمه Art & the Understanding ولكن ـ لخيبة أملي ـ وجدته يقول إن الجمال هو... الحقيقة! فأقفلت الكتاب وأرجعته للمدرسة!

ورغم شهرة Haydn فإننا لم نكن نكاد نسمع له في مصر، استمعت لسيمفونيته رقم ٨٠ على قبيل المصادفة فأعجبتني لدرجة غير معقولة ووجدتها غنية جدا بالألحان، وهكذا فُتح لي كنز يحتوي على ١٠٣ سيمفونية من تأليفه!

سأشتري لك كتاب Pasternak's Biography أول الشهر وأرسله لك. ولم أقرأ بعد «دكتور زيفاجو» لانشغالي في القراءة للبحث الذي أكتبه للماجستير، ومع هذا سأحاول البدء في قراءتها بمجرد إحساسي بالرغبة في قراءة رواية.

من الحكمة أن تنتظروا فلا تتزوجوا حتى تختبروا تجربة أحمد، فقط أخشى أن تؤدي كثرة التجارب التي تمر بكم إلى ما قد يؤدي إليه الإغراق في قراءة الفلسفة: أن يصبح السؤال بعد القراءة أصعب مما كان قبلها!

من مدة لا يكتب لي لا والدتي ولا حافظ ولا أمين يسري، فما الخبر؟

ترى ما سبب انفصالك التام عن شلة عادل وحسين عبد العزيز وطارق؟ رغم أني ربما لا زلت مختلفا معك في الأهداف السياسية فإني يومًا بعد يوم يزداد نفوري من سماع الـslogans في المناقشة، وأصبح أميل إلى قبول فكرة أن شخصا كنيتشة ربما كان after all، شخصا ليس مضرا بالدرجة التي كنت أتصورها!

ربما يرجع الفضل في ذلك إلى مناقشاتي مع أستاذي وإلى الكتب التي يشير عليَّ كل أسبوعين بقراءتها ثم أناقشها معه في المقابلة التالية، علمًا بأن كثيرا منها لا علاقة لها بالاقتصاد.. لقد أصبحنا هو وأنا، صديقين!!

جلال

* * *

القاهرة في ٣ يونيو ١٩٥٩

أخي جلال

أرجو أن تكون بخير وأن تكون قد تلقيت النبأ(46) وتقبلته على النحو الذي ذكرته في برقيتك.

أكتب إليك كلمتين عاجلتين لأخبرك أن الحركة الديبلوماسية قد ظهرت اليوم وأنني عينت ملحقا بسفارة كندا. وسأغادر القاهرة بعد حوالي شهر في الطريق إلى أوتاوا.

سأحاول جاهدا أن أمر عليك في طريقي لأمكث معك يومين أو ثلاثة. فإن لم أتمكن فلتقض إجازتك الصيفية هذا العام في كندا (والولايات المتحدة) بدلا من إيطاليا كما كنت تنوي خاصة وأن نبيل العربي قد نقل في هذه الحركة من روما إلى القاهرة.

وسأقوم أنا بحجز الطائرة لك إلى كندا.

حسين

* * *

[لندن] ٨/٦/٥٩

عزيزي حسين

شكرا على خطابك. وأرجو أن يكون قد سرك نبأ تعيينك في كندا، وإن كنت أنا لا أستطيع أن أقدر ما إذا كان هذا أفضل لك. المهم أرجو ألا يدعوك شيء إلى التقليل من القراءة والتفكير والكتابة بعد ذلك، وألا تدع أي عمل يعوقك عن ذلك.

لا أعتقد أن باستطاعتي تغيير رحلتي من إيطاليا إلى كندا، وهذا يرجع إلى سببين، أهمهما الثاني:

الأول: أن رحلة كهذه ستتكلف مبلغا باهظا لا أعتقد أنه سيقل عن مائتي جنيه.

والثاني: أن صديقا مصريا لي هنا حجز معي في الرحلة بسببي وألغى رحلة أخرى كان يفضل القيام بها لولا عرضي عليه الذهاب إلى إيطاليا. وهو في حالة نفسية سيئة جدا تجعله يعتمد عاطفيا عليَّ. والسبب أن أخاه وقد كان صديقا لي في مصر، كان يدرس الهندسة في زيورخ، ومنذ شهر عثر البوليس على ملابسه على شاطئ بحيرة ولم يعثروا له على أثر، والراجح أنه انتحر. وهو أخوه الوحيد. هذا يجعلني حريصا تماما على عدم تخييب أمله.

ومع هذا يا حسين فإنني لا بد أن أراك قبل ذهابك إلى كندا.

يؤسفني أن بقية الإخوة سيفتقدوك في حالة سفرك، ولا أدري بأي شعور أنت تارك مصر. اشتريت لك كتاب Pasternak وسأرسله إليك غدا.

جلال

* * *

القاهرة في ١٤ يونيو ١٩٥٩

عزيزي جلال

تحياتي لك وشكرا لخطابك. سأتعرض أولا لبعض النقط قبل الحديث عن تفصيلات الرحلة والمقابلة:-

١) زارنا في البيت منذ ثلاثة أسابيع الدكتور حسين خلاف. وقد أعطاني عنوانه في مصر ورجاني أن أطلب منك الكتابة إليه عن أحوالك ودراستك ومدى تقدمك في البحث. وعنوانه هو: [...]

٢) قبل نهاية شهر مايو سحبت نقودك من البنك وتوجهت إلى الجمعية التعاونية للبترول لشراء أسهم لك بها، فإذا بهم يخبروني أن الأسهم قد نفدت منذ أكثر من ستة أشهر لشدة إقبال الجمهور عليها. وبذا يكون حسابك ما زال نقدا عندي وسأسلمه لحافظ قبل سفري مع كشف تفصيلي أرسل لك صورة منه.

٣) نبيل العربي قد نقل في الحركة من روما إلى القاهرة. أما شكري فؤاد فقد نقل إلى لشبونة وحسين البحراوي إلى فرانكفورت. وباستطاعتك قضاء جزء من عطلاتك المقبلة معهما. هذا ويستعد الآن أمين يسري وبهاء لدخول الامتحان المقبل.

٤) أسفت أنك لن تستطيع قضاء عطلتك في كندا فقد كان باستطاعتك أن ترى بلادا جديدة تماما وأن نقضي فترة من الوقت معا في نيويورك التي تبعد عن أوتاوا نحو ساعة ونصف بالطائرة. أما موعد سفري فسيكون في حوالي ١٥ يوليو. على العموم فإنه إن كانت روما تناسبك أكثر من غيرها فسيكون اللقاء فيها أمرا سهلا دون أن تضطر إلى أن تدخل تغييرا كبيرا في برنامج رحلتك.

٥) اتصلت بيحيى الصادق لصرف فرق تذكرتك. وقد ذكر لي أن هذا ممكن وطلب مني معاودة الاتصال به في بحر أسبوع.

شكرا على إرسال كتاب باسترناك. وسأوافيك أولا بأول عما يجد من أخبار وبكل ما يتصل بسفري ومشروع مقابلتنا.

وإلى لقاء قريب،

حسين

م) هل تفضل أن أحضر لك معي مجموعة خطاباتك أم أن أسلمها لحافظ؟

م٢) هل تستطيع أن تنصحني بما يمكن أن أصنعه بشأن مكتبتي؟

م٣) وصل أحمد عائدا من ألمانيا منذ أربعة أيام وستلحقه زوجته بعد حوالي شهرين. وهو حاليا يقيم عندنا.

* * *

روما ـ ٢٠ أغسطس ١٩٥٩

عزيزي حسين

أكتب لك من حديقة جميلة جدا في بلد اسمها «تيفولي» على بعد ساعة من روما. وقد بقي على رحلتي يومان، وهي على العموم رحلة ناجحة جدا ومفيدة جدا وقد فتَّحت عيني على أشياء هامة كما أعتقد أن شهيتي للشغل تضاعفت. وقد تبين لي كم أنا سعيد الحظ بأن يكون بإمكاني قضاء كل أجازة في بلد أوربية مختلفة وأن أتمكن من معرفة البلدان المختلفة وتكوين ذكريات بها بحيث إذا أتيحت لي من جديد فرصة الذهاب إلى فلورنسا أو روما أو برلين يكون هذا من دواعي سروري الشديد. ومع هذا فيبدو لي أن الراحة الحقيقية غير ممكنة إلا في مصر، فأنا أحلم بقضاء شهر في مرسى مطروح، حيث لا شيء يمكنني عمله غير الراحة.

لو رآنا طاغور ـ أنا وصديقي ـ ورأى الناس الذين تكتظ بهم هذه الحديقة في «تيفولي» لانفجر ضاحكا أو لشعر بالأسف على حسب حالته النفسية. فكل واحد يحاول أن يلتقط صورا فوتوغرافية للمناظر الجميلة بالحديقة، بدلا من تأملها والاستمتاع بها. فالجمال أصبح إذن موضوعا للتملك بدلا من أن يكون سببا للاستمتاع ومثارًا للتفكير. والنتيجة أن هؤلاء عندما يغادرون الحديقة لا يشعرون بالأسف الواجب لعدم إمكانهم الاستمرار في التمتع بالجمال نظرًا لإحساسهم بأنهم قد استحوذوا في فوتوغرافياتهم على الجمال الذي شاهدوه.

صديقي ينفق من الوقت في اختيار الـslides الخاصة بالتماثيل والصور لكي يعرضها في فانوسه السحري أضعاف ما ينفقه في تأمل التماثيل والصور ذاتها.

أنا مصمم ـ رغم معارضة نبيل ـ أنه باستثناء الحياة الفنية في إيطاليا فإنها شبيهة شبها كبيرا بمصر. وربما كان السبب في اختلاف نظرتينا أنني رأيت إيطاليا بعد أن رأيت انجلترا حيث الفرق كبير جدا بينها وبين مصر. وأهم سببين في نظري للشبه هما الفقر والمناخ.

فالمناخ جعل حياة الناس هنا ـ كما هي في مصر ـ خارج البيوت لا داخلها، تماما كما أنه أخرج النمل ـ هنا وفي مصر ـ من جحوره. فلعلك لاحظت أن بين كل قهوة وقهوة، قهوة. والقهاوي هنا مختلفة تماما عن قهاوي انجلترا. فالكراسي في قهاوي انجلترا مصممة على نحو لا يسمح لك بالجلوس عليها مدة أطول من المدة اللازمة للشرب أو الأكل. كما أن ضيق القهوة في العادة لا يشجع على التأمل. أما هنا ـ كما في مصر ـ فكل شيء في القهوة يشجعك على الاسترخاء وقضاء بضعة ساعات على الكرسي بلا عمل.

روما إذن «مدينة مفتوحة» بمعنى أن الحياة فيها في الخارج لا في الداخل، وبالتالي بشرة الناس سمراء وملابسهم خفيفة مثلنا وتستطيع بسهولة أن تعرف أي نوع من الفانلات يرتدي الإيطاليون بينما لا أذكر أني رأيت فانلة غير فانلتي في انجلترا!

على أن الفقر في نظري هو المؤثر الأهم في الحياة الاجتماعية سواء في إيطاليا أو غيرها. فللمناخ لا تستطيع أن ترجع ـ فيما أعتقد ـ إلا المسائل السطحية، كلون البشرة أو الملابس ولكن تستطيع أن ترجع إلى الفقر مئات الأشياء الهامة.

منذ غادرت مصر لم أشاهد منظر شحاذ طفل حتى أتيت إيطاليا ـ وبالذات إلى روما ـ (فالشحاذين ليسوا كثيرين في فلورنسا) وكذلك الإلحاح في الشحاذة، ومنظر رجل يرتدي خرقا وينام على سور في الشارع..إلخ.

مما تلاحظه أيضا كيف أن «المشتري» في إيطاليا له السيادة غير المحدودة على البائع، كما عهدنا في مصر، بينما لا يكاد هذا يلحظ في انجلترا. فالمشتري في انجلترا لا يستطيع أن يمد يده على الفاكهة أو الخضار الذي يشتريه حتى لا يغضب البائع مما قد يجعله يرفض البيع له إطلاقا. ولكني رأيت من السيدات الإيطاليات السمينات هنا سلطة ما بعدها سلطان في المفاصلة وتقليب

وفحص البضاعة. وهنا ـ دون انجلترا ـ ما يكاد يلمح البائع فيك شبهة الرغبة في الشراء حتى يبدأ في ترغيبك ربما أمكنه أن يحرجك.

يذكرني هذا بالمناسبة بأن سيادة المشتري على البائع في مصر يصاحبها «ذل» الجمهور في مصر أمام الفنانين بمجرد أن يبلغ الفنان درجة معينة من الشهرة. فالتصفيق للمطرب في مصر أكثر عادة من اللازم وأكثر حتى مما يحس به الجمهور حقيقة. والمطرب كثيرا ما يظهر «التقل» بأن يتأخر مثلا عن موعده دون أن يحس الجمهور بأنه أهين. من الشيق أن تلاحظ أن الوضع معكوس في انجلترا فالجمهور هو الذي يتدلل والفنان مهما كان مشهورا يحس ـ لا شعوريا ـ بسيادة الجمهور عليه. وتفسير هذه الظاهرة في نظري هو نفس تفسير ظاهرة علاقة البائع بالمشتري، فمن معه المال معه السيادة، والمشتري هو صاحب المال والبائع هو الذي في حاجة إليه، والفنان عادة ثري والجمهور مسكين، وربما أضير الجمهور من إلغاء الحفلة أكثر مما يضار الفنان. وحيث أن السيادة في انجلترا ليست لصاحب المال، بل المواطن له قيمة باعتباره مواطنا مهما كان مركزه الاجتماعي، فمن الطبيعي أن يكون الوضع معكوسًا.

والفقر في مجتمع معين يولِّد عادة إحساسًا بالانفصالية لدى الشخص عن المجتمع ككل. إذ تصبح حاجات الشخص الضرورية الخاصة به وعائلته من القسوة والأهمية بحيث تجعل من العبث توقع اهتمامه بمشاكل المجتمع ككل ـ مثال صغير على هذا ـ له قطعا مئات الأمثلة المشابهة ـ منظر عسكري المرور الذي رأيته في روما يكلم رجلا في الشارع، خمنت أنه قريبه إذ استمرت المحادثة مدة طويلة وانتهت بالمصافحة(47).

في الترام منذ يومين تجاوزت المحطة التي تنتهي عندها تذكرتي فجاءني الكمسري وطالبني بتذكرة أخرى، ولكن المهم أن وجهه بدا عليه ما يشبه الغضب وعدم الثقة. في انجلترا حدث نفس الشيء، أن قطعت تذكرة بأربعة بنسات إلى محطة أجرتها خمسة بنسات. فلم يفعل الكمساري إلا أن انتظر حتى هممت بمغادرة الأتوبيس فقال لي وهو يبتسم أنه في المرات القادمة عليَّ أن أقطع تذكرة بخمس بنسات، ولم يبد عليه إطلاقا أي شك في أنني كنت أريد التهرب من دفع الفرق.

إذا سألت عن شارع معين في إيطاليا بدت السعادة على وجه الإيطالي إذ سيقدم لك خدمة، تماما كما يحدث في مصر، فإذا حاول شخص آخر التدخل لمساعدته في الشرح لم يسترح للتدخل ورغب في الانفراد بالمساعدة. في انجلترا يساعدونك أيضًا بمنتهى الأدب، فإذا سألت شخصا لا يعرف الشارع الذي تسأل عنه لم يكتف بالاعتذار بل كثيرا ما يستوقف شخصا آخر ليسأله

عما إذا كان يعرفه، الأمر الذي أشك كثيرا في أن الإيطالي أو المصري يفعله، فإذا لم يتقاض الإيطالي (أو المصري) الشكر لنفسه فما فائدة مساعدتك؟ (ألا يذكرني هذا بتعاون مدرسي الجامعات في انجلترا في كتابة مقالات سويا، إذا وجدوا أن كلا منهم لن يستطيع أن يخرج وحده مقالة ذات قيمة؟)

لم أكن أظن أنني سأفتقد في إيطاليا منظر الفتى والفتاة سائرين سويا في الشارع، المنظر المألوف في انجلترا. ففي انجلترا لا تكاد ترى ثلاثة رجال مثلا سائرين سويا ومنظر الرجلين أكثر ندرة بكثير من منظر الرجل والمرأة. هنا العكس، فإذا حدث وصادفت منظر الرجل والمرأة معًا فالأغلب أن تكون المرأة سمينة والرجل فاقد الاهتمام فيها مما يدل على الفور أنهما زوجان.

من الطبيعي إذن أن ترى الرجال هنا يبحلقون في النساء بشكل مشابه لما يحدث في مصر، بينما الإنجليزي يرى ولكنه يتظاهر بعدم الرؤية، الانجليزي بالطبع أكثر أدبا من الإيطالي. حينما يريدك الإنجليزي أن تفسح له الطريق للنزول من الأوتوبيس يقول لك excuse me ولو لم يكن سيضطر إلى لمسك إطلاقا، إنه يقولها إذا كان مجرد خياله سيتقاطع مع خيالك. الإيطالي لا يقول permisso إلا إذا كان نزوله من الأوتوبيس يقتضي نزولك أنت أيضا معه! أما «Grazie» فقد سمعتها من الإنجليز الذين أتوا معنا في الرحلة أكثر مما سمعتها من الإيطاليين أنفسهم.

الإيطاليون شديدو التدين، ما أسرع ما يرسمون علامة الصليب على صدورهم لدى أي رؤية للصليب أو المسيح أو اسم أو صورة العذراء. وهم يفعلون ذلك بنفس الكثرة ـ فيما أظن ـ التي يردد بها رجل الشارع في مصر جملة «صلى الله عليه وسلم» لدى سماعه لاسم النبي، أيا كانت المناسبة التي يقال فيها هذا الاسم. وهم بالتالي أكثر إيمانا من الإنجليز بالحظ والقدر، فسائق التاكسي الإيطالي يعلق أمامه أشياء تجلب له الحظ، الأمر الذي لم أشاهده قط في التاكسي الإنجليزي(48).

والشيء الذي افتقدته تماما في انجلترا وشاهدته من جديد في إيطاليا بيع اللوتارية. فاليانصيب إذن وسيلة جديدة للشحاذ الإيطالي، بينما الشحاذ الإنجليزي مسكين عليه قبل أن يطمئن إلى أنه سيكسب أي مكسب معقول أن يشتري كمانًا ويتعلم ـ بإتقان ـ مقطوعة موسيقية لباخ ويقف لعزفها في أكسفورد سيركس، وهو عادة يضع قبعته التي يضع الناس فيها النقود على بعد أمتار عديدة منه أثناء انهماكه في العزف، خجلًا وحياءً!

ولكن ليس الناس فقط هم الذين يذكرونني بمصر، المدينة ذاتها تشبه القاهرة أو الإسكندرية إلى حد بعيد بحيث استغرب كيف أن نبيل يمكن أن ينكر الشبه: المباني معظمها قديم، نفس أنواع الشجر، بعض النخيل، التراب، سوء «زفلتة» الشوارع بالنسبة إلى لندن، وجود الترام، شكل الأوتوبيسات، تعقد المرور وخطورته وعدم تنظيمه النظام الكافي، نفس أشكال المحلات وطريقة ترتيبها، أبواب المحلات المصنوعة من أعواد الخرز أو ما شابه بحيث تمنع رؤية ما في الداخل وتدخل الهواء في نفس الوقت، مما نراه خصوصا في صالونات الحلاقة في مصر، كثرة المحلات المتنقلة والبيع على عربات، البائعون الظرفاء الذين يتفننون في اختيار بضاعة غريبة وتجربتها في وسط الشارع، وهم دائما يجدون جمهورًا من المتفرجين، وأخيرا ظاهرة هامة: القلة الواضحة في عدد من يقرأ جريدة أو كتابا في الأوتوبيس أو الترام، هل هو الحر، أم الزحام، أم كلاهما؟

إن كثرة أوجه الشبه بين مصر وإيطاليا يجعلني أطمئن إلى إجراء القياس بينهما حتى في الأشياء التي لم ألاحظها في إيطاليا وأعرفها عن مصر.

على أن الشيء الهام الموجود في إيطاليا والمفتقد إلى حد بعيد في مصر هو بالطبع الحياة الفنية وعلى الأخص متاحف الصور والتماثيل. وفلورنسا لا تقل يا حسين عن روما في جمال متاحفها وتماثيلها. وأعتقد أن التمتع برؤية التماثيل بالذات هو من أهم الأشياء التي تعلمتها في هذه الرحلة. ولا أدري ما إذا كنت محقا ـ أو متأخرا ـ في ملاحظة الفارق الضخم بين تماثيل مايكل أنجلو وغيره من المثالين الإيطاليين. فتماثيله هي الوحيدة التي لا أمل من رؤيتها أو رؤية الصور التي اشتريتها لها، وأنوي أن أقرأ عنه عند عودتي إلى لندن، فتماثيله حية أكثر من أي تمثال آخر وتمتاز عدا ذلك بالجمال والقوة، وكذلك ـ فيما أظن ـ بانسجام تعبير الوجه مع وضع الجسم (مثال ذلك بالذات تمثال موسى)، وعدم محاولة تكلف رسم تعبير واضح وضوحًا صارخًا على الوجه، فوجه مريم وهي تحمل المسيح في تمثال Pietà (في كنيسة St. Peter) واضح عليه الأسف والأسى دون أن يكون التعبير «ملزوق على التمثال لزقًا». يبدو هذا مثلا إذا قارنا هذا بتمثال آخر في الـBorghese Gallery لرجل شيخ يهجم على فتاة يريد اغتصابها وهي تحاول المقاومة، فلم يستطع المثال أن يعبر عن خوف الفتاة وذعرها إلا بوضع دمعتين كبيرتين لا يخطئهما الناظر على وجنتيها!

رأيت بالأمس أوبرا عايدة في مسرح كراكلا، لا أدري ما إذا كنت دخلته. ولا أعتقد أني يمكن أن أرى مسرحًا أنسب ولا إخراجا أجمل مما رأيته بالأمس. فالمسرح مكشوف وخشبة المسرح نفسه مقامة بين بقايا أثر قديم وصالة المسرح كلها محاطة بالبقايا الأثرية والأشجار المضاءة، بحيث أن من يمل

النظر إلى الأوپرا يمكنه التمتع بالنظر إلى القمر والسماء. وعايدة ليست فقط موسيقى جميلة بل أيضا قصة لطيفة، وأعتقد أنها تصلح قصة رمزية بحيث يمكن أن يستخرج منها من المعاني أكثر من معانيها الظاهرة.

أرجو أن تكتب لي بكثرة فالخطابات التي تصلني الآن أصبحت قليلة وأشك كثيرا فيما إذا كان سيصلني من العائلة في مصر أي خطابات منتظمة ـ ويهمني كثيرا أن تكتب لي عن حياتك الخاصة ومشروعاتك ومدى تطورها بسبب سفرك إلى كندا.

جلال

وصلني الكارت الذي أرسلته إلى نبيل وشكرًا، وهل سافر شكري فؤاد فعلا إلى لشبونة وهل تعرفت به إلى درجة تمكنك من إصدار رأيك فيه؟

* * *

أوتاوا في ٢٩ أغسطس ١٩٥٩

عزيزي جلال

شكرا على الخطاب والبطاقات التي أرسلتها من إيطاليا، وقد سرني أنك قضيت إجازة مفيدة هناك. إن روما في رأيي هي أفضل بلاد الدنيا على الإطلاق، ولو أن بها ما بلندن من مسارح لأصبحت بالنسبة لي جنة الله على الأرض... تُرى هل لبيت دعوة شكري فؤاد لزيارته في البرتغال؟ كان قد كتب إليَّ ـ أثناء وجودك في إيطاليا ـ يسألني عن عنوانك في لندن فأجبته بأنه بإمكانه الكتابة إليك على عنوان نبيل بالسفارة. ولا أدري ما إذا كان قد فعل.. هل تعلم أنه تزوج قبل سفره إلى لشبونة بحوالي أسبوعين؟ وقد طلب مني أن أكتب إليك لأحذرك من أن زميلا لك في لندن (هو ذلك الشاب الذي طلبتَ منه أن يزورنا في الدقي عند مجيئه إلى مصر لحضور مؤتمر الطلبة العرب) أشاع عنك أثناء وجوده في مصر أنك قد أصبحت ماركسيا. وكان هذا هو السبب في أنني طلبت منك في أحد خطاباتي أن نقفل باب الحديث في هذا الموضوع بعد أن وصل منك خطاب أو خطابان قد يشتم منهما العطف على الماركسية.

وصفت لك في خطاب سابق مدينة أوتاوا، وقلت إنه بخلاف جمال الطبيعة المنقطع النظير هنا، فإن المدينة مدينة ميتة لا حياة فيها؛ هي أقرب إلى المدن الإقليمية في انجلترا كشفيلد أو برمنجهام دون مصانعهما وسواد مبانيهما. أما

مونتريال (أكبر مدن كندا) فقد أكدوا لي أنها باريس القارة الأمريكية. غير أني عندما زرتها مؤخرا خاب أملي فيها. فإن كانت تشبه باريس أو نيويورك في الاتساع والضجة والملاهي، فإنها تفتقد أهم العناصر التي تجعل من المدينة مدينة عظيمة؛ أعني الطابع الخاص. والواقع أن هذا بالضبط هو الذي يحول دون أن تصبح كندا دولة عظيمة ذات دور في السياسة الدولية أو الفنون وذلك رغم أن مساحتها تزيد على مساحة الولايات المتحدة، بله فرنسا وانجلترا، ورغم أنها أكثر ثراء من الدولتين الأخيرتين.

أما عن عملي بالسفارة فقد بدأت أعتاد عليه وذلك بعد شهر من الضيق الشديد، سواء من العمل أو من الحياة هنا.... فإن أردت الحق، من الحياة على الإطلاق. لا أدري السبب. ربما لأنني قد بت منذ وفاة والدتي أشعر لأول مرة وكأني فرع قد قطع من شجرته وألقي بعيدا في تيار الحياة، لا شيء يربطني بالعالم الذي أتيت منه. أصبحت أشعر الآن وكأنما لا بيت ولا مِلْكَ ولا جذور لي؛ على أتم استعداد وتقبل لأن أموت في أية لحظة دون أسف. وقد راعني هذا الاتجاه النفسي مني خاصة عندما ركبت الطائرة من مصر إذ لم أستطع أن أعثر على ذرة من الفرح أو التعطش لمشاهدة بلاد وأشياء جديدة؛ ذلك الفرح والتعطش اللذان كانا يميزان رحلتي الأولى والثانية إلى الخارج.

When first my way to fair I took

,Few pence in purse had I

And long I used to stand and look

At things I could not buy

Now things are altered: if I care

;To buy a thing, I can

,The pence are here and here’s the fair

But where’s the lost young man?(49)

الزملاء بالسفارة ـ لحسن الحظ ـ طيبون للغاية، وعلى استعداد كبير للمساعدة. غير أني لا أقبل في يوم ما الخروج معهم في المساء إلا وأنا أعلم سلفا أن هذا سيتم على حساب أعصابي. لا حديث إلا في أثمان السيارات وأنواعها والجرامافونات والكرافتات الإيطالية، أثمان السوق والأسعار

الدبلوماسية، وكيفية استيراد البضائع من نيويورك..إلخ. لو أني حدثتهم في الأمور التي تشغل ذهني حاليا لما زاد فهمهم لحديثي عن فهمهم للاتينية. وهم يعللون ضيقي واكتئابي بشدة الرطوبة في الجو.

الأمسيات في أوتاوا لا يمكن قضاؤها إلا في البيت (كما سبق أن ذكرت لك). وإذ أني أمقت التيليفزيون، فإني أمضي الوقت في القراءة (أفلاطون وشوبنهاور أساسا) ريثما أجمع شتات ذهني لاستئناف الكتاب الذي بدأته في مصر والذي نحيته جانبا بعد وفاة والدتي. وقد تعرفت حديثا بفتاة من شيلي تدعى أليسيا أعتبر نفسي سعيدا بصداقتنا. فبالإضافة إلى أنها تخفف عليَّ من وطأة الوحدة التامة التي أعيش في ظلها، تجعلني أعيد النظر في صحة ما ذكره شوبنهاور من أن السعادة خرافة، وأن خير سبيل للعيش هو قتل إرادة الحياة في النفس والعزوف عن المتع. هي فتاة بعيدة عن أن توصف بالجمال، غير متزوجة رغم أنها قاربت السادسة والعشرين ومع ذلك فهي تمثال حي للفرح بالحياة والابتهاج المستمر. وها أنذا في كل مقابلة لي معها، أحاول أن أعرف السبب، أشجعها على أن تصف لي نمط حياتها وطبيعة علاقاتها مع الناس، وحقيقة مشاعرها وآمالها.

حاول أن توفر بعض النقود من الآن وحتى ديسمبر حتى نتمكن من قضاء عطلة عيد الميلاد في الولايات المتحدة والمكسيك. وسأقوم أنا قطعا بزيارة لندن فور عودة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين التي تقول «الأهرام» أنها ستتم بعد حوالي شهرين. من يدري، ربما نتمكن من العودة معا من لندن إلى كندا بعد هذه الزيارة مارين بالبرتغال.

وإلى اللقاء في خطاب قادم.

حسين

* * *

[لندن] ٥/١٠/٥٩

عزيزي حسين

وصلني اليوم خطاب من حافظ (أُرسله إليك) ذكر فيه أنك مستاء من عدم كتابتي إليك مدة طويلة، وقد ضايقني هذا إلى حد جعلني أشرع فورًا في الكتابة إليك، خصوصا وأنه ربما كان من شأن تأخري طول هذه المدة أن يعطيك فكرة خاطئة عن أثر خطابك الأخير فيَّ. هذه هي لغة الخطابات، لا

يستطيع الشخص أن يتعرَّف على أثر خطابه في الآخر على الفور أو على الإطلاق. أرجو من كل قلبي أن تكون حالة الكآبة التي تكلمت عنها في هذا الخطاب قد زالت وأن يكون عاودك سرورك الذي كان يشع من خطاباتك التي كنت ترسلها لنا من لندن.

كلامك عن زملائك وأنك «لو حدثتهم في الأمور التي تشغل ذهنك حاليا لما زاد فهمهم لحديثك عن فهمهم للاتينية» ليس غريبا عليَّ. فأنا في حالة نفسية مشابهة كل الشبه زادت حدتها في الشهر الأخير. إني في الأسابيع الأخيرة في حالة من «الملل» لم تمر بي من قبل قط. تصوَّر أني أجد في كل ما أسمع من «الزملاء» هنا كلامًا معادًا وأجد كل عباراتهم «أكلاشيهات» مكرَّرة غير صادرة عن القلب ولا يعنونها. إني أحس إحساسا متزايدا بالآتي: إننا لا نكاد نعبِّر عما يدور بنفوسنا إطلاقا، وإنما دائما نقول شيئا مختلفا. والعلاقات الاجتماعية ليست ـ فيما يظهر لي ـ علاقات بين نفوس، وإنما هي علاقات بين «الكلام ذاته»، فكل منا يقول كلاما لا يشعر به ولا يعنيه، فيرد عليه الناس بكلام «مناسب» وتتكوَّن العلاقات الاجتماعية على أساس هذا الكلام غير المخلص والردود «المناسبة» له! إن مئات الأمثلة تعرض لي كل يوم، وأنا أشعر برغبة داخلية مستمرة في الضحك على كل ما يصدر عن الناس «كَجِدٍّ». الناس لا يكوِّنون فكرتهم عنك بناء على حقيقتك، ولكن بناء على الطريقة التي تعاملهم بها، وحيث أن لكل منا طرقا مختلفة في معاملة الناس المختلفين فقد تكونت لدى الناس عن الشخص الواحد أفكارًا وصورًا متناقضة. فأنا قد أبدو مغرورًا لشخص ومتواضعا لشخص، مرحًا لشخص، سخيفا لآخر، ذكيا لشخص غبيا لآخر...إلخ، والطريف أن كل هذه الانطباعات صحيحة رغم تناقضها!

والناس نفوسهم هشة من الضعف، بدرجة تدعو للذهول، فيكفي أن يواجه أقواهم شخصية بشخص يُبدي له الاحتقار، شعورًا مخلصًا بالاحتقار، حتى ينهار الأول! بمجرد أن شعرت بهذا الملل بدأت أعامل كثيرا من زملائي ببرود غير معهود مني، مجرد أني لم أعد أشترك في الحديث بحماس ولا أسعى لمقابلتهم وأغيب عن المدرسة بعض الأيام، مع ظهور الملل على وجهي، مجرد هذا دفع ببعض هؤلاء الزملاء إلى ما يشبه الانهيار، وإذا بهم يحاولون محاولات مستمرة «لاسترضائي» وجذبي إلى الكلام، وكلما «تمنعت» كلما ازداد انهيارهم. بل وإذا بالشخص الذي كان يمتاز بأنه لا يغتاب الآخرين، لا يجد غضاضة في أن يبدأ في السخرية ونقد الآخرين لمجرد أن ثقته بنفسه تزعزعت ويريد أن يرفع من قدره بنقد الآخرين!

من جهة أخرى فأنا راض عن حياتي هنا تمام الرضا، ففترات الضيق أو الملل هذه لا علاقة لها بالتشوق إلى مصر، فأنا أصارحك بأن هذا الشوق لم يعد له

وجود أصلا، خاصة بعد وفاة والدتي، وأنا لديَّ نفس شعورك بأنني لم يعد لي الـhome الذي كنت أشعر بوجوده حينما كانت والدتي على قيد الحياة.

ومن ناحية أخرى يا حسين فإن والدتي بالنسبة لي لم تمت تمامًا، هذا ليس كلاما عاطفيا بل حقيقيا. فأنا كثيرا ما أتكلم عنها بصيغة الحاضر وكأنها لم تمت، وأهم من ذلك أنني لا أشعر بأنني فقدتها بموتها، لشعوري بأني أعرف معرفة كافية ماذا كانت، والشعور بفقدها فقدانًا تامًّا بعد كل هذه السنين التي خبرناها فيها لا يمكن أن يكون إلا من قبيل الغباء. وما كان يجوز أن نطالب بوجودها إلى الآن حتى بعد أن ضعفت ولم تعد قادرة أن تعبر عن نفسها التعبير المعتاد. ومن الحكمة أن ننظر إلى الفراق ـ كما ينظر إليه طاغور ـ لا على أنه موتًا بل على أنه التتمة completeness. فهل يجوز أن نظل آملين أن تستمر رواية وقصة إلى الأبد لمجرد أننا نستمتع بها، ألا يجب أن نكون من الذكاء بحيث نتقبل نهايتها على أنها طبيعة وعلى أنها الفرصة المناسبة لتفهم الرواية أو القصة ككل؟

بل إني كلما مر الوقت كلما أشعر بأن والدي يعيش بالنسبة لي أكثر مما مضى، فأنا الآن أفهم كثيرًا من الأشياء والتصرفات التي كانت تصدر عنه فهما مختلفا تمامًا عن فهمي لها أثناء حياته. وأنا فخور بانتسابي إليه كما أني فخور بانتسابي لوالدتي.

لي صديقة انجليزية اسمها Shirley أعرفها معرفة وثيقة منذ مايو الماضي، وهي تزعم لي أنها تحبني ولكني لست واثقا من هذا ثقة تامة، ولكني لا أشك في أنها تشعر ببعض الشعور الرقيق نحوي. وأنا أقول لها أنني أحبها ولكني لا أعني بذلك الحب بالمعنى المعروف. ولكن السبب أني أشعر فعلا نحوها بكثير من العواطف الرقيقة التي لا يكفي في وصفها عبارات Like أو fond of، وفي نفس الوقت فإن كلمة الحب استعملت استعمالا شائعا لدرجة يصعب أن يُعرف معها درجة العاطفة التي يجب أن توصف وحدها بالحب! المهم، إن عمرها ٢٧ سنة (أي أكبر مني بسنتين ونصف) وكانت متزوجة من قبل ولها بنت لطيفة عمرها ٧ سنين، وShirley شقراء ووجهها جميل وجسمها جميل أيضا ولكنه نحيف وصدرها صغير جدا!

علمت من حافظ أيضا أنك تنوي زيارتي في ديسمبر. لا تتصور كم يسرني ذلك، فإني أعرف من الآن ما أريد أن أقوله لك (وهذا ليس شيئًا بسيطًا!) هل هذا يتوقف على عودة العلاقات الدبلوماسية؟ ـ اكتب لي ولن أتأخر في الرد.

جلال

* * *

أوتاوا في ١٩ أكتوبر ١٩٥٩

عزيزي جلال

شكرًا لخطابيك، ولشيرلي على لفتتها اللطيفة، ورجائي أن يكون الأستاذ قد سرَّه بحثك في كارل ماركس، وإن كنت لا أعلم بعد مضمونه. فإن كنت قد احتفظت من البحث بنسخة زائدة فابعث بها إليَّ، وإلا فبملخصه وفكرة عن اتجاهاتك فيه.

لا أعتقد أنني سأسافر إلى لندن في إجازة عيد الميلاد، اللهم إلا إذا تمكنت من أن أقنع إحدى شركات الطيران هنا بالموافقة على تقاضي ثمن التذكرة في مصر. فالمشوار وحده قد يكلف أكثر من ثلاثمائة دولار، بينما لا تتجاوز العطلة ثلاثة أيام. أما إجازتي السنوية عن ١٩٥٩ فلن أتمكن من الحصول على الموافقة عليها إلا بعد انقضاء عام على إقامتي بالخارج، وذلك وفق لائحة الخارجية. ومع ذلك فإن لي أملا غير ضئيل في أن أعين بالسفارة في لندن متى عادت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، وهو أمر قد يتحقق خلال الشهرين أو الثلاثة أشهر القادمة خاصة بعد أن أعلن عن وشوك استئناف العلاقات مع أستراليا. أما إن تأخرت عودة العلاقات مع لندن فإنه حتى مجرد زيارتي لانجلترا لبضعة أيام سيكون مستحيلا. على كل حال، إذا أنت وجدت أن مدة إجازتك في عيد الميلاد من الطول، ومركزك المالي من البحبوحة، بحيث يسمحان لك بقضاء أسبوعين أو ثلاثة خارج بريطانيا، فسيسرني أن أقابلك في نيويورك لقضاء بضعة أيام بها نعود بعدها سويا إلى كندا حيث تقضي بقية الإجازة تشاهد أثناءها أوتاوا ومونتريال وتورونتو وشلالات نياجرا. ثم من يدري، ربما تكون العلاقات مع بريطانيا قد استؤنفت في ذلك الحين، ونقلت أنا كما أتوقع، إلى السفارة هناك، فنعود معًا إلى لندن.

تحياتي إلى أحمد شوقي إن كان لا يزال في لندن. وإلى أن أسمع منك تقبل أطيب التمنيات.

حسين

* * *

[لندن] ١٨/١١/٥٩ (عيد ميلاد أحمد)

عزيزي حسين

شكرا على خطابك، وكم أغبطك على أنك قرأت معظم كتابات «كانت» وغيره، وهذا يجرني إلى تصحيح ما ذكرته في خطابك من أنك تحزر أنني أعتقد أن هوة الخلاف تتسع بين مجريي تفكيرنا. هذا عهد مضى. على العكس، إذا قابلتني الآن ستجد أن مجريي تفكيرنا متقاربان (هذا ما لم يكن مجرى تفكيرك تغير تغيرا أساسيا عن الصورة التي لديَّ عنه). سيسوؤك فقط أن قراءاتي في غير الاقتصاد أقل بكثير جدا من قراءاتك، ولكن سيعوض ذلك ـ بدون شك ـ أنني سأكون مستمعا ممتازًا ومتجاوبا بل وسأشارك في النقاش مناقشة غير سطحية، وإن خلت من الاستناد إلى كبار المفكرين. لا تقلق إذًا من هذه الناحية، فأنا طلقت التعصب، والتحمس الأعمى. والهدوء الذي يميز طبعي أصبح يميز فكري أيضا.

ولكني، رغم أني أوافقك على أنني لو كنت موجودا في مصر عند وفاة والدتي «لاستفدت» من وفاتها أكثر مما «استفدته» منها هنا (هذا إن كان «يصح» الكلام على الاستفادة من شيء كهذا على الإطلاق) إلا أني لم أستطع أن أعثر على أي علاقة بين هذا وبين الشعور الذي كان يسودني حين كتبتُ الفقرة التي اقتطفتها.

وهذه الفقرة(50) ليست «علم نفس» ولا «واقعية» ولا «فلسفة مادية» ولا شيء من هذا القبيل، على الأقل حينما كتبتها للتعبير عن حالة نفسية معينة كانت ولا تزال تسودني ـ وإن كنت أعتقد أنها لن تستمر بأكملها طويلا وإن ربما خلَّفت بعض الأثر ـ هذه الحالة النفسية لا أعتقد إطلاقا ـ بعكس ما يشتم من تعليقك عليها ـ جديرة بالانتقاد. بالعكس. كل ما هنالك أنني ألاحظ ـ ولأول مرة بهذا الشكل ـ وجهًا من أوجه الضعف في الناس موجود حتى في أقواهم، وأنني «اكتشفت» أن الفرق بين الناس من حيث القوة والضعف ليس فرقا في الكيف وإنما فرق في الكم بمعنى أن من يسمى بالقوي هو الذي لا يشعر بالانهيار أمام كيت وكيت من الناس، ولكنه مع ذلك قابل للشعور بالانهيار أمام من هو أقوى منه في ناحية من النواحي، وهكذا، وهذا الشعور قابل لأن يجعله يتحول إلى شخص سخيف وحتى إلى شخص «غبي» بطيء الفهم، فاشل، قليل الحيلة..إلخ. والخلاصة أن لكل منا مئات الشخصيات وليست شخصية واحدة.

فما الذي لا يعجبك في هذا؟ سأقتطف أنا بدوري فقرة من خطابك لكي تراجع رأيك: «ما هذا؟ علم نفس؟ واقعية؟ أم فلسفة مادية؟ Hurrah for Galal! لقد

أصبح بتأثيره يجعل الشخص الذي كان يمتاز بأنه لا يغتاب الآخرين قادرًا على الغيبة».

الذي حزرته من خطابك ككل هو أنك غير سعيد؟ هل أنا على صواب؟

ستكون هديتي لك في الكريسماس مقالتين عثرت عليهما في مجلتين إحداهما: Middle Eastern Affairs 1954 (January) والثانية Middle East Journal 1955 وكلاهما يصدران في أمريكا. المقالتان عن والدي الأولى اسمها: The Autobiography of Ahmad Amin والثانية اسمها:

Now and Then in Egypt: The Reflections of Ahmad Amin (1886-1954)

وهما ممتازتان وطويلتان (حوالي عشرة صفحات كل منهما) وقد أحالت واحدة منهما إلى مقالتين أخريين عن والدي في مجلة The Muslim World 1952 & 1953.

لا شك أنك ستسر كثيرا بهذه المقالات، والمقالتان الأوليان أعطيتهما للـTypist وسأرسل لك نسخة منهما بمجرد الانتهاء. وأقترح عليك الاشتراك معي في ترجمة المقالات جميعا (والأوليان ـ اللتان قرأتهما ـ تمتازان بتناول الحياة الاجتماعية المصرية كما يعرضها والدي في كتاب حياتي ومجلدات فيض الخاطر ـ فهما of general interest) ولا بأس من الإضافة إليها من كتاباتنا نحن وطبع الكل في كتاب. سأؤجل كلامي على كتاب حياتي إلى خطاب قادم.

مع أحسن تمنياتي

جلال

* * *

أوتاوا في ١٦ يناير ١٩٦٠

عزيزي جلال

وصلتني برقيتك اليوم. ويؤسفني إذ أكون قد سببت لك القلق بتأخري في الرد. وعلى كل حال فإنك أنت صاحب نظرية «لغة الخطابات» (أتذكر؟!) ومقتضاها أن الشخص قد يتأخر في الرد شهرا أو شهرين دون أن يعني تأخره شيئا.

لم أنقل إلى سفارة لندن كما كنت أتوقع، وإنما عين فيها ملحق آخر هو صديق لكل من نبيل العربي وأمين يسري وحافظ ولعلك تعرفه، واسمه باهر الصادق. كذلك نقل إليها من سفارتنا هنا سكرتير أول لا أنصحك بالتبسط معه في الحديث إن حدث وقابلته. أما عن السبب في عدم نقلي إلى لندن فهو أن مدير إدارة غرب أوروبا الذي كان منتظرا أن يعين رئيسا للبعثة هناك، والذي كان من المؤكد أن يطلبني معه ـ رفض أن يكون مجرد قائم بالأعمال عندما عرض عليه المنصب.

هذا والغالب أنني سأقضي إجازتي السنوية القادمة في مصر، إذ لم تعد لديَّ رغبة كبيرة في مشاهدة بلاد جديدة (ولا حتى نيويورك)، ولنيتي السعي في القاهرة لنقلي نهائيا إلى مصر. لا يمكنك أن تتصور بلدا يمكن أن يكون أسوأ من كندا بالنسبة للإقامة الطويلة أو القصيرة. وأصدق وصف لها هو أنها «في آخر الدنيا» سواء من ناحية الموقع الجغرافي أو الاتصال بالحضارات. فإن قارنت العاصمة «أوتاوا» بمدينة طنطا أو الزقازيق خرجت الأخيرتان من المقارنة بمثابة باريس من حيث انتعاش الفنون ورقي الثقافة وتدفق الحياة.

وقد كان المشي لمسافات طويلة هو أكبر متعي في مصر. أما هنا فإن الحرارة والرطوبة البالغتين في الصيف، والبرودة الشديدة وتراكم الثلوج في الشتاء، قد حرمني من هذه الرياضة (الوحيدة) مما كان له بلا شك تأثيره في نفسيتي، وحبسني في غرفتي أكثر مما أحب. ولعلي قد أخبرتك في خطاب سابق أن المدينة ليس بها مسرح واحد، وأن دور السينما الأربع بها تعرض أفلاما قد رأيت معظمها منذ أعوام في مصر، والباقي عرض في مصر ولم أعبأ بمشاهدته.

سيتحسن مركزي المالي ابتداء من أول فبراير ثم بالأخص في مارس، وذلك بالنظر لتسديدي ثمن الجرامافون والاسطوانات والكتب والملابس التي اشتريتها في الأشهر الماضية، ولما يقولون عن احتمال ترقيتي إلى سكرتير ثالث هذا الشهر. وإذ أن شركات الطيران هنا تقسط ثمن التذاكر على عدة أشهر (كل شيء هنا يخضع لنظام Buy now, pay later مما يغري على الشراء) فإني سأفكر جديا في طلب إجازة مدتها عشرة أيام في فبراير أو مارس وقضائها في لندن. غير أن هذا بطبيعة الحال يتوقف على موافقة السفير الذي قد يرفض الطلب بسبب ما ترتب على نقل السكرتير الأول من قلة الموظفين. فإن كانت لديك أنت إجازة معقولة في عيد الفصح، وأحببت أن تقضيها في نيويورك فسيمكنني في تلك الحالة أن أعيرك ما بين مائة ومائتي دولار.

كيف حال دراستك؟ وأحوالك في لندن بوجه عام؟ وما أخبار قراءاتك؟ وما أخبار صديقتك؟ وهل ورد إليك نبأ حظر الحكومة على طلبة البعثات الزواج من أجنبيات؟ لقد وصل إلى السفارة قرار الحظر هذا منذ أسبوعين، وقد بنته الحكومة على أساس ما لمسته من ضعف الشعور الوطني لدى الكثيرين ممن تزوجوا من أجنبيات. والظاهر أن هذا هو الموقف الذي تنوي الحكومة اتخاذه سواء بالنسبة للطلبة أو غيرهم..

لا تتأخر في الرد على خطاباتي إن أحببت ألا أتأخر. كما أرجو أن توجه خطاباتك التالية على عنواني في البيت. وهو:

The Savoy apartments

,Apt. 41

.Slater Street, Ottawa, Canada 140

وسأجلس الآن للكتابة إليهم في القاهرة.

مع أطيب تحياتي لك

حسين

* * *

[لندن] ١٨/١/٦٠

عزيزي حسين

شكرا على سرعة ردك على البرقية، ولعلك محق في التأخر في الرد عليَّ إذ أنا تأخرت عليك من قبل.

لعله قد وصلتك المقالتان اللتان أرسلتهما إليك وأن تكونا أعجبتاك كما أعجبت أنا بهما. وقد وصلني من مصر أخيرا الأجزاء الثلاثة الأولى من فيض الخاطر. قرأت بعض المقالات في كل منها. والواقع أني أتعرف على والدي لأول مرة، وأتمنى لو كنت أكبر سنا قبل وفاته إذ أن نظرتي إليه أثناء حياته كان يشوبها الكثير من الحماقة. أنا لا أقول أنه كان أديبا عظيما ولا حتى أن أعماله تعكس ذكاء غير عادي، ولكن كان فيه إخلاصا وطيبة عميقان فضلا عن الصبر على العمل والقراءة. كثير من المقالات التي قرأتها له تنم أساسًا عن قدرة على توليد الأفكار من أي موضوع، ولكن الأفكار ذاتها غير عميقة عمقًا كبيرًا. وأفكاره السياسية بوجه خاص تنم عن قلة إطلاعه في هذا الصدد. ولكن من ناحية أخرى حبه للإصلاح ولوطنه بوجه عام لدرجة التألم من أجله واضح وضوحًا كافيًا.

من كتاب حياتي بالذات ومن بعض مقالاته نستخلص أنه لم يكن «قويا» بدرجة كبيرة. وحينما أسترجع بعض الذكريات عنه، أتصور مثلا أن السنهوري وأحمد زكي وطه حسين كانوا أقوى منه شخصية ولكنه كان أنزه منهم جميعًا وأطيب قلبًا وهذا هو سبب حب الجميع له. إن الحق كان دائما في جانبه لأنه لم يكن

أنانيا أو مغرورًا أو محبا للسيطرة، وكان لين الجانب في عرض هذا الحق بشكل يجعل من المستحيل عدم الاعتراف بأنه على صواب، ولكن هذا لا يعني أنه كان دائما ـ أو كثيرا ـ ما ينجح في «تنفيذ» هذا الحق، ربما لأن الحق يحتاج لكي يُنفذ إلى أن يحمله وينادي به شخص لا يتورع أحيانا عن المناداة بالباطل!

والدي من الموضوعات الكثيرة التي أحب أن أقابلك للتحدث فيها، والتي لا أجد ـ بطبيعة الحال ـ أحدًا هنا أكلمه عنها.

من الموضوعات الأخرى: أموري أنا، فأنا نضجت بلا شك كثيرا عما كنت عند مجيئي، ولكني ما زلت في كثير من الأحيان أشعر بوحدة قاتلة لا ينفع في إزالتها شيء، حتى صديقتي شيرلي، إذ أن ليس بيننا ـ للأسف ـ من الحب ما يكفي لذلك.

نحن لا زلنا صديقان، ولكن بعض ظروفها العائلية اضطرتنا إلى ألا أراها منذ عدة أسابيع، سأراها من جديد يوم عيد ميلادي، على أن مصارحتي لها منذ شهر بأني لا أنوي الزواج منها لن تترك علاقتنا تعيش طويلا، فيما يبدو. ومن باب الاحتياط سأقابل في الأسبوع القادم فتاة جميلة أخرى تعرفت عليها بحفلة راقصة في المدرسة. علَّها تكون أكثر إخلاصا من شيرلي.

أرجو أن تحاول جديًّا تنفيذ فكرة المجيء إلى لندن في إجازة سواء في الربيع أو في طريق ذهابك إلى مصر، وقد قدَّمت أنا لامتحان الماجستير في ٢٤ مايو القادم، والذي ينتهي في حوالي منتصف يونية. واحتمال تغيير رأيي والدخول في ديسمبر كبير. وإنما قدمت للامتحان لمضاعفة مجهودي في الأشهر المقبلة. في حالة تقديمي للامتحان ونجاحي سأعود قطعًا إلى مصر لقضاء بضعة أشهر في الصيف وفي هذه الحالة أرجو أن نذهب سويًّا، وقد أرسل حافظ يقول (فضلًا عن قلقه بسبب عدم كتابتك لهم) إن شقتيه فى مصر واسكندرية تحت أمرنا.

أما إذا لم أتقدم للامتحان في مايو فربما رجعت إلى مصر لمدة شهر وربما آثرت البقاء للاستعداد لامتحان ديسمبر.

شكرًا على عرضك إقراضي بعض النقود، ولكن معنى ذهابي إلى نيويورك قبل الصيف يعني عدم دخولي امتحان مايو، الأفضل إذن أن تحاول أنت المجيء أو الانتظار للصيف.

هل تريد شيئًا من لندن؟ الاشتراك في مجلة أو شراء كتب أو خلافه؟

عيد ميلادي قريب كما تعلم، وسأكمِّل ربع قرن! أليس هذا مُرعبًا؟ لقد كنت دائما أوجد في جماعات أشعر بينها بصغر سني، سواء في العائلة أو خارجها، ولكن هذا ما عاد ممكنًا، فلم يَعُدْ لي عذر إزاء العجز عن القيام بأي شيء!

في انتظار خطابك أرسل لك أحسن تمنياتي

جلال

نظرا إلى أن الخطابات العائلية هي على حد تعبير الاقتصاديين scarce أرسل لك خطاب حافظ الأخير لي! فلا بأس من استعمال الخطاب مرتين!

* * *

[لندن، يناير] ١٩٦٠

عزيزي حسين

وصلني خطابك وقد أرسلت لك المقالتين عن والدي أرجو أن يكونا قد وصلا إليك. وأهم من ذلك، أرجو أن تكون أزمة الشغل التي كتبت لي عنها قد انتهت. وأنا في الحقيقة لا أعرف ما هي «النصيحة» التي يجب أن أقدمها لك بهذا الصدد. فأنا لا يجب أن أنصحك بأن تفعل ما كنت أنا أفعله لو كنت في مكانك، لأنك حسين ولست جلال! وأنت خير من يقدر ما تحتاج إليه وما يجلب لك السعادة. كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أوجه عنايتك لأمور لا شك أنك نفسك تدركها ولكن تكرارها سيعطيها بعض الأهمية التي تستحقها:

ـ فوظيفتك يا حسين لا يكاد يوجد خيرًا منها بكثير، خاصة وأنك تضمن إلى حد كبير أن تكون دائما في بلد جيد. فتركها مختلف عن تركك أي وظيفة أخرى.

ـ وظيفتك الحالية لها مزايا حتى بالنسبة لآمالك الخاصة بالأدب، إذ تمكنك من رؤية بلاد جديدة وناس جدد، ومن الحصول على كتب ووسائل الثقافة غير الموجودة في مصر.

ـ أليس من المحتمل أن بعد مدة أخرى في كندا ستكون أسعد حالا، إذ ستكون قد عثرت مثلا على أصدقاء وصديقات تحبهم؟ ومن ثم تجد في إقامتك ما يعوضك عن عدم حبك لنوع عملك الحالي وزملائك في الشغل.

ـ تذكر يا حسين أنه لا شيء في مصر يصح أن تفتقده بشكل جدي. والوقت في مصر يولد ميتا وليس أسهل في مصر من تضييع الوقت، إذ كل الناس تضيِّعه ومن ثم لا يحرصون أيضا على وقتك.

ـ هذا اللهم إلا إذا كنت تجد ـ وتتوقع ـ في عملك الحالي ما من شأنه أن يصرفك بدرجة شديدة عن قراءاتك وكتابتك.

والأمر في النهاية طبعا متروك لتقديرك وأنت بالطبع خير من يعرف أصلح الأمور لك.

وصلني اليوم خطاب من حافظ وهم بخير.

سافر أحمد شوقي منذ يومين وهو شاب لطيف وقد مضى معظم الوقت في نفس البيت الذي أقيم به، وكثيرا ما تمنيت أن تأتي أنت لتقيم بهذا البيت أيضا، فالعائلة التي أقيم معها أصبحت كعائلتي.

أرجو أن تكتب لي قريبا.

جلال

أمين يسري سيستلم عمله بالخارجية هذا الشهر.

* * *

أوتاوا في ٢٦ يناير ١٩٦٠

عزيزي جلال

النصيحة التي وردت في خطابك السابق إليَّ: (أن أتروَّى فقد أكوِّن لي من الأصدقاء ما يذهب بوحشتي) قد بدأ يتحقق مضمونها. ما أجده غريبا بعض الشيء أن أفراد العائلات الكندية والانجليزية التي تعرفت إليها في الفترة الأخيرة، يشعرون نحوي بود عميق لم أخبر مثله من أصدقائي ومعارفي سواء في إنجلترا أو مصر. والجدير حقا أن أُسَرَّ به، تمكني من تجنب ما لم أستطع تجنبه في لندن: وهو مصاحبة فتيات لا يقارب مستواهن الذهني والخلقي مستواي. فقد تعرفت مؤخرا بامرأة هي أول من أقابل من الناس ممن تفوق معارفهم في الفروع التي أكرس كل قراءاتي لها (الأدب، والفلسفة والدين) معارفي. فهي تحمل شهادة ماجستير في الأدب الأمريكي في القرن التاسع

عشر، وشهادة ماجستير في الأدب الفرنسي في القرن العشرين، وشهادة الدكتوراه في الشعر الإنجليزي المعاصر. ولعل ما يغريها بصحبة شخص «جاهل» مثلي، جهلها بالتاريخ والثقافة العربيين وهما ما تريد أن تأخذ منهما بطرف، وما أتيح لي أن ألمَّ بنظرة وافية عنهما بعد فراغي من قراءة سلسلة فجر الإسلام وضحاه وظهره.

حياتي الاجتماعية إذن قد باتت هنا في أوتاوا أوسع نطاقا مما كانت عليه في وقت من الأوقات. والنشاط الاجتماعي في هذه المدينة بالذات أكثر حيوية منه في لندن أو القاهرة لقلة وسائل التسلية الأخرى وقضاء الناس معظم أوقاتهم في التزاور أو التزام بيوتهم. وأقرب أصدقائي الآن: عائلة انجليزية يشترك الزوج والزوجة في إدارة فرع مكتبة W.H. Smith البريطانية في أوتاوا، واقتصادي كندي حصل على شهادته من مدرسة الاقتصاد اللندنية، وزوجته المدرسة، وموظف بإدارة الهجرة هنا وزوجته هي التي حدثتك عنها في الفقرة السابقة.

وقد نتج عن هذه الصلات توسيع أفق تجاربي إلى حد ملموس. فقد عرَّفني الاقتصادي الكندي (ويدعى ديفيد وولدريدج) منذ أيام بشخصية هي أقرب الشخصيات إلى طبيعة المسيح كما أتصورها: هو Pete Seeger المغني الأمريكي المشهور. وسيجر هذا كان في أول أمره عاملا شيوعيا، كوَّن أثناء إضراب عمال المصنع الذي كان يعمل به فرقة غنائية قصد بها إلى رفع معنوية العمال في جهادهم مع أصحاب المصنع. وقد سلَّط عليه الأخيرون في مناسبتين من حاول قتله، وهما محاولتان كان من آثارهما تشويه وجهه تشويها بيِّنا. وإذ طرد من عمله، طاف بفرقته المكوَّنة من رجلين وسيدة في أنحاء الولايات المتحدة يجمع الأغاني الشعبية حيث وجدها ويكتب أغانٍ جديدة عن حياة العمال ومشكلاتهم. وإذ رسخت سمعة الفرقة في الولايات المتحدة، بدأت تطوف في أنحاء العالم، ووسعت من دائرة نشاطها فأخذت تجمع كذلك الأغاني الشعبية في الدول المختلفة.. وقد بدأت حياة أفراد هذه الفرقة The Weavers صوفية في طبيعتها؛ فهم يسكنون كوخا في الجبال، يطهون طعامهم بأنفسهم، ويغزلون ثيابهم، ويتبرعون بمعظم دخلهم للفقراء. وإذ شعر سيجر بعد مدة أن أعضاء فرقته قد بدأوا يتحولون عن هذا النمط من الحياة، وبدأت الشهرة تفسدهم، انفصل عنهم. وهو حاليا يلقي محاضرات في الأدب الشعبي في جامعتي Yale وهارفارد. وله كتاب في الغناء الشعبي الأمريكي يعتبر أهم المراجع في هذا الباب.

أما مسز وولدريدج (وهي مدرسة كما ذكرت) فما إن علمت باهتمامي الحالي بدراسة الأديان وبأني أشتغل في تأليف كتاب عن «مدى استعداد الطبيعة

العربية لتقبل التعاليم المسيحية» حتى بادرت إلى تعريفي بتعاليم الشَّعب التي تفرق إليها الدين المسيحي. وكان من بين الكنائس التي زرتها مؤخرًا الـUnitarian Church. وأشياع هذه الكنيسة لا يؤمنون بألوهية عيسى ولا بأنه نبي مرسل، وعيسى عندهم ما هو إلا رجل حكيم شأنه في ذلك شأن بوذا وسقراط وأفلاطون. وهم مع ذلك يؤمنون بأنه من خير الإنسانية أن تتبع جوهر التعاليم التي دعا إليها.

لم تكن دهشتي لتعرف حدا عندما دخلت هذه الكنيسة وراقبت الصلاة فيها. هي قاعة صغيرة، خالية من كل مظاهر الأبهة التي تتميز بها الكنيسة الكاثوليكية، لا صلبان، لا صور للمسيح أو للعذراء، لا محراب، لا شموع؛ كل ما هنالك مقاعد خشبية بسيطة وأرغن ومنصة مخصصة للقسيس. كذلك جمهور الحاضرين: النساء لا يلبسن القبعات، والجميع يتحادثون مع جيرانهم ويضحكون، ولا يجدون حرجا في وضع ساق على ساق أو القهقهة عاليا عند بضع فقرات من خطبة القسيس. لا ركوع، لا خشوع، ولا رسم لعلامة الصليب على الصدر، والجو في القاعة أشبه بالجو في قاعة للمحاضرات بالجامعة.

ثم بدأت خطبة القسيس فإذا به يشرح عجز الكنيسة الكاثوليكية عن مجابهة الاحتياجات الروحية والعقلية لجمهور المثقفين في العصر الحديث، وأن الخرافات الكاثوليكية قد نفرت المثقفين من التعاليم المسيحية، وأن هذه الكنيسة بالذات هي أمل الناس في حفظ جوهر تعاليم المسيحية من الضياع. ثم تحدث عن أن العقل وحده كاف لأن يصل بالإنسان إلى الحق، وأن العلم الحديث وعلم النفس يساهمان مساهمة فعالة في هداية الإنسان المعاصر إلى حقيقة نفسه وحقيقة هذا العالم، وسخر من الكنيسة الكاثوليكية التي تهاجم علم النفس وتعتبره عائقا في سبيل الإيمان الصحيح ومبددا للشعور الديني.

وبعد أن انتهى من خطبته بدأ الحاضرون في الغناء من كتب وضعت أمامهم. وإذا الأغاني التي تتضمنها الكتب ملؤها أقوال من القرآن! ومن كونفوشيوس وبوذا، يغنون للحكمة أين وجدت، وأيا كان الآتي بها دون إشارة إلى الله أو إلى عالم آخر.

المهم في الأمر أنني قد أصبت من جراء هذه التجربة بخيبة أمل مضاعفة. إنني لم أكن قد سمعت عن هذه الكنيسة من قبل، والصورة التي نميتها في ذهني عن الكنيسة المثالية وتعاليم المسيح بعد تطهيرها من الشوائب والطقوس مطابقة تماما لما شاهدته ذلك اليوم في هذه الكنيسة ومطابقة لما قرأته

واقتنعت به في كتابات تولستوي. فما السبب في أنني عندما صادفت وجها لوجه المثل الذي كنت أؤمن به وجدته مخيبا للأمل غير مقنع؟

مثل هذه الكنيسة ومثل هذه التعاليم لا يمكنها أن تروي غليل الشعور الديني عند الإنسان. هي تعاليم لا طعم لها ولا روح، شأنها في ذلك شأن التعاليم العقلية المحضة. السؤال الآن هو: هل الشعور الديني عند الإنسان خرافة؟ هل هو مصطنع؟ هل يمكن لعقيدة عقلية أن تحل محله تماما وأن تغني عنه؟ إذا كان الجواب بالنفي فقد يكون هناك وجه صحة في الطقوس والشعائر ولو كانت مخالفة للعقل ما دام بإمكانها إرضاء هذه النزعة الدينية.

منذ حوالي ثلاثة أسابيع تلقيت أثناء عملي بالسفارة مكالمة تيليفونية من قوت القلوب الدمرداشية (التي تزور ابنها مصطفى الدمرداش قنصلنا في مونتريال) تطلب مقابلتي في فندق بأوتاوا.

أكدت لي أنها لم تغادر مونتريال إلى أوتاوا إلا لرؤيتي حتى تطمئن عبد العزيز عتيق على أحوالي. وكان يرافقها ابنها أحمد الذي يعيش في انجلترا ويرفض العودة إلى مصر. والواضح أنه يكره أمه ويحتقرها ويخجل منها. فهو يقطع حديثها دون احترام، ولا ينظر في عينيها إن وجَّه إليها الكلام، وكثيرا ما كان الإثنان يكلماني في وقت واحد وفي إصرار، مما أربكني إذ لم أدر إلى أيٍّ الاثنين أصغي.. فأما الأم فقد طرقت مرحلة الطفولة الثانية، وأما الإبن فيعاني ضعفا ملموسا في العقل ويتهته في حديثه. وهذا الإبن هو الذي سيخلف أمه في زعامة الطريقة الدمرداشية!

هل صحيح ما ورد في خطاب حافظ عن نقل نبيل العربي إلى لندن؟

شكرا على المقالتين اللتين أرسلتهما عن والدي. وهما ممتازتان كما ذكرت وإن لم تذكر أي منهما شيئا عن مجموعة «الإسلاميات» وهي الأساسية في «تقويم» مركز والدي الأدبي. ما نحن في حاجة إليه الآن هو أن يؤرخ أحدنا لمحمد على نمط تأريخ إرنست رينان لحياة المسيح؛ إظهار الظروف التاريخية والاجتماعية والنفسية التي كانت أساسا لدعوته. ما حققه والدي في كتبه «فجر الإسلام وضحاه وظهره» هو بالضبط ما حققه رينان بشأن تطور المسيحية. وربما كان والدي هو الخليق بتطبيق هذا المنهج إزاء محمد نفسه وأصل الدعوة الإسلامية لولا إيمانه أولا وتأكده من أن مؤلفا كهذا لم يكن ليسمح بنشره. على كل حال فإني في الكتاب الذي أعمل فيه حاليا أحاول الرجوع ببعض التعاليم الإسلامية إلى أصولها اليهودية والمسيحية.

مع أطيب تحياتي لك

حسين

* * *

٣٠ يناير ١٩٦٠

عزيزي حسين

شكرا على سرعة ردك على خطابي. وها أنذا أبادر أيضا بالرد. وقد تبين لي أن أحسن قاعدة بالنسبة لكتابة الخطابات هو الرد فورًا، إذ التأجيل لا يعقبه إلا التأجيل وتأنيب الضمير، فضلا عن أن الخطاب في النهاية يأتي باردًا مقطوع الصلة بالخطاب المردود عليه. فإن كان الشخص ليس في حالة مناسبة لكتابة خطاب طويل فليكتب خطابا قصيرا حتى تأتيه الحالة المناسبة.

سرني أن جاء خطابك الأخير فيه الكثير من أخبارك، على عكس خطاباتك السابقة. ولا أخفي عليك دهشتي من أنك تكتب كتابا عن «مدى استعداد الطبيعة العربية لتقبل التعاليم المسيحية»، ليس لأن الموضوع لا يستحق ـ من الناحية الأكاديمية ـ أن يُبحث، معاذ الله، فلو كان هذا لألقيت كل رسائل الدكتوراه في البحر. ولكن دهشتي أنك تكتب في هذا الموضوع، دون أن يكون رسالة دكتوراه! كما أني خمنت من الخطاب ككل أنه أصبحت لديك بعض ميول مسيحية؟! لا اعتراض جوهري لي على ذلك إن كان صحيحا، فكل المذاهب والأديان هي في نظري الآن شبه متساوية، إذ ولَّدت فيَّ دراستي طول هذه المدة استعدادًا مخلصًا لاحترام أي رأي ما دام صاحبه يقدم حججا وجيهة يمكن مناقشتها، وأنا واثق طبعا أن حججك أكثر من وجيهة.

الآن وليس هناك أي خوف من أن تكتب لي ما تشاء في الخطاب، إلى أي مدى أصبح طارق البشري يساريا، وما أخبار عادل غنيم وبالذات حسين عبد العزيز من هذه الناحية، وقْتَ تركك لهم؟ كذلك، حيث لم يعد هناك خوف من أن يثير فيَّ الكلام عن والدتي الكثير من الأحزان، هل يمكنك أن تكلِّمني بعض الشيء عن أيامها الأخيرة؟ هل حقا لم تتألم قط؟ (حيث أن هذه كانت رغبتها دائما) وهل كانت محتفظة بوعيها عموما في الشهور الأخيرة؟ إن أي كلام عنها أحب أن أسمعه، بشرط ألا يكون هذا مما يؤلمك؟

كذلك وإن كان هذا أقل أهمية، ما هي العلاقات بين الإخوة كما تركتها؟ إني أرجح أنها تحسنت عما قبل، كما يبدو من خطاب أحمد الأخير الذي أرسله لك، عملًا بنظرية «ندرة الخطابات!» وبمناسبة خطاب أحمد، أعتقد أنك ستلاحظ كما لاحظتُ أنا روحًا جديدة ظاهرة في كتابة أحمد لأول مرة. إن أحمد كان

دائمًا طيب القلب جدًّا (لعله أطيبنا كلنا قلبًا) ولكن كانت هناك ظروف تمنعه من إظهار هذه الميزة داخل نطاق العائلة، كان لسبب ما يعتقد أننا لا نقدِّره فكان يهرب منا. ومع هذا فهو لم يحمل لأحد منا قط إلا المشاركة العاطفية المخلصة كاملة. وأعتقد أنه الآن يثبت للعائلة لأول مرة جدارته، حيث أنه لم يعد مطالبًا من أحد بشيء، فلم يعد هناك مبرر للهرب. وأنا الآن أسائل نفسي: كيف سمحت لنفسي ألا أراسله بانتظام؟

أما عن أخباري أنا فهي سيئة، انقطعت علاقتي بشيرلي، إلى غير رجعة على ما أظن، [باقي الخطاب مفقود]

* * *

أوتاوا في ٣ فبراير ١٩٦٠

عزيزي جلال

تسألني عن الأيام الأخيرة لوالدتي. أحب أولا أن أذكر لك أنها حتى يوم ٤ مايو، أي قبل وفاتها بثمانية عشر يوما، كانت بالضبط كما عهدتها أنت دائما: لا محتفظة بوعيها فحسب، بل ومرحة كثيرة الضحك.. ثم أصابها عشية شم النسيم نفس المرض الذي كان يصيبها في صيف كل عام، بل وعلى درجة أقل بحيث لم يكن هناك ما يثير القلق إطلاقا، خاصة وأنها كانت تجلس في الصالة كالمعتاد. ثم نصحها حمادة يوم ٩ مايو أن تقضي أسبوعا أو أسبوعين في مستشفى العجوزة حيث الجو أكثر تهيؤا لإعطائها الأدوية في المواعيد المحددة، فعارضت والدتي في بادئ الأمر، شأنها دائمًا ثم قبلت(51).

كان الأسبوع الأول من الأسبوعين اللذين قضتهما في المستشفى عاديا: فاطمة تزورها في الصباح الباكر لتأتيها بزجاجة من عصير البرتقال، وتأخذ منها ما خلعته من ملابس لتغسلها في البيت، ثم تأتي نعيمة فتقضي معها بقية الصباح، حتى إذا ما حانت الساعة الثانية جاءها حمادة وأمين وحافظ وأنا، قادمين من العمل. كانت تبدو وقتئذٍ أشد اهتماما بأحوال حافظ(52) وأحوالي في البيت منها بمرضها: تسألنا أين نأكل، ومن يغسل ملابسنا، وهل البيت «بقى وِحِش» من غيرها؟ وطلبت منا أن نرسل لها أم سيد التي أوصتها بأن تطبخ لنا واعدة إياها بجنيهين حين خروجها، «ولا تلوصوا أبدا»، هكذا كانت تردد. كانت تضحك كلما أغظتها برفع السرير عند الرأس وخفضه بإدارة اليد الملحقة به، وتدعو لزينب ومنى، حين كانتا تجلسان إلى حافتي سريرها لإطعامها بأيديهما، وقد نشرتا روح الشباب والمرح في الغرفة صائحتين: «لازم تاكلي دِي يا ستي. دي بس».

ثم فجأة تغير الحال، دون أي سبب ظاهر. فجأة لم تعد معدتها تقبل لقمة واحدة. كلما أكلت ملء ملعقة من طعام استفرغتها. وإذ استمرت هذه الحالة ثلاثة أيام بدأوا يعطونها حقنة جلوكوز. وكان حمادة يحضر لها كل يوم صحنين من «الجيلي» يطعمها إياهما بنفسه. والواقع يا جلال أن حمادة وفاطمة قد خدما والدتي أثناء تلك الفترة خدمة لا ينبغي أن ننساها لهما ما حيينا: حمادة عن حب عميق، وفاطمة عن اعتقاد جازم بأن كل ما ستؤديه لوالدتي ستؤديه لها كل من زينب ومنى في مستقبل أيامها (ولا أدري أي العاطفتين أحكم).

الغريب في الأيام الأخيرة هذه، لا ما أدى إليه انعدام شهيتها من ضعف جسماني متزايد، ولا ثقل لسانها الذي قلل من حديثها، وإنما الغريب ما نتج عن إحساسها حينئذ باقتراب الموت (أو على الأقل باحتمال حدوثه) من تغيُّر لا يكاد يصدق في نظرتها للناس والأمور. كانت هناك راقدة في سريرها، وجهها وعيناها إلى السقف في نظرة جامدة، لا تعبأ بما يدور حولها من حديث. أحاول إضحاكها بشتى الطرق فلا تضحك، ويسألها كل قادم عن صحتها فتجيب في برود أنها «كويسة». لا تشكو، لا تطلب شيئا ولا كوبة ماء، ولا تبدي اهتماما بشيء، حتى ولا بعلي(53) الذي جاء به أبوه إليها لأول مرة في الليلة السابقة لوفاتها. كنا نتساءل عما إذا كانت تعي شيئا، وكان البعض في شك من ذلك، غير أني لا أعتقد أنها فقدت الوعي إلا في منتصف ليلة ٢٢ مايو (يوم وفاتها). كنت معها بمفردها يوم ٢٠ مايو، في المساء، أحاول التسرية عنها تارة بالحديث عن زواج أحمد، وتارة بأن أقرأ لها بطاقة التهنئة بعيد ميلادي التي أرسلتها أنت من لندن. وأحاول أن أضاحكها بصدد تهنئتك لها بولادتي. قالت مقاطعة:

ـ سلِّم لي على جلال يا حسين.

ـ تحبي تمليني جواب نبعته له؟

لم تجب ثم تمتمت بعد لحظة:

ـ أنا قلقانة يا حسين.. أنا قلقانة قوي.

وعندما سألتها عن سبب قلقها لم تجب، وإن اختلج وجهها بقوة. وبعد لحظات هدأت والتفتت قائلة:

ـ روَّح أنت يا خويا.

كان هذا الحديث القصير أحد مرتين اثنتين في خلال الأيام الأخيرة من حياتها تبدي فيهما إدراكا لشئوننا. المرة الأخرى هي في المساء السابق لوفاتها حين يئست العائلة الملتفة حولها من إشراكها في الحديث. فبدأنا نتحدث فيما بيننا حتى أدى بنا الكلام إلى أمر يتعلق بحافظ. حينئذ بدرت من والدتي بادرة تشير إلى أنها تود أن تقول شيئا، فسارعنا جميعا إلى الصمت نصغي بشغف. قالت:

ـ حافظ غلبان.. اتعذِّب كتير.

وكانت هذه هي آخر ما سمعت أنا من كلمات والدتي.

في تلك الليلة زارها الدكتور جعفر. وبعد أن كشف عليها طلب لها أوكسجين، ثم سأل حافظ أن يبيت معها الليلة لأن حالتها «مش كويسة». في الساعة الخامسة صباحا توجهت إلى المستشفى لأحل مكان حافظ إلى جوارها. كانت وقتئذ في غيبوبة تامة. شهيقها وزفيرها مرتفعان ارتفاعا مذهلا، تحس وأنت تستمع إليهما أنهما «اصطناعيان»، وكأنهما صادران عن جهاز وُضع داخل إنسان آلي، وتحس أنهما لا يمكن أن يستمرا طويلا. كانت الممرضات يتجنبن المرور بالغرفة، وقد أغلقن الأبواب طول الصباح على المرضى في الغرف المجاورة. لم يكن هناك ثمة أمل. حتى الطبيب لم ير داعيا للحضور. وأسرعت نعيمة إلى خارج الحجرة متخبطة، تكتم البكاء بمنديل إلى فمها، حتى إذا ما صارت خارجها تركت لنحيبها العنان. ووصل حمادة، فأمين. أما حافظ فلم يعلم بوفاتها إلا بعد أن عدنا جميعا إلى البيت.

لا أدري ما إذا كان قد حدثك أحد عن الجنازة أو المكان الذي دُفنت فيه. فأما الجنازة فكانت من أكبر ما عرفته القاهرة من جنازات وأفخمها. معظم الحاضرين فيها قد جاءوا لتعزية حمادة وعبد العزيز وقد حضرها من أصدقائك أمين يسري، وحسن القلعاوي، ومختار، وشكري فؤاد، وبهجت علام. أما مكان الدفن فمدفن عائلة بركات في أجمل بقعة يمكنك أن تختارها لوالدتي: تُظل قبرها شجرة مشمش وشجرة مانجو، ولا يفسد علينا حلاوة التأمل والتذكر سوى سماجة الشحاذين.

حسين

[لندن] ١٩/٢/٦٠

عزيزي حسين

لم أكتب لك منذ مدة لأني كنت في حالة نفسية سيئة ذكرت لك من قبل سببها.

ومنذ يومين عادت شيرلي، وهي تؤكد لي أن كل الأعذار التي كانت تذكرها صحيحة، وتطلب أن نعود صديقين من جديد. وهذه العودة لم تسعدني كثيرا، وربما كان عدمها أفضل، إذ لا زلت لا أعرف ما إذا كان الاستمرار معها واجبا أو غير واجب، فالاختيار هو بين أمرين كلاهما سيئ.

على كل حال، كل ما أرجوه أن يكون كل ذلك مجرد عوارض تزول، تعود لي بعدها حالتي الطبيعية.

وبسبب هذه الحالة تركت قراءة الاقتصاد جانبًا مؤقتا، وبدأت أقرأ في كتب أخف. وأنا اليوم أقرأ في كتاب عن غاندي بقلم Louis Fischer وهو مكتوب بشكل شيق جدا.

وتسليتي تنحصر أولا في قراءة هذه الأشياء. فهناك مثلا مجلة أمريكية اشتركت فيها منذ عام اسمها Monthly Review، يصدرها كاتب اشتراكي ممتاز اسمه Paul Sweezy. وهو ماركسي ولكنه متحرر ومسئوليته هي لضميره قبل كل شيء، وله كتاب اسمه The Theory of Capitalist Development قال عنه أستاذي أنه أحسن ما كتب عن الاقتصاد الماركسي. ومع هذا فهو فيه ينتقد بعض آراء ماركس الهامة.

وكانت هناك مذكرات إيدن، كنت أنتظر حلقاتها بشغف، وأهم سبب لذلك أن بلادنا فيها تبدو لأول مرة ذات شأن، تبعث الرهبة والاحترام في دولة كانجلترا وفي شخص كإيدن، ولا شك أنك شعرت بذلك في طوافك الأخير بالجامعات الكندية.

وكنت قد قرأت منذ عدة شهور «طاغور» من جديد، وعاد إليَّ إعجابي القديم به. من العبارات الجميلة التي أذكرها له الآن:

Let parting be, not death, but completeness

وأيضًا:

,Let life be as beautiful as Spring flowers

.and death as beautiful as Autumn leaves

-

أو ما هذا معناه.

كما أن عادت إليَّ الهمة في الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيك وقد خطر لي مؤخرًا أن أبدأ في الاستماع لڤاجنر بعد أن وجدت موزار وبيتهوڤن وهايدن بينهم شبه كبير، ومقطوعات كل منهم بها كثير من التكرار. وحيث أني أسمع أن ڤاجنر نوع مختلف فقد بدأت الاستعارة له.

أصبحت «أعقل» بكثير في ميولي السياسية، ربما كان السبب أعمق من مجرد اطلاعي على بعض أخطاء أساسية في ماركس، ربما كان أنه زال عني كثير من المثالية والحماس للسياسة الذي كان عندي ولهذا ستجدني، عندما نتقابل، مستمعا ممتازا لكلامك عن الأدب والفلسفة، وحتى عن الله، إذ كان ما يمنعني عن ذلك هو ما يشوب الرجل الثوري من one-sidedness، الحياة، فيما يبدو لي الآن، أغنى من ذلك بكثير.

أثَّر فيَّ كثيرا وصفك لأيام والدتي الأخيرة. وكنت قد تلقيت النبأ بشكل مجرد ليس بقسوة تلقيه وأنا حاضر، ولكنكم على الأقل عاينتم «طبيعته»، واستفدتم منه وكان لكم على الأقل اجتماعكم مع بعض، وقد تمنيت بإخلاص عقب قراءة الخطاب لو كنت حاضرًا معكم. وأنت لاحظت، كم أننا أصبحنا أكثر اقترابا بعضنا من بعض بعد وفاة والدي. الآن لا أشك أن هذا الاقتراب زاد بعد وفاة والدتي.

كما أني أعتقد أن المودة التي أبداها حمادة نحوها في الأيام الأخيرة نابعة من حب وتقدير نحوها أحس بهما حمادة بشكل تزايد كلما كبر في العمر، وعرف حبه لأولاده والتضحيات التي يقدمها من أجلهم، وجَرَّب حب زوجتين وأدرك أن حب الأم من نوع آخر، وبعد أن صُدم بالذات في تجربته مع ثريا وكان يظن أنها بالنسبة له أهم من أي شخص آخر.

ولا أشك أيضا في أن شعور نعيمة نحو والدتي كان بلا شك أعمق كلما تقدمت نعيمة في السن عما كان مثلا وقت سفري، فنعيمة مثلا ترى، أو سترى، بناتها يتزوجن ويتركنها واحدة بعد الأخرى، فلا بد ستفكر ما الهدف من الحياة، وستتذكر في هذه الآونة حب والدتي لها.

إننا جميعا في غاية ضيق الأفق. نحتاج دائما إلى صدمة أو فقد شيء عزيز حتى ندرك حقيقة ما كنا نعيش فيه وما نحن مقدمون عليه. نحن دائما ـ كالأطفال ـ نعامل اللحظة الراهنة كأنها الأبدية.

سمعت من باهر نبأ ترقيتك إلى سكرتير ثالث. ألف مبروك. على الأقل عسى أن تمكنك العلاوة المالية التي هي لا شك ضخمة من التمتع أكثر بحياتك في كندا.

إني أكتب لك هذا الخطاب بسرعة لكي يصلك بعد قليل من عودتك من رحلتك. وأرجو أن يكون خطابي القادم أطول.

جلال

* * *

لندن ـ ٢٩ فبراير ١٩٦٠

عزيزي حسين

سرني كثيرا وصول خطابك الطويل. وكم أنا في حاجة إلى أن أجلس وأكتب خطابا طويلا مثله. فمنذ مدة طويلة جدا لم أكتب قط يوميات أو مذكرات. كما أن خطاباتي لا تعطي فكرة صحيحة مطلقا عن حقيقة مشاعري وأفكاري الآن، فمعظمها قصير ولا يمس الأمور الجوهرية من حياتي إلا مسًّا خفيفًا. بل وأهم من ذلك أني أعتقد أن التطورات المهمة التي طرأت عليَّ، أنا لا أدركها على حقيقتها، والأمر يحتاج إلى الجلوس مع شخص مثلك أو مع أصدقائي الذين عرفوني في القديم حتى أرى نفسي في نفس المرآة التي تعودت النظر فيها قديما، وبغير هذا لا يمكن أن أتبين الفرق.

أهم انطباع يعطيه خطابك هو صورة ذلك السفير [...]. وأنا لا أشك في أنك تعمدت إخفاء نواحيه الأخرى كاملة بسبب ولعك بانتقاء الصفات التي تصلح لتكوين صورة أدبية! ومع هذا فما ذكرته يكفي لإثبات أنه [...]، وخطابك لا يبين ماذا كان موقفك منه، فمثلا ماذا يا ترى كان جوابك عليه حينما دافع عن قراءة القصص المثيرة بدعوى أنه يحتاج إلى راحة ذهنية بعد عناء المحاضرة (التي ولا شك كتبها أحد مساعديه، ولا شك أيضا في أنه لا اهتمام حقيقي عنده بالقضية الفلسطينية إطلاقا، إذ لو كان لديه الاهتمام لقرأ في القطار كتابا عنها لا كتابًا جنسيا) وأمثال هذا السفير كثيرون هنا من المسئولين عن النادي المصري، ولا أشك أيضا أن معظم رجال السفارة هنا من هذا النوع. في حفلة السفارة بمناسبة عيد الوحدة، كان المصريون يلقون النكت لبعضهم البعض، بينما كان السوريون يتحدثون عن عدد الطيارات الإسرائيلية التي أصيبت في الاشتباكات الأخيرة. أعتقد أن نظرة السوريين لنا هي كنظرة الأخ الأكبر إلى أخيه الأصغر

الأكثر منه ذكاء ولكنه طائش، حيث يعتقد الأخ الأكبر أنه يوما ما سيزول عن الأصغر طيشه.

وفي خطابك عشرات الأسباب للاشمئزاز من هذا السفير، ليس أهونها رفضه أن يلقي محاضرتك، ولا أدري ما هو مصير الدعاية للقضية العربية إذا كان يقوم أناس من هذا النوع بعكس المطلوب منهم تمامًا.

جاء في خطابك أنك تعتقد أن افتقار كندا إلى الإنتاج الفني والثقافة الرفيعة يعود إلى أن «الفن يتطلب أساسًا مواجهة احتياجات جوهرية حقيقية ويختفي باختفائها»، وأنا أوافق على ذلك بشرط ألا يكون متضمنا فيه أن هناك مستوى ثابتًا من الاحتياجات الجوهرية كمستوى عالٍ معين للمعيشة مثلا، يجب أن نيأس بعده من تقدم الفن. فتقدم الفن والثقافة شرطه في نظري أن يوجد المجتمع في حالة ديناميكية، وأن الحالات الديناميكية لا تنتهي ولكن تتخللها فترات من الثبات النسبي يركد في أثناءها الفن والثقافة، وعلى ذلك فالمجتمعات الغربية ستظل في وضع ثقافي منخفض طالما لم تتبين المرحلة الثورية أو الديناميكية الجديدة التي هي لا شك مقبلة عليها.

تسألني عن شيرلي، وهذه فرصة ممتازة لكي أعبر لك عن رأيي فيها وأتكلم عنها قليلا:

هي في السابعة والعشرين من عمرها، وجهها جميل، وجسمها أيضا جميل، فيما عدا صدرها فهو كصدور بقية الانجليزيات. درست سنتين في نفس مدرستي وأخذت شهادة social administration، وبدأت منذ الصيف الماضي تشتغل في مؤسسة خاصة اسمها Family Welfare Association الغرض منها مساعدة العائلات الفقيرة والتي لها مشاكل اجتماعية على حل مشكلاتهم بالنصيحة وتقديم المعونات المالية أو بالالتجاء إلى القضاء نيابة عنهم...إلخ.

تعرَّفت عليها منذ سنة. كنت أشترك في ندوة عن إسرائيل نظمتها جمعية للطلبة بجامعة لندن ولها بيت خاص للندوات والمحاضرات والحفلات تؤجر بعض غرفه للطالبات والطلبة الذين يريدون المساعدة في نشاط الجمعية بأجرة رخيصة مقابل هذه المساعدة. وكانت شيرلي هي إحدى الفتيات التي تسكن في هذا البيت وتشترك في نشاط الجمعية.

خرجنا مرة إلى السينما سويا. ثم دعوتها ثاني مرة إلى البيت فلم تمانع وإن لم تسمح لي في هذه المرة حتى بتقبيلها. في المرة الثالثة نامت معي الليلة كلها. منذ هذا الحين ونحن نتقابل في المدرسة وتأتي البيت لتقضي معي ليلة الجمعة ويوم السبت بأكمله.

على أن كل هذا لا يعطيك فكرة عن حقيقتها. أهم ما يميزها هي أنها مرت في هذه الأعوام السبعة والعشرين بتجارب من غير المحتمل أن أمر أنا بها في عمري كله. فهي ولدت في الصين من أب اسكتلندي وأم انجليزية. عاشت مددًا طويلة تتراوح بين سنة وثلاث سنوات في البلاد الآتية: الصين، أستراليا، اسكتلندا، انجلترا، أمريكا، فرنسا، روديسيا!

فحينما اضطر والداها إلى الذهاب إلى البرازيل أدخلاها في مدرسة داخلية باسكتلندا حيث أخذت ما يعادل البكالوريا. بعدها سافرت إلى فرنسا وحدها، حيث بدأت تدرس الرسم وتشتغل في نفس الوقت. هناك قابلت دانمركيا أحبته وأحبها فتزوجها. وأخذها معه إلى روديسيا حيث كان يعمل مهندسًا. هناك تبين لها أنه سكير عربيد وإلى حد ما مجنون فسافرت إلى انجلترا حيث لها بعض الأقارب، وهناك وضعت بنتها «ليزا» التي عمرها الآن ست سنوات. كان والداها في هذا الوقت في البرازيل فاضطرت إلى العمل لتأكل ولتؤكل ليزا. عاد أبواها إلى انجلترا فاستطاعت أن تبدأ الدراسة بمنحة من الحكومة في London School، وكانت تقيم في مبنى الجمعية التي ذكرتها لك، وتذهب كل نهاية أسبوع (بعد أن تقضي نصفه معي) لتقضي نصفه الآخر مع بنتها التي تقيم مع جدها وجدتها، على بعد نصف ساعة من لندن.

هل تلمس كم كانت حياتها صعبة، بل وما تزال؟ فهي ليست سعيدة مع والديها وتريد أن توفر البيت الحقيقي لها ولابنتها وهي تقترب من الثلاثين فالزواج مطلب عاجل، وحالتها المالية ليست مرضية تماما، إذ زوجها لا يرسل لها بانتظام حتى المبلغ المحكوم لها به.

هل هي مثقفة؟

الإجابة على هذا السؤال شيقة. إذ أنها نوع غريب من الفتيات في هذا الصدد. هي بلا شك ذكية. ولديها حب استطلاع لكل شيء، فهي مملوءة بالحيوية. إذا ذهبنا إلى كونسرت بدا عليها السرور الحقيقي غير المصطنع. وإذا عُزفت موسيقى راقصة، رقصت ولو كنا في البيت، وإذا نظمت الجامعة سلسلة محاضرات في الفلسفة، حجزتْ تذكرتين لي ولها. وإذا وجدت عندي كتابا عن غاندي أخذته وأعادته بعد يومين وقد انتهت منه. تحب الأفلام السويدية الـsophisticated، ولكنها تحب أيضا الأفلام الأمريكية المضحكة. قرأتْ كتب فرويد وآدلر أثناء دراستها، وتنفق كثيرا من نقودها على الكتب.

ومع هذا، وهذا هو المهم، فإن ممارستها للثقافة مختلفة عن ممارستي لها، وربما عن ممارستك أنت أيضا. فهي لا تفكر إطلاقا في ضرورة «تثقيف»

نفسها، وإنما تفعل ذلك لمجرد «التمتع». وهذا أحسن وأسوأ ـ في نفس الوقت ـ من ممارسة الثقافة عن نية واعية في تثقيف النفس. فهي تقرأ كتاب غاندي مثلا ولا تقول عنه إلا أنه ممتاز، وتنساه بعد يوم.

أما أنا فأظل أتحدث عن الكتاب لمدة أسبوع، وطول الأسبوع يتملكني حماس شديد للرجل. ولا أرتاح إلا إذا كان كل الحديث، في أي وقت، في تحليل كتاب أو فيلم أو مقالة أو رواية..إلخ. الثقافة عندها جزء بسيط من الحياة وهي بلا شك وسيلة لا غاية. بينما أنت وأنا وحافظ نحلم «بالإنتاج» إلى درجة أن يكون هذا الإنتاج obsession لنا.

إن الشك ينتابني: هل هذا الموقف الذي نتخذه نحن الثلاثة طبيعي أو مصطنع؟ أليس ثلاثتنا (مع اعترافي بالاختلاف الواسع بين ثقافتك وثقافتنا) خياليين بعض الشيء؟ هل نحن فعلا نفهم الحياة على حقيقتها؟ هل حافظ على صواب، حينما يتطلب، حينما يجلس مع حماته وزوجته وأختها أن يكون الكلام عن الأدب والفن؟ إن الموضوع يشغل ذهني فعلا، لأن التجربة سنمر بها نحن قطعًا، فيا حبذا لو كان لديك تعليق.

سأحدثك عن المدرسة L.S.E في خطابي القادم، إذ هي بلا شك تحتاج إلى خطاب مستقل. وأنا في انتظار خطابك.

جلال

ملحوظة: كتبت لي جون اليوم تخبرني بزواجها يوم ١٢ مارس. ألف مبروك!!

* * *

لندن ـ ٨ مارس ١٩٦٠

عزيزي حسين

استطرادًا لما كنت كتبته إليك مرة عن الموسيقى والتقابل كأساس لها، أكتب لك الآن ما يمكن أن يعتبر تصحيحا وتعميقا لتلك الفكرة.

فلا زال عنصر التقابل أساسيا في نظري لتفسير جمال الموسيقى بل وفي الفنون كلها، ولكن إذا تساءلنا عن السبب في ذلك تبين لنا أن أهم عنصر في الجمال الفني، ولعله هو الذي يجعل العمل عملا فنيا لا أن يكون أي شيء آخر هو ما يمكن أن يعبر عنه بـ: إثارة توقع معين ثم تحقيق هذا التوقع أو على

الأقل عدم تخيبه كلية. To arouse a certain expectation and then to satisfy this expectation or at least not to disappoint it completely. هذا هو ما أنا الآن بسبيل توضيحه وتعميمه على الفنون المختلفة.

مهمة الفن هي جرُّ الشخص الذي «عرَّض» نفسه للفن، إلى توقع معين يختلف نوعه باختلاف الفن، ثم تحقيق هذا التوقع. خذ مثلا الموسيقى:

يبدأ المستمع بالاستماع إلى نغمة معينة. أقصد note واحدة، مثلا، لا أو سي أو دو..إلخ. مجرد هذه الـnote تجعله يتوقع أن يعقبها note أخرى من نوع معين. إذ أن كل note موسيقية هي في الواقع suggestive بـnote أخرى أو بإحدى الـnotes الأخرى. منذ هذه اللحظة يقع المستمع في الشرك، ويكون عليه الاستمرار فريسة لتوقعات مختلفة لهذه التوقعات حتى تنتهي القطعة «فيحرَّر» المستمع من جديد. على أن التوقعات في الموسيقى لا تقتصر على ما تثيره كل note من توقع note أخرى، بل ـ بالإضافة إلى ذلك، كل تركيب موسيقي وكل جملة موسيقية تثير توقع ما يقابلها، ثم يأتي «التقابل» إرضاء لهذا التوقع.

لتوضيح هذا الكلام الغامض دعنا ننتقل لحظة إلى الجمال في الأشكال الهندسية. الرسم الزخرفي ما هو إلا إثارة للتوقع وإرضاء التوقع بطريقة بالغة السذاجة إذ ليس أسذج أو أبسط من إرضاء التوقع إرضاء تاما عن طريق التكرار الكامل.

إلخ....

خذ مثلا المربع أو المستطيل. إنهما شكلان ـ إن لم يكونا جميلين ـ فهما على الأقل مريحان

والسبب أن كل نصف «يثير» توقع نصفا آخر مشابه له، والشكل يحقق هذا التوقع.

والآن، فإن مهارة الفنان تتوقف على مقدرته على إرضاء التوقع إرضاء متوسطا لا هو بالإرضاء الكامل ولا هو بتخييبه خيبة تامة. إرضاء التوقع إرضاء كاملا هو فن ساذج أو بدائي، وتخييبه خيبة تامة هو انعدام الفن.

فالرسم الزخرفي المكوَّن من تكرار حرفي للشكل الواحد هو فن ساذج لأنه إرضاء كامل للتوقع.

والموسيقى المعتمدة فقط على الإيقاع المتشابه المتكرر، كموسيقى الشعوب البدائية هي فن ساذج لنفس السبب (وكأني بهذه الشعوب لا يمكن إقناعها مهما تكررت الضربة الواحدة بأن من العبث توقع شيء مخالف ولكنهم لا يكفُّون عن الانتظار والتمتع بالدقة الجديدة!)

وهكذا كلما كان الـsymmetry كاملا، كان الفن ساذجًا. في الأدب نفس الشيء. فطالما «توقع» القارئ لم يثَر، يظل القارئ بعيدا عن الشرك وغير متأثر بالفن. يبدأ توقعه حينما مثلا، يبدأ وضوح شخصية معينة من شخصيات الرواية، حيث يتوقع القارئ تصرفات معينة منها، كلما تحقق هذا التوقع شعر القارئ بتمتع، هو التمتع بالجمال الفني، وهو ليس إلا لذة تحقيق توقعه. ولكن هذا التوقع وتحقيقه يمكن أن يتم بشكل ساذج، فيكون الفن فقيرًا، أو ماهر فيكون الفن رفيعا. فأن يقرر الكاتب صراحة أن فلانًا شخصية قوية مثلا، يفسد كثيرا من لذة القارئ المستمرة في التوقع والاكتشاف. كذلك، أن يجيء الحوار كما هو متوقع يفسد اللذة إلى حد كبير ويحل محلها الملل. إذ فما سبب الملل إلا حصول المتوقع كاملا.

من ناحية أخرى فإن حصول ما هو غير متوقع كلية هو فشل «الفنان» فشلا كاملا، بحيث لا يصبح العمل فنا إطلاقا. فما الموسيقى «النشاز» إلا أنغاما غير متوقعة بالمرة، وسبب عدم جمال مجموعة من الخطوط المرسومة بدون ضابط هو أنها خطوط غير متوقعة وكذلك عدم «وضوح الشخصية» في الأدب أو عدم كونها حية، ما هو إلا تناقض بين الشخصية المصوَّرة في القصة وبين المتوقع منها.

بل ما هو معيار النكتة الجميلة؟ (والنكتة الجميلة في نظري ما هي إلا عمل فني صغير وهي تثير إحساسًا لا يختلف نوعيا عن الإحساس بالجمال الفني) هي التي تأتي خاتمتها وسطًا بين المبالغة غير المتصورة وبين المتوقع توقعا تاما، وفي الحالتين تكون النكتة بايخة.

بل ما هو السر في اختلاف قوة التأثير بين الفنون المختلفة؟ أعتقد أن من الواضح إلى حد كبير أن الموسيقى فن يشترك في الاستمتاع به أكبر عدد ممكن من الناس، يليها الأدب، يليه الرسم، والنحت وأن السينما أكثر من القصة المكتوبة جذبًا للناس. لماذا؟ لأن الموسيقى تتميز عن الرسم والنحت مثلا، بأنها ـ بطبيعتها ـ فن يخلق التوقع وإرضاء التوقع في لحظتين مختلفتين،

بينما الرسم والنحت يواجهك بالتوقع وإرضائه في نفس اللحظة. (ولا فرق بين المناظر الطبيعية الجميلة والرسم والنحت في هذه النقطة كما في نقاط كثيرة أخرى).

والأدب مثل الموسيقى في هذه النقطة إلا أنه يتطلب أولا مجهودًا إيجابيًّا من القارئ ثم إن الزمن الذي يستغرقه لكي يثير التوقع أكبر منه في حالة الموسيقى، وقد يفقد القارئ صبره قبل ذلك.

هذا يفسر أيضا أن «المران» على الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيك يخلق إمكانية الاستمتاع بها، إذ بعد مدة يعرف المستمع ما يجب توقعه، بينما كان من قبل تائها لا يعرف ماذا يتوقع ومن ثم يستحيل الاستمتاع. وهذا يفسر أن الهارموني في الموسيقى يضاعف جمالها، إذ يصبح التوقع وإرضاء التوقع مزدوجا.

والسبب في أن الموسيقى الكلاسيك تثير إحساسًا أعمق وأقوى من الموسيقى الشرقية مثلا هو أنها معقدة أكثر، والتعقيد بطبيعته يحمل توقعات وإرضاء للتوقعات أكثر مما تحمله الموسيقى البدائية.

كذلك فإن من مهارة الموسيقي ألا يجعل الجملة الموسيقية تنتهي، أو بعبارة أدق، ألا يرضي توقعا معينا إلا وقد أثار توقعا آخر. مثال ذلك مثلا تجده في كل الموسيقى الكلاسيك، وبشكل واضح مثلا في باخ حيث يوهمك دائما بأنه سيرضيك وإذا به حملك على توقع آخر ولا يرضيك إلا في نهاية القطعة. ألا تجد نفس الشيء في القصة والرواية المسرحية؟ إذ من فقر الفن أن تحل عقدة معينة في الفصل الأول بينما لا تحل العقدة الرئيسية في الفصل الأخير، إذ يجب أن تُقدم العُقد الثانوية في نفس الوقت تقريبا مع العقدة الرئيسية وتحل كلها أيضا في نفس الوقت تقريبا.

ثم لماذا كان من فقر الفن في الحوار أن يكون أحد المتحاورين أقدر بكثير من زميله؟ لأن إذا كان كلاهما قويا، أثار كل منهما فيك الرغبة في معرفة رد الآخر وهكذا، بينما إذا كان أحدهما واضح الضعف، عرفتَ مُسبقا ماذا سيكون الرد عليه.

وهكذا ما الإحساس بالجمال الفني إلا هذه «الإثارة» المستمرة التي تسببها إثارة توقع وإرضاؤه. ويصبح الأمر تمامًا كإدارة عجلة بمجموعة من الدفعات، كلما همت بالوقوف عاجلتها بدفعة أخرى. فإذا تركت العجلة في النهاية (إذا انتهى تعريض الشخص للعمل الفني) استمرت العجلة مدة معينة في الدوران

من تلقاء نفسها بقوة الدفع (يستمر الشخص في ثورة من الانفعالات والرغبة في القيام بعمل ما أو التعبير عن نفسه بشكل ما).

أما المشاعر الإنسانية النبيلة التي تعقب الاستمتاع بعمل فني معين فهي ليست ناتجة عن مجرد التعرض لعمل فني بل ناتجة عن مضمون العمل نفسه. فالعمل الفني أثره قاصر في ذاته على إدارة العجلة، ومضمونه هو الذي يحدد اتجاه العجلة.

ولما كانت الموسيقى أكثر الفنون خلوًّا من المحتوى ـ ولهذا تعتبر the purest of all arts ـ أمكن استخدامها في إثارة ما شئت من العواطف، النبيلة والخسيسة على السواء، في إثارة الحرب وفي إثارة العطف على السواء.

إذا كان هذا هو الشيء المشترك في الفنون ـ بل في الأشياء الجميلة كلها، فما هو الاختلاف؟ الاختلاف هو في الأداة المستعملة في إثارة التوقعات وإرضائها. ولكل أداة طبيعتها الخاصة التي لها آثارها الخاصة في الإنسان.

فأداة الأدب هي الكلمة، في كل الآداب ما عدا الشعر: الأداة هي معنى الكلمة فقط، بينما في الشعر، معنى الكلمة وموسيقاها، في الموسيقى الصوت، في الرسم والنحت والمناظر الطبيعية الشكل، في الرقص الحركة والموسيقى، في السينما: كل هذه الأشياء مجتمعة.

ولكن بالإضافة إلى هذا الأثر العام لكل الفنون (إثارة التوقع وإرضاؤه)، لكل أداة its associations الخاصة بها. فالكلمة لها تاريخ طويل من المعاني، والألوان لها ما تثيره من العواطف، الـnotes المختلفة يُثير كل منها عاطفة مختلفة نتيجة لاستعمال هذه الـnotes في الصوت الإنساني وفي الطبيعة للتعبير عن عواطف وأشياء مختلفة، لهذا كان تأثير الفن مزدوجا:

١- التأثير الفني البحت، الناتج عن إثارة التوقعات وإرضائها.

٢- والتأثير الناتج عن الـassociations الخاصة بالأداة.

ولولا وجود هذا التأثير الثاني ما ثارت مسألة الالتزام في الفن، إذ هو وحده الذي يخضع لعقل الفنان. وكلما قوي العنصر الأول بالنسبة للثاني كلما اقترب الفن من الـpure art وكلما قوي الثاني بالنسبة للأول كلما بعد عن هذا.

هذه كلها أفكاري رغبت في تدوينها ورأيت أن أكتبها لك أفضل من أن أكتبها كشيء منفصل يوضع في الدرج، فأرجو أن تغفر لي بُعد هذا الكلام عن طبيعة

الخطاب ويا حبذا لو أعجبك هذا الكلام أو علقت عليه.

جلال

قرأت الخطاب مرة أخرى وأعجبني، وقررت إذا أعجبك أن أسميه A Generalized Theory of Artistic Expectations

* * *

أوتاوا في ١٣/٣/١٩٦٠

عزيزي جلال

سأقتصر في هذا الخطاب على بسط نظرية شوبنهاور في الموسيقى، علك ترى في بعض ما أورده ما يفيدك في دراستك للموسيقى ونظرياتها. وسأؤجل تعليقي على نظريتك ووصفي لرحلة نيويورك إلى خطابات أخرى.

يقول شوبنهاور:

في الموسيقى تتجاوب الأسس الأربعة للانسجام «harmony» (وهي: Bass, tenor, alto, Soprano) تتجاوب هذه الأسس مع المراحل الأربع للوجود: المملكة المعدنية، المملكة النباتية، المملكة الحيوانية، والإنسان. فلعلنا نلاحظ أن القاعدة الأساسية في الموسيقى أن الـBass ينبغي أن يكون على بُعْدٍ من الأجزاء الثلاثة الأخرى أكبر بكثير من البعد بين أيٍّ من هذه الأجزاء الثلاثة وغيره، وأن يكون منخفضا عنها بدرجة كبيرة. وكلما زادت الفجوة في القطعة الموسيقية بين الـBass والأجزاء الأخرى كلما زاد جمال القطعة وقوتها. أما اقتراب الـbass من تلك الأجزاء في بعض المقطوعات فيرجع إلى الطبيعة المحدودة للآلات.

هذه القاعدة الموسيقية تعكس الخاصية الأساسية في الطبيعة وهي أن الكائنات العضوية أقرب بكثير إلى بعضها البعض منها جميعا إلى غير العضويات التي تتكون منها المملكة المعدنية، إذ تفصل بين هذه وتلك أكبر فجوة معروفة في الطبيعة.

للموسيقى تأثير مباشر على الإرادة (على المشاعر والعواطف لدى السامع) ومن ثم فهي تزيد أو تغير من هذه المشاعر والعواطف بسرعة أكبر. والسبب

في ذلك أن الموسيقى دون سائر الفنون لا تعبر عن المُثُل Ideals وعن الإرادة في حالات التجريد وإنما تعبر عن الإرادة عينها(54).

ليست الموسيقى فنا مستقلا فحسب وإنما هي كذلك أقوى الفنون طرا. فهي قطعا ليست في حاجة لتكميلها إلى كلمات الأغاني وحركة الأوبرا.

إن الموسيقى لا تعرف غير الأنغام، ولا دراية لها بالأسباب التي أنتجت هذه الأنغام. ومن ثم فإنه حتى الصوت الإنساني ليس بالنسبة لها غير نغمة معدَّلة شأنه في ذلك شأن الآلات الموسيقية. وقد تستغل الموسيقى الصوت الإنساني، غير أنه لا ينبغي أن يكون هذا الصوت (الغناء) العنصر الأساسي فيها، بل إنه من اللازم أن تكون كلمات الأغنية أقرب ما يمكن إلى التفاهة. فالكلمات عنصر دخيل على الموسيقى، عنصر مساعد ليس غير، والموسيقى دائما أقوى أثرا وأسرع نفوذا إلى القلب من الكلمات. ولهذا فإنه إذا أدمج الكلام في الموسيقى فعلى الأول أن يكون خاضعا لها وأن يكيف نفسه تماما وفقا للأنغام. غير أن الشائع بين الناس هو العكس، إذ تُكتب الموسيقى لتناسب قصيدة معينة أو حوار أوبرا معينة، بينما المناسب هو أن تكتب الكلمات والحوار لتناسب الموسيقى، نظرا إلى أن الحالة الأولى تؤدي إلى أن يتكلف الملحن الحالات الوجدانية للشاعر وأن يُغير من مجرى موسيقاه تبعا لتغير مجرى معاني الكلمات وهي كما سبق القول العنصر الثانوي(55). ومع ذلك فإن إضافة الشعر إلى الموسيقى يشبع لدى الناس احتياجات أوفى نظرا إلى أن الأغنية في هذه الحالة تصل إليهم عن كل من الطريق المباشر والطريق غير المباشر للمعرفة في نفس الوقت: الطريق المباشر وهو تعبير الموسيقى عن المشاعر والإرادة ذاتها، والطريق غير المباشر وهو مدلول الكلمات. إذ بينما تعبر الموسيقى عن كل خلجات الإرادة والمشاعر نجد الكلمات إذا أضيفت تبين أهداف هذه المشاعر «محددة» والبواعث التي حركتها. ذلك أن النغمة الموسيقية قد تبقى كما هي سواء كانت تعبر عن الشجار بين أغاممنون وأخيل أو عن الشجار بين أفراد عائلة بورجوازية. فالعواطف وخلجات الإرادة هي كل ما يعنيها؛ والموسيقى في هذا كالله: لا ترى غير القلوب. أما الكلمات فتحدد موضوع العاطفة. ولهذا فإنه حتى في الأوبرات الكوميدية والمساخر (farces) نجد الموسيقى محتفظة بنقائها وجمالها الجوهريين، لا يفلح موضوع الأوبرات أو المساخر في الحط من سموها، لأن الأفعال الإنسانية المعنية غريبة عن الموسيقى ولأن الموسيقى ترتبط دائما بجوهر الوجود ومغزى الحياة البشرية حتى لو كتبت لأوبرا كوميدية صاخبة الحركة.

إذا انتقلنا إلى الموسيقى الآلية المحضة (ولنأخذ مثلا لها إحدى سيمفونيات بيتهوڤن) نجدها تعبر عن كافة المشاعر والعواطف البشرية من فرح وحزن وحب وكراهية وجزع وأمل..إلخ. هذا التعبير نجده في عدد لا يحصى من الظلال ودرجات القوة غير أنه في نفس الوقت تعبير مطلق in abstracto غير محدد؛ هو مجرد هيئة دون مضمون كعالم من الأرواح دون مادة. فإن كنا أثناء الاستماع نكسي الموسيقى عظاما ولحما ونتبين لأنفسنا فيها تجارب ومناظر مرت بنا، فإن هذا التخيل من جانبنا ليس عنصرا لازما للاستمتاع بالموسيقى، بل هو في الواقع عنصر دخيل تحكمي من الخير تجنبه.

(النقطة التالية قد تتفق اتفاقا جوهريا مع مضمون نظريتك) حسين.

يتوقف الانسجام في الأنغام على التوافق بين التموجات vibrations الناتجة عنها. فكلما كانت هناك علاقة منطقية بين تموجات نغمتين، (تموجات يمكن التعبير عنها بأعداد صغيرة)، أمكن ربطها في الذهن عن طريق تكرر ورودها في القطعة الموسيقية. أما إن كانت العلاقة غير منطقية (أو كان لا يمكن التعبير عنها إلا بأعداد كبيرة) فإن ربط النغمتين يستعصي على الذهن ومن ثم اعتبرنا إحداهما نشازا dissonance. فالموسيقى إذن وفقا لهذه النظرية هي وسيلة لإيجاد علاقات منطقية بين أعداد. والنغمة النشاز إن هي إلا رمز لما يقاوم الإرادة عند الإنسان، بينما النغمة المنسجمة تحقق إشباعا مرضيا للإرادة. وإذ أن مقاومة الإرادة وإشباعها هما محور الحياة البشرية؛ وإذ أن الموسيقى هي أقدر الفنون طرا على التعبير عن أدق الظلال وأكبر عدد من الدرجات المختلفة لمشاعر القلب البشري وعواطفه (أي إرادة الحياة) فإنه من المحتم اعتبار الموسيقى أرقى الفنون طرا.

إيماء إلى ما سبق أن شرحناه من تجاوب الأجزاء الموسيقية مع المراحل الأربع للوجود، نذكر هنا أن الأذن الموسيقية تعير انتباهها أساسا إلى أعلى النغمات highest لا إلى أقواها loudest. فالمكانة الأولى في المقطوعة الموسيقية يحتلها دائما السوبرانو الذي يترك له مهمة تأدية الميلودي. فالسوبرانو أفضل ما يمكنه تمثيل الحساسية في أعلى درجات سموها ورفاهتها، والتعبير عن أدق ما يطرأ على هذه الحساسية من تغيرات. (فهو إذن يمثل الإنسان). أما الـbass فهو على العكس تماما من السوبرانو؛ قليل القدرة على التغير، يرتفع وينخفض في فترات متباعدة، وهو في كل خطوة مقيد بقواعد صارمة شأنه في ذلك شأن المملكة غير العضوية التي لا تخضع إلا لقوانين الطبيعة العامة. ولهذا فإن الـbass لا يمكن أن يؤدي الميلودي، كما لا يمكنه أن يحقق لنا ما يحققه السوبرانو من المتعة. فإن حدث واستخدم الـbass لتأدية الميلودي فإنه يمكن تشبيهه هنا بكتلة من الرخام شكلت على

هيئة إنسان. ولهذا كان الـbass خير ما يناسب تأدية دور الضيف الحجري في «دون چوان».

التوقيع (56)rhythm هو في الزمان بمثابة التقابل symmetry في المكان: قسمه إلى أجزاء متعادلة يتجاوب كل منها مع الآخر. وبالرغم من أن المعمار والموسيقى هما النهايتان المتضادتان للفنون بحكم طبيعتيهما الداخليتين ومدى تأثيرهما ومغزاهما، وبحكم كون المعمار مكانيا فحسب وكون الموسيقى زمانية فحسب؛ إلا أن قاعدة «اجتماع النقيضين» تنطبق هنا، إذ نجد المعمار والموسيقى يشتركان في الأساس الذي يحكمهما: التقابل والتوقيع. ومن ثم يمكن وصف المعمار بأنه «موسيقى متجمدة» وذلك بالرغم من أن المعمار أقل الفنون شأنا وأضعفها نفوذا.

طبيعة الميلودي هي حالة دائبة متكررة من الانفصام يعقبه صلح واجتماع. فعنصر الانسجام في الموسيقى هو النغمة الأساسية، يحدث انحراف عنها عبر كافة درجات السلم، حتى نصل إلى interval تحقق لنا رضاء ناقصا، ثم تعود الأنغام أدراجها حتى تصل إلى النغمة الأساسية حين تحقق لنا إشباعا كاملا. والسبب في أن الموسيقى تترك هذا التأثير الهائل في النفس هو قدرتها على تصوير الإشباع الكامل لأمانينا. غير أن هذا الإشباع يتم بعد تأخير وتأجيل وعقبات، وهو إشباع قوي لأن خير إشباع هو ما أعقب شوقا مضطرما تكتنفه الصعاب. فالموسيقى بوجه عام تتألف من أنغام مقلقة؛ أنغام تثير الشوق، مع أنغام يختلف مدى إشباعها للشوق قوة وضعفا، يتلوها إشباع تام(57). تماما كما في الحياة الواقعية حيث نجد آمالا ورغبات مع درجات متفاوتة من الإشباع. أما في الموسيقى الفطرية الهمجية فنجد نغمات متكررة متتابعة، هي نغمات جوفاء بسبب عدم إثارتها الشوق، أو لإثارتها إياه مع إشباعه توا. فهي تثير عندنا ما يثيره الإشباع الكامل الدائم لكافة رغباتنا في الحياة من خمول وملل(58).

كما أن هناك حالتين من الحالات الذهنية: حالة السلام النفسي وحالة الحزن والألم، كذلك نجد في الموسيقى مفتاحين أساسيين: The major & the minor، وهما يتجاوبان مع الحالتين الذهنيتين ولا يمكن أن تخرج الموسيقى عنهما. ومن هذه الحقيقة نتبين مدى التجاوب الهائل بين الموسيقى وطبيعة الأشياء والإنسان. ولهذا نجد أن الموسيقى في دولة كروسيا حيث يعيش الناس في ظل ظروف قاسية يغلب عليها مفتاح minor حتى في موسيقاهم الكنائسية التي كان من الواجب أن تمثل حالة السلام النفسي.

أهم عيب في الموسيقى، وهو عيب بالغ الخطورة، إطراؤها لإرادة الحياة، وخلق الوهم لدى المستمع بإمكان إشباع الرغبات والمشاعر والعواطف إشباعا كليا. والوصول إلى الرضاء الكامل والسعادة التامة وهذا هو ما عنته «القيداس»(59) بقولها:

Etanand sroup, quod forma gaudii est, tov pram Atma ex hoc dicunt, quod quocunque loco gaudium est, particula e gaudio eius est.

تعليق: لخصت لك رأي شوبنهاور في الموسيقى لاعتقادي أنه سيسرك أن تجد تصديقا فيه على بعض ما وصلت إليه بنفسك (أم أن هذا شيء لا يسر؟!) وقد اقتصرت على اقتباس القليل من الكثير مما ورد في فصل طويل عقده لميتافيزيقا الموسيقى(60)، وذلك في الكتاب الثالث من الجزء الثالث من مؤلفه «العالم كإرادة وفكرة»، ولإثارة شوقك إلى اقتناء الكتاب وقراءته أذكر لك أنك ستجد في ذلك الفصل نقطا عديدة مهمة أغفلتها في تلخيصي لامتلائها بالمصطلحات التي عجزت عن ترجمتها إلى العربية.

هذا وإن أحببت أن أرد إليك خطابك للاستعانة به في كتابة بحثك فلتكتب لي بذلك.

مع أطيب تحياتي لك.

حسين

* * *

لندن في ٩/٤/٦٠

عزيزي حسين

هاأنذا أجلس لأكتب لك ردا على خطابيك بعد أسبوع من المذاكرة والقراءة المستمرة.

سرني بدون شك أن بعض أفكاري عن الموسيقى وردت في كتاب شوبنهاور قبلي بحوالي قرن! وأرجو ألا تتصور أنني كنت أتصوَّر أني أتيت فعلًا بنظرية جديدة! ومع هذا فلا زلت أعتقد أن فكرتي الأساسية لم ترد فيما ذكرت عن نظرية شوبنهاور، خصوصا من حيث تطبيقها على الفنون الأخرى. كذلك لاحظت أن شوبنهاور حاول صياغة نظريته في الموسيقى صياغة تتفق مع

نظريته العامة في الإرادة، وبالتالي أصبحت الأولى مشوبة بالميتافيزيقية. أردت شراء كتابه فوجدت ثمن الجزأين حوالي ٦٥ شلنا. لا بأس، سأقرأه يوما ما.

ألا تتفق معي أن كثيرا من الكتب مخيبة للآمال؟ تظن أنها ستجيب على أسئلة في ذهنك فإذا هي تتكلم عن شيء آخر، أو مجرد تمس الموضوع مسًّا عارضًا، من ذلك كتاب في سلسلة Penguin اسمه The Meaning of Art. فلما لم أجد فيه الإجابة على أي سؤال مما في ذهني اشتريت كتاب Croce عن الجمال: Aesthetic وقرأت فيه الفصل الأول، ويبدو أنه جيد. كذلك اشتريت كتاب تولستوي What is Art وقرأت أيضا القطعة الأولى فيه.

ترى ما سر اهتمامك بالأديان وبخاصة المسيحية؟ حدثت شيرلي عن ذلك فقالت أن هذا زاد من احترامها لك! [...]

منذ حوالي ستة شهور وأنا أقرأ في موضوع واحد هو موضوع بحث الماچستير، واسمه: Studies in the modern theory of profit وما ألاحظه هو أنني لا أقرأ اقتصادًا بل في الواقع منطق. وأن كثيرا من الآراء في الموضوع كل عيب أصحابها أن منطقهم تعبان. يعطون الأهمية لأشياء لا تستحقها ويسمون الأشياء بغير أسمائها. ولهذا كثيرًا ما يعتريني كفر بالعلم وإيمان بالـcommon sense.

نفس الشيء ألاحظه في المناقشات التي أراها في التليفزيون فبين كل ثلاثة يتناقشون، تجد دائما واحدًا مبرزًا يهزم الباقين، ودائما السبب ليس كثرة علمه بل سلامة منطقه. انظر إلى السياسيين ومناقشاتهم. إن كل الخلافات السياسية هي إما لا خلافات على الإطلاق، ويكون الاختلاف فقط لفظي، أو أن تكون خلافات حقيقية ومن ثم يجب أن يكون الرأيين متناقضين ومن ثم يروعك كيف أن أحدهما ضعيف المنطق إلى حد ألا يرى كيف أنه يناقض الحق.

لن أذهب إلى مصر هذا الصيف، إذ أن امتحان الماچستير في ديسمبر ولا بد أن أذاكر جيدا في الصيف. ولكني أتمنى أن تأتي أنت لتقضي أجازتك ـ أيا كان تاريخها ـ في لندن.

خطر لي منذ أيام أن من الأشياء التي يجب ألا تعتبرها غير مهمة أن اثنين من إخوتنا حتى الآن تزوجا بأجنبيتين. إن زواج الواحد منا ـ مأخوذا على حدة ـ لا يبدو مهما في ذاته. وهكذا مثلا لم ينزعج والدي من زواج أمين بنمساوية ولكن خذ عائلة أحمد أمين ككل حينما نجد أن اثنين من أولاده ـ حتى الآن ـ تزوجا بأجنبيات. أليست ظاهرة غير سارة. أحمد أمين الذي كان همه خدمة الإسلام

والعروبة! إن الواحد منا حينما يتزوج لا يفكر لحظة واحدة في أولاده المقبلين، مدى شعورهم الوطني وأثر الزواج من أجنبية على ذلك. مدى اتصال أولاده أو انعزالهم عن المجتمع.

أم لعلك ترى أن العالم صائر إلى أن يكون وحدة وأن هذا التزاوج ما هو إلا انعكاس لهذا التقارب بين شعوب العالم؟

في انتظار خطاب منك لك أحسن تمنياتي.

جلال

أرجو أن ترسل لي خطابي عن الفن لكي أرسله لحافظ. أو أرسله أنت إليه.

* * *

أوتاوا في ٢١ إبريل ١٩٦٠

عزيزي جلال

أكتب إليك أولا بالأخبار ثم أرد على خطابك:

وافق السفير على أن تبدأ إجازتي السنوية يوم ١٨ يوليو وذلك لمدة شهرين سأحاول مدهما إلى ثلاثة بالنظر إلى أني لم أحصل على إجازتي عن العام الماضي. وإذ أن يومي ١٦ و١٧ يوليو يوافقان السبت والأحد فسأغادر مدينة أوتاوا يوم الجمعة ١٥ يوليو عصرا بالطائرة في طريقي إلى لندن التي أصل إليها يوم ١٦ صباحا. هذا وفي نيتي أن أمكث معك ما بين عشرة أيام وخمسة عشر. فإن أحببت أن تصحبني إلى القاهرة فبإمكاننا أن نذهب إليها سويا بعد تمضية أسبوعين في البرتغال وأسبانيا أو في الدانمارك وفرانكفورت. أما إن كنت لا تزال تفضل البقاء في انجلترا فسأتركك حوالي آخر يوليو إلى القاهرة. وقد كتبت إلى حافظ بالفعل أن يقوم بالاتصالات المبدئية في سبيل حجز التذاكر ودفع ثمنها ثم إرسالها إليَّ. فإن أحببت أن يحجز لك أيضا فهو مستعد ـ كما أخبرني في خطاب وصلني منه اليوم ـ أن يقوم بذلك. وعلى أيٍّ حال فإني على أتم استعداد لأن أقرضك تكاليف الرحلة إلى أسبانيا والبرتغال أو الدانمارك وأحصل القيمة من حسابك في مصر سواء واصلت الرحلة معي بعد ذلك أم تخلفت.

لا يمكنك أن تتصور أثر تأكدي من موعد الإجازة في رفع حالتي المعنوية. كل شيء الآن قد أصبح بهيجا قد زاده بهجة قرب مفارقتي النهائية لهؤلاء [...] الذين أعمل معهم، الذين يكتبون «تتهضها» بدلا من «تضطهدها» ثم يدفعون إليَّ بمسودَّاتهم لأكتبها على الآلة الكاتبة. تفوه!

Had I but time - O, I could tell you - But let it be!» -Hamlet»

والآن أرد على بعض الملاحظات التي وردت في خطابك الأخير:

«... ومن ثم يروعك كيف أن أحدهما ضعيف المنطق إلى حد لا يرى معه كيف أنه يناقض الحق».

الرد:

أ- لعلك توافقني أولا على أن الدين هو «الحكمة أو الفلسفة قد صيغت على نحو يناسب أفهام الغالبية، وهو يتضمن حقائق ولكنها مختلطة بمواد غريبة لتسهيل تقبل الناس لها». (وفق تعريف شوبنهاور).

ب- على هذا الأساس الديني سأرد على سؤالك وكلامك عن المنطق باعتباره وسيلة إلى الحق. فكما أن أفلاطون يعرف الأساطير Myths بأنها شكل من أشكال التعبير يلجأ إليه المرء حين تنضب موارد العقل ولا يجد فيها الغناء ومع ذلك فما زال لديه شيء بالغ الأهمية يريد التعبير عنه بأي شكل وفي أية صورة؛ كذلك سأرد على كلامك بحقيقة مختلطة بمواد غريبة.

جـ- لو أن الله كان يريد أن يؤمن كافة الناس به دون تردد أو تشكك لأمكنه ذلك بسهولة عن طريق إتيانه بمعجزة خارقة لقوانين الطبيعة يراها الناس.

د- مغزى أن الله لم يشأ إيمان الناس به عن هذا الطريق، هو أن بعض الناس من الحقارة (كسفيرنا هنا في أوتاوا) بحيث وجد الله أنه من الظلم والقبح أن يكشف عن نفسه بصورة قاطعة لا شك فيها سيؤمن بسببها كل من الحقير والنبيل، كل من المتعطش إلى الحق والعازف عنه.

هـ- لذلك فضَّل الله أن يترك نفسه مجهولا لمن لا رغبة له في معرفته وفي نفس الوقت يمنح النور والدلائل لكل ساعٍ إليه، كلٌّ بقدر مدى تعطشه إلى النور وجهاده للوصول إلى الله. فهو يكشف عن نفسه لمن يريد رؤيته ويترك الآخرين في ظلام.

و- فإن أردت مثلا واضحا لذلك قلت لك بكل إخلاص إنني يوم أمس ـ بعد أن نمت مع فتاة ـ وقلت لنفسي مقطبا إن الله لو جاء إليَّ الآن بالحق لرفضته في غضب لأنني لست أهلا لتلقيه ولاعتبرت مجيئه إليَّ بالحق خطأ من جانبه في حق بوذا والمسيح.

ز- فإن جئنا إلى المنطق لبدا للنظرة السطحية من الأمور الغريبة حقا أن التفكير المنطقي لم يوحِّد بين آراء الناس وعقائدهم بعد كل هذه القرون (كما أن الواضح أنه لن يوحد أبدا بينها)، بينما يذهب المعتزون به إلى أن المنطق كالهندسة والجبر لا جدال فيه. فلو أنه لا جدال فيه حقا فلم لم يستطع ماركس أن يقنع تولستوي، أو شوبنهاور هيجل، أو جيتسكيل ماكميلان، أو أبو حنيفة الشافعي، أو حسين جلال، بينما كان من الممكن ببساطة أن يجتمع الاثنان في غرفة، ينتقلون في بطء من نقطة اتُفق عليها إلى نقطة محل جدل حتى يصلا إلى الحق؟

ح- السبب في رأيي هو كما يلي:

كما أن الله لم يكشف عن نفسه كشفا حتميا للكافة بسبب تفاوت رغبة الناس في معرفته، كذلك لم يكن من الممكن أن يؤدي التفكير المنطقي إلى الحق حتى يتساوى الناس في معرفته وبعضهم لا يريدونه.

[باقي الخطاب مفقود]

* * *

[لندن] ٢٦/٤/٦٠

عزيزي حسين

أهنئك على الإجازة، ففيما يبدو أنك فرحت بها أكثر من الترقية! وقد فرحت جدا بعزمك الحضور إلى لندن، وإن كنت أرجو أن تتأكد من إمكان أن يحجز لك حافظ التذاكر في أقرب وقت، إذ أن إمكانية الحجز من مصر مشكوك فيها. وعسى أن تخلو حجرة في البيت الذي أقيم به فأحجزها لك، إذ الإقامة في هذا البيت مختلفة جدا عن الإقامة في أي مكان آخر، إذ ستشعر أنك مع عائلة كاملة (إن أحمد شوقي لا يزال يكتب لصاحبة البيت واسمها نيتا وعمرها حوالي ٢٩ سنة قائلا أنه لن ينسى الأيام الجميلة التي قضاها في بيتها طول حياته!) كما أني أريد أن أعرفك على شيرلي وأعرفها عليك، ناهيك عن النقاش حول الله الذي يبدو من خطابك الأخير أنه «سيتعبني» قليلًا!!

ورغم أن السفر معك إلى مصر أمر مغرٍ تماما إلا أن عليَّ مقاومته، إذ لا أستطيع أن أستغني عن أكثر من أسبوعين أو ثلاثة كإجازة في الصيف، إذا كنت أريد أخذ الماجستير في ديسمبر، ومع هذا فربما أتيت معك إلى الدانمارك مثلا إذا أردت الذهاب إلى هناك بدلا من أسبانيا ـ خاصة أني أخاف من بعض الاضطراب في حياتي الدراسية بسبب الذهاب إلى مصر الآن ـ بصرف النظر عن الوقت الذي سأقضيه هناك ـ إذ ليس من السهل التكيف نفسيا بسرعة عند العودة والجلوس فورًا للمذاكرة.

[...] أما سؤالك عن لمَ لم يوحِّد التفكير المنطقي بين آراء الناس وعقائدهم بعد كل هذه القرون (وهو سؤال كان يتردد في ذهني هذه الأيام)، فلم يستطع ماركس مثلا أن يقنع تولستوي أو جيستكل ماكميلان، ولا أتوقع أن يقنع جلال حسينًا بسهولة أبدا، فأعتقد أن لهذا عدة أسباب، ربما كان من أهمها أن قواعد المنطق التي يتعين اتباعها إذا أردنا الوصول إلى الحق، لا حصر لها، ولا يكاد يعرفها جميعا أحسن المتجادلين، وأن من السهل خداع أذكى الناس وإيهامه أنه ليست هناك ثغرات منطقية مع وجود هذه الثغرات ـ لعل من أبسط الأدلة على ذلك أن هناك عددا لا حصر له للطرق المختلفة التي يمكن بها البدء في الكلام في موضوع معين بل وفي التسلل من فقرة إلى فقرة دون أن يبدو أن هناك عدوانا على المنطق. إن مجرد «تجاهل» ذكر حقيقة معينة أو مجرد إغفال الكلام عن نقطة معينة قد يحوِّل ثِقَل الحجة تحويلا تاما.

سبب آخر ربما لا يقل أهمية عن السابق هو أنه في النقاش في كل الأمور المتعلقة بالعلوم الاجتماعية لا يمكن أن يتجرد الشخص عن عقيدة أو ميل مسبق (حتى بفرض أنه لديه الاستعداد لتغيير رأيه لو رأى الحق) وهذا يجعله يوجه تفكيره (بَلْهَ نقاشه) الوجهة التي تتفق مع هذا الميل أو العقيدة المسبقة.

ربما كان هذا هو ما يفسر لماذا أمكن أن يتفق علماء الرياضة والطبيعة والكيمياء أكثر من العلماء في العلوم الاجتماعية والفلسفة، إذ المغالطات المنطقية أسهل كشفها في الأولى منها في الثانية، كما يندر أن توجد المعتقدات والميول المسبقة في الأولى بينما يندر ألا توجد في الأخرى.

فما رأيك يا سيد حسين؟ يا حبذا لو رددت بسرعة.

جلال

* * *

لندن ٢٦/٤/٦٠

عزيزي حسين

لم أكد أضع ردي في صندوق البريد ـ حتى تلقيت مسرورًا ـ خطابك القصير التالي. ولو أنه تأخر يومًا أو يومين لظننت أنه دفاع عما انتقدته في خطابي، دفاع عن الدين والإيمان والفن والإحساس..إلخ ضد العلم والمنطق..إلخ. ولا بد قبل أن أختلف معك من جديد أن أسلم لك بكثير من الأشياء الهامة التي أعتقد أنك بلا شك على صواب فيها.

فإن الإفراط في العلم يضعف القدرة على استقبال النور والحق، بلا شك هذا صحيح. الأمر في نظري يشبه الإفراط في النظر إلى الكتاب، إذ هذا يضعف البصر والقدرة على الرؤية لمسافات بعيدة. فما الانكباب على العلم والمنطق ـ مقارنا بممارسة الفن والدين ـ إلا انكباب على جزئيات وقضايا صغيرة مقارنا بالتفكير في الكليات والقضايا العامة. فالعلم حين يدرس المسيح، يدرس مثلا كما أشرت أثر شخصية المسيح ذاته على نشأة التعاليم المسيحية، بينما الدين (أو الفنون) يحث مباشرة على حب الناس كافة ويعلمك ـ بوجه عام ـ وضعك بالنسبة للكون والحياة ككل.

وأنا لا أعتبر من قبيل المبالغة ما ذكرته من حيث أن الانهماك في الدراسة العلمية لا يتناقض مع الاهتمام بشراء سيارة، بينما الانهماك في ممارسة الفن والدين يجعل هذا الأمر يبدو تافها وغير جدير بالاهتمام. ولا أنكر أنني إذا أنفقت ست ساعات في المدرسة أقرأ وأكتب في «تأثير تطور الشركات المساهمة في نظرية الربح»، كما فعلت اليوم، لا أكون قادرًا على الانتقال للاهتمام بالمسائل الروحية إلا بعد مجهود وتهيئة نفسية جديدة قد تستغرق زمنا.

ومع هذا، فأعتقد أن النتيجة التي انتهى إليها خطابك، ليست صحيحة هي الأخرى (إذا سمحت لي بالإفراط في استعمال كلمات: صحيح وخاطئ ومتناقض..إلخ!!)

فالموقف الصحيح في نظري هو ممارسة كل من العلم والفن (أو المنطق والانفعال) باعتدال (حتى ولو بدا هذا مجرد تطبيق للمبدأ القديم غير الجذاب.. خير الأمور الوسط!) وعسى أن يكتسب هذا الموقف بعض الجاذبية إذا حاولت أن أبين أسباب صحته:

أعتقد أن التشبيه التالي يعبر عن رأيي تعبيرا جيدا:

الفرق بين هذا الموقف المعتدل الذي أدعو إليه وبين الموقف الذي يدعو إليه خطابك، هو كالفرق بين إطلاق بالون إلى الفضاء وأنت ممسك به بخيط،

وإطلاقه إلى الفضاء دون أن تمسك به على الإطلاق. البالون الأول قد لا يرتفع إلى مثل ما يرتفع إليه الثاني ولكنه متصل بالأرض، لم يضع، بينما الثاني قد يعود إليك وقد لا يعود فربما تفقده كلية. العلم والمنطق ضروريان لكي يكون انفعالك وإيمانك دوما على اتصال بالواقع، بالحقيقة، بينما من ناحية أخرى الإيمان والانفعال ضروريان للانطلاق من حدود الحياة اليومية الضيقة الأفق. بل إن ازدياد علمك واشتداد قوة منطقك هما اللذان يمكنانك من أن تزيد ارتفاع بالونك، فهما يزيدان طول الخيط. لأحاول أن أضرب مثالا (لئلا أضيع أنا أيضا في الهواء!):

ما الفرق بين شخص درس علاقة مبادئ الدين المسيحي بشخص المسيح وأثر هذه الشخصية على مبادئ الدين فضلا عن تلقيه المبادئ المسيحية، وشخص تلقى مبادئ الدين المسيحي فقط؟ الأول ـ في اعتقادي ـ أكثر استعدادًا لمعرفة حدود المحبة التي دعا إليها المسيح. فأن تعرف نوع الشخصية التي أنتجت الدين (أو على الأقل عبرت عنه) غير أن تعرف الدين فقط. لأن معرفة هذه الشخصية يعرفك بطبيعة الحال وعلى سبيل المثال نوع الرذائل التي أنتجت فضائله (مثلا الرذائل التي سادت مجتمعه أو عائلته في فترة معينة) ومعرفة هذه الرذائل يعرِّفك الحالات التي يمكن أن تمارس فيها فضيلة الحب والحالات التي يجب ألا تمارس فيها أو على الأقل يجب أن تمارس فيها بشكل مختلف.

هذا المثال يمكن أن يبين كيف أن العلم خيط يصل الانفعال بالواقع. أما أن العلم من شأنه أن يرفع مستوى الانفعال (أو الإيمان) فلعل القلق الروحي الذي ينتاب العالم ـ ما لم يعقبه الإفراط في العلم عن القلق إطلاقا ـ هو أعلى مستوى من القلق الروحي الذي يصيب الجاهل. فالعالم مثلا قد يوجه طاقته الروحية إلى خدمة أمته ـ لإيمانه، عن طريق الدراسة، بالقومية. بينما لا يستطيع غير العالم أن ينتفع بطاقته الروحية في غير إنفاقها على عائلته وحدها نتيجة ضعف إلمامه بالروابط التي تربطه بأمته.

جلال

* * *

أوتاوا في ١٠ مايو ١٩٦٠

عزيزي جلال

أكتب إليك خطابا قصيرا من الفراش؛ مريضًا بالأنفلونزا منذ نحو عشرة أيام. قد طالت لحيتي، واشتد بي الضيق من الوحدة، خاصة وأني لا أستطيع مع المرض القراءة لمدة طويلة.

شكرا لخطابيك الممتعين، وقد حاولت خلال الأيام الماضية عدة مرات أن أتهيأ للرد فلم أتمكن من جمع شتات ذهني.

على كل حال فلنترك المناقشة الكبرى إلى حين نلتقي في يوليو. والآن نهبط from the sublime to the ridiculous كما يقولون. فأسرد إليك بعض الأخبار وأوجه بعض الأسئلة:

تلقيت خطابا من حافظ منذ أيام يؤكد إمكان حجز التذاكر من القاهرة، وإذ أن شركة مصر للطيران ستفتح في الشهر القادم خطا من لندن إلى القاهرة، وحيث أن الشركة تمنح تخفيضا قدره ٥٠٪ للدبلوماسيين الذين يعودون إلى مصر في إجازاتهم على خطوطها، فإن التذكرة من لندن إلى القاهرة ستكلفني نحو ٣٥ جنيه فحسب.

هل غيرت رأيك بشأن الرجوع معي؟

كتب حافظ «غالبا ستحضر حفل زواجي أثناء إقامتك بمصر ـ هذا إن لم أكن وقتها في سوريا» ولم أفهم ما إذا كان هذا يعني احتمال ذهابي إلى مصر دون مقابلة حافظ.

أرسل لك مع هذا صورة حديثة لي حتى لا تفاجأ حين ترى شابا حليقا بدينا أصلع ينزل من الطائرة.

اكتب إليَّ برقم تيليفونك ومواعيد دراستك فقد أتصل بك تيليفونيا حالما يتحدد موعد وصولي. كذلك أرجو أن تكتب لي باسم بنكك ورقم حسابك فيه (في انجلترا).

لا أستطيع أن أكتب أكثر من هذا فوجهي ملتهب وعيناي تحترقان. فإلى اللقاء في خطاب قادم.

حسين

* * *

-

أوتاوا في ١٦ مايو ١٩٦٠

عزيزي جلال

كنت راقدا في الفراش يوم أمس مريضا بالحصبة الألمانية، عندما دخل عليَّ مصطفى الدمرداش قنصلنا في مونتريال.

سأحاول هنا أن أنقل حديثه إليَّ أثناء زيارته القصيرة كلمة كلمة. كان مونولوجا متصلا لم أقاطعه إلا بهمهمة أو هزة رأس.

صاح بي عندما فتحت له الباب:

«تعرف؟ إنت عامل زيِّ چان چاك روسو. روسو فضل يقول للناس: يا ناس ارجعوا للطبيعة، مفيش فايدة. وفي الآخر اعتبروه بطل من أبطال الثورة الفرنسية... صاحبك [...] (الملحق بقنصلية مونتريال) ده حمار. أول امبارح سايقين بالعربية في مونتريال شاور لي على كباريه. شتمته ولعنت له أبوه. ملحق حقير، يعني صبي حلاق، آه، الملحق يعني صبي حلاق، يشاور لسكرتير أول على كباريه. لعنت له أبوه على الجزمة. أنا لما كان هوَّه لسَّه عيِّل في الثانوي، كنت أنا مدير مكتب وكيل الوزارة. دلوقت أنا قنصل وهوَّه صبي حلاق. حلفت برحمة جدي إني موش حاركب معاه العربية تاني.. إنت عارف المثل البلدي عندنا في مصر: «اعمل لدنياك وكأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك وكأنك تموت غدا؟» عارف المثل ده؟ وفيه مثل فرنساوي بيقول: «ارتداء سوح القسيس ليس علامة التدين» (قاله بالفرنسية).. إزَّاي تقول إن الإسلام ضعيف؟ ده دينك ودين عيلتك. عندك قرآن هنا؟ خلليك إنت انت عيان. هوَّه فين؟ (ثم قرأ لي ثماني صفحات من سورة آل عمران).. تعرف إن اليهود دول ولاد كلب. إنت عارف كده ولا لأ؟ كل ما تمشي في الشارع دلوقت تلاقي يهودي. كارل ماركس نفسه كان يهودي. وهيَّ الشيوعية إيه غير صهيونية مقنعة؟ وستالين كان صهيوني، ولينين، وخروتشوف، ومالينكوف ومولوتوف وكلهم. وبعد كده يعملوا هيصة قد الدنيا عشان الطيارة الأمريكية اللي طارت عندهم! بالذمة دول مش مجانين؟ يبعتوا جاسوس قبل مؤتمر القمة؟ موش عايز تنزل تاكل؟ خلليك انت وأنا حاسخن الشوربة. (وبعد أن عاد بالشوربة:-) انت قريت ازَّاي مذهب الشيعة دخل الإسلام؟ أصل يا سيدى الفرس كانوا بيعبدوا الملوك بتوعهم فلما غزاهم العرب أدخلوا العبادة دي عند العرب فعبدوا سيدنا علي. قريت الحكاية دي ولَّا لأ؟ على فكرة انت مايجبش تقرا كتير. ده إنذار مني لك. إنت جايِّ كندا تقرا وتسمع موسيقى ولَّا جاي تتفسح؟ ثم أنا لا أسمح إن واحد جوز أخته (يقصد عبد العزيز عتيق) بيزور والدتي وبيتنا

في مصر يتصرف بالشكل ده يضيع حياته في القراية والفلسفات الفارغة. إنت راجل والرجال قليلون، على الأقل أحسن من البهيم [...] الحمار. يشاور لي أنا، سكرتير أول أحسن من أبوه، على كاباريه! جاتكم القرف كلكم... عاوز شوربة كمان ولّا أمشي؟»

حسين

جلال: بالنظر إلى أني في مصر سأحاول أن أنقل نهائيا إلى القاهرة ومن ثم فقد لا أعود إلى كندا بعد الإجازة، أحب أن أستشيرك فيما يمكنني عمله بشأن كتبي واسطواناتي. ذلك أنني اشتريت هنا مجموعة دائرة المعارف البريطانية (طبعة ١٩٦٠)، كما أن لديَّ نحو مائة كتاب وأربعين أسطوانة وجرامافون ستريوفونيك. هل غرفتك من الاتساع بحيث تسمح بأن أودع كل هذا عندك؟ إن كنت مستعدا اكتب لي بسرعة حتى أبدأ إجراءات الشحن.

* * *

أوتاوا في ٢٥ مايو ١٩٦٠

عزيزي جلال

في يوم السبت ٢١ مايو، في الساعة الثامنة صباحا استيقظت على جرس تيليفوني متصل. وعندما رفعت السماعة للرد أتاني صوت [...] قنصلنا العام بمونتريال:

ـ آلو، أمين؟ السفير فين يا أمين؟

ـ السفير مفروض يرجع النهاردة الساعة عشرة من أمريكا اللاتينية.

ـ عشرة صباحا؟

ـ عشرة صباحا.

ـ طيب اسمع يا أمين. البس دلوقت حالا وروح استقبله في المطار. ماتخلهوش يرجع البيت. وتعالوا من المطار انتم الاتنين فورا على مونتريال. أنا حاستناكم في البيت.

ـ حصل حاجة يا [...] بك؟

ـ أنا حاقولك بس ماتجبش سيرة لحد. على الأقل مش دلوقت لحد ما السفير يقرر. مصطفى الدمرداش اتجنن وحاطيناه في مستشفى المجاذيب. حاول يقطع الشريان بتاعه بمطوة، واضطرينا نلبسه زكيبة. أرجوك يا أمين تجيب السفير وتيجوا لحسن أنا مش عارف أعمل إيه، وابني حايعملوا له عملية جراحية النهارده. سامع يا أمين؟

ـ سامع.

وإذ نهضت أحاول الوقوف شعرت بالغرفة بجدرانها تدور بي فأسرعت مترنحا إلى السرير وألقيت بنفسي عليه.

«أنا برضه كنت متوقع كده» ـ هكذا قال السفير ونحن في الطائرة في طريقنا إلى مونتريال. «الولد من زمان مجنون رسمي، وقضَّى تلات سنين في مصحة عقلية بسويسرا لمَّا كان عمره سبعتاشر سنة. بيني وبينك أمه أصلها بنت كلب، جننت ولادها وكرَّهتهم في عيشتهم. تفتكر إنت إنها حاتسأل عنه لما تعرف إنه اتجنن؟ بشرفك أبدا. وبكره تقرا في الجرايد إنها راحت اليابان والفلبين تتفسح زي عادتها».

وفي مونتريال استقبلنا القنصل العام مصفر الوجه هائجا:

ـ دي مصيبة إيه دي! الله ينعل كندا وسنين كندا واللي عيِّني في كندا. يا [...] بك من ساعة ما جيت كندا ما شوفتش يوم راحة. ماشوفتش يا ناس يوم راحة. يوم الراجل السكران يكسر لي العربية، ويوم الدكاترة يقولوا لي ابنك عنده كساح، ويوم المطبخ يتحرق، ودلوقت الدمرداش. دي وزارة إيه دي! دي وزارة تبعت مجانين برَّه تسلمهم أسرارها السياسية؟

ثم قص علينا كيف دخل عليه الدمرداش في مكتبه في ١٦ مايو وبطح رأسه بالمحبرة. وإذ أدخلوه في اليوم التالي مستشفى خاصا هادئا خارج مونتريال حاول الانتحار هناك، فأمر الطبيب بنقله على الفور إلى مستشفى الأمراض العقلية.

وأصر السفير على التوجه فورا إلى المستشفى «للمعاينة» والكتابة إلى الوزارة.

طوال الطريق إلى المستشفى وأنا أتساءل عن السبب في قدوم الدمرداش إليَّ في أوتاوا في اليوم السابق لفقدان عقله كلية. إنني صديقه الوحيد في كندا، قد قطع مسافة مائة وعشرين ميلا ليمكث معي ثلث ساعة كان خلالها

يتحدث حديثا لا منطق فيه، وهو يدرك تماما أنه لا منطق فيه، ناظرا إليَّ من حين لآخر في خجل، وخوف من أن أعتبره مجنونا، فيبذل مجهودا قويا كي ينطق بجملة «منطقية»، ثم تنهار قواه ويعود إلى التحدث كيفما اتفق. هل كان بمقدوري وقتئذ أن أهدئه؟ هل كان بإمكاني في ذلك اليوم أن أصنع شيئا لم أصنعه؟

وصلنا إلى المستشفى ودخلنا على الدمرداش حجرته.

كان جالسا في فوتيل بجوار النافذة ذات القضبان الحديدية يبكي بصوت مرتفع، مرتديا بيجامته. وقد بدا من هيئة شعره أنه كان يشده بعنف. وعندما رأى ثلاثتنا ندخل (السفير والقنصل العام وأنا) هبَّ واقفا، وصاح بالقنصل العام:

ـ أهلًا بحضرة الجاسوس. إنت يا ابن الأحبه بعتينك جاسوس تتجسس على القنصلية والسفارة في كندا وتبعت للمخابرات عننا؟

ـ أبدا والله يا مصطفى.

ـ أبدًا والله يا مصطفى! (قالها الدمرداش مقلدا لهجة القنصل). أبدا ازاي يا ابن الكلب وانت وصلت درجة مستشار وعمرك اتنين وتلاتين. فيه مستشار في الدنيا عمره ٣٢؟ وأنا أكبر منك بسنتين ولسَّه سكرتير أول؟ مش إكمنك كنت ظابط قبل ماتخش الخارجية يا إبن المره؟

قال السفير مبتسما: إهدا إهدا يا مصطفى.

ـ أهدا إزَّاي يا فلَّاح ياللي جايبينك من ورا الجاموسة عملينك سفير. بذمتك انت سفير انت؟ بعتينك سفير عشان تبصبص للجارسونات وخدامات اللوكاندة؟

ـ إنت حاتقبَّح؟ ـ (قالها السفير في غضب ثم تمالك نفسه) يالله يا [...] بك.. يالله يا حسين. ده مجنون رسمي.

صدَّقني يا جلال، عندما نطق بهذه الجملة «ده مجنون رسمي» ـ نطق بها بصوت عالٍ أمام الدمرداش وجدتني أقبض يدي كي ألكمه في وجهه، غير أني تمالكت. وعندما توجهنا إلى الباب للخروج صاح مصطفى:

ـ اسمع يا [...] اسمع يا حسين. اسمع يا فلاح. إن حاولتم ترجعوني مصر أنا حانتحر. إن حاولتم ترجعوني مصر أنا حانتحر. إن حاولتم ترجعوني مصر أنا

حانتحر.

ثم فجأة، ولدهشتي البالغة، صاح بي بسرعة قبل أن أغادر الغرفة:

ـ إنت عارف راسكولنيكوف؟

ـ بطل «الجريمة والعقاب»؟

ـ آه، عارفه كويس؟

ـ أيوه

ـ هوَّه قتل الست العجوزة ليه؟

ـ علشان كان بيعتقد إن مالهاش فايدة للمجتمع.

ـ وهيَّ يعني أمي اللي ليها فايدة للمجتمع؟ هاهاها... هاهاها.. هاهاها... هاهاها

وعندما عدنا إلى أوتاوا، كان السكرتير التجاري والسكرتير الثاني للسفارة يتشاجران فيما بينهما أيهما أحق بالتذكرة المجانية بالطائرة إلى القاهرة ـ ذهابا وإيابا ـ حين يأمر السفير أحدهما بمرافقة الدمرداش إلى مصر. غير أن تنافسهما هدأ عندما أخبرهما السفير برأي الطبيب: أن حالة الدمرداش من الخطورة بحيث لا تسمح بإعادته في الوقت الحاضر.

حسين

* * *

نشر حسين لاحقًا مقالًا بعنوان «قوت القلوب الدمرداشية» سرد فيه بقية قصته مع مصطفى الدمرداش، فيقول:

وفي ٢٩ مايو استدعاني السفير إلى مكتبه، وطلب مني التوجه إلى مونتريال لتسلُّم الدمرداش من مصحة الأمراض العصبية التي تأبى استمرار بقائه فيها بعد أن تبيَّن لأطبائه الكنديين أن حالته أخطر من أن توصف بمجرد توتر عصبي، وأن مسلكه بات يثير القلق لدى نزلاء المصحة من المنهكين عصبيا، خشية أن تكون حالتهم ـ دون أن يدروا ـ في مثل خطورة حالته. وطلب مني السفير أن أبدأ زيارتي للمصحة بمقابلة الطبيب المشرف على علاجه للاستماع إليه وتسلُّم تقرير منه. وقد جاء في التقرير:

«للسيد الدمرداش تاريخ طويل من الاضطراب العاطفي لا أستطيع الجزم بصدد طبيعته، وإن كان من السهل إرجاعه إلى وقت أن كان في الثانية عشرة من عمره حين أجبرته مربيته السويسرية المسنَّة على الاتصال جنسيا بها.. ويتمثل هذا الاضطراب في نوبات قاسية من الاكتئاب واليأس والميول الفُصامية. وقد تلقى العلاج كما تعلمون عدة مرات، في مصر وخارج مصر. وقد حاولت أمه عند ظهور بوادر المرض للمرة الأولى علاجه بأن حبسته في غرفة بأحد المنازل التي تملكها، وجمعت طائفة من دراويش إحدى الطرق الصوفية في فناء الدار يتصايحون بالدعاء له بالشفاء ليلا ونهارا.. ويمكن القول الآن بأنه بات يعاني من انهيار عقلي مرة في كل عام تقريبا. وقد أضحى منذ حوالي شهر شديد التوتر، عاجزا عن التركيز. وإذ أُدخل المصحة هنا وضح لنا أنه يعاني من اضطراب عقلي حاد شخصناه بفُصام الشخصية من نوع البارانويا، ومن أبرز أعراضه ما يكنُّه من كراهية شديدة لأمِّه.. وفي هذه المصحة أفلت زمامه كلية.. فهو يشعر بأن الكل ضده، ويتهم الكل بالتجسس عليه، أو بمحاولة اقتناصه. وقد أصبح تفكيره مشوشا تماما، وبات امرأً عدوانيا متهجما بشكل ملحوظ. لم يهدد أبدا بالانتحار، غير أنه في مرات عديدة هدد حياة بعض المرضى الآخرين وعددا من الممرضين والممرضات.. لديه أوهام وعداء شديد بصدد اليهود والشيوعيين وبعض الطوائف والجماعات الأخرى. وحالته الآن من الخطورة بحيث يتحتم إدخاله مستشفى للأمراض العقلية لمحاولة علاجه من هذا النوع من المرض، غير أنه من المحتمل أن تهدأ أعراض آفته خلال شهر أو شهرين فتسمح له المستشفى بالإفراج عنه، وإن كنت أشك في إمكان شفائه تماما. وأنا شخصيا أتوقع أن تتكرر إصابته بنوبات هي من الشدة بحيث تتطلب إقامة طويلة الأمد في مستشفى للأمراض العقلية. كذلك فإني أوصي بأن تفكروا بعد إفراج المستشفى عنه بإعادته إلى بلاده، إذ ليس من المحتمل أن يتمكن من أداء عمله بالكفاءة المطلوبة لمدة طويلة».

الإمضاء

دكتور ألان م. مان

في الطائرة من مونتريال إلى نيويورك كان أحد ممرضي المصحة الكندية يجلس إلى يمين مصطفى الدمرداش، وجلست أنا إلى يساره وهو يغط في غيبوبة وقد حقنوه بمادة مخدرة مفعولها طويل الأمد، وألبسوه ما يسمى بالكَتيف الذي يُعقل به ذراعا المجنون، بينما كان ذهني يعج بأفكار مثل: تقرأ فولتير وتستعين بالدراويش لعلاج ابنها! تُهرِّب سبائك الذهب إلى سويسرا

وتنفِّر أولادها جميعا! أيُّ أحمق يمكنه بعد كل هذا أن يحسب الثراء من مقوِّمات السعادة!

قفلتُ بعد إيداعه المستشفى بنيويورك عائدا إلى أوتاوا وقد أصابني غمٌ قاتل.. وفي صباح يوم ٢٨ يونيو ١٩٦٠ تلقيت مكالمة تيليفونية من قوت القلوب الدمرداشية في نيويورك تطلب مني المجيء فورا لإخراج ابنها من المستشفى بعد إتمام علاجه والتصريح له بمغادرتها، وأخبرتني أنها حجزت لي غرفة في نفس الفندق الذي تقيم فيه.. وعندما دخلتُ تلك الغرفة في مساء اليوم نفسه وجدت بها سلَّة كبيرة من ثمار المانجو هدية منها لي، اتصلتُ بغرفتها تيليفونيا لأخطرها بوصولي وأشكرها على الهدية، فإذا هي تدعوني إلى تناول العشاء معها بصالة طعام الفندق.

قالت: «لسبب ما نصح الأطباء ألا أكون أنا الذي أتسلَّمه، بل وألا أقابله قبل عودته إلى مونتريال. فعليك إذن النهوض مشكورا بمهمة اصطحابه إلى كندا. ولن أنسى لك هذا الجميل».

وكان هذا هو آخر لقاء لي مع قوت القلوب.

في التاسع من نوفمبر من نفس العام ألمَّت بمصطفى أزمة عقلية حادة أخرى أعيد بسببها إلى المستشفى بنيويورك، وقرر أطباؤه إبقاءه بها هذه المرة لأمد طويل.. ثم انقطعت عني أخباره، إلى أن تناهى إليَّ أن أمَّه قررت نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية في روما حتى يسهل عليها التردد عليه من القاهرة.. وبعد إفراج المستشفى الإيطالية عنه انتقل هو وأمه للإقامة في أحد فنادق روما. ثم إذا بالصحف الإيطالية تنشر بعد أسبوع واحد خبرًا مؤداه أن دبلوماسيا مصريا شابا يدعى مصطفى الدمرداش تشاجر مع أمه المليونيرة المصرية المعروفة قوت القلوب الدمرداشية بجناح الفندق الذي يقيمان فيه، فأمسك بكرسيٍّ وراح يضربها به على رأسها حتى ماتت...

* * *

أوتاوا في ٢٥/٦/٦٠

عزيزي جلال

أورد هنا إجاباتي عما ورد في خطابك الأخير من أسئلة.

موعد سفري، كما ذكرت لك في خطاب أرسلته منذ أيام، هو الجمعة ١٥ يوليو عصرا عن طريق أوتاوا مونتريال، أمستردام، لندن، واصلا إلى لندن في الساعة الحادية عشر صباحا على طائرة KLM رقم ١٢١ صباح السبت ١٦ يوليو.

أرجو أن تستفهم عن أي مطارات لندن تهبط فيه الطائرة.

عند مكتب شركة مصر للطيران في لندن (بيكاديللي) تذكرة لي غير محددة التاريخ من لندن إلى القاهرة إن أحببت أن تسافر معي إلى فرانكفورت أو زيوريخ لقضاء الأسبوع الأخير من شهر يوليو فرجائي أن تتوجه إلى المكتب المذكور من الآن وعنوانه Misrair U.A.R. Airlines, 31 Piccadilly, London, W.I، وأن تطلب من السيد/ لطيف حنا، مدير المكتب أن يحجز لنا مقعدين إلى أيٍّ من هاتين المدينتين تمر بها الطائرة في طريقها إلى القاهرة. فإن كانت زيوريخ أو جنيف فأرجو أن تكتب لي بسرعة جدًّا حتى أحصل على تأشيرة دخول من هنا. أما ألمانيا فلا أظن أن هذه التأشيرة مطلوبة لدخولها. قل له إن تذكرتي قد دفع ثمنها في مصر، وأشر في حديثك معه إلى خطابه إليَّ بتاريخ ١٦/٦/٦٠، إلى الـexchange order رقم ٧٧٩/٥٢٠٧٢. أما التاريخ الذي أفضله لمغادرتنا لندن فهو ٢٥ أو ٢٦ يوليو.

عندما استدعيت موظف إحدى شركات النقل هنا للاستفهام منه عن تكاليف إرسال حاجياتي إلى لندن طلب مني مبلغًا خياليًّا (ثلاثمائة دولار!) بينما يتم هذا النقل على نفقة الوزارة في حالة النقل. لذلك سأضطر أن أترك هذه الحاجيات هنا على أن أرسل في طلبها في حالة موافقة الوزارة على نقلي. شكرًا على كل حال لابدائك استعدادك حفظها عندك.

سرني خلو غرفة في البيت الذي تسكنه ورجائي أن تحجزها ابتداء من يوم ١٦ يوليو.

من المهم جدا أن أشاهد مسرحية Rhinoceros التي يمثل فيها لورانس أوليفييه. وقد انتقلت المسرحية من مسرح Royal Court إلى مسرح Strand فرجائي أن تحجز لي فيها.

لا صحة بالطبع لنبأ زواجي من ابنة وكيل الداخلية! ولا أعتقد أنه حافظ أيضا. والظاهر فيما يتعلق بأنباء خطوبة حافظ ونوسة أن ما يكتبونه إليك من أخبار غير الذي يكتبونه إليَّ! فقد كتب إليَّ حافظ خطابًا بعد أسبوعين من كتابته خطابه إليك الذي يخبرك فيه بقرب إعلان خطوبته رسميًّا إلى من تدعى [...]، يقول لي إن فكرة زواجه ما زالت فكرة وأن اختياره لم يقع بعد على فتاة

معينة.. كذلك كتبت إليَّ كل من فاطمة ونوسة ولم تشر أيهما إلى [...] أو إلى غيره. على كل حال فـ[...] هذا قابلته عدة مرات في الإذاعة بلندن حيث كان يشترك في التمثيليات التي كنا نخرجها. وهو إن كان شابا «مهذبا» فهو لا يساوي قلامة ظفر شخص كـ[...] أو حتى [...]. وهو كما قد تعلم شقيق [...] بالإذاعة المصرية.

أرجو لك رحلة سعيدة في الـLake District تستعيد خلالها نشاطك وشكرا على الكتاب الذي أرسلته عن العالم العربي.

رجائي أن أسمع منك في القريب العاجل فإن أحببت أن تتصل بي تيليفونيا لأمر ما فاطلب: تيليفون السفارة Central 44931 (من العاشرة والنصف إلى الثالثة) تيليفون المنزل Central 36275 (بعد الرابعة عصرًا ـ راجع فروق الساعات)

مع أطيب التحية

حسين

* * *

أوتاوا في ١٤/١٠/٦٠

عزيزي جلال

شكرا لخطابك الذي وصلني اليوم، وتمنياتي لك بالتوفيق في مذاكرتك وامتحانك القادم.

لم يرد من الوزارة حتى الآن قبول الاستقالة، وإن كنت أتوقع وصول الرد خلال هذا الأسبوع. ومتى وصل القبول أعددت العدة للرحيل إلى القاهرة في الأسبوع الأول من نوفمبر.

لم أندم على الخطوة التي اتخذتها، ولا أعتقد أني سأفعل في يوم ما، مهما حدث. لقد باتت هذه الوظيفة ـ خاصة في الأشهر الأخيرة ـ عبئا ثقيلا كريها ما كنت لأستطيع الاستمرار في تحمله دون أن أعرض قلبي ومبادئي للعنف والتشويه. فإن كنت قد قاومت فكرة الاستقالة زمنا، فما كانت هذه المقاومة ناشئة عن مزايا وأطايب أخشى أن أحرم منها، وإنما لتأكيد الجميع لي أن مثل

هذه الوظيفة لا تركل باستخفاف، وأن الآلاف المؤلفة من الشبان يحسدونني عليها.

«???? ???? ?? ??????? ??????? ??? ??? ??? ???? ???? ??????»

ثم نظرت، فإذا المنطق ـ إن كنت تريد المنطق ـ يوضح لي أن هذا الحسد لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون دليلا في صالح الوظيفة بالنسبة لي إلا إذا كنت أنا في عقلية الحاسدين وطبيعتهم. أما وأني لا يستهويني امتلاك سيارة، أو شراء خمور بالتخفيض، ولا أرى ميزة في أناقة، أو متعة في ترف، فلا مبرر إذن للحرص عليها مهما قال الغير.

ثم قلت: إنني الآن وحدي؛ لا أعول أحدا ولن يضار أحد من جراء هذا القرار. وإذ أني واثق من أنه لن يكون باستطاعتي أن أكون دبلوماسيا فوق العادي، أو حتى عاديا، فما المانع من أن أغامر بحياتي في تجربة غير مطروقة، إن نجحت كان الخير، وإن فشلت كان فشلا نبيلا يثير الفكر.

وقد كان لي مع حافظ بالإسكندرية هذا الصيف حديث قَوَّى من هذا العزم عندي وكشف لذهني عن حقيقة. رأيت أن حافظ هذا وهو الذي لا يتشدق، كما أفعل ويفعل مجدي، بالنيرڤانا والحياة الحرة وتحقيق الذات والعمل اليدوي، بل وكثيرا ما يسخر منا إن أطلنا الحديث في هذه الموضوعات، هو مع ذلك أكثر منا استعدادا نفسيا لتطبيق هذه المبادئ، وأقوانا على تحمل الحياة الشظفة والعمل اليدوي. وقد كان هو نفسه صاحب اقتراح الإقامة في كمشوش وزراعة الأرض بأنفسنا وخدمة الفلاحين بها، لا من أجل النيرڤانا وإنما سعيا وراء الصحة القوية وراحة البال. رأيت وقتها أن الواجب أن أخجل من نفسي وأعيد التفكير؛ أنه لن يكفي من الآن أن أقتصر على الحديث عن تحقيق الذات أثناء تناول «الاسباجيتي» في نيوكورسال، وعلى أن أعبر لبعض من أقابلهم عن سخطي على العمل الدبلوماسي ووسط الدبلوماسيين. إن كنت أؤمن حقا بنمط معين من الحياة فلأبدأ.

إنني اليوم أؤمن أن بإمكاني بسهولة، وفي ظرف عدة أشهر، أن أحقق لنفسي حياة كاملة، لا ينقصني سوى مجرد العزم على البدء. وقد كان من الممكن جدا، لو لم أستقل، أن يجرفني التيار دون أن أحس، ثم أفيق فإذا بي بعيدا عما كنت أظنه في متناول يدي.

«لكي تكون كاملا، بع ما تملك واعط الفقراء»، خطوة ختامية في رأي المسيحيين، وهي مع ذلك عندي الخطوة الأولى؛ لن أجد الحافز على التمسك

بمذهبي في الحياة تمسكا صارما حتى أخطوها، وسيظل كل عمل صالح مني يبدو نفاقا وتخديرا حتى أخطوها.

من الخطأ المنطقي القول بأن تنازلي عن الأربعة عشر فدانا التي أملكها لن يحل مشكلة الفقر. إن سبب الفقر هو شعور الفرد بذاته منفصلة عن بقية الناس، والقول السابق يتضمن شعورا بالذات، ومن ثم فإنه لا يعبر عن تفكير مخلص لحل مشكلة الفقر. لماذا يتضمن شعورا بالذات؟ لأن التنازل عن الملكية حين يتم لا يتم بغرض حل مشكلة، وإنما لأن المقدم على هذه الخطوة لا يملك إلا أن يقدم عليها حين يرى ما حوله من مظاهر الفقر.

لقد وصلتني عدة خطابات تعلق على استقالتي: الأغلبية تعارض وتستنكر، والأقلية تهنئ وتؤيد. والواقع أن هذه الخطابات وتلك لم تثر في نفسي غير شعور واحد فحسب: شعور الامتنان العميق لجميع أصحابها للاهتمام بأمري. وهي مع ذلك لم تفلح لا في زعزعة ثقتي ولا في تقويتها. غير أن خطاب حافظ بالذات مسَّ قلبي وملأه. كتب يقول: «... كان النبأ متوقعا وكانت الاستقالة ضرورية. فحياة الدبلوماسيين تحتاج إلى أخلاق غير أخلاقك، وطموحك من نوع يحتاج إلى وجودك في مصر. لهذا كان بقاؤك في الخارجية أمرا غريبا عليك، وإن ظهر الخروج منها هو الغريب للناس. على العموم، فإن كانت الغاية التي تسعى إليها واضحة في ذهنك، وكان إيمانك بها عميقا في نفسك، وإن كنت ترى من نفسك الصلابة الكافية لمحاولة بلوغها، فلا شك أن تقديم استقالتك عمل تهنأ عليه كل التهنئة... وأنا شخصيا لم أشك يوما في وضوح الغاية في ذهنك، أو في قوة إيمانك بها، إنما ما أظنه كان سببا لترددك هو عدم ثقتك بمقدار صلابتك. لهذا كنت مؤمنا بالتغيير الشامل السريع حتى تقضي على هذا التردد....».

أرجو أن تكون حالة الضيق عندك قد زالت. وسأظل أنتظر في شغف لقائي بك في مصر في ديسمبر. وما كنت في حاجة إلى أن تطلب مني «تصفية قلبي نحوك»، فهو صاف لا تشوبه شائبة. ومن حقك أن ترى صالحك فيما لا أرى أنا لك فيه صالحا. وفقنا الله جميعا إلى الوصول إلى الحق.

حسين

عنوان حافظ الجديد:

حافظ أمين ـ بناية سعيد رميح أبو عادل

شقة ١٠ مقابل مفرق الرئيس

جسر الأبيض ـ دمشق

سوريا

* * *

تسلم حسين بعد كتابة هذا الخطاب ردًّا من وزارة الخارجية ترجو موافاتها بما قد يكون هناك من متاعب أو صعوبات تواجهه حتى تستطيع العمل على علاجها وإزالتها. وقد رد حسين على الوزارة بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٦٠ قائلًا:

أود أولا أن أعبر لسيادتكم عن عميق امتناني وشكري لما أبديتموه في كتابكم من اهتمام بأمري، ولاستعدادكم الكريم للاستماع إلى ما قد يكون لدي من متاعب أو صعوبات.

ثم أتشرف بالإحاطة أن الظروف التي دفعتني إلى تقديم استقالتي ظروف عائلية تتصل بما أدت إليه وفاة والدتي منذ بضعة أشهر من ضرورة عودتي في أسرع وقت إلى القاهرة لشئون تتعلق بالتركة، وضرورة بقائي بها مدة عام أو عامين حتى أفرغ من تسوية أموري المالية.

فإن كنتم سيادتكم لا ترون مانعا من الأمر بنقلي إلى الديوان العام، فسيسعدني أن أظل في خدمة الوزارة. والأمر في جميع الأحوال رهن مشيئتكم. وأحب أن أؤكد أنه مهما كان قراركم، فسأظل دائما مدينا لما أظهرتموه في كتابكم من طيب الشعور نحوي.

* * *

[لندن] ٧/١١/٦٠

عزيزي حسين

أكتب إليك كلمة قصيرة لأخبرك بأني تسلمت خطابك وسررت كثيرا من رد الوزارة ومن قرارك بالنسبة لطلب العودة إلى مصر. واعتقادي أنهم سيقبلون هذا الطلب وأن وجودك في مصر سيجعل تفكيرك في الطريقة الجديدة لحياتك أكثر هدوءا وبالتالي أكثر حكمة. ويمكنك حينئذ دراسة ما ستفعله بالضبط في الريف وما يمكنك عمله للفلاحين.

وأنا أعتقد أن فكرة مساعدة الفلاحين فكرة طيبة، على أن مساعدتهم ـ للأسف ـ ليست سهلة، فهي تتطلب أموالا وإلا انحصرت المساعدة في شيء صغير جدا لن يقدره حتى هم، وهل لدينا فعلا المال الذي يمكننا من مساعدتهم والتكفل بمصاريفنا الشخصية والعائلية إذا تزوجنا؟

أرجو ألا تؤاخذ رداءة الخط فإني مصاب ببرد، وهو ثالث برد أصاب به في هذا الشهر.

الأمل ٩٠٪ في سفري إلى مصر في ديسمبر، أرجو أن أراك هناك، وقد دفع لي حمادة فعلا ثمن التذكرة.

مع خالص تحياتي، وأرجو موافاتي بأخبارك بانتظام ولو باختصار.

جلال

(45) «أرجوك قل لي مدى احتياج والدتي إلى رؤيتي». يذكر حسين وجلال عن والدهما أنه إذا أراد تدوين أمر ما في مذكراته ولم يرغب في أن تطلع عليه زوجته، كتبه باللغة الإنجليزية. ويبدو أن جلال كتب هذه الجملة بالإنجليزية للسبب ذاته. (المحرر).

(46) نبأ وفاة والدتهما. (المحرر).

(47) يتشابه ذلك المثل مع ملاحظات حسين في خطابه بتاريخ ٩/٦/١٩٥٥ أثناء تواجده في فرنسا، فيقول: «عسكري البوليس في انجلترا إذا سألته عن شارع أو مكان أشار إليه وانصرف. أما عسكري البوليس في فرنسا فيضرب لك سلامًا عندما يراك تقترب ويسألك لماذا تريد أن تذهب إلى هذا المكان بالذات وينصحك بعدم الذهاب إليه والذهاب إلى مكان آخر. ثم يضرب لك السلام عندما تنصرف». (المحرر).

(48) تتشابه إلى حد كبير ملاحظات جلال حول أوجه الشبه بين الشخصيتين المصرية والإيطالية مقارنة بالإنجليز مع ملاحظات حسين التي سبقتها بأربعة أعوام حول أوجه الشبه بين المصريين والفرنسيين. فبمقارنتهما للشخصية الإنجليزية مع نظيراتها الإيطالية والفرنسية والمصرية، يجدان الشخصية المصرية بها من العاطفة والتدين ما يجعلها شبيهة بالعاطفة الفرنسية والتدين الإيطالي مقارنة بالإنجليز. وكما لاحظ جلال تشابه التدين الإيطالي بالمصري عن طريق مشاهدته للإيطاليين يرسمون علامة الصليب على صدورهم ومقارنتها بترديد المصريين لجملة «صلى الله عليه وسلم» فقد قارن حسين

بين تدين المصريين وعاطفة الفرنسيين عن طريق مراقبته لأسماء الأفلام المصرية والفرنسية، فيقول: «نراقب أسماء الأفلام في باريس.. الأفلام الأمريكية إما أن تكون «ممر الرعب» أو «طريق الأهوال» أو «دماء على الجليد» إلخ. الأفلام المصرية «لك يوم يا ظالم»، «قسمة ونصيب»، «مكتوب على الجبين» إلخ. أما الأفلام الفرنسية فـ«صحراء الشهوة»، «شيطان الجسد»، «معجزة الحب»...». وعلى الرغم من تشابه استنتاجاتهما لأوجه الشبه والاختلاف بين المصريين والأوروبيين فإن ما وصلنا من خطابات يشير إلى أن ما عقده جلال من مقارنات في هذا الأمر وتحليله لها، كان أكثر عمقًا وتفصيلًا. (المحرر).

(49) أبيات للشاعر الإنجليزي «هاوسمان»، عربها حسين لاحقًا ونشرها، كالآتي:

أول مرة أروح السوق

ماكانش في جيبي غير قرشين

كنت أقعد ابحلق في الحاجة

وموش عارف راح أجيبها منين

دلوقتي الأحوال اختلفت

أغلى سلعة تمنها معاي

آدي فلوس وآدي السوق

بس شبابي أجيبه ازاي

(المحرر).

(50) لم يصلنا خطاب حسين السابق ولكن يتضح أنه انتقد فيه الفقرة التي كتبها جلال في خطابه الأسبق بتاريخ ١٩٥٩/١٠/٥، والتي تبدأ بعبارة «والناس نفوسهم هشة من الضعف...». (المحرر).

(51) يذكر جلال في كتاب «ماذا علمتني الحياة؟» ص٣٢١ أن والدتهما كانت تعتقد ـ شأنها شأن الكثيرات من نساء جيلها ـ أن المستشفى ما هو إلا مجرد خطوة نحو الموت، ويندر أن يعود الشخص إلى منزله بعد دخوله. (المحرر).

(52) «الذي كان مطلقًا حديثًا». (حاشية أدخلها جلال أمين عند نشر الخطاب في كتابه «مكتوب على الجبين»). (المحرر).

(53) «ابن عبد الحميد». (حاشية جلال أمين). (المحرر).

(54) وهذا هو السبب في أن الرسم بمدلوله الكلاسيكي أسرع وأعم تأثيرا من الرسم وفق النظريات الحديثة. (حسين).

(55) لعلك تعلم أن ڤاجنر كان من أوائل الموسيقيين الذين تأثروا تأثرا عميقا بهذه النظرية لشوبنهاور. وقد كتب فور اطلاعه عليها إلى شوبنهاور خطابا مشهورا يثني فيه كل الثناء على ما أسماه بفضل شوبنهاور على الموسيقى والأوبرا. وقد طبق ڤاجنر هذه النظرية بأن كان يكتب كلا من الكلمات والموسيقى لأوبراته، عاملا على أن تكون الكلمات تابعة للألحان قدر المستطاع. (حسين).

(56) يجب أن تصفح عما قد تجده من أخطاء في ترجمة المصطلحات لجهلي بما يقابلها من مصطلحات عربية. كما آمل أن تغفر ضعف اللغة العربية في هذا الخطاب لتعجلي إرساله.

(57) جلال أمين ـ ..«to arouse a certain expectation and then satisfy it».

(58) «إرضاء التوقع إرضاء كاملا هو فن ساذج بدائي». ـ جلال أمين.

(59) كتاب مقدس هندي.

(60) لتسمِّ مقالك (وفقا لعادة العرب): «أصول الميتافيزيقا في قواعد الموسيقى».

خاتمة الجزء الأول

على الرغم من صعوبة وضع حد فاصل بين انتهاء مرحلة وبداية أخرى، فإنه يمكن القول إن وفاة والدتهما عام ١٩٥٩ ـ بعد وفاة والدهما بخمس سنوات ـ أسدلت ستارًا على فصل كامل من حياتهما بكل ما أشاعته من روح الطمأنينة ودفء العائلة. ولكنه كان حتميًّا لهذه الفترة أن تنتهي، وأن يحل محلها مرحلة جديدة مليئة بالشك وعدم اليقين.

وكان طبيعيًّا أن يصل حزنهما على والدتهما إلى درجة أن يشعر حسين بانقطاع الصلة عن جذوره وأصله. ولكن لا شك أن حسين أغفل، في خضم حزنه، أن ما حصَّلاه من تجارب على مدار السنوات الماضية والفرص التي أتاحها لهما والدهما، زرعت فيهما القدرة على تحمل الصعاب ومواجهة واقع الحياة وقسوتها بمفردهما، وستمكنهما عند استتباب الأمور من نشر أفكارهما وتقديم «فلسفتهما الأخلاقية الكاملة».

وقد مثلت خمسينيات القرن العشرين بالنسبة لحسين وجلال مرحلة فريدة من نوعها، فاستطاعا أن يكوِّنا شخصيتيهما تكوينًا ثقافيًّا فريدًا، واستمتعا بكثرة التجارب والمتع. وإن انحصرت إقامتهما أغلب سنوات ذلك العقد بين مدينتي القاهرة ولندن فإن المرحلة الجديدة ستدفعهما إلى عالم أوسع، حافل بالثقافات والحضارات المختلفة. وإذ لم تتقاطع إقامتهما في القاهرة إلا نادرًا فقد استمر تراسلهما عبر الحدود، وظلت خطاباتهما المتبادلة تعبر المحيطات بكل ما تحتويه من أفكار وتساؤلات وحوارات فلسفية عميقة.

لا شك أن تأثير تلك المرحلة الأولى على أفكارهما ظل ممتدًّا حتى سنواتهما الأخيرة، فلا يمكن لمن يقرأ إنتاجهما الثقافي اللاحق إلا أن يعود لتلك المرحلة الأولى من حياتهما وأن يرد بذور أفكارهما إليها، وسيكون باستطاعته أن يدرك الظروف التي أدت إلى نشأة تلك الأفكار وأن يتتبع مراحل تطورها ونموها.

ويَرِد في هذا الجزء الأول من الخطابات العديد من الأمثلة على ذلك. فإن أشار جلال في كتابه «ماذا علمتني الحياة؟» إلى خيبة أمله في علم الاقتصاد بعد سفره إلى إنجلترا، وتبيُّنه تدريجيًّا أن دراسته في لندن ليست في الواقع ما كان يريد دراسته، فبإمكاننا أن نُرجع بداية خيبة الأمل تلك إلى خطابه في ٢٤ فبراير ١٩٥٩ الذي يشرح فيه العيوب التي اكتشفها في علم الاقتصاد، وما قام

به الاقتصاديون المحدثون من إقصاء للبعد الاجتماعي وتجاهلهم لعلاقة الناس بعضهم ببعض، وتركيزهم في مقابل ذلك على علاقة الإنسان بالسلعة.

وإن اندهش القارئ من تمكن حسين في كتاباته الإسلامية اللاحقة من أن يمزج التراث العربي والإسلامي، بالثقافة الغربية وأن يقدم صورة دينية وحضارية متكاملة، فقد تتكفل بعض خطاباته هنا بمحو بعض آثار هذه الدهشة، وأن تنير للقارئ بدايات الطريق الذي سلكه حسين لكي يصل إلى هذه الدرجة من الاطلاع والثقافة.

كما يذكر جلال في كتابه «ماذا علمتني الحياة؟» أن انخفاض حدة خوف المرء من الموت في الشيخوخة، يرجع في رأيه إلى تكرار التجارب المرة تلو الأخرى حتى تفقد التجربة جاذبيتها ويضعف تطلع المرء لمزيد من التجارب، فما يدهش أولاده وأحفاده أصبح لا يثير لديه في شيخوخته أي حماس أو سرور.

ولا يمكن إلا أن يربط القارئ بين ذلك الاستنتاج الذي وصل إليه جلال وبين ما ذكره في خطابه بتاريخ ٢٠ يونيو ١٩٥٨، وأن يُرجع أصل تلك الفكرة إلى يوم سفر جلال من بورسعيد إلى لندن وتجواله برفقة العائلة في محلات بورسعيد. فقارَن جلال بين روح الأطفال التي أشاعها حسين عند رؤيته لأي بضاعة تستهويه، وبين تفكير بقية العائلة ـ في نضوج تام ـ في مدى اعتدال الأسعار.

* * *

لا شك أن اختلاف مجالات كتاباتهما اللاحقة يرجع في جزء كبير منه إلى اختلاف طبيعة شخصيتيهما واتساع الهوة بين مجرَيي تفكيرهما بمرور الوقت. وفي اعتقادي أن تلك الهوة التي لاحظ حسين اتساعها منذ كتابته لأحد خطاباته عام ١٩٥٩، كان لها بالغ الأثر على درجة نجاحهما اللاحق في الميدان الأدبي، كما تحمل في طياتها كذلك سبب نجاح جلال مقارنة بحسين.

وعلى الرغم من أن مقارنة درجة ثقافتهما واطلاعهما على الأدب العالمي والتراث العربي بل والتمكن من اللغة العربية ستأتي بلا شك في صالح حسين، وباعتراف جلال نفسه، فإن سبب نجاح جلال وشهرته مقارنة بأخيه كان يكمن في شخصيته، ولا سيما في قدرته على انتقاد الذات. وهذه القدرة واضحة كل الوضوح في خطاباتهما، فبينما يأخذ حسين على عاتقه توجيه جلال أدبيًّا، أو التعليق على كتابات أخيه بصراحة بالغة في معظم الأحيان، فإن جلال لم يكن يغضب من هذه التعليقات، بل على العكس كان يُحمِّل نفسه مسؤولية الخطأ ولا يخجل من الاعتراف به ويحاول تجنبه في المرات القادمة.

يقول جلال في خطاب له في ١٨ نوفمبر ١٩٥٩: «كم أغبطك على أنك قرأت معظم كتابات «كانت» وغيره... سيسوؤك فقط أن قراءاتي في غير الاقتصاد أقل بكثير جدا من قراءاتك، ولكن سيعوض ذلك ـ بدون شك ـ أنني سأكون مستمعا ممتازًا ومتجاوبا بل وسأشارك في النقاش مناقشة غير سطحية، وإن خلت من الاستناد إلى كبار المفكرين. لا تقلق إذًا من هذه الناحية، فأنا طلقت التعصب، والتحمس الأعمى. والهدوء الذي يميز طبعي أصبح يميز فكري أيضا».

أما حسين فكان هدفه من الثقافة، على حد وصف جلال في كتابه «مكتوب على الجبين»، نابعًا من نزعته التنافسية وشعوره بتفرده وتميزه عن الجميع ورغبته التي بدأت منذ الطفولة في أن يصبح الأول على الفصل والمدرسة. وهو ما يؤكده حسين نفسه في كتاب «في بيت أحمد أمين» حين تحدث عن شعوره عندما كان تلميذًا في المدرسة الابتدائية بالتفوق والتميز عن زملائه(61). وعند التحاق حسين بالإذاعة البريطانية وجد أخيرًا من ينافسه في ميدان الثقافة بل وينظر إلى ما حصله نظرة استهانة واستخفاف، فشعر بأن هناك «سوطًا يلهبه ويدفعه دفعًا إلى الأمام» فيزيد من اطلاعه وتثقيف نفسه ويذهب للعروض المسرحية والمتاحف ليتمكن من اللحاق بزملائه(62). كما يؤكد جلال أن تلك الخصلة لازمت حسين فيما بعد، فأصبح هدفه أن يغدو أكثر ثقافة من أي شخص في مصر، وأديبًا مشهورًا تزيد شهرته عن أي أديب آخر(63).

ويتضح من خطابات جلال التي أرسلها من لندن أنه لم يبدأ في القراءة خارج مجال دراسته إلا متأخرًا، ولم يذهب إلى المسارح والمعارض بالكثرة التي اعتادها حسين (دوَّن حسين في أجندته الشخصية أنه ذهب إلى المسرح ١٥١ مرة خلال عامي إقامته في لندن)، إلا أنه استغل ذلك الوقت بشكل مختلف، فنجده في بعض الخطابات يميل إلى تأمل المناظر الطبيعية ومحاولة تحليل معناها، أو استكشاف معايير جمال الموسيقى الكلاسيكية، أو تحليل الشخصية الإيطالية والألمانية ومقارنتهما بالشخصية المصرية. فأصبح لديه «هدوء فكري»، كما ذكر في الفقرة السابقة المقتطفة من خطابه، مكنه من التوقف والتأمل وتحليل ما يتذوقه من أعمال أدبية، ولا يخشى من تغيير وجهة نظره إن اكتشف في رؤيته القديمة عوارًا.

أما حسين فقد اعترف في خطاب له من لندن أن به صفة ذكرها الفيلسوف الألماني «نيتشه» وهي أنه إذا كان «يُكِنُّ الحبَّ والإعجابَ لفيلسوف أو موسيقي أو كاتب ويتأثر به إلا وانقلب عليه فيما بعد وهاجمه مهاجمة مُرة غير عادلة وكأنه ينتقم منه أنه تأثر به في وقت من الأوقات». ويضيف حسين أن

هؤلاء الأدباء الذين كان مجنونًا بهم، أصبح يكن لهم الكره والحقد، حتى وإن لم يكونوا بهذا القدر من السوء ولا يستحقون هذا الحقد منه، ومن ثَمَّ أصبح على حد تعبيره غير قادر على الحكم عليهم.

وعلى الرغم من تمكن كتابات حسين الإسلامية من تنشيط الركود في الميدان الثقافي والديني في مصر وخاصة خلال فترة الثمانينيات من القرن الماضي، وذلك لما تحتويه من أفكار جريئة مدعومة بثقافة عميقة ولغة رصينة فضلًا عن جمعها بين التراث العربي والغربي، ما مكنه، حسب تعبير جلال، من «التنقل من الاستشهاد ببيت من الشعر الجاهلي، إلى مسرحية للكاتب النرويجي إبسن»، فإن «اعتكاف» حسين في مكتبته، وقلة اتصاله بالناس، تركا أثرًا في موضوعات كتاباته في هذا المجال فكانت تعتمد على مخاطبة العقل أكثر من القلب، وعلى العلم والحقائق أكثر من الأدب، وعلى المواجهة والتحدي أكثر من التعايش والاستسلام.

أما جلال فإن كتاباته وخاصة الأكثر نجاحًا منها وهي «ماذا حدث للمصريين؟» و«ماذا علمتني الحياة؟» اعتمدت في المقام الأول على التفاعل مع المجتمع المحيط به وتحليله وعقد المقارنات بين المجتمع المصري والمجتمعات الأخرى أو مقارنة المجتمع المصري بنفسه في أزمنة مختلفة. ومن ثم فإن جلال استطاع بقدر أكبر تنفيذ نصيحة يوسف إدريس لحسين (خطاب حسين في ١٠ فبراير ١٩٥٨)، بشأن ضرورة الاختلاط بالمجتمع، فوصلت تلك الكتابات بسرعة إلى قلوب القراء، بينما استمر حسين في كفاحه لمحاولة الوصول لعقولهم.

ولا شك أن مهمة جلال التي تقضي بتحليل المجتمع أو الدفاع عن استقلاله وشخصيته إزاء الغزو الفكري والحضاري الغربي كانت أيسر من مهمة حسين التي كانت تقضي بتغيير مبادئ ومعتقدات تجذرت في المجتمع، أو كما سيقول حسين في خطاب لاحق: «هدم البنيان الزائف الذي أقيم باسم الإسلام ثم إعادة تشييد الصرح».

كمال صلاح أمين

(61) يقول حسين: «كان خليقًا بي، وقد أثبت تفوقي في الدروس، وأرضيت غريزة السيطرة في بدايتها، أن أترك لغيري من الصبية فرصة أن يبرزوا في غيرها من الميادين، فيكون ثمة توازن يخفف من حنقهم عليَّ. ولكن عبثًا! ففي قاعة الموسيقى أنا المغني وهم بعدي يرددون، وفي جماعة التمثيل أنا الممثل الأول وهم التالون، وأنا في الملعب قائد أحد الجيشين فرعون الذي به

يأتمرون، كل هذا دون أن تكون لديَّ موهبة خاصة لا في الغناء ولا في التمثيل ولا في الحرب والضرب...». (المحرر).

(62) حسين أمين، أبو شاكوش، ص٥٥. (المحرر).

(63) جلال أمين، مكتوب على الجبين، ص٣٨. (المحرر).

مصادر الصور والخطابات

كل الخطابات والصور المنشورة من أرشيف العائلة، عدا الآتي:

صورة جماعية لأعضاء القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية عام ١٩٥٥، من كتاب «Arab Voices: The BBC Arabic Service 1938-1988».

خطاب بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩٥٥: من كتاب «رحيق العمر»، القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠.

خطاب بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٥٨: من كتاب «مكتوب على الجبين»، القاهرة: دار الكرمة، ٢٠١٥.

خطاب بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩٥٨: من كتاب «رحيق العمر»، القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠.

خطاب بتاريخ ٢ يوليو ١٩٥٨: من كتاب «رحيق العمر»، القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠.

جزء من خطاب بتاريخ ٢٣ يوليو ١٩٥٨: من كتاب «رحيق العمر»، القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠.

خطاب بتاريخ ٢٩ ديسمبر ١٩٥٨: من كتاب «رحيق العمر»، القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠.

جزء من خطاب بتاريخ ٣ أبريل ١٩٥٩: من كتاب «رحيق العمر»، القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠.

جزء من خطاب بتاريخ ١٣ أبريل ١٩٥٩: من كتاب «رحيق العمر»، القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠.

خطاب بتاريخ ٢٣ أبريل ١٩٥٩: من كتاب «رحيق العمر»، القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠.

خطاب بتاريخ ٣ فبراير ١٩٦٠: من كتاب «مكتوب على الجبين»، القاهرة: دار الكرمة، ٢٠١٥.

حسين وجلال أمين أوائل الخمسينيات

حسين أمين مع طارق البشري أوائل الخمسينيات